

"أعظم رواية كتبت باللغة الأيرلندية"

كولم توبين

مارتين أوكاين

رواية

طين المقابر

ترجمة: عبد الرحيم يوسف

مقدمة المترجمين!

نعم، هذا ليس خطأ مطبعياً ولا سهواً من كاتب هذه السطور، فقد قمت بترجمة هذه الرواية التي تحمل في الأيرلندية عنوان *Cré na Cille* والذي يعني حرفياً: (أرض الكنيسة) عن ترجمتين إلى الإنجليزية. حملت الأولى عنوان *Graveyard Clay* أو طين المقبرة وقام بترجمتها الكاتبان الراحلان ليام ماك كون أومري (1937-2019) وتيم روبنسون (-1935) (2020) وصدرت عام 2016 عن مطبوعات جامعة ييل بالتعاون مع دار نشر كلو يار كوئاخت الأيرلندية، والترجمة الثانية حملت عنوان *The Dirty Dust* أو التراب الدنس وقام بترجمتها إلى الإنجليزية الكاتب الآن تيتلي (1947) الذي كنت قد سعدت بترجمة بعض قصصه في كتاب (حقائق ملتوية.. أنطولوجيا القصة الأيرلندية الحديثة) الصادر عن دار صقفاصة عام 2014. وقد صدرت ترجمة تيتلي لروايتنا هذه عام 2015 عن مطبوعات جامعة ييل بالتعاون مع دار نشر كلو يار كوئاخت أيضاً. وبالتالي فهذه الترجمة مدينة لعمل ثلاثة مترجمين كبار بذلوا جهداً كبيراً في نقل هذا العمل الضخم والاستثنائي إلى الإنجليزية بعد ما يقرب من خمسة وستين عاماً على نشره لأول مرة بالأيرلندية لاسم علامة هامة في حياة كاتبه وفي تاريخ الأدب الحديث المكتوب بالأيرلندية.

إذا فقد اعتمدت في ترجمتي هذه على الترجمتين السابق ذكرهما، حيث كانت المقارنة بين ترجمة كل حملة تساعدني كثيراً في الوصول إلى

بطاقة فهرسية

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية،
إدارة الشؤون الفنية

أوكاين، مارتين
طين المسافر: رواية/ مارتين أوكاين، ترجمة عبد الرحيم يوسف
الجزيرة، دار صقفاصة للنشر والتوزيع والدراسات، ٢٠٢١
٤٦٨ ص، ٢٢ سم
تدمك ٩-١٨٤-٨٢١-٩٧٧-٩٧٨
١- القصص الأيرلندية
أ- يوسف، عبد الرحيم (مترجم)
ب- العنوان

٨٩١، ٢٢٣

رقم الإيداع: ٢٠٢١/٢٥٤٦

قد تكون شخصيات هذه الرواية من الأموات. شخصيات ترقد في ثوبها، لكنها لا تغلق أبوابها. فكرة أن الأموات لا يصمتون هي ما تمنح الحياة للرواية. تتألف الرواية بأكملها من حوار مسموع وغير مسموع، باستثناء المقدمات لبعض الفصول (التي أسماها الكاتب هنا بالفواصل) التي ينطق بها (نغير المقبرة) والتي تعمل كنوع من التضاد اللغوي والفلسفي لما يجري في الأسفل. وما يجري في الأسفل هو استمرار لما كان يجري بالأعلى قبل أن يموت سكان المقبرة. هذه الرواية عبارة عن تصنت لثرثة واغتيال وشائعات وتدمر ومعايرة وشكوى ووسوسة حول أهم أمور الحياة، لكن في الأغلب حول أتنفها أيضا، وهما كثيرا ما يكونان نفس الشيء. يبدو الأمر وكأنه في الحياة الأخرى تحت التراب، تستمر نفس الحياة القديمة، غير أنه لا شيء يمكن فعله حيالها غير الكلام.

الكلام هو الشخصية الرئيسية في هذه الرواية. ورغم أن الصفحات النقدية للرواية تقول إن الزمان هو الأبدية، وهو أمر مفهوم في الحقيقة، لكن مكان الرواية هو مقبرة في مكان ما في كوينمارا غرب أيرلندا في بداية الأربعينيات من القرن العشرين. في كوينمارا تلك -كوينمارا الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين- لم يكن هناك راديو؛ إلا في بيت القس وبيت المعلم، ولم تكن هناك دار سينما، وهناك اللابل من المحلات، كما لم يكن أحد قد سمع بالتليفزيون بعد.

كانت الثقافة الوحيدة هي الكلام.

كانت هناك أغنيات وموسيقى وبعض الرقص، لكن الكلام كان هو محور الإبداع. تحاول هذه الرواية اقتناص الكلام والنميمة والثرثة اللانهائية التي كان المجتمع يتألف منها. قد يقال إن كل المجتمعات

معنى أوضح وربما إلى صياغة أقرب. رغم أن الترجمتين كانتا أحيانا تختلفان في مواضع -قليلة- إلى حد التناقض؛ لكنني في ذلك كنت أميل إلى الأكثر منطقية منهما في سياق الموضوع نفسه. وإن كنت بشكل عام ملت للترجمة الأولى؛ ترجمة أومري وروبينسون لوضوحها وبساطتها، حتى أنني ملت لترجمة عنوان الرواية الذي اختاره، برغم إعجابي كالعادة ببراعة الصياغة لدى لأن تيتلي الذي حاول في ترجمته الاقتراب من عامية الحديث أغلب الوقت. كما اعتمدت في الهوامش المرفقة كثيرا على هوامش أومري وروبينسون التي زودا بها العمل، وأشرت إليها في حينها بعبارة (من هوامش الترجمة إلى الإنجليزية)، بينما لم يتم تيتلي بوضع هوامش كثيرة في ترجمته، وإن استفدت منها أيضا. بالإضافة إلى الهوامش التي رأيت ضرورة إضافتها لمزيد من التوضيح.

وقد قام المترجمون الثلاثة بوضع مقدمات خاصة بهم في بداية الترجمة، حيث كتب أومري ما أسماه (ملاحظة تقديمية) وكتب تيم وروبينسون ما أسماه (حول ترجمة *Cré na Cille*) كما كتب لأن تيتلي (مقدمة المترجم). وسأقوم هنا بترجمة مقاطع مطولة لما رأيته ضروريا وكاشفا في مقدمتي تيتلي وأومري.

في مقدمة المترجم لأن تيتلي كتب يقول:

"في رواية التراب الدنس الكل أموات. قد تبدو هذه طريقة غريبة لكتابة رواية، لكن هارتين أوكاين لم يكن كاتبكم المعتاد. كان تقليديا وتجريبيا في الوقت نفسه وكما أراد، والوسيلة التي اختارها كأسلوب من أجل هذه الرواية ناسبت عبقريته من ناحية والمجتمع الذي كان يصوره من ناحية أخرى.

انحدارا سريعا خلال القرنين التاليين. وبما أن معرفة القراءة والكتابة باللغة كانت في حدما الأدنى، كانت فرصة تطور الرواية قليلة أيضا. تغير هذا مع تجدد الاهتمام باللغة في آخر القرن التاسع عشر وخاصة بعد استقلال (الدولة الأيرلندية الحرة) الجديدة، عندما ظهر جيل جديد من القراء باللغة الأيرلندية.

أحد الموضوعات الشائعة في الروايات الأيرلندية المبكرة هو تصوير حياة المجتمعات المتحدة بالأيرلندية، التي يشار إليها كثيرا بالجايلتاخت. في الأصل كانت كلمة جايلتاخت تعني المتحدثين بالأيرلندية، لكنها أصبحت تعني تلك المناطق التي تكون فيها الأيرلندية هي اللغة السائدة. وكانت أغلب هذه المناطق في غرب أيرلندا، وواحدة من أكبرها توجد في كونيمارا، حيث ولد أوكاين. وكانت تلك الروايات غالبا ما تصور مناطق الجايلتاخت وناسها في ضوء شاعري وهاج، أو إذا لم تفعل، كان يتم تصويرها هكذا. أحد كتاب هذه الروايات، وهو شيموس أوجاريانا Séamus Ó Grianna ، أشار إلى أنه لم يكن يكتب قط عن قصد كلمة يمكن أن تحجل منها أمه. لذا فقد انفجرت رواية التراب الدنس في وجه هذا العالم بكلامها الغليظ وشخصياتها ذات الأرواح الوضيعة وملاحظاتها التافهة ومرحها العظيم.

فوبل نشرها بترحيب فوري، ولكن ليس بشكل عام. وصمها أحد النقاد بأنها «كتاب قذره، عندما كانت الكتب القذرة تُمنع بالمئات. وزعم آخر أنه لم يكن قط ليشرح اللغة الأيرلندية لو خطر بباله أنها قد تقود إلى إساءات مثل هذه. بل وقال آخر إن مثل هذا الحوار لا ينبغي أن يوضع على فم كلب. من ناحية أخرى، قرئت الرواية على نطاق واسع وبصوت عال في منطقة جايلتاخت أوكاين نفسها، وأصبحت سريعا من أكثر

الإنسانية قبل بدء شيوع المعرفة بالقراءة والكتابة كانت ببساطة متأفة من الكلام، وبينما يخبرنا الأثنورولوجيون أنه توجد مجتمعات «ثرثرة» ومجتمعات «كتومة»، فليس هناك شك بالنسبة لأي هاتين الخانتين تقع أيرلندا. بهذا المعنى الخاص بالثرثرة اللانهائية تكون هذه الرواية انعكاسا أفضل لمشاكل البشر العاديين طوال آلاف السنين من تلك الروايات التي تتعامل مع الأمور العظيمة والخيرة. هذه المشاغل ليست دائما سارة، بالطبع، ليس أكثر من تلك الأمور العظيمة والخيرة؛ لكنها على الأقل لا تسبب نفس المقدار من الأذى.

كل هذه الأصوات الميتة في المقبرة الصاخبة مشغولة فقط باليومي المباشر: الطحالب المسروقة، من تزوج بمن، حمار تعدى على أرض، ما تحتويه وصية إحداهن، كيف سرقه صاحب الحانة - رغم وجود أصدقاء بعيدة للسياسة القومية وحتى للحرب العالمية الثانية. لكن الحياة البشرية كلها هنا؛ وإذا كان لك أن تنتقل إلى أي جزء من العالم حتى اليوم وتنتص إلى ثرثرة الأصوات المحلية، فلن يختلف الأمر كثيرا عما ستقبله في رواية التراب الدنس.

يُنظر إلى هذا الكتاب بشكل عام كواحد من أعظم منجزات الرواية باللغة الأيرلندية. ورغم أن اللغة الأيرلندية يمكنها أن تزدهر بأطول أدب عامي دون انقطاع في أوروبا كلها باستثناء اليونان، وبالتفعل، بواحد من أعظم الآداب الأوروبية جميعا حتى العصر الحديث، إلا أن تطوره انقطع خلال الغزو الإنجليزي. هكذا جاءت الرواية متأخرة إلى اللغة الأيرلندية، كما حدث في أغلب المجتمعات ما قبل الحضرية وغير الكوزموبوليتانية. ورغم أن اللغة الأيرلندية كان لديها تقليد نثري حي حتى منتصف القرن السابع عشر، إلا أنه ولأسباب سياسية واجتماعية انحدر هذا التقليد

الكتب مبيعا، ونالت مكانة كلاسيكية وسط المتحدثين بالآيرلندية. يتذكر أحد الكُتَّاب أن زملاؤه في المدرسة الثانوية كانوا ينتظرون بلهفة الحلقة التالية من الرواية عندما كانت تُنشر سلسلة لأول مرة في إحدى الجرائد. ويتذكر المؤلف سيره خلال حشد في إحدى مباريات كرة القدم وسماعه متفرجا يتمتم: «ها هو التراب الدنيس يمضي.» وقد أُشير إلى الرواية في الدويل؛ البرلمان الآيرلندي. ثمة أدبيات نقدية حولها أكبر من أي رواية آيرلندية أخرى، ومثل كل الأعمال الكبرى في الفن، ليس هناك إجماع واحد حول ما «تعنيه».

أمن مارتين أوكاين بأن الكلام هو أفضل طريقة لتصوير ما كان يدور في أذهان الناس، وهو ما يفسر الكثير فيما يتعلق بالبنية السردية للرواية. قيل إنها اعتمدت على قصة قصيرة لديستوفسكي من ناحية، وعلى مجموعة قصائد (أنثولوجيا سيبون ريفر) لإيجار في ماستر من ناحية أخرى. وردا على هذا الجدل الواسع حول أصولها، حكى أوكاين حادثة جرت في منطقته قبل سنوات من كتابته للرواية. ذات يوم مطير يائس كانت امرأة تُدفن في كونيمارا وقام اللحادون عن غير قصد بفتح القبر الخطأ. كان اليوم سيئا جدا حتى أنهم لم يستطيعوا حفر واحد آخر، لذا ألقوا بها داخل القبر الذي فتحوه بالفعل. عندئذ أدرك أحدهم أنهم يضعون تابوتها فوق تابوت غريمة قديمة لها، فتمتم أحد المراقبين: «يا للبقرة المقدسة، سيحدث شجار ولنخط شديدان!»

وُلد مارتين أوكاين عام 1906 في منطقة تتحدث كلها بالآيرلندية. وقد قال إنه لم يسمع قط حديثا بالإنجليزية حتى بلغ السادسة من عمره. تلقى تعليمه ليعمل كمدرس ابتدائي في دبلن وقام بالتدريس في مدارس عديدة في أنحاء كونيمارا وشرق جالواي. وقد انخرط في أعمال

سياسية جمهورية غير قانونية وفي أنشطة المجتمع وجرى فصله من وظيفته كمعلم بعد شجار مع قس الأبرشية عام 1936. وكان قد بدأ بالفعل في كتابة القصص وترجم رواية سيخة فعلا لتشارلز كيكهام Charles Kickham كي تُنشر في آن جوم، التي يجدر وصفها بأنها كانت دار نشر حكومية. انتقل إلى دبلن بحثا عن وظيفة لكنه استمر في أنشطته الجمهورية.

بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية بقليل، جرى حبسه دون محاكمة في معسكر اعتقال كانت الحكومة وقتها قد أقامته خصيصا للمُنشقين. ورغم أنه كان قد نُشر مجموعة قصصية واحدة عام 1939، إلا أنه يُقال إن سنوات اعتقاله كانت سنوات تكوينه الحقيقي ككاتب. تُظهر خطاباته أنه كان يقرأ بنهم ويكتب بغزارة. لا عجب إذا أن انفجاره العظيم الأول من الإبداع حدث على الفور بعد الحرب، وهي الفترة التي كتبت فيها هذه الرواية.

كان كاتبا استثنائيا، نشر خمس مجموعات من القصص القصيرة خلال حياته وواحدة بعد موته. وتضم أعماله المجموعة روايات وقصصا ومحاضرات وخطابات ومجالات وأوراقا سياسية وأعمالا تاريخية وترجمات ومقطوعات هجائية وكتابات أخرى غير مصنفة تماما. بعد عمله في وظائف شاقة عديدة، عُين كمحاضر للغة الآيرلندية في كلية ترينيتي دبلن بسبب معرفته العميقة والوطيدة بالأدب والتي حصلها (بمساعدة القراءة الدؤوب ومعرفته التي لا نظير لها تقريبا بالكلام الآيرلندي المعاصر، وفي النهاية عُين كأستاذ كرسي اللغة الآيرلندية في نفس الجامعة قبل عام من وفاته.

من الأفضل قراءة رواية التراب الدنيس باعتبارها سيمفونية من الأصوات،

رغم أن الأصوب وصفها بنشاز من الأصوات، أحيانا تنقلب إلى سلسلة من المونولوجات، التي يمكن أن تصبح حوارات ثنائية، ترتفع إلى تهكمات انتقامية وتخفت في لحظات حكيمة واحظات طائشة. ثمة سرد ما، لكن عليك أن تنصت إلى خيوطه. هناك أكثر من قصة، لكنها جميعا مترابطة. علينا أن نتفحص ما يقوله كل شخص وفقا لهاجس كل واحد - حيث يمكن لعبارة صغيرة أن تنبئنا بمن المتحدث- أو شكوى كل واحد، أو مصدر قلق كل واحد الأشبه بلحن يحمل توقيع الشخص. الأمر أقرب إلى تحويل محطات راديو قديم، تسمع الآن هذه، وبعد ذلك تسمع تلك الأخرى. وبمجرد أن تألف الأمر، تتساق القصص بإيقاع مضبوط. لذا كان من الطبيعي أن تتحول الرواية إلى مسرحية إذاعية حققت نجاحا هائلا، كما جرى تقديمها على خشبة المسرح عدة مرات، والأكثر إدهاشا من ذلك أنها تحولت إلى فيلم سينمائي من نوعية الكوميديا السوداء.

تؤخر الرواية كذلك بالإشارات إلى تقاليد حكي القصص الأيرلندية والميثولوجيا والملاحم والأغاني، التي كانت جميعها جزءا من الخطاب الشائع، وبالفعل هناك مقاطع من أغان منثورة في الرواية كان مقصودا بها غالبا أن تأتي هكذا بشكل عفوي. قد يلقي أحدهم ببعض السطور كتحدٍ، ويكون لزاما على الآخر أن يرد عليها. كان هذا كله طبيعيا في المجتمع، بينما في أيامنا هذه قد تكون نقاط الإشارات المرجعية للناس هي عروض التلفزيون أو أفعال شخصية ما شهيرة لاسعة. إن (الأثاث العقلي) لزمن آخر ومكان مختلف لا يمكن نقله بسهولة أبدا، لكن يجب علينا على الأقل تمييزه والاعتراف به كما كان.

الشخصية الرئيسية في هذه الرواية، لو أمكن القول بوجود شخصية رئيسية بها، هي كاترينا يودين. إنها ليست بالمرأة التي تود مقابلتها

في الحياة الحقيقية، رغم أن مقابلتها في الحياة الأخرى قد تكون مخيفة كذلك. إذا كان هناك ما يُسمى بحب حياتها فهو مخفي بشكل جيد، لكن محط كرامية عزمها هي أختها: نيل. إن المرارة التي بينهما تُحلي القصة بأكملها. كل من في المجتمع المحيط يُجذبون إلى داخل درامة هذه الكرامية، تفتح القروح القديمة، وتتجدد الخدوش القديمة، وتُمنح الضغائن الدائمة حياة جديدة. نحن أمام صورة كاملة لمجتمع مغلق غير مبال إلى حد كبير بالعالم الخارجي، صورة بها بثور ومزيد من البثور، لكننا نتعش أيضا بإنسانيتها الرائعة والجميلة والفظيعة والمريعة والسحرية.

ولا ينبغي الاعتقاد أن تلك كانت وجهة نظر أوكاين الوحيدة للحياة في مجتمعها. فاختياره للكتابة بهذا الأسلوب هو اختيار فني، بينما كثير من القصص الأخرى المتعاملة مع الحياة التقليدية التي جاء منها يمكن أن تكون حانية وتراجيدية وحساسة. ورغم أن كثيرا من النساء في روايتنا هذه يبدو أنهن أشبه بمحاربات الأمازون المتوحشات، إلا أن كثيرا من كتاباته تهتم بالمأزق الشخصي والاجتماعي للنساء، سواء في العبودية الاقتصادية أو في العقم أو نتيجة فقد الأطفال. كان يعرف جيدا ثمن الفجر وسحق الروح الإنسانية الذي كان ينتج عنه غالبا. [...]

كانت موهبته العظمى هي في سيل كلماته التي كانت تذبذب وتضحك وتندفق في فورة من الإفراط. لم تكن تلك هي طريقته في الكتابة فقط، بل كانت طريقته في الكلام. لكن الموهبة العظمى لكل كاتب هي أيضا ما كان يضعه؛ لأنه لا يمكن أن يكون كل شيء. ذات مرة نصحه الكاتب ليام أولفلاهيرتي Liam O'Flaherty أن يُعلم المقص في نثره، رغم أنه ربما كان يقصد المنجل بدلا من المقص. لو كان فعل ذلك، لم يكن

ليغدو مارتين أوكاين، بل مجرد نسخة منه مصابة بفقر الدم.

إن عدم قدرته على كبح نفسه كان يعني أنه رغم محاولته تقديم الدراما، إلا أنه كان فاشلا فيها على نحو استثنائي. فالدراما تتطلب حسا ما بالبنية وتحكما في الزمن، وهما سمتان كان يفتقر إليهما. ورغم أن رواية *التراب الدنس* تتمتع ببنية محددة، إلا أنها كبيرة ومضفاضة بما يكفي له كي يلقي فيها بكل شيء. لذلك قد يجد القراء من الغريب أن تكون في هذه المقبرة انتخابات ونوادي روتاري وكتّاب، بل وطيّار فرنسي ألقت به الأمواج على الشاطئ ودُفن مع الآخرين. إذا كنت تتساءل ماذا يفعلون هناك، فالإجابة ببساطة أن أوكاين كمجادل جماهيري لم يستطع مقاومة الإغراء المتمثل في توجيه ضربات ماركرة وغير ماركرة لزملائه ولقضايا كانت تفتنه أو تزعجه. جزء كبير من هذه الرواية ينحو نحو الهجاء، ليس فقط هجاء التفاهات البسيطة للحياة الريفية بل أيضا هجاء للخيلاء والادعاء والدجل الذين كانوا إلى حد كبير جزءا من بلده وقتها كما هم الآن.

أما ليام ماك كون أوصري في مقدمته فيتحدث عن أوكاين قائلا:

"في عام 1939 نشر كتابه الأول: *Idir Shúgradh agus Dáiríre* (بين الهزل والجد) وهو مجموعة قصصية، نشرتها دار آن جوم (منشورات حكومية). في هذه المجموعة يقوم أوكاين بتصوير قومه في كونيمارا ببصيرة وتعاطف، وبأمانة لا تبذل أي محاولة لإخفاء حقائق الحياة القاسية في مجتمع ريفي كئيب. ورغم أن الكتاب استُقبل بحفاوة، إلا أن أوكاين نفسه كان يعرف أنه لم يعثر بعد على الأسلوب أو شكل الكتابة الأمثل بالنسبة له. ومع ذلك فهو في تلك القصص يبدأ في استكشاف أشكال سردية مختلفة الأطوال، وفي نفس الوقت يقوم بالتجريب في

التقاليد الأدبية الراسخة. قرب هذا الوقت، في النصف الأخير من عام 1939، مر بخبرة بالغة الأهمية زادت من قوة عزمه على أن يكون كاتباً:

ذات يوم وجدت نسخة قديمة من مجلة فرنسية، مقابل بنس على ما أذكر، في متجر كتب بشارع أونجبير في دبلن، شيء فتح عيني وكان كاشفا لي بنفس القدر الذي حدث للقديس بولس في الطريق إلى دمشق في تلك المجلة وقعت على ترجمة فرنسية لقصة لمكسيم جوركي بعنوان (يوم الحصاد وسط قوزاق نهر الدون). قفزت ناهضا من السرير الذي كنت راقدا عليه أقرأ. لم أكن قد قرأت شيئا شبيها من قبل. لماذا لم يخبرني أحد بوجود مثل هذه القصص؟ قلت لنفسني: «كان بمقدوري أن أكتب هذا. هذا عمل يقوم به قومي، غير أن لهم أسماء مختلفة». وانتابني نوع من الجوع، جوع كان غير محتمل بشكل أكبر من الجوع الذي كانت تشعر به معدتي أحيانا. بدأت منطقة كوش فاريجيه بأرضها الحجرية وصخورها العارية وخليجانها وجداولها وبركها وبحيراتها وجبالها، بوجوه رجالها ونسائها وأطفالها، تتجسد خلف جفوني المغلقة. كانت تلك المجلة في جيبي، مع أقل القليل غيرها، في اليوم الذي قبض عليّ فيه.

قبض على أوكاين في سبتمبر 1939 بتهمة الخروج على قانون الدولة وقبض حوالي خمس سنوات بين ثلاثة أو أربعة سجون؛ وأغلب هذا الوقت قضاه في معسكر اعتقال في كوراخ بمقاطعة كيلدير. أثناء فترة سجنه قرأ على نطاق واسع بلغات كثيرة وعلم نفسه أسلوب الحوار الذي

تأسست عام 1947 واكتسبت سمعة طيبة بالفعل لنشرها أدب معاصر من نوعية أدبية عالية. [...] ورغم أن الطبعة الأولى تحمل تاريخ النشر في عام 1949، إلا أن الكتاب لم يظهر بالفعل إلا يوم 10 مارس 1950. [...]

مازال إغواء قراءة هذه الرواية كسجل أمين وتمثيل صادق للحياة المعاصرة في المناطق المتحدثة بالآيرلندية يظهر في النقد الآن كما فعل وقت صدور الرواية.»

في النهاية هذه في ظني المرة الأولى التي يُترجم فيها عمل لهذا الكاتب الكبير مارتين أوكاين Máirtín Ó Cadhain (والذي يُنطق اسمه الأول بعد الياء) إلى العربية، حتى وإن جاءت عبر لغة وسيطة، لكنني أمل أن تكون فرصة لقراءة عمل رئيسي في الرواية المكتوبة بالآيرلندية خلال القرن العشرين، قراءة بغرض التعرف على تراث إنساني هام، وثقافة إنسانية عميقة لها تاريخها ونقاط تشابهها واختلافها الكبيرة مع ثقافتنا، وكذلك الاستمتاع بتجربة أدبية مختلفة، وتلك فيما أعتقد من غايات الترجمة القصوى.

عبد الرحيم يوسف
الإسكندرية أكتوبر 2020

استخدمه بعد ذلك في روايته. [...] قال: "تلك هي الأيام التي بدأت فيها الكتابة بجدية." كان يحدر أيضا جريدة المساجين (السلك الشانك) في المعسكر لفترة وكتب لها بالآيرلندية والإنجليزية. كما ترجم الكثير من الأغاني إلى الآيرلندية منها «العلم الأحمر» ونشيد الأممية وغيرهما من الأغاني التي كانت شائعة وسط المساجين. [...]

عند إطلاق سراحه عام 1944 طلب منه إيمون دي فاليرا رئيس الحكومة وقتها أن يستمر في عمله على القاموس الإنجليزي-الآيرلندي. وفي عام 1945 تزوج من مورين ني رودي وهي معلمة وطنية ومحدثة جيدة بالآيرلندية من كافان، ومدرسة لغة آيرلندية موهوبة لفصول الأطفال في جنوب دبلن لسنوات عديدة. استقروا بشكل دائم في دبلن ولم ينجبا أي أطفال. [...]

كُتبت رواية طين المقابر خلال الفترة 1945-1947 وجرى تقديمها بعد ذلك إلى مسابقة البرلمان الآيرلندي السنوية الأدبية عام 1947. وقد استلزم هذا إنتاج نسخ عديدة بخط اليد. بعد ذلك نُشرت الرواية مسلسلة ما بين فبراير وسبتمبر 1949 في جريدة آيريش بريس، التي كانت تحظى بانتشار واسع في الريف والحضر. كانت هذه الجريدة على صلة وثيقة بإيمون دي فاليرا وحزب فيانا فايل كما كانت منصة أدبية لها أهميتها في فترة ما بعد الحرب.

بعد نشرها مسلسلة وما حظيت به من ترحيب كبير، قُدم مخطوط الرواية لوكالة النشر التابعة للدولة: أن جوم. وفي مواجهة تلك المفارقة الراديكالية للتقليد الأدبي الراسخ بوجود جثث تتشاجر في قبورها، استقبلت أن جوم الرواية استقبالا فائرا. وأخيرا عثر النص وكاتبه على بطل في هيئة سارشيل أجوس ديل، وهي دار نشر صغيرة في دبلن

طين المقابر

الزمان

الخلود

المكان

المقابر

النظام

الفاصلة الأولى: الطين الأسود

الفاصلة الثانية: الطين المنثور

الفاصلة الثالثة: الطين المنقوش

الفاصلة الرابعة: الطين المطحون

الفاصلة الخامسة: الطين المخضب

الفاصلة السادسة: الطين المعجون

الفاصلة السابعة: الطين المسبوك

الفاصلة الثامنة: الطين المحروق

الفاصلة التاسعة: الطين المصقول

الفاصلة العاشرة: الطين الأبيض

الفاصلة الأولى

الطين الأسود

I

لا أعرف إن كنت مدفونة في مقبرة (الجنية) أم في مقبرة (الخمسة عشر شلنات)! اللعنة عليهم على أي حال إن كانوا قد رموا بي في أرض (العشر شلنات) بعد كل التحذيرات التي وجهتها لهم. في صبيحة اليوم الذي مات فيه ناديت باتريك من المطبخ: «أتوسل إليك يا باتريك، أتوسل إليك، ضعني في مقبرة (الجنية)، مقبرة الجنية! أعلم أن بعضنا مدفون في مقبرة العشر شلنات، لكن رغم ذلك...»

أخبرتهم أن يأتوا لي بأفضل تابوت في محل تيم. وهو تابوت جيد من خشب البلوط على أي حال. أرتدي وشاح الكتف. والكفن... جهزتهما بنفسي. وثمة بقعة على هذا الكفن! مثل لطحه سخام. لا، ليست هذه. إنه أثر إصبع. من تكون غير زوجة ابني! وهذه البقعة كأنها من لعابها السائل. آه يا ربي! هل رأتها قبل؟ أظنها كانت هناك. فقط لو كنت أملك أن أفعل شيئاً حيال هذا...

انظروا إلى العبث الذي فعلته كيتي بكفني. قلت دوماً إن هذه المرأة والمرأة الأخرى، سارة الثرثرة، لا ينبغي لهما قط أن تُمنحا قطرة شراب حتى يتحرك الجسمان من الطريق الواقع خارج البيت. حذرت باتريك

ألا يدعهما تقتربان من كفني إذا شربتا ولو قطرة واحدة. كل ما كاننا نريده في حياتهما أن تجدا جثة هنا أو هناك أو حول المكان. من الممكن أن تكون الحقول متقجرة بالمحاصيل، وستظل كلتاها هناك، إذا استطاعتا تسول بضعة بنسات في كل جنازة...

على أي حال لديّ الصليب على صدري، الصليب الذي اشتريته بنفسني في الإرسالية... لكن أين الصليب الأسود الذي جلبته لي زوجة توماشين، توماشين المتفakhir بورعه، من نوك⁽¹⁾ في تلك المرة الأخيرة التي كان عليهم فيها أن يقيدوه؟ طلبت منهم أن يضعوا ذلك الصليب على صدري أيضا. فهو أظف بكثير من هذا الصليب، منذ أن أوقعه أطفال باتريك يبدو المُخلص معوجا بعض الشيء. لكنه جميل في هذا الصليب الأسود. ما هذا؟ لا بد أن رأسي كالغريال. ها هو ذا، تحت عنقي بالضبط. شيء مؤسف أنهم لم يضعوه على صدري.

كان يمكنهم أن يلفوا حيات المسيحية بطريقة أفضل حول أصابعي، من الواضح أن نيل هي من قامت بهذا. كانت لتودّ أن تسقط على الأرض وهم يضعونني في التعش. آه يا إلهي، من الأفضل لو تبقى بعيدة عني بأميال...

أبتهل إلى الله أن يكونوا قد أشعلوا الشموع الثماني على نعشي في الكنيسة. أعددتها وتركتها لهم، في ركن الخزانة تحت أوراق الإيجار. ذلك شيء لم يحظ به أي جثمان قط في الكنيسة: ثماني شمعات. حظي كوران بأربع فقط. وبيلي، ابن تومي الخياط، حظي بست شمعات فقط، ولديه ابنة راهبة في أمريكا.

أخبرتهم أن يأتوا بثلاثة أنصاف براميل من الجعة السوداء، وقال نيد ابن أريّة توبير إنه لو كانت هناك أي قطرة شراب في أي مكان، سياتي بها دون سؤال. كان لا بد من كل هذا، بالنظر لكل هذه التقود التي تُدفع عند المذبح⁽²⁾. أربعة عشر أو خمسة عشر جنيها على الأقل. أقول لكم إنني أنفقت شلنا أو اثنين، أو أرسلت شخصا ما إلى كل أنواع الأماكن التي كانت ستشهد جنازة، خاصة خلال الخمس أو الست السنوات الأخيرة عندما شعرت بجسدي يخذلني. أظن أن كل أهل الجبل قد أتوا. سيكون من المؤسف ألا يأتوا. لقد ذهبنا إلى جنازاتهم. مكنّا يُنفق جنيه أولا. وسيتبع أهل (بحيرة ديربي) أصهارهم. جنيه آخر أنفق جيدا. وجميع أهل جلين بولي يديتوني لي بجنازة أيضا. لن أندesh إذا لم يأت ستيفن ذو الكلام المعسول. لقد ذهبنا إلى كل جنازة تخصص. لكنه سيقول إنه لم يسمع بالخبر إلا بعد أن دُفنت. وبعد ذلك سيدخل في وصلة الغناء الرديئة إياها! وأؤكد لك يا باتريك ليدون، كنت لأحضر الجنازة ولو كان لمن ذلك حياتي. كنت مدينا لكاترينا بويدين بالقدوم إلى جنازتها حتى لو راحقا على ركبتي. لكنني لم أسمع شيئا، ولا كلمة، حتى ليلة دفنها. سبني صغير... فُشار حقيقي، ستيفن ذو الكلام المعسول!...

أرى هل نأحوا عليّ جيدا؟ أعلم تماما أن سارة الثرثرة لديها صوت أولول قوي بالك، إذا لم تكن ثملة أكثر من اللازم. وأنا واثقة أن نيل كالتة تدور متطفلة في المكان أيضا. تتظاهر بالبكاء وليس هناك من يدعها على خدها، تلك العاهرة! لم تكن لتجرؤ على الاقتراب من البيت وأنا حية...

(1) - قرية في مقاطعة مايو حيث يقال إن مريم العذراء وشخصيات أخرى مقدسة ظهرت عام 1879 وقد كانت لوقت طويل مكان حج كاثوليك هام (من هوماش الترجمة إلى الإنجليزية)

آه! هي سعيدة الآن. ظننت أنني سأعيش بضع سنوات أخرى وسأدفننها قبلي، العاهرة. لقد تداعت كثيرا منذ إصابة ابنها. وبالطبع كانت تذهب إلى الطبيب كثيرا قبل ذلك. لكن لا شيء خطير لديها. روماتيزم. طبعا لن يقتلها هذا في المدى القريب. وهي تعتنى بنفسها كثيرا. لم أكن قط هكذا. والآن أعرف هذا. قتلت نفسي بالعمل والكدر... كان ينبغي أن أنتبه لهذا الألم قبل أن يصبح مزمنًا. لكنه إذا أصاب كليتيك مرة، فقد انتهى أمرك.

على أي حال كنت أكبر بعامين من نيل... باية، ثم أنا، ثم نيل. في يوم عيد الملاك ميخائيل العام الماضي، حصلت على المعاش. لكنني حصلت عليه قبل موعده المستحق. باية في الثالثة والسبعين تقريبا. ستموت قريبا، رغم كل جهودها. لا أحد من أسرتنا يعيش طويلا هكذا. وعندما تسمع خبر موتي، ستعلم أن أجليا اقتراب أيضا، وعندئذ ربما ستكتب وصيتها... ستترك كل شيء لنيل. ستغلب عني العاهرة في النهاية. لقد حلبت باية جيدا. لكن لو عشت قليلا حتى تقوم باية بكتابة وصيتها، لمنحتني نصف المال رغم أنف نيل. باية متقلبة التفكير. كنت أكثر شخص تكتب إليه، خلال تلك الأعوام الثلاثة منذ انتقلت من بيت أهل بيغ بريان في نوروود إلى بوسطن، إنها لراحة كبرى أن تترك بيت مصاصي الدماء ذاك على أي حال.

لكنها لم تسامح باتريك قط على زواجه من تلك البقرة من جورت ريبوك، وتركة لماجي ابنة بيغ بريان في وضع محرج. لم تكن لتصر إلى جوار بيت نيل أو قربه في تلك المرة التي عادت فيها إلى الوطن من أمريكا لولا أن ابن نيل تزوج من ابنة بيغ بريان. ولم كانت ستذهب؟... إنه أقرب لزيبة منه لبيت. وزيبة صغيرة قدره أيضا. بالطبع بيت لا يناسب أحدا

من الأمريكان. لا أعرف كيف تحملت كل هذا، بعد بيتنا وتلك البيوت الأمريكية الهائلة. لكننا لم تمكث هناك طويلا قبل أن نرحل من جديد...

لن تعود إلى أيرلندا مرة أخرى في عمرها. لقد اكتفت من هذا الآن. لكن من يعلم، قد تتناهبها الرغبة في السفر مرة أخرى عندما تنتهي هذه الحرب، لو كانت مازالت بين الأحياء. أما بالنسبة لنيل، فيمكنها أن تسرق العسل من خلية النحل، فهي خبيثة جدا وماركة. فلتهب ريح عاصفة تطيح ببابة تلك العجوز الشمطاء! رغم أنها فارقت أسرة بيغ بريان في نوروود، إلا أنها مازالت تحمل اهتماما كبيرا بابنته ماجي... ألم يكن ابني باتريك أحرق صغيرا بعدم استماعه لنصيحتها والزواج من ابنة الصعلوك القبيح؟ «لا فائدة من الاستمرار في المحاولة معي...» هكذا قال الأحرق الصغير. «لن أتزوج ماجي ابنة بيغ بريان ولو كانت أُمز امرأة في أيرلندا.» انصرفت باية إلى نيل لا تلوي على شيء وكأنها تلقت صفعه على وجهها، ولم تقرب قط من بيتنا مرة أخرى، إلا عندما دخلت للحظة يوم عودتها إلى أمريكا.

- ... هنتر حبيبي. هو الرجل المناسب لهم.
- لو هُزمت إنجلترا سيكون هذا البلد في حال سيء. لقد خسرتا السوق بالفعل...
- ... أنتم يا نسل الخياط ذي الآن الواحدة، أنتم من تركتموني هنا قبل أواني بخرمين عاما. كان نسل الآن الواحدة مستعدين دوما بالضرب تحت الحزام. سكاكين، حجارة، زجاجات. لم تكونوا لتقاتلوا كالرجال، بدلا من طعني...
- دعوني أتكلّم! دعوني أتكلّم...

يا يسوع وعريم ويوسف! - هل أنا حية أم ميتة؟ هل هؤلاء الموجودون هنا أحياء أم أموات؟ إنهم يتصايحون كالديكة بالضبط مثلما كانوا يفعلون فوق الأرض! ظننت أنني عندما أموت سيمكثني أن أستريح في سلام، أنه لن يكون عليّ أن أعمل، أو أقلق حول البيت أو الطقس، أنني سأتمكن من الاسترخاء... لكن لماذا كل هذا الضجيج والشجار في طين المقابر...؟

2

... من تكونين؟ هل أنت هنا منذ مدة طويلة؟ هل تسمعينني؟ لا تكوني خجولة، كوني على راحتك كما لو أنك في البيت، أنا ماجي فرانسيس.

يا الله! ماجي فرانسيس التي كانت تعيش في البيت المجاور طيلة حياتي؟ أنا كاترينا، كاترينا بولين. هل تذكريني يا ماجي؟ أم أن المرء ينسى كل شيء؟ هنا؟ أنا لم أنس أي شيء بعد على أي حال.

ولن تنسى. الحياة هنا تشبه كثيرا ما كانت عليه في «الريف القديم» باستثناء أننا لا نرى إلا القبر الذي نحن فيه، ولا يمكننا مغادرة توابيتنا. لن تسمعي الأحياء أيضا، أو تعرفي ما يحدث لهم؛ إلا مما سيخبرك به الموتى المدفونون حديثا. لكننا جيران مرة أخرى يا كاترينا، هل أنت هنا منذ مدة طويلة؟ لم أسمع بك وأنت قادمة.

لا أعرف إن كنت قد مت يوم عيد القديس باتريك أم اليوم الذي

بعده يا ماجي. كنت مرهقة تماما. ولا أعرف كم المدة التي لبثتها هنا أيضا. ليست فترة طويلة جدا على أي حال... أما أنت فمدقونة منذ زمن طويل الآن يا ماجي... صحيح جدا. تكلمين أربع سنوات في عيد الفصح القادم، كنت أفرد قطعة من السماد لباتريك في الحقل الغائر عندما جاءت فتاة صغيرة من بنات توماشين إليّ وقالت «ماجي فرانسيس تعاني من سكرات الموت...». وبعد ذلك، صدقي ذلك أو لا تصدقي، كانت كيوتي الصغيرة تدخل للثوب من الباب عندما وصلت إلى آخر السياج. كنت قد فارقت الحياة. أغلقتُ عينيك. وقمت أنا وكيوتي بتكفينك. وبفضلنا، حسنا، قال الجميع إنك بدوت رائحة الجمال على الفراش. لم يكن هناك ما يدعو أحدا للتذمر. كل من رآك يا ماجي، كلهم قالوا إنك كنت جثمانا جميلا. لم يكن هناك جزء منك... ولا شعرة خارج مكانها. كنت نظيفة وناعمة كما لو أنهم قاموا بكيوك على الفراش...

... لم أمكث وقتنا طويلا يا ماجي، كانت كليتي تعانيان من الفشل منذ وقت طويل. حالة انسداد. شعرت بألم فظيع فيهما منذ خمسة أو ستة أسابيع، وأصابني برد علاوة على ذلك. انتقل الألم إلى بطني ومنها صعد إلى صدري. لم أبقي إلا حوالي أسبوع... لم أكن عجزوا إلى هذا الحد إطلاقا يا ماجي. كنت في الواحدة والسبعين فقط. لكنني عشت حياة صعبة، عشت حياة صعبة بالفعل، يعلم الله كم كانت صعبة وكيف بدت لي علاماتها، وعندما ضربتني، ضربتني بقوة. ولم تكن لدي قدرة باقية على المجاهدة...

قد تقولين هذا يا ماجي بالفعل. تلك العاهرة من (جورج ريبوك) لم تسامدني ولو قليلا. ترى أي شيطان دفع ابني باتريك ليتزوج امرأة على

شاكلتها أصلاً؟... بارك الله فيك يا ماجي، لديك قلب من ذهب، لكنك لا تعرفين نصف ما عانيت، ولم تخرج من شفتي كلمة عن الأمر. مرت ثلاثة شهور الآن وهي لم ترفع إصبعاً... طفل آخر. لقد نجت بالكاد. وأقول إنها لن تنجو قط في المرة القادمة... لقد أنجبت حزمة من الأطفال ليس فيهم مقدار أوقية من عقل باستثناء مورين، الفتاة الكبرى، والتي تذهب إلى المدرسة كل يوم. وكنت أنا من أكدح قدر ما أستطيع كالثور المربوط في الطاحونة، أنظفهم وأبعدهم عن النار وأقدم لهم لقمة يأكلونها... أنت على حق يا ماجي. لن يبقى لباتريك بيت الآن بعد أن رحلت، بالتأكيد هذه العاهرة ليست مهيأة لإدارة بيت، امرأة تقضي كل يوم وآخر في الفراش... والآن ما أنت قلتيها يا صديقتي! يستحق باتريك والأطفال الشفقة...

كان الأمر كذلك بالفعل. أعددت كل شيء يا ماجي، الكفن والوشاح وكل شيء... يا مائة يا ماجي، كانت هناك ثماني شمعات فوقي في الكنيسة، حقاً وصدقاً... ووضعت في أفضل تابوت لنبي محل تيم. أقول لك إنه كلف خمسة عشر جنيهًا بالتنام والكمال... واسمعي هذه: لم تكن عليه صفيحتان فقط، بل ثلاث، صدقتيني... وكل واحدة منها صورة طبق الأصل من المرأة الفخمة في بيت القس...

وعد باتريك أن يضع صليباً من رخام كوينمارا على قبوري: بالضبط مثل الصليب الموجود على قبر بيتر الخمّار، ويكتب عليه باللغة الأيرلندية: «كاترينا، زوجة جون ليدون...» قال هذا بنفسه، لا كذب. لا تظني أنني طلبت منه أن يفعل هذا يا ماجي، فأنا لم أكن لأحلم به... وقال إنه سيضع سياجا حوله بالضبط مثل السياج المحيط بقبر جوان البياعة، وأنه سيزيته بزهور - لتحل عليّ اللعنة إن كنت أستطيع تذكر ماذا كان

اسمها- من النوع الذي كانت تضعه الأستاذة على ثوبها الأسود بعد موت الأستاذ الكبير. "هذا أقل ما يمكننا فعله من أجلك..". هكذا قال باتريك. "بعد كل المشاق التي تحملتها من أجلنا..."

لكن قولني لي يا ماجي، أي جزء من المقبرة هذا؟... صحيح تماماً، إنها أرض الخمسة عشر شلناً... والآن يا ماجي، أنت تعلمين في قرارة نفسك أنني لم أكن لأتوقع أن أدفن في أرض الجنيه. طبعاً لو كانوا وضعوني فيها لم أكن لأستطيع أن أفعل شيئاً حيال ذلك، لكن التفكير في أنني قد كنت أريد أن...

نيل، أمكنا؟... لقد دفنتها تقريباً. لو كنت عشت فترة أطول قليلاً... تلك الحادثة التي جرت لابنها، التي هزتها فعلاً... ضربته شاحنة قرب الساحل منذ عام أو عام ونصف، وهشمت وركه. لم يعرفوا في المستشفى إن كان سيعيش أم سيموت طوال ما يقرب من أسبوع...

أوه، سمعت الأمر بالفعل، أليس كذلك؟... قضى ستة شهور أخرى معدداً على ظهوره... ولم يفعل شيئاً منذ عودته إلى البيت، فقط يعرج في أنحاء المكان على عكازين. ظن الجميع أنه هالك لا محالة...

الأطفال ليسوا يعون له يا ماجي، ما عدا الوغد الأكبر، وهو فتى حقير... ولم لا يكون! مثه مثل جده الذي يحمل اسمه، بيج بريان، سلالة قبيحة من البؤس. ناهيك عن جدته الضئيلة نيل. نيل ونسلها لم يلقوا بذراً في الربيع يستحق الذكر طوال العامين الماضيين... الإصابة ضرية قاسية لاج ابنة بيج بريان ونيل. لقد نلت تماماً من هذه العاهرة. حصدنا محصولاً من البطاطس يزيد عن محصولها ثلاث مرات هذا العام.

أوه فلينبارك الرب براءتك يا ماجي فرانسيس! ألم يكن الطريق طويلاً

وعريضا بالنسبة له كما هو بالنسبة لأي شخص آخر كي يتعد عن طريق الشاحنة؟... خسرت ابن نيل القضية يا ماجي. قال له القاضي: "لن أمنحك سنتا أحمر"... استدعى سائق الشاحنة إلى جلسات المحكمة منذ ذلك الوقت، لكن القاضي لم يسمح لابن نيل أن يفتح فمه. وسيرفع القضية إلى المحكمة العليا في دبلن قريبا، لكن هذا لن يفيد شيئا أيضا. أخبرني مانيون المحامي شخصيا أن أسرة نيل لن تحصل على مليص نحاسي. وقال: «علام؟ على الجانب الخطأ من الطريق» أصدك القول يا ماجي. نيل لن تحصل على سنت يتيم من القانون. وهذا ما تستحقه. أقول لك، لن تمر إلى جوار بيتنا كثيرا من الآن فصاعدا وهي تغني «إليانور ذات الأسرار»⁽³⁾ ...

آه، جاك المسكين ليس بخير أيضا يا ماجي. طبعاً نيل لم تهتم به قيد أنملة قط، ولا ابنة بيج بريان منذ أن دخلت بيتهم... أليست نيل أختي يا ماجي؟ وكيف لي ألا أعرف؟ هي لم تعط جاك أقل لمحة من الاهتمام، ولا القليل منه. كانت دائما مهتمة بنفسها. لم تهتم أبداً اهتمام بكائن من كان في هذا العالم العريض غير نفسها... أقول لك يا ماجي، وأنا أخبرك بحق الله، عاش جاك حياة قاسية بسببها، تلك العاهرة... توماس الداخل يا ماجي؟ كما كان دائماً... في جحر كوخه طوال الوقت، لكنه سيقع فوقه يوماً ما قريباً... آه، ألم يأت ابني باتريك ويعرض أن يضع سقيفة من القش عليه؟ لكنني قلت له: «اسمع يا بات، لا شأن لك إطلاقاً بوضع سقيفة قش على حطام بيت توماس. يمكن لنيل أن تفعل هذا إن أرادت، وإنما فعلت هذا، فلن فعل مثلها نحن أيضاً»...

3- اعني «Eleanor of the Secrets» أصبة علمانية أيرلندية شهيرة. (من هوماس الترحمة إلى الإنجليزية)

فقال باتريك: "لكن نيل لا تملك أحداً يساعدها منذ تحطمت ساق بيتي". فقلت: «لدى كل شخص ما يكفيه كي يفعله لنفسه، على كل شخص أن يسقف مكانه، حتى لو كان شخصاً عديم النفع مثل توماس الداخل».

يقول: «لكن البيت سيسقط عليه».

فأقول: «يمكنه أن يسقط عليه أو أراد، لدى نيل ما يكفي في طبقها دون ملء» فم توماس بالخراء. هذا هو الأمر يا بات يا صغيري، اصبر الآن يا رجلي الطيب. توماس مثل فأر في سفينة غارقة. سيأتي زاحفاً إلينا كي يبتعد عن المطر»...

هل قلت نورا جوني؟... من الغريب أن نكتشف المزيد عنها هنا... أعرف أكثر من اللازم عنها وعن كل واحد من تسليها وبذرتها يا ماجي... تنصت إلى الأستاذ الكبير كل يوم؟ إلى الأستاذ الكبير، الرجل المسكين... الأستاذ الكبير يقرأ لنورا جوني... لنورا جوني... آه يا إلهي... هذا الرجل لا يحمل احتراماً كبيراً لنفسه... يقرأ أشياء لنورا جوني... طبعاً هذه المرأة لا يوجد شيء بين أذنيها غير الخواء. ومن أين كانت لتعرف شيئاً؟ امرأة لم تضع قدماً في مدرسة إلا إذا كان هناك يوم للتصويت في اقتراع... لعمري إنه لعالم غريب لو أن الأستاذ الكبير يجري حواراً مع نورا جوني. «ماذا تقولين يا ماجي؟... أنه مغرم بها جداً أيضاً؟ إنه لا يعرف أي نوع من النساء هي يا ماجي... لو عاشت ابنتها في نفس البيت معه لمدة ستة عشر عاماً كما حدث معي، لعرف أي نوع من النساء هي. لكنني سأخبره... عن البحار وكل شيء»...

«... جوني مارتين كانت لديها ابنة

عريضة كأبي رجل»...

- خمسة في ثمانية تساوي أربعين، خمسة في تسعة تساوي خمسة وأربعين، خمسة في عشرة... أسفة يا سيدي، لا أذكر...
- "بينما كنت منطلقا إلى السوق، أبحث عن امرأة أجدها"
- كان معي عشرون، ولعبت آس القلوب الحمراء. أخذت الملك من شريكك. تفوق عليّ مروكين بالولد. لكن كان معي تسعة، وشريكك للحظ...
- لكن كانت معي الملكة، وكنت أدافع...
- مروكين كان سيلعب خمسة من اللون الرابع، وكان سيهزم بها تستعك. ألم يكن هذا ما ستفعله يا مروكين؟
- لكن عندئذ أطاح اللغم بمنزلنا في الهواء...
- لكننا كنا سنقوم بالدور على أي حال...
- مستحيل. لولا اللغم...
- ... ساعدنا يا رب، الآن وإلى الأبد...
- ... مهرة جميلة بغيرة بيضاء. كانت فاتنة...
- لا أستطيع سماع شيء يا ماجي، آه يا إلهي القدير وأمه الغالية... مهرة بغيرة بيضاء... خمسة من اللون الرابع... لا أستطيع سماع هذا...
- كنت أقابل من أجل الجمهورية...
- لم يطلب منك أحد أن تفعل هذا...
- طعنني...

- لكنه لم يطعنك في لسانك على أي حال. فليحل عليكما وباء الصلع أنتما الاثنان! لقد تلف عقلي منذ جئت إلى هنا. آه يا ماجي، فقط لو أمكن لنا أن نجد خلوة هادئة لنا! فوق الأرض، إذا لم تعجبك الصحبة كان بمقدورك مغادرتها والذهاب إلى مكان آخر. لكن للأسف والأسى، لا يمكن للموتى أن يترحلوا شيئا في طين المقابر...

33

وبعد كل هذا دُفنت في مقبرة الخمسة عشر שלנו! رغم كل تحذيراتي... لا بد أن بسمة عريضة كباب حظيرة ملأت وجه نيل! والآن سُدْفَن هي بالتأكيد في مقبرة الجنية. ولن أندمش قيد أنملة لو كانت هي من جعلت باتريك يدفنني في مقبرة الخمسة عشر שלנו بدلا من مقبرة الجنية. لم تكن لتجرؤ على الاقتراب من البيت أو المرور إلى جواره إلى أن عرفت بهويتي. لم تضع قط قدما على عتبة بيتي منذ يوم زواجي... هذا إن لم يكن قد تسلت داخلة إليّ بينما كنت أحتضر.

أين باتريك مغفل قليلا. لقد استسلم لكلامها المعسول. وستوافقها زوجها: «بحق الله، أنت على حق يا نيل العزيزة. مقبرة الخمسة عشر שלנו مكان جيد بما يكفي لأي أحد. نحن لسنا مليونيرات...»

مقبرة الخمسة عشر שלנו مكان جيد بما يكفي لأي أحد. كانت لتقول لنا: وماذا كانت لتقول غير هذا؟ ابنة نورا جوني، لكنني سأنال منها! سألنا هنا في ولادتها القادمة بالتأكيد. والله سأنال منها! لكن في هذه الأيام سأنال من أمها - سأنال من نورا جوني نفسها.

نورا جوني. من هناك في جورت ريبوك. جورت ريبوك ذات البرك والمستنقعات. كنا نسمع دائما أنهم يطوبون البط هناك. محدثة النعمة! والآن هي تتعلم من الأستاذا على أي حال حان الوقت لها كي تبدأ. لم يكن ممكنا لأي معلم أن يتحدث إليها في أي مكان في العالم إلا هنا في المقابر، ولم يكن حتى ليفعل هذا لو أنه عرف من كانت...

إنه خطأ ابتها الذي أدى بي إلى هنا قبل عشرين عاما من أواني. لقد ملكت طوال الشهور الستة الأخيرة في العناية بأطفالها الجربانين. وهي مريضة سواء كانت حيلى أو لا. والطفل القادم سيودي بها، لا محالة... سيكون باتريك المسكين أفضل حالا لو نجا منها، أيا كان الطريق الذي سيسلكه بدونها. لكن باتريك كان الابن الحرون. «لن أتزوج غيرها قط يا أمي..» هكذا قال. «سأرحل إلى أمريكا وأترك المكان خرابا وحطاما، بما أنك لا تحبينها...»

كان هذا عندما عادت بابة إلى الوطن من أمريكا. توسلتُ إليه واستعطفته كي يتزوج من ماجي ابنة بيغ بريان. كانت بالفعل مهمته جدا بتلك العاهرة القبيحة الضئيلة ابنة بيغ بريان لسبب ما. «اعتنت بأمرى جيدا عندما كنت في الولايات المتحدة...» هكذا قالت. «خاصة عندما كنت مريضة للغاية، وكل أهلي بعيدون عني بأميال. ماجي ابنة بيغ بريان شابة صغيرة واسعة الحيلة، ولديها مديرات جيدة خاصة بها بالإضافة إلى ما سأعطيه لها. كنت مغرمة بك يا كاترينا...» هكذا تقول. «أكثر من أي واحدة أخرى من أخواتي. وأفضل أن أترك مالي في بيتك بدلا من أي شخص آخر يمت إلى بصلة. وأحب أن أرى ابنك باتريك بحال أفضل في هذا العالم. لديك اختياران الآن...» هكذا قالت له. «أنا سأعود سريعا إلى أمريكا، لكني لن أرحل قبل أن أرى ابنة بيغ بريان مستقرة هنا، لأنها

بلا حظ إطلاقا هناك. تزوجها يا باتي. تزوج ماجي ابنة بيغ بريان، ولن أترككما في عز. لدي أكثر مما أحتاجه في رحلة العودة. لقد طلبها بالفعل ابن نيل. ونيل نفسها حدثتني في الأمر منذ بضعة أيام. ستتزوج من ابن نيل إذا لم تتزوج منها يا باتريك. إما هذا أو فلتذهب وتتزوج من ترويد، لكن لو فعلت...»

«سامضي في هذا الأمر قريبا...» قال باتريك. «لن أتزوج أي امرأة أخرى على وجه الأرض غير ابنة نورا جوني من جورت ريبوك...»
وتزوجها.

وكان علي أن أكسوها. لم تكن لديها حتى رسوم الزواج. ناهيك عن المهر. مهر من نسل ذوي الأقدام المتسخة مهر في جورت ريبوك ذات البرك والمستنقعات حيث يطوبون البطا... تزوجها، ومن ساعتها وهي معه كأنها ظل الموت. لا تستطيع أن ترمي خنزيرا ولا عجلا، ولا دجاجة ولا أوزة، ولا حتى البط الذي كانت معتادة عليه في جورت ريبوك. بيتها أفر. أطفالها قدرون. ولا يمكنها أن تفلح الأرض أو تجمع شيئا من الشاطئ...

كان الخير وقيرا في ذلك البيت حتى دخلته. كنت أبقيه نظيفا ومجلا. لم أهر ليلة سبت في الستة دون أن أخرج كل مقعد ومنضدة قرب الجدول لأسلهم. كنت أغزل وأمشط. وكانت لدي أكياس بها كل شيء. ربيت الطنازير والعجول والدواجن... طالما كان لدي الحول والقوة لفعل هذا. وعندما لم يعد لدي منها شيء كتت أخزي ابنة نورا جوني بما يمكنني على أنها لم تستطع أن تجلس مستقرة على مؤخرتها...

لأن ماذا سيحدث للبيت الآن من دوني؟... ستشعر نيل الوحشة برضا

- ... أقسم بخشب بلوط هذا الثابت يا ماجريت، أقسم أنني أعطيتها، أعطيت كاترينا الجنيه...
- ... شربتُ اثنتين وأربعين قنحاً...
- أذكر هذا جيداً أيها الحثالة. فقد التوى كاحلي يومها...
- ... غرستُ السكين داخلي ما بين أحشائي وأعلى ضلوعي. مرت عبر حافة كبدي، ثم لويتها. تلك الضربة القذرة كانت دائماً سمة لنسل الكلاب ذوي الأذن الواحدة...
- ... أطلب الإنز بالحدث! دعني أتكلم...

هل أنت مستعدة لساعة القراءة الآن يا نورا جوني؟ سنبدأ اليوم رواية قصيرة جديدة. انتهينا من (رجلان وزمرة نساء) منذ يوم أو اثنين، أليس كذلك؟ عنوان هذه الرواية القصيرة هو (القبلة الحمراء الساخنة). أنصتني الآن يا نورا جوني: "كانت نوالاً فتاة بريئة حتى التقت تشارلي برايس في الملهى الليلي..." أعرف. ليس هناك سلام ولا خلوة ولا فرصة للثقافة هنا... وبالضبط كما تقولين يا نورا! كل ما يتحدثون عنه دوماً هو تفاهات بائسة... أوراق اللعب، الخيول، الخمر، العنف... لقد أزعجنا تماماً بحديثه كل يوم عن فرس سابقه... أنت على حق تماماً يا نورا العزيزة... لا توجد أي فرصة هنا لشخص يريد أن يتقّف عقله. تلك هي الحقيقة المطلقة يا نورا. هذا المكان في سوء أخلاقه وغبائوته وهمجيته أشبه بما يحدث هناك وسط حثالة مقبرة النصف جثيه... لقد عدنا بالفعل إلى عصور الظلام منذ أن بدأ دفن عديمي السراويل⁽⁴⁾ في

(4) رافردية في الأصل sansculottes وتنتشر إلى شمودي الطبقة الوسطى والحرفيين في أثناء الثورة الفرنسية الذين رفضوا ارتداء السراويل القصيرة التي كان يرتديها أبناء الطبقات الراقية وفضلوا الخروج بـسراويل العمل الطويلة.

عظيم على أي حال... سيمكنها هذا تماماً. فلديها في بيتها امرأة تجيد الخبز والغزل: ماجي ابنة بيغ بريان. من اليسير عليها أن تضحك ملء فيها على ابني المغفل الذي ليس لديه إلا تلك العاهرة الشعثاء. ستمر بيبتنا كل يوم وآخر قاتلة: «لقد حصلنا بالفعل على ثلاثين جنينها مقابل الخنازير... كانت صفقة جيدة لو كان لديك بعض الماشية. حصلنا على ستة عشر جنينها مقابل العجلين... ورغم أنه ليس موسم وضع البيض، إلا أن ابنتنا ماجي مازال في جعبتها بعض الحيل. لقد جلبت ثمانين بيضة إلى جالواي يوم السبت... فقسست دجاجاتنا أربع مرات هذا العام. تبيض الدجاجات كلها مرة ثانية. وكانت لديّ فقساة أخرى بالأساس. (الفقساة الصغيرة للشوفان الناضج) هكذا أسماها جاك عندما رأني أضعها تحت الدجاج... ستمشي مختالة تتمخطر وكأن النمل يقرص مؤخرتها عندما تمر بيبتنا. ستعرف أنني لست هناك. نهل! المومس! قد تكون أختي، لا بأس، لكنني أمتنى وأصلي ألا تأتي جثة أخرى إلى المقابر قبليها...!

4

... كنت أحارب من أجل جمهورية أيرلندا، وأنت قتلتي أيها الخائن! كنت تحارب من أجل إنجلترا في نفس الوقت الذي كنت تحارب فيه من أجل الجمهورية الحرة... بندقية إنجليزية في يدك، ومال إنجليزي في جيبك، وحب إنجلترا في قلبك، بعت روحك وتراث أسلافك مقابل طبق من العصيدة، مقابل «صفقة متبادلة»، مقابل وظيفة...

هذا كذب! كنت مجرماً، تحارب ضد الحكومة الشرعية...

مقبرة الخمسة عشر שלנו، هؤلاء الذين راكموا أكواما من المال جنونها من الصدقات... سأخبرك كيف كنت لأقسّم هذا المكان، لو كان ذلك بإمكانتي؛ هؤلاء الذين ارتادوا الجامعة يكونون في مقبرة الجنين، وهؤلاء الذين... أليس هكذا يا نورا؟ إنه لخزي بيعت على البكاء بالفعل أن يكون بعض من تلامذتي ممددين هنا بجواري... يحبطني بالفعل أن أعلم مقدار الجهول الذي مازالوا عليه بعد كل الجهد الذي صرفته عليهم... ويمقدورهم أحيانا أن يكونوا وقحين إلى حد كبير ولا يبدو ما يجب من احترام... لا أعرف ما الذي يحدث للأجيال الجديدة... أنت على حق يا نورا... أظن أنه نقص في الثقافة...

«كانت نوالا فتاة بريئة حتى التقت تشارلي برايس في الملهى الليلي...»
 ملهى ليلي يا نورا؟... ألم تذهبي قط إلى ملهى ليلي؟ طيب، الملهى الليلي لا يختلف كثيرا عن هذا المكان... آه، لا يا نورا، الملاهي الليلية ليست هي نفس الأماكن التي يتردد عليها البحارة. تلك الأماكن تُسمى بالموالخير يا نورا. أما الأشخاص المتعلمون المثقفون فيذهبون إلى الملاهي الليلية... كنت لتودين الذهاب إلى إحداهما... لم تكن فكرة سيئة حقا مسألة وضع اللمسة الأخيرة على تعليمك، القليل من الصقل، ختمه بطريقة لائقة... ذهبت إلى ملهى ليلي ذات مرة، عندما رفعوا مرتبات المعلمين، قبل أن يخفضوها من جديد مرتين. ورايت أميرا أفريقيا هناك... كان أسود مثل حبة توت، ويشرب الشامبانيا... تودين الذهاب إلى ملهى ليلي يا نورا! ألسنت فتاة قليلة الحياء؟... أنت فتاة شقية يا نورا... شقية جدا...

أنت أيتها العاهرة الوقحة! يا ابنة جوني روبن من جورت ريبوك! أين قالت إنها تريد الذهاب يا أستاذ...؟ لعلها لا تحيا حتى تستمتع بهذا! احرص على ألا توليها انتباهها يا أستاذي العزيز. لو عرفتها

جيدا مثلما أعرفها لصممت أذنك عنها. لقد قضيت السنة عشر عاما الأخيرة في شجار معها ومع ابنتها. لا ينبغي أن تزجح بالك وتضع وقتك مع نورا ذات القدمين المتسختين. لم تنقض أكثر من يوم واحد تقريبا في المدرسة، ولا تعرف الفرق بين حروف الأبجدية وطاعون البراغيث في إبطها...

من هذه؟ من أنت...؟ كاترينا بوين. لا أصدق أنك هنا أخيرا... حسن، مهما استغرق الأمر، ينتهي بك الأمر هنا... مرحبا على أي حال يا كاترينا، مرحبا بك... أخشى أنك يا كاترينا... ماذا أقول؟... قاسية أكثر قليلا من اللازم على نورا الوسخة... أقصد على نورا جوتي. لقد تحسن عقلها كثيرا منذ الوقت الذي كنت فيه معتادة على... ما التعبير الذي استخدمته يا كاترينا؟... نعم... في شجار معها... من الصعب علينا هنا أن نظل متابعين لسير الوقت، لكن لو أنني فهمتك على نحو صحيح، فقد أمضت هنا الآن ثلاث سنوات، تحت التأثير النافع للثقافة... لكن قولني لي يا كاترينا... هل تتذكرين الخطاب الذي كتبتنه من أجلك لأختك باية في أمريكا؟... كان هذا آخر خطاب كتبتنه على الإطلاق... في اليوم التالي أصابني مرضي الأخير... أما زال هناك جدل حول تلك الوصية...؟

أنتني خطابات كثيرة من باية منذ كنت تكتب لي يا أستاذ. لكنها لم تؤكد أو تنكر شيئا قط عن المال. جاءها ردها على ذلك الخطاب الذي تكلمت عنه يا أستاذ. كانت تلك هي المرة الأخيرة التي ذكرت فيها شيئا عن وصية؛ ولم أكتب وصيتي بعد... هكذا قالت. «أتمنى ألا أصاب بعرض مفاجئ أو عرضي كما كنت تتخيلين في خطابك. لا تقلقي. سأكتب وصيتي في الوقت المناسب، عندما

أرى ذلك ضرورياً. عندما جاء هذا الخطاب قلت لنفسى: «لا بد أن من كتب لها هذا معلم. لم يكن لدى أهلنا قط ذلك النوع من الحديث».

إنه الأستاذ الصغير -خليفتك- من يكتب لنا الآن يا أستاذ، لكنني أخشى أن يكون القس هو من يكتب لنيل. بمقدور هذه الشمطاء أن تدور حوله بدجاجاتها وجواربها المخيطة بالتريكو وحيلها الملتوية. هي ماهرة في هذا يا أستاذ. كنت أعتقد أنني سأبقى بضع سنين أخرى وأدفن تلك العاهرة قبلي!...

على أي حال، لقد بذلت أقصى جهديك من أجلي بشأن الوصية يا أستاذ. كانت لك يد متمكنة من القلم يا أستاذ. كثيرا ما رأيتك تكتب خطابا. واعتدت أن أفكر أن قلمك كان قادرا على تسويد الورق بالكلمات بنفس السرعة التي كان يمكثني بها حيك الغرز في جورب... واعتدت أن أقول: «فليرحم الرب الأستاذ الكبير المسكين! كان خدوما جدا. لو جاد عليه الرب بمزيد من الوقت لآتى لي بالمال!...»

أعتقد أن الأستاذة -أقصد زوجتك يا أستاذ- ستقيم قريبا بيتا جديدا. ولم لا؟ هي مازالت شابة نشيطة، بارك الله فيها... أستميحك عذرا يا أستاذ! لا تبال بأي شيء أقوله. أنا دائما أترثر هكذا، لكن بالطبع لا يمكن للمرء أن يتجنب هذا... أيها الأستاذ العزيز، لم يكن ينبغي أن أخبرك على الإطلاق. ستشعر بالقلق عليها. فلننت أنه سيطلع صدرك سماع أن الأستاذة ستتزوج مرة أخرى...

آه، بريك، لا تلمني يا أستاذ... أنا لست شرثارة... لا يمكنني أن أخبرك من يكون الرجل... آه، من فضلك يا أستاذ، لا تلح علي... لو تصورت أن هذا

سيجعلك قلقا هكذا لما نطقت بكلمة...

كانت قد أقسمت قسما مغلظا أنها لن تتزوج من رجل آخر، أليس كذلك يا أستاذ؟ آه، بريك!... ألم تسمع قط بالقول السائر أن النساء المتزوجات هن الأفضل... لم تكن قد بردت بعد في قبرك عندما وضعت عينها على رجل آخر. أعتقد، بأمانة، أنها كانت دائما طائشة قليلا...

الأستاذ الصغير... آه، لا، ليس هو، أبدا يا أستاذ... المعلم في بحيرة «بري»؟ إنه رجل صالح، لا يلمس قطرة من شراب. هو وأخت القس -تلك الفسلة البائسة الضئيلة التي ترتدي البنطلونات- سيتزوجان قريبا. يقولون إنه سيدير المدرسة الجديدة هناك...

آه، لا، ليس بالتأكيد الشرطي ذا الشعر الأحمر أيضا. يقولون إنه على علاقة بممرضة قصيرة يدينة في برايت سيتي... وهو ليس رجل بذور البطاطس⁽⁵⁾ أيضا... هيا، قم بتخمين آخر يا أستاذ. سأعطيك فرصا كثيرة قدر ما تريد... لقد ذهب بادين إلى إنجلترا يا أستاذ. لقد أخذوا منه الشاحنة وباعوها. لم يكن هناك طريق قطعه لشراء النجيل لم يترك فيه خيطا من ديون وراءه. ضمن مرة أخرى يا أستاذ... هذا هو، تمام يا أستاذ، بالضبط، بيبي البوسطجي. أحسنت التصويب هكذا، بالضبط لتخمين صائب. لديك رأس عظيم فوق كتفك يا أستاذ، مهما يقل أي شخص آخر...

المدرس الآن من تورا جوني. يمكنكني أن أخبرك بأشياء يا أستاذ...

آه، انس أمر هذا الخبر الآن يا أستاذ، ولا تدعه يضايقك... ربما أنت على

(5) المرسول الذي كان يوزع بنور البطاطس التي توارها وزارة الزراعة. (من هومات الترجمة إلى الإنجليزية)

حق تماما... لم تكن مجرد الخطابات ما كانت تأتي به إلى المنزل... آه،
كف عن هذا يا أستاذ... لقد كانت دائما طائشة قليلا، زوجتك...

5

- ... أرسلوا كمنديبين مفوضين لعقد اتفاقية سلام بين أيرلندا وإنجلترا...
- وأنا أقول لك إنك كاتب حقير. لقد أرسلوا فقط كمنديبين، وقد تجاوزوا سلطاتهم. لقد ارتكبوا خيانة تحمل البلد وسمها وأثارها...
- مهرة بيضاء. كانت الأفضل. ولم يكن يزعمها أن تجر طنا ونصف...
- ... قسما بخشب بلوط هذا التابوت، يا نورا جوني، لقد أعطيت كاترينا الجنيه...
- ...وأبنة جوني مارتين تلك كانت طويلة كأبي رجل عندما كانت تقف على التل...
- ... أوف! فلنذهب إنجلترا خاصتك وأساقفها إلى الجحيم. أنت قلق فقط على القروش القليلة التي لديك في البنك. هتلق حبيبي!
- ... والآن يا كوي، أنا كاتب. قرأت خمسين كتابا مقابل كل كتاب قرأته أنت. سأقاضيك إن اعتقدت أنني لست كاتباً. هل قرأت كتابي

الأخير: «حلم قنديل البحر»؟ ... لم تفعل يا كوي؟ ... أستميحك
عذرا يا كوي. أنا آسف جدا. نسيت أنك لا تستطيع القراءة...
إنها قصة قوية جبارة يا كوي... ولدي ثلاث روايات ونصف،
ومسرحيتان ونصف، وتسع ترجمات ونصف أرسلتها جميعا إلى
(آن جوم)⁽⁶⁾، وقصة قصيرة ونصف، (الشمس الغاربة). ندمي
الأكبر هو أن (الشمس الغاربة) لم تُطبع قبل موتي...

إذا كنت تنوي القيام بالكتابة يا كوي، تذكر أن من التابوهات بالنسبة
لدار أن جوم أن تشر أي شيء قد تخفيه ابنة عن والدها... أستميحك
عذرا يا كوي. أنا آسف. اعتقدت أنك كنت تنوي أن تصبح كاتبا. لكن
لحسبا لأن تتناكب هذه الحكمة المباركة... فلا يوجد متحدث بالآيرلندية لا
لغنايه تلك الحكمة في وقت ما من حياته... يقولون إن العناصر الموجودة
في الساحل المحيط بنا هي ما تسببها... والآن يا كوي، لا تكن وقحا... من
واجب كل متحدث بالآيرلندية أن يكتشف إن كانت لديه موهبة الكتابة،
خاصة موهبة كتابة القصة القصيرة، والمسرح، والشعر... والموهبتان
الأخيرتان أكثر شيوعا بكثير حتى من موهبة كتابة القصة القصيرة يا
كوي. خذ الشعر على سبيل المثال. كل ما عليك أن تفعله هو أن تبدأ من
أسفل الصفحة وتشرق طريقك صاعدا إلى أعلاها... إما هذا، أو تشخبط
من اليمين إلى اليسار، وتترك هامشا كبيرا، لكن هذه الطريقة ليست
شعرية تقريبا مثل الطريقة الأخرى...

أستميحك عذرا يا كوي. أنا آسف للغاية. نسيت أنك لا تستطيع القراءة

(6) كانت آن جوم An Gúm دار نشر حكومية تأسست عام 1927 لنشر الكتب باللغة الأيرلندية
لجمهور العام ولطالبة المدارس. نشرت هذه النثر القصص الأولى لساريتين أوكاي، لكنه كان دائما
على علاقة بخنثرة بلقائمين عليها. وهذا واحد من حوارات كثيرة في الرواية يسخر فيها من خصومه
الاسمين (من موماس الترجمة إلى الإنجليزية)

أو الكتابة... لكن القصة القصيرة يا كوفي... سأشرحها لك هكذا. لقد شربت قدحا بنصف لتر من الجعة، اليس كذلك؟... نعم، أفهم... لقد شربت الكثير من أقداح الجعة القوية وفي العادة... لا يهكم كم شربت يا كوفي...

- شربت أربعة وأربعين قدحا واحدا بعد الآخر...

- أعرف هذا... فقط انتظر دقيقة... أيها الرجل الطيب، دعني أتحدث... فلتتحل بقليل من الذوق ودعني أتحدث... لقد رأيت ما يكون أعلى قنح الجعة، الرغوة، ليس كذلك؟ رغوة من زبد قنر لا نفع منه. ومع ذلك، كلما زادت هذه الرغوة أعلى القنح، كلما تدلى لسانك أكثر من أجل القنح نفسه. وإذا تدلى لسانك من أجله ستشربه كله حتى الثمالة، حتى لو كان طعمه ماسخا. هل تفهم الآن يا كوفي، البداية والوسط والنهاية في القصة القصيرة؟... احرص ألا تنسى يا كوفي، أن النهاية لا بد أن تترك طعما حادا في فمك، طعم الشراب المقدس، الحلم بسرقة النار من الآلهة، بأخذ قطعة أخرى من ثقافة المعرفة... انظر إلى الطريقة التي أنهيت بها تلك القصة القصيرة الأخرى: «شمس أخرى غريبة»: القصة التي كنت أعمل عليها لو لم أمت فجأة من تشنج شد عضلي خاص بالكتاب:

«بعد أن نطقت الفتاة بتلك الكلمة القاتلة، استدار على عقيبه، وغادر جو الغرفة الخائِق، وخرج إلى الهواء العليل. كانت السماء مظلمة بسحب منذرة قادمة من البحر، ثمة شمس ضعيفة مطموسة الوجه كانت تغوص في الأرض خلف جبال البلدة القديمة... هذا استعراض للعضلات يا كوفي: «ثمة شمس ضعيفة مطموسة الوجه كانت تغوص في الأرض».

ولا حاجة لي كي أنذكرك أن السطر الأخير بعد الكلمة الأخيرة يجب أن يكون مرشوشا بالنقط في سخاء، نقط الكاتب كما أدعوها... لكن ربما سيكون لديك الصبر كي تسمعتني وأنا أقرأها لك كلها من البداية إلى النهاية...

- انتظر الآن، يا صاحبي الطيب. سأحكي لك قصة:

«كان يا ما كان ثلاثة رجال...»

- كوفي! يا كوفي! ليس هناك فن في هذه القصة: «كان يا ما كان ثلاثة رجال...» هذه بداية مبتدلة... انتظر الآن يا كوفي، الصبر دقيقة واحدة، دعني أتحدث. أعتقد أنني كاتب...

- أغلق فمك أيها القربة القديمة المثقوبة، أكمل يا كوفي...

- كان يا ما كان ثلاثة رجال، وكان هذا في سالف الزمان. كان يا ما كان ثلاثة رجال...

- نعم، أكمل يا كوفي، أكمل...

- كان يا ما كان ثلاثة رجال... آه، نعم، كان هناك ثلاثة رجال في سالف الزمان. ولا أعرف ما حدث لهم بعد ذلك...

- «... أقسم بالكتاب المقدس، الولد جاك...»

- ... خمسة في أحد عشر تساوي خمسة وخمسين، خمسة في ثلاثة عشر... خمسة في ثلاثة عشر... لم تتعلم هذه إطلافا... والآن إذا يا أستاذ، لا أعرفها! ... خمسة في سبعة، هل هذا سؤالك يا أستاذ؟ هل هو خمسة في سبعة؟... خمسة في سبعة... سبعة... انتظر لحظة الآن... خمسة في واحد بخمسة...

- لكني لا أفهم هذا يا مارجريت، بأمانة لا أفهم هذا. لقد كانت تتحدث عني بالسوء مع الأستاذ - أقصد كاترينا بودين تلك. لا غضاضة لدي، لكني لم أفعل أي شيء قط لأستحق هذا. أنت تعرفين جيدا يا مارجريت أنني لا أتدخل قط في شأن أي شخص، لكنني مشغولة دائما بالثقافة. وهناك صليب كبير زاہ فوق قبوري أيضا. باهر كما يقول الأستاذ الكبير. لقد أمانتني يا مارجريت...
- أعتقد أنه كان يجدر بك البدء في التعود على لسان كاترينا يا نورا جوني...
- لكن بالرغم من ذلك يا مارجريت...
- ... "مثل ثعبان بحر عالق في شص، بالحيلة أو بالحظ ستوقع كاترينا بفوراً جوني في الفخ."
- لكنها تحمل عليّ دوماً، ولا تتوقف قط، أنا فقط لا أفهم هذا، بأمانة...
- ... "في كل صباح بزغ كانت نورا جوني تجيء لتتفتت كاترينا كما تفعل بسمكة..."
- ... "ابنتي الجميلة، تزوجت ابنك باتريك، فجلب مهرها كوكخ الحقيقير قيمة وشكلاً..."
- "كاترينا، أنت عديمة الحياء، أنت حقيرة وحقودة،

حاولت أن تشوهي سمعتي وتدمري اسمي...

- ... أكانيبها يا مارجريت! بأمانة الله! أتساءل ماذا تقول لدوتي... يا لدوتي... لدوتي... ماذا تقول كاترينا بودين عني؟...
- فليرحمنا الله وينجيننا دائماً أبداً. أنا لا أعرف من تكونون على الإطلاق. أتمنى لو أنهم أعادوا بقاياي شرق برايت سيتي وأرقدوني مع أسلافي في تمبل براندون في السهول الجميلة لشرق جالواي...
- لدوتي! قلت لك من قبل، هذا النوع من الحديث "هراء مفرط العاطفية". ماذا قالت كاترينا؟
- سمعت أقدر حديث يمكنك تخيله منها عن أختها نيل. قالت: "عسى ألا تأتي جثة أخرى إلى المقبرة قبلها...". لن تسمعي حديثاً كهذا في السهول الجميلة شرق جالواي...
- لدوتي! لكن ماذا قالت عني؟...
- عن ابنتك...
- ... "لم يكن لديها قميص ولا ثوب زفاف غير ما اشترته لها من جيبي الخاص..."
- قالت إنك من نسل نوي الأقدام المتسخة وإنك مليئة بالبراغيث...
- لدوتي! *De grâce* ^(?)
- أنه كان هناك بحارة...

(?) بالفرنسية في الأصل *De grâce* وتعني من فضلك، رجاء..

- Parlez-vous français, Madame, Mademoiselle
- Au revoir! Au revoir!
- Mais c'est splendide. Je ne savais pas qu'il y avait une...

- *Au revoir* ⁽⁸⁾. بأمانة يا مارجريت، لولا أن دوتي تعرفني جيدا لصدقت هذه الأكاذيب... دوتي! «العاطفية المفرطة» مرة أخرى. أنت زميلتي الملائحة في بحر الثقافة الذي لا حدود له يا دوتي. ينبغي أن تتمكني من فلتره كل حكم مجحف وكل تحامل قبل أن يدخل عقلك، كما قال كليكس في رواية (رجلان وزمرة نساء)...
- ... كان الشاعر هو من ألفها، كما أقول...
- ياها هل كان هذا الانتهازي الصفيق؟...
- في الحقيقة إذا، لم يكن هو. لم يكن ليقدر على ذلك، بل كان مايكل أوكونيل الكبير هو من ألفها:

«كانت بابة بودين تعتنى بأصريكي عجوز

ولم تكن هناك فتاة أفضل منها يمكن العثور عليها في ولاية

مين...»

- بأمانة يا مارجريت، لقد نسيت كل ما يتعلق بأمر كاترينا بودين على وجه الأرض. إنها الثقافة يا مارجريت. الثقافة ترفع العقل إلى ذرى شامخة وتفتح قصور الجنيات السحرية التي تسكن فيها العناصر الخفية للصوت والروية، بالضبط كما قال نيبس في «ضفائر الغروب». يفقد المرء كل اهتمامه بالتفاهات البائسة

8- السطور الثلاثة في الحوار بالفرنسية في الأصل وتعني: «اتحدثون الفرنسية يا سبنسي، يا سبنسي...»، «والى اللقاء إلى اللقاء»، ولكن هذا راجع. لم تكن أعلم له كان هناك...» «جوداعاً.»

الحياة الكثيرة. ثمة اضطراب جليل قد تملك عقلي لبعض الوقت الآن، جاء نتيجة لانهماج ثقافي ثقيل...

... "ولم تكن هناك فتاة مثلها في ولاية مين كلها

جاءت للبيت مرتدية ثيابا باذخة

بالمال الذي تركته العجوز الشمطاء على اسمها...»

لم تتزوج بابة بودين قط، لكنها كانت تعتنى بحيزيون عجوز منذ ذهبت إلى أمريكا. ولعلمك، تركت العجوز لها مالها كله -حسنا، كله تقريبا- قبل أن تموت. كان يمكن لبابة بودين أن تملأ كل قبور هذه الجبانة بالجنينات الذهبية، على الأقل هذا ما يقولونه عنها يا دوتي...

... كان كوتي هو من اختلق كل هذا الهراء. من غيره؟

"آه، بابة يا عزيزتي..." قالت قطة كاترينا،

'لا تبالى بها يا عزيزتي...' قالت قطة نيل

'لو حصلت على الذهب...' قالت قطة كاترينا،

'إنه في حوزتي الآن يا عزيزتي...' قالت قطة نيل."

كانت كاترينا لتفضل أن تحمو اسم نيل من وصية بابة أكثر من أن تعيش لآلاف سنة أخرى...

"لديّ جيب عميق لطيف..." قالت قطة كاترينا.

'ولديّ جيب عميق لطيف...' ردت قطة نيل.

'يتسع لمال عجوز شمطاء...' قالت قطة كاترينا

'لم تعدك بابة...' قالت قطة نيل."

- لقد جعلت كل معلم موجود في المنطقة بأسرها يفقد عقله تماما
بالحاحها على جعلهم يكتبون إلى أمريكا من أجلها...

- ومانيون المحامي...

- أخبرني الأستاذ الكبير أنه كتب خطابات بليغة جدا من أجلها. لقد
التقط الكثير من اللهجة الأمريكية من الأفلام...

- ذلك عندما كان يُحضر الأستاذة إلى برایت سيتي في سيارته....

- الشيء الذي يضايق كاترينا حقا هو أنها ماتت قبل نيل. كثيرا ما
سمعتها وهي تصعد الزقاق وتتمتم لنفسها: "سأدفنها قبلي في
طين المقابر."

- ... قل لي الحقيقة يا كولي. هل كتبت هذا الهراء؟

- بل كتبه مايكل أوكونيل الكبير. وكتب "مؤال كاترينا" أيضا
و "مؤال..."

- ... لكن نيل مازالت حية. وستحصل على ما في وصية بابة الآن.
فلا يوجد أخ أو أخت أخرى، هي فقط...

- لست واثقة من هذا يا مارجريت. كانت بابة مغرمة جدا بكاترينا.

- هل تعرفين ما اعتاد رئيسي أن يقوله عنهم، آل بودين؟ كان يقول:

«متقلبون كديكة الرياح. لو نهب أحدهم إلى السوق ليشتري

بقرة سيعود بعد نصف ساعة بحمار. وسيقول لأول شخص

يلقي بملاحظة حول الحمار: «أتمنى لو اشتريت بقرة بدلا من

هذا الحمار الكسول العجوز! كانت لتغدو أكثر نفعاً...»

- ...ألن تأتي معي إلى البيت

هناك مكان لك أسفل شالي؛

وأقسم بكتاب الله، يا جاك الفتى،

سنغني للابد...»

- ... إنه لقب غريب بالنسبة لرجل فعلا يا دوتي... نعم، جاك الفتى.

يعيش هناك في أعلى أرض البلدة حيث كنت أعيش أنا وكاترينا.

وكتت أعرف الفتى الأصلي، والد جاك.... الفتى الكبير. كان واحدا

من آل فيني بالفعل... لا داعي للضحك يا دوتي... دوتي! "الفتى"

لقب مقبول مثله مثل "دوتي" في أي وقت. حتى لو أنك قادمة في

الأصل من سهول شرق جالواي؛ أقول لك إننا لم نفقس من بيض

ولم تربنا دجاجات مثلنا ملك...

- *De grâce* يا مارجريت...

- ... "سأتزوج جاك... قالت كلية كاترينا،

"سأتزوج جاك... قالت كلية نيل..."

- رفضت كاترينا رجالا كثيرين. كان أحدهم بيچ بريان. كانت لديه

قطعة أرض، وقدر من المال. نصحتها أبوها أن ترتبط به. لكنها

اعتبرته شخصا لا يستحق منها أن تمنحه قوتها...

- ... أبدا تلك الأغنية من جديد، وغنّها بشكل صحيح هذه المرة...

- نهض ابن الفتى ومضى...

- ... كان المرء ليعتقد أن الله وهب جاك الفتى روحا حتى يتمكن

من السير في الحياة مغنيا. لو سمعت صوته لمرّة واحدة فقط

لسنكتك بقية حياتك. لا أعرف كيف أصيغها الآن...

حلم موسيقي.

تلك هي العبارة الصحيحة يا نوراً، مثل حلم غريب، بالضبط، تكونين في كرب فوق حافة جرف عال، والهوة تغرق فاما تحتك، ترتعشين من الخوف... ثم تسمعين صوت جاك الفتى صاعدا إليك من الأعماق، يتغلب الغناء على خوفك، تتركين نفسك لتساق منطلقاً... تشعرين بنفسك تنزلق إلى أسفل... إلى أسفل... لتتقرب أكثر من ذلك الصوت...

أواه يا مارجريت! ياله من شيء ساحر! بأمانة...

لم ألتق قط أحداً يمكنه تذكر أي أغنية بالضبط كان جاك يغنيها. كنا ننسى كل شيء إلا الروح التي كان يضعها في صوته. كل فتاة في الحي كانت تعلق الدرب الملتوي الذي كان يطأه إلى باب بيته. كثيراً ما رأيت فتيات عند المستنقع بمجرد أن يلمحن جاك الفتى وحده فوق النجيل كن يزحفن عبر الطين والوحل فقط ليسمعنه يغني. رأيت كاترينا بودين تفعل هذا، ورأيت أختها نيل تفعل هذا...

شيء باهر تماماً يا مارجريت. يسمي المثقفون هذا بالمثلث الأبدي...

... "نهض جاك الفتى وتنسم هواء الصباح الباكر

وانطلق يطارد النساء بألاميه في السوق..."

... حدث بالفعل يوم سوق الخنازير الكبير أن فرت نيل بودين مع جاك الفتى. استشاط أهلها غضباً، قدر ما كان يمكنهم الغضب. لا أعرف إن كانت لديكم تلك العادة في شرق جالواي يا دوتي، أن

الابنة الكبرى لا بد أن تزوج أولاً...

... "حملته عبر مسالك المستنقع

ومن خلال السبخات والطين

ولم يبال أحد بطيور الكروان

التي انزعجت وفرت مبتعدة عن أفراخها..."

عاش جاك هناك في المستنقعات وكان كل ما لديه الأرض المقفرة والسبخة...

آه يا ماجي فرانسيس، لم أر قط دربا وعرا مثل الدرب المؤدي إلى بيت الفتى. ألم يلتو كاحلي تلك الليلة وأنا عائد إلى البيت من حفل الزفاف في...

... نعم حدث ذلك، لأنك كنت شرهًا مثل خنزير، كالعادة...

... ليلة الزفاف في بيت آل بودين انحشرت كاترينا في ركن الحجرة الخلفية بوجه بائس كأسبوع مطير. كانت هناك عصابة صغيرة منا هناك، وكانت نيل هناك. وبدأت تعيظ كاترينا: "أعتقد حقاً أنك ينبغي أن تتزوجي من بيج بريان..". هكذا قالت. وكانت تعرف جيداً أن كاترينا قد رفضته بالفعل...

كنت هناك يا مارجريت. قالت نيل: "لدي جاك الآن، وستترك بيج بريان من أجلك يا كاترينا."

جن جنون كاترينا. خرجت كعاصفة، ولم تقترب من الحجرة مرة أخرى حتى الصباح التالي. ولا ذهبت إلى الكنيسة في اليوم التالي...

- أوه، كانت لتفعل ذلك بالتأكيد. نسل الكلاب ذوي الأذن الواحدة...
- بعد كل هذا، لعلك، تزوجت كاترينا من جون توماس ليدون من حينها، دون أن تقول نعم أو لا عندما جاء يطلب يدها...
- بالله يا مارجريت، كان جون توماس جيدا أكثر مما يجب بالنسبة لها...
- كانت لديه قطعة أرض طيبة بها أفضل تربة خصبة...
- والرغبة في فلاحتها...
- وبيت فسيح جميل...
- سال لعباها على البيت بالطبع. أن تكون أفضل حالا وأكثر مالا من نيل. وأن تكون قريبة بما يكفي كي تتمكن نيل كل يوم من رؤية أنها أفضل حالا وأكثر مالا منها إلى نهاية أيامها...
- "الذي صقر ضخم.." قالت قطة كاترينا
- "الذي أفضل بقرات سمينات، وزيد وسمن كذلك..."
- "أنا رقيقة ونافعة، محبة ومحشمة، وهو ما لا يمكن أن يقال عن قطة نيل الصغيرة..."
- أن تُرى نيل أنها، كاترينا، لم تكن في الجانب الخاسر من الصفقة، وأن بمقدور نيل أن تتمتع بخيبتها وخساراتها، سمعت هذا وأكثر من فم كاترينا نفسها. كان هذا انتقامها...
- وا إلهي! لكن هذه قصة شيقة. أعتقد أنني لن أتضايق من جلسة القراءة اليوم مع الأستاذ الكبير... يا أستاذ... دعنا نفوت الرواية

- كنت أقطب باقة من زهور الخلنج ذاك اليوم يا مارجريت، ورأيته تتمشى في طريقها عبر المستنقع صاعدة التل الأصفر، رغم أن حفل الزفاف كان مستمرا في بيت الفتى...
- لم تخطُ بقدمها فوق عتبة جاك الفتى ذاك اليوم ولا أي يوم بعده. كنت لتحسبين أن نيل مصابة بداء الجدري من الطريقة التي كانت كاترينا تعاملها بها، لم تتسامحها قط على موضوع جاك...
- "... بريان عزيز بأرضه والأبقار
لكنه إن يكون في صحة قط من غير امرأة ودار..."
- ... رغم كل ثروته، فشل بيع بريان تماما في الحصول على امرأة. إنها لمعجزة صغيرة أنه لم يأت إليها زاحقا مرة أخرى...
- "... بحق إيليس..." تقول تريونا، «هاهو خنزير سمين صالح للتسخين،
ضعي الغلاية على النار؛ لعله يفهم الإنذار.»
- كانوا يستخدمون مقبض القدر في حالات كذلك شرقي براتي سيتي. في الوقت الذي جاء فيه بات ماكجراث يدق الباب...
- فترفضهم بهذه الطريقة أيضا في هذا الجانب من المدينة يا دوتي بأمانة، في حالتي على سبيل المثال...
- أسمعت بما فعلته أخت الخياط عندما جاء عاطل عجوز من بحيرة ديرري طالبا يدها؟ أخرجت سكيننا طويلا من الخزانة، وبدأت في شحذه في منتصف أرضية الحجر. وقالت: «أمسك به من أجلي...»

القصيرة اليوم... لديّ عمل فكري آخر أقوم به. *Au revoir*...

كانت كاترينا تعمل بجد ومهارة ونظافة في بيت جون توماس ليدون. أعرف هذا جيدا؛ حيث كنت أسكن البيت المجاور لها. لم تطلع الشمس عليها قط وهي في الفراش. وكان مشط صوفها وعجلة غزلها يدوران مثرثرين ومهترزين في جلبة حتى وقت لا بأس به من الليل...

وكان بيتها موبيا لهذا يا مارجريت. كانت لديها الثروة والأسباب...

... دخلت متبخترا محل ياري للمراهنات في برايت سيتي. كنت أضع يدي في جيبي وكأنّ به كومة من المال. وكل ما كان في حوزتي شلن. ألقيت به على المنضدة فجلجل وصلصل. قلت: "التفاحة الذهبية، سباق الساعة الثالثة. مائة إلى واحد... قد تفوز..." قلت وأنا أضع يدي في جيبي وأخرج مختالا...

... من المحزن أنني لم أكن هناك يا بيتر. لم أكن لأدعه يفلت بها. لا ينبغي أن تترك مهرطقا أسود كهذا يهين دينك.

"دين آباؤنا، الإيمان المقدس

سنكون مخلصين لك حتى الموت

سنكون مخلصين لك حتى الموت..."

أنت واهن عديم الدم يا بيتر. بتركك له يتحدث هكذا. لم أكن هناك كي ...

ضعا سداة تغلق هذا الحديث! لم يكف كلاكما عن الجدل حول الدين طوال الأعوام الخمسة الماضية...

... ومع ذلك يا مارجريت يقولون إنه بعد كل التمر الذي أبدته

كاترينا تجاه نيل فقد سعدت بها عندما مات زوجها. كانت في حالة سيئة ذلك الوقت. حيث كان باتريك مازال صغيرا بعض الشيء...

أنا سعدت بنيل! أنا سعدت بنيل! أنا كنت لأخذ شيئا من نيل؟ يا ربنا وأيانا القدير بملائكته المباركين، هل كنت لأخذ شيئا من وجه الخنزيرة تلك! سأنفجرا! سأنفجرا!...

٦

... "يساتين القراص في قرية دوناه، أنت قلت.

حتى القراص لم يكن لينمو على تلال قريبتكم، فيها براغيث أكثر من اللازم...

... سقطت من فوق كومة من الشعير...

صدّق! إذًا، كما تقول، كنا أنا وذلك الرجل من قرية منلو نكتب لبعضنا البعض...

... "أتساءل هل هذه هي حرب الأجنبيين^(٩)؟" قلت هذا لباتشي جوني...

استيقظ يا رجل! انتهت هذه الحرب منذ عام 1918...

كانت مازالت دائرة عندما كنت أحتضر...

(٩) الإشارة هنا إلى الحرب العظمى الأولى. (من مؤامرات الترجمة إلى الإنجليزية)

أقول لك استيقظ. ألم تمت منذ حوالي ثلاثين عاما؟ الحرب الثانية
داثرة الآن...

أنا هنا منذ واحد وثلاثين عاما. يمكنني الزهو بشيء لا يمكن لأي
واحد منكم أن يزهو به: كنت أول جثة في المقبرة. ألا تعتقدون
أن أقدم ساكن في المقبرة ينبغي أن يكون لديه شيء يقوله؟
أطلب الإذن بالحديث. الإذن بالحديث...

... فعلا وقتها كانت لدى كاترينا الثروة والأسباب يا مارجريت...
كان لديها بالفعل. لكن رغم أن بيتها كان أفضل من بيت نيل، إلا
أن نيل لم تترك الأمور تنقلت منها كذلك...

بارك الله في برانتك يا مارجريت! لم تبالي شي ولا جاك بشيء
غير التحديق ببلاهة في عيني أحدهما الآخر والغناء حتى كبير
ابنهما بيتر وأصبح قادرا على القيام ببعض العمل في تلك الأرض
السخية وتنظيف بعض هذه القفار البرية.

لم يكن لدى نيل قرش باسمها حتى أتت ماجي ابنة بيغ بريان
بمهرها.

رغم كل انتقاداتك لبيتها، إلا أن ما أنقذها حتى النهاية هو قربه
من النهر والبحيرة حيث كانت بعض الدجاجات البرية في
الجوار. بالطبع لا أحد يعرف عن الأموال التي كان يعطيها صيادو
الدواجن والسماك لها. أنا شخصيا رأيت الإبريل يضغط جنبها
ورقيا في راحة يدها؛ جنبه ورقي جديد ناضر...

تسمون المستنقعات «fens» عندهم في سهول شرق جالواي
الجميلة يا دوتي. سمعت أيضا أنكم تسمون القط «صائد الفئران»

والمقط «صديق النار»... في الحقيقة يا دوتي، هذه ليست اللغة
الآيرلندية القديمة الحقيقية...

فليكن الرب في عوننا دائما أبدا...

... "سنرسل الخنازير إلى السوق" قالت قطة كاترينا.

"ستكسبون أكثر مع العجول". ردت قطة نيل.

... ليست هناك أدنى مبالغة عندما أقول إن كاترينا كانت تضيف
أجزاء لصلواتها تدعو فيها أن يحل العوز والخراب على نيل.
وكانت تتبجح عندما يموت أحد عجولها أو يتعفن محصولها من
البطاطس...

وأنا لن أنطق بكذبة عن أحد يا مارجريت. ليسامحتي الرب إن
فعلت هذا! تلك المرة عندما هشمت الشاحنة سائق بيتر ابن نيل،
قالت كاترينا في وجهي مباشرة: «أنا سعيدة لأنها صدمته.
الطريق واسع بما فيه الكفاية. هذا ما تستحقه العاهرة!...

"لقد فازت نيل بهذه الجولة على أي حال» هذا ما قالته يوم دفن
زوجها جون توماس ليدون...

دفن في المقبرة الشرقية. أتذكر هذا جيدا، ولدي سبب وجيه
لذلك. فقد التوى كاحلي، بالضبط حيث انزلت على الحجر...

حيث أكلت بشراسة كالحنزير، كما كنت تفعل عادة...

... أن يكون لديها محصول من البطاطس أكبر مما لدى نيل،
ويكون لديها خنازير ودجاج وشعير أكثر، وبيت أنظف وأكثر
أناقة، أن يكون لدى أطفالها ملابس أفضل: كان كل هذا جزءا من

انتقامها. كان انتقامها...

... "جاءت للبيت مرتدية ثيابا بانخة

بالمال الذي تركته العجوز الشمطاء على اسمها."

أصبحت بابة بودين بنوبة مرض في أمريكا اقترب بها من الموت.

وكانت ماجي ابنة بيغ بريان هي من اعتنت بها. وأحضرت ماجي

معها إلى الوطن...

... "واتخذت بابة من بيت كاترينا مأوى..."

نادرا ما كانت تقترب من بيت نيل. كانت تسكن بعيدا عن الطريق

أكثر من اللازم وكان الدرب المؤدي إليها وعرا للغاية على بابة

بعد مرضها. كانت تشعر براحة أكبر في بيت كاترينا على نحو

ما...

... "بيت نيل الصغير ليس إلا كوخا حقيرا

ولا ضمير يمنعها من إطلاق الأكاذيب

كانت الحمى موجودة هناك، ولا فائدة من إنكار هذا

وإذا أصابك هذا الوباء، ستموت لا محالة..."

... لم يكن لدى كاترينا غير ابن واحد في البيت، باتريك..."

ماتت ابنتان لها...

لا، بل ثلاث. ثمة ابنة أخرى في أمريكا. كيت.

أنتكرها جيدا يا مارجريت. القوى كاطلي في اليوم الذي رحلت

فيه.

60

بابة وعدت باتريك ابن كاترينا أنها لن تراه معوزا لبقية أيامه إن

تزوج ماجي ابنة بيغ بريان. كانت كاترينا تكن كراهية لا تموت

تجاه بيغ بريان، وكذلك تجاه كلبه وابنته. لكن ماجي كانت لتأتي

بمهر كبير، واعتقدت كاترينا أن بابة ستكون أكثر ميلا لترك كل

مالها في بيت كاترينا باسم ماجي. وهكذا تتفوق على نيل...

... "اتخذت بابة من بيت كاترينا مأوى

حتى رفض باتريك الزواج من ماجي ابنة بيغ بريان.

لنورا جوني ابنة جميلة شقراء

أحببتها دوما دون نهب أو أرض..."

مستواها أعلى من جورت ريبوك!

كانت ابنة نورا جوني امرأة جميلة الطلعة، أقسم بالله...

... هذا ما أوغر صدر كاترينا ضد ابنتك منذ البداية يا نورا جوني.

هذا الكلام عن المهر ليس إلا ذريعة. منذ اليوم الذي خطت فيه

ابنتك داخل بيتها زوجة لابنها، وهي تتنمر عليها ككلب وضع

مخلبه على عظمة وجاء كلب آخر يحاول خطفها منه. كم مرة

كان عليك أن تأتي لابنتك من جورت ريبوك يا نورا؟...

... "في كل صباح يرغ كانت نورا جوني تجيء..."

يا الهي! نحن نقرب من الجزء المثير في القصة الآن يا مارجريت،

أليس كذلك؟ يتزوج البطل من حبيبته، لكن هناك امرأة أخرى

تكمن بعيدا في الخلفية. هي مهزومة في المعركة الآن، لكن

هناك المزيد من الاضطرابات قادمة... خطابات مجهولة الراسل،

تلميحات عن علاقات البطل النسائية، قتل ربما، طلاق بالتأكيد...
يا إلهي!...

... «لم أكن لأتزوج بيج بريان...» قالت قطة كاترينا...

ضع بضع سطور أخرى من عندك الآن...

«الكثك حاولت إيداءه...» ردت قطة نيل...

«لكني كنت لأتزوج ابنته...» قالت قطة كاترينا ردا على هذا.

«عندئذ قالت قطة نيل: تلك فرصة لن تتاليها.»

ما ضايق كاترينا هو أن بابة رحلت وأقامت في بيت نيل ربما أكثر من حصول ابن نيل على المهر والمال التي كانت بابة قد وعدت به ابنتها باتريك...

أتذكر هذا جيدا يا مارجريت، اليوم الذي عادت فيه بابة إلى أمريكا. كنت أقطع القش في المرحج الأحمر عندما رأيتهم يهبطون نحوي من بيت نيل. عدوت لأقول لها وداعا، ويشهد الله أنني بينما كنت أفرغ فوق المصرف المزدوج التوي...

ألا تعتقدين يا مارجريت أنه قد مرت عشرين سنة منذ عادت بابة يودين إلى أمريكا؟...

لقد رحلت منذ ستة عشر عاما. لكن كاترينا لم ترفع يدي عينيها عن الوصية. لولا هذا لماتت منذ زمن بعيد. أضاف حديثها بالسوء عن زوجة ابنتها أوعاما إلى حياتها...

نعم يا مارجريت، والسعادة التي كانت تنتابها بالذهاب إلى الجنائزات طوال الوقت.

وأرض توماس الداخل...

اسمع الآن يا كوران:

«كانت أموال المذبح الكثيرة عزاء صغيرا...»

لا تعر انتباها لهذا الوعد يا كوران. فهو لا يستطيع نظم سطر واحد من الشعر...

القصة مملة إلى حد كبير الآن يا مارجريت. بأمانة. ظننت أنه ستكون بها إثارة أكبر...

... اسمع يا كوران، اسمع السطر الثاني:

«ومما يزيد من فضري أن أكون في مقبرة الجنيه...»

بأمانة يا مارجريت. ظننت أنه سيكون هناك على الأقل جريمة قتل وطلاق، لكن يمكن لدوتي أن تحلل كل أحكامي الخاطئة...

وجدتها وحق السماء يا كوران! اسمع الآن:

«سلبٌ على قبري سيجعل قلب نيل يشقائق»

«في طين المقابر سأكون قد فزت بالسباق...»

بريان. في الليلة التي تزوجت فيها نيل، هذا ما قالته العاهرة في وجهي:
«بما أن لديّ جاك، سنترك بيج بريان من أهلك يا كاترينا.»

سدقيني يا مارجريت، تلك الكلمات القليلة جرحتني أكثر من كل الخطايا الأخرى التي فعلتها بي مجتمعة. تلك العبارة كانت أشبه بسرب من أبناء «رس يزمجرون ورائحين غادين في عقلي ويبخون سما. لم أطردها من رأسي حتى يوم مماتي. لم أفعل يا مارجريت. في كل مرة أرى بيج بريان كنت أتذكر تلك الليلة، بتلك الحجرة من البيت، بتلك الابتسامة الساخرة العريضة على وجه نيل بين ذراعي جاك الفتى. كل مرة أرى ابناً أو ابنة لبيج بريان كنت أتذكر تلك الليلة. كل مرة يذكر فيها أحد بيج بريان كنت أتذكرها... الحجرة... الابتسامة العريضة... نيل بين ذراعي جاك الفتى... بين ذراعي جاك الفتى...

لديني بيج بريان مرتين يا مارجريت. لم أخبرك بهذا قط... ما هذا الذي قلت إن نورا جوني تدعوه به؟ المثلث الأبدى... المثلث الأبدى... كان هذا هراؤها السخيف حقاً... لكن يا مارجريت أنا لم أخبرك، أليس كذلك؟... أنت مخطئة. لست ذلك النوع من الأشخاص يا مارجريت. أنا لست لثارة. أي شيء خاص بي، أي شيء رأيته أو سمعته، حملته إلى بين المقابر معي، لكن لا ضرر من الحديث الآن بما أننا في طريق الطفولة الأبدية... طلبني مرتين بالفعل. جاء في المرة الأولى ولم أكن قد تجاوزت العشرين بكثير. أراد أبي أن أوافق على الزواج منه. وقال: «بيج بريان رجل صالح مُجْدٌ في عمله لديه بيت دافئ ومحظوظة تقود سميئة.»

لكن إن أتزوج حتى لو اضطررت لاستعارة الشال من نيل والوقوف أمام الجميع في منتصف السوق.»

أملاً مارجريت!... هل يمكنك سماعي يا مارجريت؟... لا تخجل نورا جوني من الحديث إلى أستاذ المدرسة... بالطبع هذا صحيح يا مارجريت. طبعاً يعرف الجميع أنها نسبيتي. لا أبالي بهذا، لكن في مكان كهذا حيث لا توجد أي خصوصية وليس لأحد حرية التصرف. تعالي الرب القدير! مومس! هي مومس! وكانت مومس دوماً. عندما كانت تعمل خادمة في برايت سيتي قبل أن تتزوج، يقولون -ونحن لا نريد حتى أن ننتذكر هذا!- إنها كانت تراقب بخاراً...

بالطبع فعلت يا مارجريت... أخبرت. قلت له: «يا باتريك يا حبيبي، تلك المرأة من جورث ريبوك التي أنت عازم على الزواج منها، هل سمعت أن أمها كانت تراقب بخاراً في برايت سيتي؟»

فقال: «وماذا في ذلك؟»

فقلت: «أه! يا باتريك، البحارة كما تعرف...»

فقال: «مه! البحارة.. ألا يمكن لبخار أن يكون محتشماً كأني رجل؟ أعرف من كانت أم هذه الفتاة مرتبطة به في برايت سيتي، لكن أمريكا أبعد منها كثيراً، وليس لديّ أي معرفة بمن كانت ماجي ابنة بيج بريان تخرج معه هناك. ربما مع رجل أسود...»

بالطبع يا مارجريت، السبب الوحيد وراء طلبني من ابنتي أن يأتي بابنة بيج بريان إلى بيتي هو أنني لم أرد أن أمتح نيل الرضا بالحصول على المال. أقسم بالله يا مارجريت أن لديّ سبباً جيداً لعدم حبي لابنة بيج

فقال أبي: «لم هذا؟»

قلت له: «لن أتزوج منك أبها المعتوه القبيح، حتى لو نمت علي بيوت العناكب في انتظار أن يأتي إلي رجل.»

كنت قد وضعت ملقاط النار جانبا وأمسكت بالغلاية في يدي، وبدون لحظة تردد يا مارجريت جريت نحوه في منتصف الحجرة. لكنه كان قد شق طريقه خارجا من الباب.

أعرف أنه من الصعب إرضائي فيما يتعلق بالرجال. كنت جميلة بما يكفي وكان لدي مهر محترم... لكن الزواج من بيغ بريان يا مارجريت بعد ما قالته نيل...

... «يمكن أن تفوز..» قلت وأنا أضع يدي في جيبتي وأخرج مختلا. «والآن كل شيء أو لا شيء»، قلت وأنا أتناول التذكرة من الفتاة. ابتسمت لي: ابتسامة بريئة من قلب شاب ليس به مكر. قلت: «لو فازت التفاحة الذهبية، سأشتري لك حلويات وأصحبك إلى السينما... أم تفضلين القليل من الرقص؟... أم مشروبين في خصوصية استراحة البار في فندق ويسترن هوتيل؟...»

- ... *Qu'est-ce que vous dites? Quelle drôle de langue! N'y a-t-il pas là quelque professeur ou étudiant qui parle français?*
- *Au revoir. Au revoir.*
- *Pardon! Pardon!*^[22]

• اخرس يا مغفل!

(1) - بالفرنسية في الأصل: «ملا تقول! وإلها من لغة مضحكة! ألا يوجد أستاذ أو طالب يتحدث الفرنسية؟» «رداعا وداعا» «مضربا مضربا»

فقلت: «لأنه رجل بائس قبيح. انظر إلى لحيته المضحكة كحبة الماعز. انظر إلى أسنانه العلوية البارزة. انظر إلى أنفه الطويلة. إلى ساقه المقوسة. انظر إلى كوخه الصغير القذر الذي تسميه بيتا. انظر إلى طبقات القذارة على جسده. إنه أكبر مني ثلاث مرات. كان من الممكن أن يكون جدي.»

وكنت على حق. كان في حوالي الخمسين من عمره وقتها. وقد بلغ المائة تقريبا الآن، وهو مازال حيا ولا يشكو من مرض باستثناء وخزات الروماتيزم العرضية. كان ينهب ليقبض المعاش في نفس الوقت الذي كنت أذهب فيه عندما كنت مازلت فوق الأرض. ذلك الرجل السخيف القبيح!...

قال أبي: «الطفل العنيد لا يتبع سوى رأيه» وكان هذا كل ما قاله بشأن هذا.

لم يكن قد مر وقت طويل على زواج نيل عندما جاء مرة أخرى يطلبني. كنت أعد لتوي كوبا من الشاي في المساء وظلال الليل تخيم. أتذكر ذلك جيدا. كنت قد وضعت إبريق الشاي على الموقد بينما أحاول أن أفتح بعض الحياة في الجمرات. ودخل هذا الرجل على غير توقع تماما حتى قبل أن أتمكن من تمييزه. «هل تتزوجيني يا كاترينا؟» قالها هكذا دون حياء. «أعتقد أنني أستحقك: بما أنني جئت هكذا مرة ثانية. وبما أنه ليس من المناسب لي أن أستمر في العيش هكذا دون امرأة قوية لطيفة...»

أقسم بروحي أن هذا ما قاله بالضبط.

- كنت أعرف دائما يا مارجريت أن الأستاذ الكبير ليس متعلما جدا.
لا يهم إن كان لا يفهم رجلا فرنسيا! كان ينبغي أن أعرف هذا منذ
زمن بعيد...

- نورا جوفي تفهمه أكثر من أي شخص آخر في المقبرة. ألم
تسمعها وهي ترد عليه منذ قليل؟...

- آه، فليكن لديك قليل من العقل يا حاجي فرانسيس. أتقصد
نورا ذات القدمين المتسختين براحتيها الكريهة؟

- *Ils m'ennuient. On espère toujours trouver la paix
dans la mort, mais la tombe ne semble pas encore
être la mort. On ne trouve ici en tout cas, que de
l'ennui...*

- *Au revoir. Au revoir. De grâce. De grâce.*⁽¹¹⁾

... ستة في ستة بستة وأربعين، ستة في سبعة بائنين وخمسين،
سته في ثمانية بثمانية وخمسين... والآن ألتست جيدة يا أستاذ!
أعرف جدول الضرب حتى الستة. لو ذهبت إلى المدرسة طفلة
لم يكن ليوقفتني شيء. سأقول جدول الضرب لك من البداية الآن
يا أستاذ. اثنان في واحد... لماذا لا تريد أن تسمعها يا أستاذ؟
أنت تهملني في الآونة الأخيرة، منذ أخبرتك كاترينا بودين بأمر
زوجتك...

... أقسم بخشب بلوط هذا التابوت، يا كوران، لقد أعطيتها الجنية،
أعطيت الجنية لكاترينا بودين. ولم أره بعدها مرة أخرى...

- لو بإمكانني بلوغ هذا المغفل لأخبرته! إما هذا أو أجعله يتكلم
بما يليق كمسيحي. كلما جاء ذكر هتلر يبدأ في الغممة بسيل
من الكلام يخرج منه، لو فهم أحد حديثه ذلك، أعتقد أنه لا يعترف
بجميل هتلر.

- ألم تسمعه في كل مرة يرد فيها اسم هتلر يقول «meirdreach»⁽¹¹⁾
على الفور. لقد التقط هذا الحد من اللغة الأيرلندية على أي حال...

- آه فقط لو أستطيع الوصول إليه! يحيا هتلر! يحيا هتلر! يحيا
هتلر! يحيا هتلر!...

- *Je ne vous comprends pas, monsieur...*⁽¹²⁾

- من هذا يا مارجريت؟
- هذا هو الشاب الذي قُتل في حادث تحطم الطائرة. ألا تذكرين؟
سقط في منتصف الخليج. كنت حية آنذاك.

- بالطبع، ألم أره ممددا يا مارجريت؟... حظي بجنازة رائعة. قالوا
إنه كان بطلا نوعا ما...

- دائما ما يثرثر هكذا. يقول الأستاذ إنه رجل فرنسي وأنه كان من
الممكن أن يفهمه لو لم يكن لسانه بطينا بسبب بقاءه طويلا جدا
في الماء المالح...

- إنذا الأستاذ لا يفهمه يا مارجريت؟

- ولا حتى كلمة يا كاترينا.

11- ربما يقول الرجل الفرنسي «merde» التي تعني: الإحرق والتي تُسمع خطأ «meirdreach»
والتي تعني بالأيرلندية: العاهرة. (من هوامش الترجمة إلى الإنجليزية)
12- بالفرنسية في الأصل: «أنا لا أفهمك يا سيدي...»

(11) بالفرنسية في الأصل: «إنهم يزعمونني، نقل نامل في أن نجد الراحة في الموت، لكن لا يبدو
أنه موتا في المقبرة، على أي حال لا يوجد هنا غير المثل...» - «وداعا. وداعا. من فضلك»
في الأصل

بالسماء! هذا كذب، أيتها الشمطاء العجوز...

بأمانة يا دوتي، لن تفهمي: غريبة من سهول شرقي جالواي. تلك هي الحقيقة، الحقيقة الصادقة يا دوتي. كنت سأقول: «قسما بالإصبع الصغير المبارك...» لكن هذا كلام المتشردين. وبدلا من هذا يا دوتي سأقول: «سأضع الصليب المبارك على قلبي»، حكمت لك مارجريت عن نفسها وعن نيل، لكنها لم تحك لك قط عن المهر الذي أعطيته لابنتي عندما تزوجت في بيت كاترينا. ينبغي أن تعرفي هذا الآن يا دوتي. بقيتهم هنا يعرفون بالفعل. مائة وعشرون جنيتها يا دوتي. بأمانة! مائة وعشرون من الجننيات الذهبية...

بالسماء! مارجريت! مارجريت! أتسمعين؟ سأنفجرا! سأنفجرا! يا مارجريت! سأنفجرا! يا مارجريت! ابنة نورا جوني... مائة وعشرون... مهرها... لتدخل بيتي... سأنفجرا! سأنفجرا! أه، سأنفجرا! سأنفجرا! سأنفجرا! سأنفجرا! سأنفجرا!...

الفاصلة الثانية الطين المثور

I

كانت تطلبها. إذا لم أقم بطعنك، كان شخص آخر سيطعنك، ثم أليس الأحمق وخادمه سواء؟ وبما أنك كنت ستطعن على أي حال، أليس من الأفضل أن يطعنك واحد من جيرانك بدلا من أن يطعنك غريب؟ كان الغريب ليُدفن على بعد أميال، ربما، هناك في وديان شرق جالواي المنبسطة، أو هناك في ديلن، أو حتى في بقعة نائية في مكان ما من الريف، وبماذا كنت لتفعل عندئذ؟ انظر إلى الرضا الذي تناله وأنت تسلفني بألسنة حداد هنا. لو كان الغريب راقتا إلى جوارك، ستفشل في «عرفة ما تلقي به في وجهه، لأنك لن تعرف شيئا عن أصله وقصته ونسله. اعقل حالك يا صاحبي! لن يفرق الأمر معك، لكنني طعنك طعنة بالطفة...

اشتهر نسل الكلاب ذوي الأذن الواحدة بطعن الناس بنظافة!...

... مهرة بيضاء الوجه... كانت الأفضل...

... بحق بلوط هذا التابوت، يا جوان الببغاء، أعطيت كاترينا بوندين الجنية...

... هكذا سار الأمر. ذهبت إلى مكتب وكيل المراهنات حوالي

الساعة الثالثة. قلت: «التفاحة الذهبية، لعلها تفوز..» قلت وأنا واضح يدي في جيوبي واستدرت على عقبي خارجا من الباب. لم يكن معي مليح أحمر...

دقت الساعة الثالثة. انتهى السباق. فازت «التفاحة الذهبية»: مائة إلى واحد. نهبنا ولأخذ ورقة الخمسة جنبيات الخاصة بي. منحتني الفتاة تلك الإبتسامة مرة أخرى: ابتسامة مشرقة من قلب شاب لا يحمل ضغينة. كان هذا يعني لي أكثر من الخمسة جنبيات. قلت: «سأشتري لك الحلويات، أو سأصطحبك إلى السينما أو الرقص... أم تفضلين...» شعرت بالدرج ولم أكمل الجملة. قلت: «سأقابلك خارج الساحة في الساعة السابعة والرابع.»

ذهبت إلى البيت. حلقت ونظفت وغسلت وهبأت نفسي. لم أشرب حتى قطرة من أجل الحظ الجيد. كان لدي احترام بالغ لتلك الإبتسامة الحلوة من قلب شاب لا يحمل ضغينة...

ذهبت إلى الساحة في الساعة السابعة. فككت ورقة الخمسة جنبيات بشرائي علية شيكولاتة لها. ستجلب الشيكولاتة مزيدا من البهجة لذلك القلب الشاب الذي لا يحمل ضغينة، وستكون إبتسامتها أشبه بوردة في أشعة الشمس الأولى للصبح البازغ. باللعار من كوني فضلا غليظ القلب أنا نفسي!...

انتظر الآن حتى أقرأ لك الإعلان الذي أصدره إيمون دي فاليرا لشعب آيرلندا: «يا شعب آيرلندا...»

انتظر أنت حتى أقرأ لك الإعلان الذي أصدره آرثر جريفيث للشعب آيرلندا: «يا شعب آيرلندا...»

... شربت اثنين وأربعين قدحا تلك الليلة واحدا في أثر الآخر. ومشيت عائدا إلى البيت بعد ذلك مستقيما كعمود الغاب... أقول لك مستقيما كعمود الغاب. سحبني عجلا من البقرة الرقطاء، التي كانت تعاني آلام المخاض منذ ساعتين بالفعل. قذت الحمار العجوز خارج حقل الشعير الخاص بكوران... وقيدت توماشين. كنت قد خلعت حدائي للتو وعلى وشك الركوع لتلاوة بعض الصلاة، عندما دخلت الفتاة الصغيرة. كانت أنفاسها مقطوعة تماما. قالت: «ماما تقول إنك يجب أن تأتي حالا، لقد أصاب الجنون بابا مرة أخرى.»

أقول: «فلماذا يجنونه إلى الجحيم، ألا يختار الوقت المناسب؟ كنت على وشك تلاوة صلاتي. ما خطبه اللعين هذه المرة؟»

أقول: «يجرع ويسكي بوتين كما لو كان ماء...»

العلقت إلى هناك. كان قد جن جنونه ولا أحد في البيت بمقدوره أن يسهطر عليه. لا يمكنك أن تقول إلا أنهم كانوا حقة من الجبناء...

أنا: «هيا، انتوا لي بالحبل سريعا قبل أن يمسك بالبلطة، ألا يمكنكم أن أروه وهو ينظر إليها...»

أذكر الأمر جيدا. فقد التوى كاحلي...

فزنا بالمباراة.

ولا قطعة منه. لو لم يدمر اللغم البيت...

... «غسلت وجهي بئدى الصباح،

ومشطت شعري بريح يدي...»

ليس صحيحا بعد يا كوران، مازال هناك جزء ضائع هناك. انتظر دقيقة الآن:

"غسلت وجهي بندى الصباح..." هذا الجزء ممتاز تماما يا كوران. استخدمته بالفعل في (النجوم الذهبية). انتظر دقيقة الآن... استمع إلى هذه يا كوران:

"غسلت وجهي بندى الصباح

ومشطت شعري بريح يدي..."

هذا ممتاز تماما. كوران، كنت أعرف أنني سأأتي بها في النهاية... هل تنصت الآن؟

"غسلت وجهي بندى الصباح،

ومشطت شعري بريح يدي..."

وكان رباط حذائي في لمعان قوس قزح..."

انتظر الآن يا كوران... انتظر لحظة... وجدتها... "وكان نجم الثريا يراقب بنطالي..." كنت أعرف أنني سأأتي بها يا كوران. استمع إلى المقطع كله الآن...

فليأخذك الشيطان بلا رجعة حتى لا تزعج الناس بعد ذلك! لقد أصبت عقلي بالعتة طوال العامين الماضيين بأشعارك الناقية لدي أشياء أخرى أسوأ تشغل بالي، فليسامحني الله؛ ولدي الأكبر يستمع مع ابنة رود إند، وزوجتي في البيت تستعد لتسليم المكار له. وفوق كل هذا، لا فكرة لدي إن كانت حمير جلاتون العجوز

أم ماشية رود إند هي ما ترعى في حقل الذرة الخاص بي الآن... أنت على حق تماما بشأن هذا يا كوران. كان ينبغي أن يدفونوا قطعة الخراء تلك في المقبرة الشرقية. مايك أودونيل هناك، الرجل الذي كتب «أغنية اللفت.» و«حرب الدجاجة مع حبة القمح»... ومايك كونولي الكبير الذي ألف «أغنية كاترينا» و«أغنية توم بجوار المدفأة»...

و«مزمور القطة». إنها عمل مدهش، «مزمور القطة». لم أتمكن قط من عمل شيء كهذا، قط...

... ثمانية في ستة بثمانية وأربعين، ثمانية في سبعة بأربعة وخمسين... أنت لا تنصت على الإطلاق يا أستاذ، عقلك مشغول هذه الأيام... وأنا لا أحقق أي تقدم!... هل هذا ما قلته يا أستاذ؟ لا عجب يا أستاذ، مع الطريقة التي تهملني بها... أجب لي على هذا... كم جنولا هناك على أي حال يا أستاذ؟... هل هذا كل شيء؟ أوه، إذا كان هذا كل شيء، إذا... يا للعجب! ظننت أن هناك ما لا يقل عن المائة... أو ما يصل إلى الألف... حتى المليون... حتى الكوادريليون... لدينا الكثير من الوقت لتمضية راقدين في القبر، هذا ما يقولون. هذا الذي خلق الوقت صنع الكثير منه...

... ساعدنا يا الله! أليس تلك مأساة لأنهم لم يتقنوا عظامي الفاتية شرق برايت سيتي ويدفنونني مع عشيرتي في معبد برينان في سهول شرق جالواي الجميلة! الطين هناك رقيق⁽¹⁴⁾ ومضياف، الطين هناك ناعم ومتفتت، الطين هناك ودود وحنون، الطين

14 في شرق جالواي يخلق الحجر الجيري، في التربة سهولا خصبة ومضياف، على عكس أرض جبال الغامبية ذات الصخور الجرانيتية والمتحولة. (من مؤامرات الترجمة إلى الإنجليزية)

... نورا جوتي... نورا جوني... نورا ذات القدمين المتسختين!... لم تقمعي بترك عادتك الوسخة في حكي الأكاذيب فوق الأرض فجليبيتها معك إلى تحت الأرض أيضا. فعلا، المقبرة بأكملها تعلم أن الشيطان نفسه -والعياذ بالله!- قد أعارك لسانه عندما كنت مازلت على شدي أمك، وقد استخدمتني ببراعة كبيرة من وقتها حتى أنه لم يطلب قط استعادته...

أما بالنسبة لتقديم مائة وعشرين جنيتها مهرا للموس الصغيرة التي هي ابنتك... عال! عال!... امرأة لم تملك خيطا من ثياب تضعه عليها يوم تزوجت، لولا أنني اشتريت لها طبقا... مائة وعشرون جنيتها من نورا المسخة القدمين... لم يكن هناك أصلا مائة وعشرون جنيتها في جورت ريبوك بأسرها. جورت ريبوك ذات البرك، أظن أنك أكثر تكبرا الآن من أن تلهمي البط... مائة وعشرون جنيتها... مائة وعشرون برغوثا! لا، الأرجح مائة ألف برغوث. كان هذا أكثر المخلوقات شموعا لدى نورا الأقدام المسخة، فعلا إننا يا نورا، لو كانت البراغيث مهرا لامتلك ذلك الأحمق الغبي الصغير الذي تزوج ابنتك ما يكفي لجعله فارسا في قلعة تسع مرات. لقد جلبت قطيعا كبيرا منهم إلى بيتي معها...

إن يوم ويل لي يا نورا، أول يوم رأيتك فيه أو رأيت ابنتك تحت سقف بيتي... ذلك المشيء الصغير الأعرج، وهذا بالضبط ما هي عليه. فعلا يا نورا، هي ليست مفخرة لك: امرأة لا تستطيع أن تضع دثارا حول طفلها أو تغطي فراش زوجها، أو تنظف رمد الأسبوع أو تمشط شعرها الملبد...

هناك وافي ومريح، تحلل القبر لن يكون تحللا هناك، وفساد اللحم لن يكون هناك فسادا هناك. لكن الطين سينتلقى الطين، الطين سيقتل ويعانق الطين، الطين سيندمج مع الطين...

- إنها تعاني من نوبة أخرى من «العاطفية المفرطة»...
- لا يمكنك أن تري أحدا بكل هذا الجنون إلا عندما تتأبها هذه الحماقة...
- طبيعتها، ساعدنا يا الله! كاترينا أسوأ بكثير، بمجرد أن تبدأ في الحديث عن نيل ونورا جوني...

- لقد تجاوزت كاترينا الحد تماما. كان بيع بريان على حق عندما أسماها البيغلة...

- لم يكن بيع بريان على حق. بأمانة، لم يكن فعلا...

- ما هذا؟ هل انقلبت على ذلك الأحمق أيضا يا نورا؟...

- بأمانة، لم يكن على حق. فالبيغل حيوان متحضر جدا. بأمانة، هو كذلك. كان لدى آل روتر في قرية دوناه بغل عندما كنت أذهب إلى المدرسة منذ زمن بعيد، وكان من عادته أن يأكل خبز الزبيب من راحة يدي...

- تدمين إلى المدرسة منذ زمن بعيد! نورا ذات القدمين المتسختين تذهب إلى المدرسة! خبز زبيب في جورت ريبوك! أيتها البقرة المقدسة ويا أم يسوع! مارجريت... يا مارجريت، هل سمعت ما قالته نورا ذات القدمين المتسختين ابنة جوني روبن؟ آه، سأنفجر...

كانت هي من دفنتني قبل أواني بعشرين عاما. وستدفن ابني أيضا في القريب العاجل، إذا لم تأت إلى هنا هي نفسها في ولادتها التالية لتتثرثر وتؤنسك.

الله! إن فمك الصغير المهذار في أفضل حال اليوم يا نورا... "سنكون... كيف قلتها؟" "سنكون بخير عندئذ..." بخيرا! هذا شبيه بردفك الغليظ يا نورا... "سنكون بخير عندئذ. سيكون لديك ابنتك وستكون لدي ابنتي، وستكون معا جميعا مرة أخرى تحت الأرض كما كنا فوقها..." لعبة الشيطان تلك التي في فمك مليئة بالهذر اليوم يا نورا...

عندما كنت في بربايت سيتي... تقولين إنني كاذبة، إنها أنت الكاذبة القذرة يا نورا المتسخة القدمين...

- عجوز قبيحة!

- عجوز شكسة!

- شمطاء!

- نسل متسخي الأقدام... حالبو البيط...

- هل تذكرين اللبلة التي كانت نيل جالسة فيها في حجر جاك الفتى؟ "ستترك بيج بريان لك يا كاترينا..."

- أنا لم أجلس قط في حجر بخار على أي حال، والحمد لله العلي القدير...

- لم تأت الفرصة قط يا كاترينا... لست خائفة منك قيد أنملة، خستك وأكاذيبك لن يحرقا ثقبيا في معطفي. أنا أشهر وأكثر احتراما في هذه المقبرة منك. لدي صليب جميل لطيف فوقه

أفضل مما لديك يا كاترينا. رائع! بأمانة!...

- أوه فعلا، إذا كان لديك واحد، فليس ما بُع فيه من مالك. يمكنك شكر أخيك الأحق الذي أقامه عندما عاد للوطن من أمريكا. كان الأمر ليستغرق زما طويلا لجمع ثمن صليب من حليب بط جورت ريبوك... ماذا تقولين يا نورا؟ يوحى به... ليس لديك الشجاعة لتقوليه لي... ليس لدي ثقافة؟... ليس لدي ثقافة يا نورا... ليس لدي ثقافة، تخيلي هذا!... هذا صحيح بالنسبة لك يا نورا. لقد رأيت دائما في نسل متسخي الأقدام ثقافة القمل والصنبان...

ما هذا الذي تقولين يا نورا؟... ليس لديك وقت لتبادل الشتائم معي... أنك كنت تضيعين وقتك في تبادل الشتائم معي. وحق الله! ليس لديك وقت لتبادل الشتائم معي يا نورا... إذا لديك أشياء أخرى تفعلينها! والآن ماذا تعرقين؟ عليك أن تستمعي إلى قطعة أخرى من... ماذا أسميتيه، يا أستاذنا... يا أستاذنا... لا يسمعي. رأسه في دوامة منذ سمع بأمر زوجته... نعم، تلك هي، وجدتها... رواية قصيرة... هذا هو الوقت الذي يقرأ فيه الأستاذ قطعة من... الرواية القصيرة لك كل يوم... لو أولاتي الأستاذ أي انتباه... أوه، يا مريم يا أم الربا... رواية قصيرة في جورت ريبوك... رواية قصيرة بين نسل متسخي الأقدام... مارجريتا! يا مارجريتا! هل تسمعين؟ رواية قصيرة بين نسل متسخي الأقدام... سأنفجر... سأفعلها!...

... أقسم ببلوط هذا الثابت يا جلاتون، لقد أعطيت كاترينا يودين الجنيه...

... ساعدنا يا الله دائماً وأبداً! لم يكن موتي ليغدو موتاً هناك؛ لأنني كنت سأرقد في طين السهول الدافئ، الطين العقي الذي بمقدوره أن يكون عطوفاً بقدر قوته الجبارة، الطين الأبّي الذي لا تتحلل كئونه ولا تتعفن ولا تذبل في رحمة الخصب، الطين الثري الذي من السهل عليه أن يوزع عطاياه بكرم، الطين المتجدد الذي يستطيع تغيير وإعادة تشكيل كل ما يتخذى عليه من طعام وشراب ليجعله مثمراً مرة أخرى دون إهدار أو تشويه أو مسخ... حتى أنه سيتعرف على نفسه...

كانت لتتمو على قبري هناك زهور الحوذان الرقيقة، والعشب المطحلب الندي، وزهر الربيع البهيج والكلأ الزاحف...

كان شدو الطيور العذب سيصحن فوقي بدلا من ثرثرة الأمواج أو تقعقة الشلالات أو تنهدات البردي أو صرخات طيور الغاق وهي تغطس بلهفة فوق أسماك الرنجة الصغيرة في البحر. أه يا طين السهول، لأن يكون من الجميل أن يكون مستقرّي تحت عبائتك؟!...

لقد انتابتها «العاطفية المفرطة» من جديد...

...قال بيرس⁽¹⁵⁾ عن أودونوفان روسا عن وولف توني أنه قال إن إيمون دي فاليرا كان على حق...

15- الأسماء الواردة هنا للشخصيات سياسية وتاريخية يُنظر إليها كإيمال في الفضال الطويل من أول استقلال أيرلندا (من مؤامرات الترجمة إلى الإنجليزية)

قال تيرنس ماكسوني عن جيمس أوكونيلي عن جون أوليري عن جون أوماهوني عن جيمس فينتان لالور عن ديفيز وإيميت ولورد إدوار فيتزجيرالد وسارسفيلد أنهم قالوا إن آرثر جريفيث كان على حق...

قال أوين روي أونيل إن إيمون دي فاليرا كان على حق...

قال ريد هيو أودونيل إن آرثر جريفيث كان على حق...

قال آرت ماكورا كافاناها إن إيمون دي فاليرا كان على حق...

بريان بورو، ومالاخي، وكورماك ماك آرت، ونيل ذو التسع رهائن، والباتريكان، وبريجيد، وكولم سيللي، وكل القديسين الأيرلنديين أينما كانوا - على البر أو في البحر أو في السماء، وكل الشهداء الأيرلنديين من دانكيرك إلى بيلجريج، وبن ماکول، وأوشين، وكونان، وكايلت، وديردري، وجرونيا، وأولاف فودلا، وجايل جلاس قالوا جميعاً إن آرثر جريفيث كان على حق...

أنت كاذب لعين، لم يقولوا هذا...

أقول إنك الكاذب، وأنهم قالوا الحقيقة مرّة...

لقد قتلتنني بخسة، وأنا أحارب من أجل الجمهورية...

لقد خدمك ذلك خدمة جليلة. لا قانون الرب ولا قانون الكنيسة يسمح بمحاولة إسقاط حكومة شرعية بالقوة...

عن نفسي لا علاقة لي بالسياسة، لكن لديّ غرام بالـ IRA

القديم⁽¹⁶⁾...

أنت أيها الجبان، كنت مختبئاً تحت السرير عندما كان إيمون دي
قاليرا يقاتل من أجل الجمهورية...

أنت أيها الشيء الهلامي، كنت مختبئاً تحت السرير عندما كان آرثر
جريفيث...

... وانطلق يغازل النساء...

... انتظر الآن يا صاحبي الطيب حتى أنهي قصتي:

"والآن ارسلوا لي جون جيمسون⁽¹⁷⁾."

وسأكون دونه إلى الأبد

"أسرت الجنية العاشقة جون جيمسون في القصر المسحور
ولم يكن هناك مهرب له. عندئذ، جفت كل مياه جزيرة أيرلندا
الرمادية المخضرة، بما في ذلك تلك المحيطة بجزرها والحائفة
بشطآنها، كلها ماعدا زجاجتين من المياه الفوارة البرتغالية
انجرفت عند جزيرة بلاسكيت، وبرميل صغير من الماء المقدس
الإسباني بادلت مركب صيد مقابل خمسين حبة بطاطس من
جزيرة برانوك..."

"في ذلك الوقت كانت الفتاة الجميلة ذات الضفائر البنية في
دبلن..."

في الرواية التي سمعتها من الناس القدامى في قريتنا يا كولي،
كانت ممرضة في برايت سيتي...

ما سمعتها أنها كانت امرأة في مكتب وكيل رهانات...

أه! كيف يمكن لهذا أن يكون؟ كانت هناك في دبلن. وأين غيرها!
قالت: "لدي سهم سيحدر جون جيمسون لو أعطى وعدا بأن
يمعني كمبر مائة وواحد من البراميل الكبيرة، ومائة وواحد من
البراميل الصغيرة، ومائة وواحد من رؤوس الخنازير..."

والآن، يا جلاتون، أين أقداحك الاثنان وأربعون؟...

انتظر لحظة يا كولي، هكذا كنت لأنهي ذلك الأمر لو لم أمت...

... لو بلغ هنتر إنجلترا، لجعلهم يقاتلون على القطط الميتة...

في الحقيقة سيكون العالم في أسوأ حالاته وقتها. لن تحصل
على قرش مقابل بقرة أو عجل، فليساعد الرب الفقراء لو انخفض
سعر الماشية أكثر من ذلك. لدي قطعة أرض في أعلى القرية ولن
تُعزق تربتها مرة أخرى لتسمين الماشية. أخشى أنها ستبور لو
هبط سعر الماشية..."

"ولن تُعزق تربتها مرة أخرى لتسمين الماشية" أو تركت أرنبين
يرعيان في أرض قريتك كلها، وتركتهما لحالهما خمس سنوات،
لن يكون هناك غير الأرنبين فقط، هذا إذا بقي الاثنان..."

كنت لوطيا جباناً يا بيتر. أتمنى لو كنت مكانك. أقسم بالكتاب
المقدس، كنت سأعطيها رداً جيداً. لو كانت لدي حانة يا بيتر
ودخلت مثل هذه الهرطقات القذرة من أبوابها لتهين ديني هكذا...

... نحن -جثث مقبرة النصف جنية- نقدم مرشحاً مشتركاً في

16- هنا IRA اختصار للجيش الجمهوري الأيرلندي. لمرض حرب الاستقلال والحرب الأهلية (أي
للجيش الجمهوري الأيرلندي صاحب «المشكلات» الأخت المرتبطة بالمهاجرات من قرن العشري
من هوانن الترجمة إلى الإنجليزية)

17- نوح من الويسكي الأيرلندي. (من هوانن الترجمة إلى الإنجليزية)

هذه الانتخابات أيضا. ومثلنا مثل الآخرين -جث مقبرة الجنيه
 وجث مقبرة الخمسة عشر شلنا- ليس لدينا على الإطلاق ما
 تقدمه لجثتنا الزميلة. ومع ذلك، نحن نشارك في هذه الانتخابات
 المدفونة لأن لدينا سياسة -حزب النصف الجنيه- لدينا سياسة
 أيضا. إذا كان هؤلاء الذين فوق الأرض يمكنهم إقامة انتخابات،
 فنحن الموجودون تحت الأرض يمكننا إقامة واحدة نحن أيضا.
 لا ديمقراطية بدون انتخابات. ونحن، هنا، في طين المقابر،
 ديمقراطيون.

جث مقبرة الجنيه هم حزب الأثرياء، حزب المحافظين، حزب أصحاب
 النفوذ الكبار، حزب الرجعيين، حزب ما يسمونه بالاستقرار. وجث
 مقبرة الخمسة عشر شلنا هم حزب التجارة والتجار، حزب الطبقة
 المهنية، البرجوازية، الطبقة الوسطى، الملكية ورأس المال. أما نحن،
 ونحن هنا، يا زملائي الجث، فنحن حزب الطبقة العاملة، حزب
 البروليتاريا، حزب الفلاحين، العبيد المأجورين، المعدومين التكرات،
 التابعين المطلقين، حزب المحرومين تماما: قاطعي الخشب وساحبي
 الماء. نحن ملزمون بشكل مطلق بالوقوف مطالبين بحقونا كما فعل
 الرجال القدامى (يُسمع بوضوح قرع الجماجم وصرير الأسنان من
 مقبرة النصف جنيه)...

...

... مرشحتنا، المتقدمة المشتركة منا -مرشحتنا الخاصة لمقبرة
 الخمسة عشر شلنا إذا أحببتم- هي امرأة. لا تدعوا هذا يزعجكم.
 زوجها لم يكن قط عضوا في البرلمان الأيرلندي. إنها امرأة ثبتت
 آدمائها هنا في هذه المقبرة بذكائها الخاص وحسها الطيب. منذ

ثلاثة أعوام عندما جاءت إلى طين المقابر كانت قليلة المعرفة
 مثلها مثل أي متبجح منقوخ ممن ينفثون الهراء هناك في مقبرة
 النصف جنيه. لكن رغم ما يقوله حزب النصف جنيه، لدى كل من
 في هذه المقبرة حقوق متساوية وفرصة متكافئة (قرع جماجم).
 ومرشحتنا المشتركة دليل على هذا. لديها الآن الثقافة والتعليم.
 زملائي من الجث، أحب أن أقدم لكم مرشحتنا المشتركة... ثورا
 جوني (قرع جماجم هائل).

ثورا متسخة القديمن! العاهرة. حالبة البط... يا مارجريت!... يا
 مارجريت!... ثورا جوني... سأنفجرا!... سأنفجرا!...

4

... ثورا متسخة القديمن تقدم للانتخابات! يا ربنا القدير في الأعلى،
 لقد فقدوا كل احترام لأنفسهم في هذه المقبرة إذا كان أفضل من
 يمكنهم تقديمه هو ثورا كيس البراغيث من جورت ريبوك... لن يجري
 الانتخاب... لكن من يعرف؟... كيتي ودوتي ومارجريت يتحدثون إليها،
 وبيتر الخفار، وجوان البياعة أحيانا. أما بالنسبة للأستاذ الكبير، فهي
 بالطبع فضيحة عامة تلك الأشياء التي يقولها لها كل يوم... يقول إنها
 في الكتاب، لكن لا أحد لديه قلة احتشام لدرجة أن يضع هذه الأشياء
 في كتاب:

"شعرك المموج المتدفق" (18)

11 - ملغ من اعطية حب (من هوانس الفرحة إلى الإنجليزية)

وعيناك اللامعتان النديتان

ونهدك الأبيض الرقيق المستدير

يجذبون رغبة العين»

... هذا حديث جميل بالنسبة لمعلم كبير! الأستاذة وبيلي البوسطجي يدفعنا إلى الجنون. لكن لا بد أنه مجنون أصلا ليعني تلك المدائح لنورا جوني، يقول: «لقد تحسن عقلها كثيرا، إنها مثقفة الآن...»

لم يكن قد مر عليها وقت طويل بعد أن نكزتني بالصليب الذي فوق قبرها. تقول: «لدي صليب جميل لطيف فوقي، أفضل مما لديك يا كاترينا». كان قبرها يظلم وقتا طويلا دون صليب لولا أخاها ذلك الأحمق الذي دفع ثمنه، وقد قلت لها هذا، كان مستقرها ليقعدوا هناك في مقبرة النصف جنبه وسط أوياش صخور سافى وبحيرة ديري، دون شاهد قبر أو صفيحة، وهناك ينبغي أن تكون لو كان هناك عدل. من المؤكد أنها لم تحظ بمديح قط حتى ماتت. ومتى كان لأي أحد أصلا كلمة طيبة يقولها عن أي أحد من عشيرتها؟ أبدا. لم يحدث قط في الذاكرة الحية. لم يحدث. عصابة لا نفع منها...

لكن أن يكون لديك صليب فوق قبرك هنا أمر طيب كامتلاك بيت كبير مغطى بالقرميد فوق الأرض، بيت له اسم مكتوب على الباب: عربون الثعلب، ملاذ الفردوس، عرش الجن، طريق الأحباب، بقعة الشمس، بستان كل القديسين، أيكة العفريت - وسياج إسمنتي حوله، أشجار وزهور حتى حافة الحديقة، وبوابة حديدية لها قنطرة مقوسة معلما فوقها، والأمان والمال في البنك... القضاة المحيطة بالقبر مالها

بالضبط مثل السياج الفاخر حول بيت الإبرل⁽¹⁹⁾. بالفعل لم أسترق النظر قط إلى داخل بيت الإبرل دون أن يخفق قلبي. كنت أعتقد دائما أنني سأرى شيئا خارقا. الإبرل والسيدة زوجته يهبطان بأجنتهما من السماء بعد وجبة عشائهما. إما هذا، أو القديس بطرس يصطحبهما إلى سائدة تحت تعريشة ظليلة، وهو يحمل شبكة بعد أن اصطاد السمك في بحيرة الإبرل، وفيها سمكة سلمون ذهبية كبيرة، ومفاتيحه الهائلة تصلصل، وعندئذ يفتح كتابه الكبير ويسأل الإبرل عن أي من أهل مقاطعته ينبغي أن يُسمح له بدخول الجنة. لطالما اعتقدت أن وجودك في منزلة جيدة في كتاب الإبرل هو بالضبط مثلما تكون في منزلة جيدة في الجنة...

هؤلاء الناس فوق الأرض سذج للغاية. يتساءلون: «ما الفائدة التي سيحققونها من وجود صليب فوق قبورهم؟ ولا شيء! هذه الصليبان ما هي إلا خيلاء كاذبة وغرور زائف ومضيعة للمال.» فقط لو يعلمون! لكنهم لا يفهمون حتى يُدفعوا في المقبرة هم أنفسهم، وعندئذ يكون قد فات الأوان. لو وعوا فوق الأرض أن صليباً فوق قبرك هنا يجعل حتى نسل ذوي الأقدام المتسخة محترمين، لما كانوا على هذا القدر من الإهمال...

أسئال متى سيوضع الصليب فوقي؟ بالتأكيد لن يخذلني بارتبك. لقد وعدني بإخلاص:

«سوف اُقام خلال عام، أو حتى قبل ذلك..» هكذا قال. «سيكون جحودا منا لا نفعل هذا من أجلك...»

(19) كان بيت اللورد كيلانين الكبير وأراضيه في قرية سيدال معلمة رئيسية في المنطقة. (من هراست ترجمة إلى الإنجليزية)

صليب من الرخام الأيرلندي، بنقش وكتابة باللغة الأيرلندية... اللغة الأيرلندية أكثر رقة وملاءمة للصلبان في زمننا هذا... وزهور لطيفة...

حذرت باتريك كثيرا، قلت له:

"لقد ربيتك بحنان يا باتريك. ودائما ما حافظت على البيت جيدا من أجلك. وتعلم سيدتنا العنزة أن هذا لم يكن دائما بالأمر الهين. لم أخبرك قط بكل المشاق التي تحملتها بعد وفاة أبيك. ولم أطلب قط بأقل شيء في المقابل. كثيرا ما انتابتنى الرغبة في شراء قطعة من لحم الخنزير المقعد وسلقها مع الكرنب، أو في حفنة من الزبيب لأضعها في الخبز، أو في الذهاب إلى حانة بيتر عندما كنت أشعر بحلقي جافا من التراب والتنظيف، فقط لأظلم منه واحدة من تلك الزجاجات الذهبية التي كانت تبتسم لي في كل مرة كنت أمر فيها بجوار مكانه..."

لكني لم أفعل ذلك يا باتريك يا ابني الغالي. وفرت كل مليم أحمر. ولا أود الآن أن أمنح نيل أو ماجي ابنة بيج بريان شعورا بالرضا لأنني لم أدفن بشكل لائق. خذ لي قبرا في مقبرة الجنين. وضع صليباً من رخام كونيمارا. أقمه خلال عام من دفني على أقصى تقدير. أعلم أن هذا كله سيكلف مالا، لكن الله سيعوضك..."

لا تعر زوجتك سمعا إذا تدمرت بشأن التكلفة. هي زوجتك، لكنني المرأة التي أتت بك إلى هذا العالم يا باتريك. وهذه هي المشكلة الوحيدة التي سببتها لك على الإطلاق. وعندئذ ستكون قد فعلت كل ما عليك تجاهي. تأكد ألا تجعل نيل تشعر بالرضا..."

ويعد كل هذا لم يدفني في مقبرة الجنين. زوجته... أو زوجته وتلك المومس الضئيلة الأخرى، نيل. لكن باتريك يمكنه أن يكون عنيدا أيضا،

عندما يريد. لقد وعدني بذلك الصليب...

أسأله أي نوع من الجنائز حظيت به؟ لن أعرف حتى تصل الجثة الثالثة التي لي معرفة بها. إنه وقت مناسب الآن كي يأتي أحدهم. كانت سارة الحيزبون مريضة. لكن لا يمكنني القول إنها عرضة لخطر الموت بعد. هناك أيضا مارتين ذو الوجه المجذور، وبارتلي ذو الساق السوداء، وبريد تريي، وبالطبع خط البؤس القبيح ذاك المسمى بيج بريان نفسه، فلابعد الله عنا كومة عظامه... ينبغي أن يكون توماس الداخل ميتا بالفعل مع كل هذا المطر الساقط عبر سقفه... لو فعل باتريك ما طلبته منه، لسقط كوخه قبل هذا الوقت...

ستكون زوجة ابني هنا، لا بد أن تكون، في ولادتها الثالثة. ونيل متصدعة هذا منذ إصابة بيتر، ولديها روماتيزم تلك العامرة العجوز. ورغم هذا، ليس من المرجح أن يقتلها. لقد ماتت بضع مرات، كما تقول، لكن طامات مصر السبع لن يقتلوا بعض الناس. اللهم لا تجعل أحدا آخر يزل إلى المقبرة قبلها...

است أعرف إن كان هناك أي خطاب قد ورد من أمريكا منذ وقتها. أظن أن تحظى نيل بكل شيء في وصية بابة الآن بطريقتها. لو عشت فقط بضع سنوات أخرى...

كانت بابة مغرمة جدا بي أكثر من أي شخص آخر. عندما كنا نلهو بالهاتين ونزعي البقر في حقل هيدج... ألا يخطر ببالها أن تضع صليباً لوري كما فعل أخو نوراً جوني لها...؟

... أيعرف أحد إن كانت هذه الحرب هي "حرب الاثنين الأجنيين"؟...

• أولاد عم بفارق جيل يا مارجريت. بودين الصغير-والد كاترينا-
وتوماس الداخل كانا ابني عم...

• ... "لدي قطعة أرض صغيرة وكوخ صغير مر-ريح..."

• قطعة الأرض التابعة لتوماس الداخل تحف بأرض نيل، وهذا
يعني لها أكثر مما يعني لكاترينا. فأرض كاترينا بعيدة إلى حد
كبير عنه، ولديها بالفعل أرض كبيرة على أي حال...

• ... "وأعرف اثنين سيد-دفعان إيجاري..."

• كانت كاترينا دائما تصعد إلى كوخ توماس الداخل لتدعوه بدلال
إلى بيتها، ليس فقط لأنها كانت ترغب في أرضه، لكن لتمتع نيل
من الحصول عليها...

• آه، بالفعل يا مارجريت، ألم تكن تثير جنون باتريك تماما؟...

• حتى لو كانت محاصليه تتعفن على التلال، كانت تظل تحته على
الذهب ومساعدة توماس الداخل...

• باتريك ابن كاترينا رجل شريف...

• ومن أفضل الجيران، كي نعطيه حقه...

• لم تكن لديه قط تطلعات لأرض توماس الداخل...

• وأحيانا كان يصعد ضد رغبته، فقط لخطر راحة البال...

• ... "ونيل -رأثة في حفر الخناد-دق..."

• ... لا أعتقد أنني رأيت أي شيء مضحكا هكذا في حياتي كلها...

• كنت سأقول إنك لم تري قط متعة كبيرة في أي شيء، صحيح...

• ما إن تتوقع بعض السلام والهدوء الحقيقيين حتى تتطلق بالفعل
هذه الثمرات المزعجة. أليس ما يقولونه هناك في الأعلى نكتة
حقيقية؟ «هي في دارها الآن. يمكنها الآن أن تقر في سلام،
ويمكنها أن تنسى كل مشاكل الحياة في طين المقابر»... السلام!
يا سلام! يا سلام!...

• ... إذا انتخبتموني أعدكم أنني سأبدل كل ما يمكن لرجل أن يفعله
-أقصد كل ما يمكن لامرأة أن تفعله- من أجل الثقافة ولغرس
رأي عام مستنير هنا...

• مارجريت! مارجريت! يا مارجريت... أسمعيت ما قالت نورا
جونني؟... «إذا انتخبتموني»... سأنفجرا! سأنفجرا!...

• ... "توماس الداخل كان يتحرق على الز-زواج

كما كان د-دائما عندما يشرب حتى الث- ثمانية..."

• إنه لشيء مضحك يا دوتي... الجميع يدعونه بتوماس الداخل...
فهو يعيش وحيدا في كوخ صغير على قمة قريتنا. ولم يتزوج
قط. هو الآن رجل عجوز. وليس هناك من أحد حي على صلة
به -في أيرلندا على أي حال- باستثناء كاترينا ونيل بودين... لا
يمكنني بالفعل أن أخبرك، إلا إذا كان علي أن أقدم إجابة قصيرة،
بما هي العلاقة التي تربطه بالضبط بنيل وكاترينا، رغم أنني
سمعتها كثيرا بما يكفي...

- لكنت لم تزي نصف الحكاية...

- رأيت ما يكفي...

- لو كنت في نفس البلدة...

- كنت قريبة ما يكفي لهم. وما لم أره، سمعته. ألم يكن الريف بأكمله يتحدث عنهم؟

- لم يكن هناك شخص واحد في البلدة بأكملها لا يسقط على روجه من الضحك من الصباح إلى المساء. لن تصدقي نصف الحكاية إن حكيت لك...

- سأصدقك بالفعل. تقريبا كل يوم جمعة بعد قبض المعاش كنا أنا وتوماس الداخل نذهب إلى حانة بيتر لشرب بعض الكؤوس وكان يخبرني بكل تفصيلة حدثت...

- اخفضي صوتك. أنت تعرفين أن كاترينا مدفونة حديثا - في مقبرة الخمسة عشر שלנו. قد تسمعك...

- دعها تسمع. دعهم جميعا في مقبرة الخمسة عشر שלנו يسمعونني إنا أرادوا. ما الذي يهمني من أمرهم! هم ومظاهرمم الفارغة! يجعلونك تحسبن وكانك كنت حثالة قذرة...

- لا يهم، أنا لا أريد أن تسمعي كاترينا. لقد عشت في نفس القرية التي عاشت فيها طوال حياتي، وبالفعل كانت جارة طيبة، باستثناء أنها كانت تنظر بكرامية لأختها، نيل. وكان توماس الداخل هو من جنى فوائد ضغينتهما...

- كثيرا ما أخبرني بذلك ونحن نتناول بعض الأقداح...

- كنت لثرين كاترينا وهي منطلقة في الصباح تقود الأبقار إلى أعلى الحقول، وكانت تسلك متعمدة الطريق الطويل المحيط بالبيت كي تمر بكوخ توماس:

"كيف حالك اليوم يا توماس؟... أرى أن سلتني عشبك في حالة سيئة. أتعرف؟ أظن أن لدي سلتان موجودتان في مكان ما من البيت، وأسنا بحاجة إليهما على الإطلاق حيث كان باتريك ينسج سلالا منذ بضعة أيام فقط، وصنع بنفسه سلتين جديدتين..."

وهكذا كان توماس يحصل على السلال.

وما تكاد كاترينا تهبط مرج التل حتى تأتي نيل:

"كيف حالك اليوم يا توماس؟... أرى أن البنطال الذي ترتديه في حالة سيئة، يحتاج بشدة إلى بضع رقع... لكنني أظن أنه بلي منذ زمن. إنه قهري تماما. أتعرف؟ هناك بنطال في البيت في حالة جيدة كأنه جديد لأنه لم يُلبس كثيرا. صنُع من أجل جاك لكن ساقيه ضيقتان أكثر من اللازم ولم يرتدهما مرة أخرى قط..."

وهكذا كان توماس يحصل على البنطال...

ألم يخبرني بذلك هو نفسه؟...

وفي يوم آخر كانت كاترينا تصعد مرة أخرى:

"كيف حالك اليوم يا توماس؟... أرى أن أسوار حقلك هنا في الخلف قد انحطمت حتى تساوت بالأرض... حمير هذه القرية مصدر إزعاج للجميع. بالفعل هم كذلك، لأنهم لا يُربطون في الحظائر حيث ينبغي أن يربطوا. حمار جلاتون العجوز وحمار رود إند سيثان بما فيه الكفاية،

لكن أسوأهم جميعا هم حمير هذه المرأة، -تقصد نيل- "وهي تتركهم يبرطعون كما يشاؤون... رجل عجوز مسكين مثلك يا توماس ليس قادرا على مطاردة هذه الحمير وطردها. أتعرف؟ لديك الكثير من الأمور لتهتم بها من الآن فصاعدا. لا بد أن أخبر باتريك بسقوط الأسوار..."

وهكذا كانت تُرمم الأسوار من أجل توماس الداخل.

- حسن بالفعل، لقد أخبرني بهذا...

- وتأتي له نيل:

"كيف حالك اليوم يا توماس؟... أنت لا تحقق تقدما كبيرا في هذا الحقل، أعانك الله. يا ربي الرحيم! أنت لم تذر البذور إلا في ركن منه. سيتطلب الأمر منك أسبوعين آخرين لتنتهي. من الصعب بالطبع أن تحقق أي تقدم وحدك. تأخر الوقت بعض الشيء الآن على زراعة البطاطس. السبا بالفعل في عيد الربيع تقريبا!... من الغريب أن الجماعة الأخرى -تقصد أسرة كاترينا- "لا يقدمون لك يوما من العون، وقد انتهوا بالفعل منذ أسبوعين... سيكون علي أن أطلب من بيتر أن يأتي إليك غدا. المكان المثالي لنا نحن الاثنين الآن يا توماس، ولبقية حياتنا، هو في ركن المدفأة إلى جوار النار..."

وهكذا كان الجزء الباقي من حقل البطاطس يُزرع من أجل توماس الداخل.

- أتعقدين أنه لم يخبرني بهذا كثيرا؟...

- لا يهم، لا أحد كان يمكنه أن يعرف الحكاية كلها إلا شخص عاش في نفس القرية معهم... كانت كاترينا تحاول دائما أن تجعله

ينتقل بحاله وماله إلى بيتها. لكن لا أمل في ذلك! أقول لك إن توماس لم يكن عبيطا، رغم الطريقة التي كان يحاول بها الجميع ركوبه...

- هل تعتقدين فعلا أنني لا أعرف هذا؟...

- أي شخص لم يكن يعيش في نفس القرية معهم لا يمكنه أن يعرف الموضوع على نحو صحيح... كان توماس مرتبطا بكوخه الصغير كملك مرتبط بعرشه. ولو انتقل للعيش مع واحدة من الأختين، كانت الأخرى ستدير ظهرها له. ولا واحدة منهما كان ليصبح لديها أقل وقت من أجله لو ترك قطعة أرضه الحقيرة، لذا لم يفعل ذلك. ياله من طفيلي عجوز مكر، توماس الداخل... هل تعتقدين أنني لا أعرف؟...

- أنت لا تعرفين بالفعل، ولا يعرف أي شخص آخر لم يعيش في نفس القرية معهم. لكن المرح العظيم كان يحدث عندما يسكر يوم سوق أو يوم جمعة، أو أي يوم آخر. عندئذ كان يغدو هائجا ومثلها على الزواج.

- بحق الله، أتظنين أنني لم أراه كثيرا في حانة بيتر، وهو نصف سكران؟...

- رأيتُه هناك مرة، وإحقا للحق، كان منظرا كوميديا. كان هذا منذ ما يزيد قليلا على خمس سنوات، قبل أن أموت بعام:

الآن «سأتزوج. لدي قطعة أرض طيبة، ومعاش نصف جنيه في الأسبوع، ومازلت في تمام صحتي. أقسم بيسوع أنني سأتزوج. أقول لكم بصدق، سأتزوج رغم ذلك... اعطني زجاجة الويسكي تلك يا بيتر»

كان بيتر حيا عندئذ- «الأفضل فقط الآن. أقسم يسوع، سأذهب للبحث عن زوجة.»

- أتذكر ذلك اليوم جيدا. فقد التوى فيه كاحلي...

- تدخل كاترينا وتهمس في أذنه:

"تعال معي إلى البيت يا توماس، وباتريك ابنا سيذهب ويبحث عن زوجة من أجلك، عندما تضعان أنتما الاثنان أيديكما معا..."

وتدخل نيل وتهمس في أذنه:

"تعال معي إلى البيت يا توماس يا عزيزي، لدي بعض اللحم وقليل من الويسكي، سيذهب ابنا بيتر ليبحث عن زوجة من أجلك بمجرد أن تأكلا أنتما الاثنان لقمة..."

هرع توماس منطلقا إلى بيت نورا جوني في جورت ريبوك. وقال لنيل، وكاترينا: "قد تكون أرملة، لكنها وحق المسيح نشطة ودؤوبة، إنها شابة الروح. وابتتها، تلك المتزوجة من ابنك باتريك يا كاترينا، بالكاد في الثانية والثلاثين أو الثالثة والثلاثين. لا شك في ذلك، الابنة امرأة عفوية قوية بما يكفي لي، هذا ما قاله، لا كذب. هل عرفت ذلك؟..."

- من المضحك أن تطنني أنني لم أعرف...

- آه، وكيف لك أن تعرفي وأنت لا تعيشين في نفس القرية معهم؟ كان من حظهم أن توماس لديه فقط كوخ صغير وإلا لأفلسوا تماما؛ فلا يوجد بيت آخر تحت سماء الله يتم تسقيفه بالقش أكثر منه. كان باتريك ابن كاترينا يغطي الجانب الشمالي من أوله إلى آخره عاما. وكان مُسَقِّفا ممتازا. كان يضع عليه قش البردي. وأم

يكن هذا أسوأ أنواع القش. ذلك الجانب من السقف لم يكن بحاجة إلى أي تسقيف آخر لمدة أربعة عشر أو خمسة عشر عاما. وفي العام التالي كان بيتر ابن نيل يأتي بسلمه الخشبي ومطرقته. ويصعد إلى الجانب الشمالي. أتعرفين ماذا كان يفعل بالسقف الذي وضعه باتريك في العام الأسبق؟ كان ينتزعه ويلقي به على الأرض. فلاسقط ميتة هنا أمامك إذا كنت أنطق بكلمة كذب واحدة. لم تكن هناك قشة من قش باتريك بين طرفي السقف الجمولون لم ينتزعها بيتر من جذورها.

وقال: «كان المطر قريبا سيقطر فوقك يا توماس» أقسم بالكتاب المقدس أنني سمعته يقول هذا قال: "لم تكن سقيفة العام الماضي جيدة. لشد ما أنا مندهش لأنها حجزت أي قطرة مطر أصلا. كان نصفها من قش الخلنج الناعم فقط. يمكنك أن ترى هذا بنفسك. يا يسوع! إنه لم يكلف نفسه حتى عناء جمعها وضمها، فهو دائما ما يتحاشى أي شيء قد يجعله يبذل قليلا من الجهد. وإذا أردت قشا جيدا عليك أن تلج الأمور العميقة وتيل قديمك. اتق نظرة على القش الذي لدي الآن؛ جئت به من منتصف غور البردي الأحمر..."

وقام بتسقيف جانبي البيت، ورغم ذلك؛ كان عملا فاشلا بعض الشيء. في الحقيقة، عمل فاشل فعلا! لم يدم حتى ثلاثة أعوام. كان إهدارا بالعا...

اللعنة، كل من يستمع إليك سيظن أنني لم أكن أعرف هذا...

لا أحد كان يعرف بهذا، إلا من كان في نفس القرية معهم...

في مرة أخرى رأيتهما هما الاثنتين على سطح البيت: باتريك ابن كاترينا

- ... حارس المقبرة! إنه معتوه كبير...
- إنه لشيء عجيب يا كاترينا، إذا كان يملك خريطة ولا يعرف قبراً من الآخر...
- بحق الله يا رجل، أي خريطة إن خريطة هذا الشخص ليست أفضل من الطريقة التي كان الرجل القادم من الجانب الشرقي للقرية يقسم بها الأرض وأضعها ملاقط في الرماد، في وقت «التخطيط»⁽²⁰⁾ منذ زمن بعيد...
- لهذا يا كاترينا تمسكت بقطعة الأرض التي لي في أعلى القرية برغمكم جميعاً، بينما كان كل واحد منكم يريد لها لنفسه. لم يكن هناك شيء أفضل من أجل تسمين الماشية...
- أوه! هل تسمعون صوت صرصار الليل مرة أخرى؟...
- إنه لشيء عجيب يا كاترينا، لو أن الجثث تُدفن في القبور الخاطئاً، ولا يتقصى أحد حول الأمر؛ أبلغوا الحكومة أو أخبروا القس أو الشرطي ذا الشعر الأحمر...
- أوه! فليساعد الرب حكومتك! ذلك النوع من الحكومات الذي حصلنا عليه منذ سقوط حزب جريفيث...
- أنت كاذب...

(20) كان تحديد الحيازات المختلفة من العقول الصغيرة سمة للقطام «الروتالي» القديم، بحيث تكون الحيازات أو حيازتها في قطعة واحدة، كانوا ما تكون في شكل شريط من الأرض يمتد داخلها في البداية إلى نهاية المستطعات أو أوضاع العوام (من هوانش الترجمة إلى الإنجليزية)

وبيتر ابن نيل، كان باتريك على الجانب الشمالي يسلمه الخشبي ومطرقته وكومة من القش. وكان بيتر على الجانب الجنوبي يسلمه الخشبي ومطرقته وكومة من القش. لم يكن المرء ليرى قط عملاً كهذا في حياته كلها: كانا يعملان فعلاً بجد. وكان توماس الداخل قابعا فوق الصخرة الكبيرة عند الجانب الشرقي، يدخن غليونه راضي القلب ويثرثر معها هما الاثنان في نفس الوقت. مررت وجلست على الصخرة الكبيرة بجوار توماس. لم تكن لتسمع صوت تفكيرك مع ضجة المطرقتين.

قلت: «لم لا يكف أحدكما عن التسقيف لوهلة ويساعد الآخر، حيث أن توماس لا يساعد أياً منكما. إما هذا أو قوما بالعمل بالتناوب كي تسقفا ويساعد أحدكما الآخر...»

قال توماس: "امسكي لسانك! ألا ترين أنهما يتسابقان رأساً برأس الآن، فليباركهما الرب! إنهما مسققان رائعان. أعتقد أن لا أحد منهما أفضل من الآخر مقدار عرض شعرة أو قلامة ظفر..."

- من يسمعك تتكلمين يظن أنني لا أعرف هذا...
- حسناً، بالفعل أنت لا تعرفين، ولا القليل منه...
- ... نيل رائعة في بناء الأسوار الحجرية
- وكاتي خبيرة في ترميم السطوح...
- ... "كان توماس الداخل يضحك دائماً
- على كاتي بودين التي دفعت إيجاره..."

• لم يكن! لم يكن! لم يكن! يا مارجريتا! مارجريتا! سأنفجر! سأنفجر!...

وأنت كاذب لعين...

ألم يقل بيج بريان: "إنهم يلقون بهم في أي حفرة قديمة في تلك المقبرة هناك، كما لو كانوا أمعاء سمك أو أصدافا فارغة"...

أه، ذلك اللعين القذر...

إذا لم يكن لديك صليب فوقك في هذه المقبرة، بحيث يغدو قبرك مميزاً جيداً، لن يمر يوم دون أن يقتحه أحدهم...

سأحظى بصليب فوقي قريباً. صليب من رخام كونيمارا، مثل ذلك الذي بيتر الخمار وجوان...

صليب من رخام كونيمارا يا كاترينا...

لن يسمحوا بإقامة أي صليان خشبية، ليس كذلك يا كاترينا؟

سيلقى بها إلى الطريق في اليوم التالي...

هل تعتقدين أن الأشخاص الذين يبيعون الصليان الأخرى مسؤولون عن هذا؟

بالطبع! ومن غيرهم؟ كل واحد يسحب الماء إلى طاحونته. أو سُمح بالصليان الخشبية أو الإسمنتية لن يكون هناك أي طلب على صليانهم. عندئذ سيتمكن كل شخص من صنع صليبه الخاص...

أفضل ألا يكون لدي أي صليب على الإطلاق بدلا من صليبه مصنوع من الخشب أو الإسمنت...

أنت على حق. سأموت من الخزي...

هذه الحكومة هي سبب كل هذا. فهم يحصلون على المال في

صورة ضرائب على الصليان الأخرى...

أنت كاذب! كانت هذه اللعنة شغالة قبل هذه الحكومة...

إنه لشيء فظيع أن تلقي بواحد من أهلك إلى الأسفل بجوار غريب...

التفاحة لا تسقط أبدا بعيدا عن الشجرة...

تلك هي الحكومة بالنسبة لك الآن...

أنت كاذب...

سمعت أنهم حشروا توماس ابن الخياط فوق توني ميكل توني في العام الماضي...

أوه، ألم أنهض وأركل القاتل من فوق! شخص آخر من نسل ذوي الأذن الواحدة الخونة الذين طعنوني...

في العام الماضي كنت في جنازة جود من قريتنا. وُضعت فوق دونال النساج من منطقة صخور سافي. لم يعرفوا قط أنهم يحفرون القبر الخطأ حتى اصطدموا بالتابوت. أقول لكم الحقيقة الصادقة، فقد كنت هناك...

أنت على حق. ألسنا مدركين أنك تقول الحق؟ لقد حفروا أربعة قبور من أجل الشاعر، وفي النهاية وضعوه فوق كوران...

فليورخه الشيطان! لقد أصابتني أشعاره السخيفة بالخبل. فليشوى في الجحيم! ألم يكن بمقدوره أن يبقى حيا لفترة أخرى حتى أنال صليباً فوقي؟...

أه! يا للشقي الصفيق!

... سقطت من فوق كومة قش...

... فليساعدنا الله دائما أبدا! لو أنهم فقط أخذوا رفاتني وأعادوها إلى شرق بربايت سيتي... الشمس الغاربة هناك لم تكن ستضطرب إلى أن تنسل وتميل كي تصل إليّ. والشمس المشرقة لم تكن لتبدو كأمراة مسكينة متشردة في مهمتها الأولى للتسول، تستحي من المغامرة بتجاوز المسارات الغامضة للتل والجرف. دارة القمر لم تكن لتضطرب إلى مراقبة خطواتها فوق المتاهة المستحيلة من التل والربوة والمرقأ عندما ترغب في أن تأتي وتقبليني. كان ليغدو لديّ ذلك الامتداد الفسيح من السهل المنبسط كسجادة متعددة الألوان أمامها. المطر لم يكن ليأتي رشقا هابطا كطلقات مفاجئة من قناص مستتر في بقعة ملطخة، بل كانتصار جليل لملكة حضورها وسط شعبها يؤكد الرخاء وحكم القانون...

دوتي! "العاطفية المفرطة"!

الحماقة مرة أخرى...

... انظر إليّ! أعطاني القاتل زجاجة فاسدة...

... ذهبت إلى الساحة في الساعة... جاءت... تلك البسمة الحبيبة مرة أخرى. أخذت الشيكولاتة، فيلم... كان هناك فيلم في الساحة - وكانت قد رأت كل الأفلام في المدينة بالفعل. نذهب للتمشية أو إلى الرقص... كانت واقفة على قدميها في مكتب المراهنات طوال اليوم... شاي... كانت قد تناولت واحدا للتو، الفندق الغربي...

لا غارق لديّ، لكني كنت قلقا من أن تعطي زوجتي الحياة الكبيرة الجيدة لابن الأكبر...

هل سمعت بأمر زوجة مايكل كيتي من قرية دوناه، التي نُفنت تقريبا فوق جوان البياعة؟ لم يكن هناك صليب فوق جوان عندئذ...

آه يا جوان أيتها المسكينة!...

جوان المسكينة، لا بد أنك كنت في عذاب...

صححت فيها، مباشرة، كي تبعد عني إلى مقبرة النصف جنبه أو الخمسة عشر شلنا. آخر ما كنت بحاجة إليه أن توضع تلك الكتلة الكسولة فوقي. كانت رائحة القراص الخارجة منها ستقتلني...

ألم يحاولوا نفن أحد فوقك يا كيتي؟

صعلوكة حقيرة من منطقة صخور سافني لم أعرفها أبدا ولا أعرف شيئا عن أهلها. أقسم ببلوط هذا التابوت، أقسم، أنني جعلتها تبعد مهرولة! قلت لها: «أنا بالفعل في حال سيء» لو رقدت مع شحاذي صخور سافني في طين المقابر».

بأمانته. كانوا قد حفروا قبوري أيضا. امرأة ما من هيلسايد وود قلت: "أنا! أتوضع هذه المتوحشة اللفظة من هيلسايد وود إلى جواربي! فقط لو كانت شخصا لديه قليل من الثقافة!..."

أوه! هل تسمعين العاهرة الحقيرة من جوررت ريبوك أرض البراب والمستنقعات وهي تقلل من شأن هيلسايد وود؟ آه! لا تكلميني! سأنفجر!...

بالتأكيد، استراحة قصيرة لن تؤذيها...

قلت للساقى: «نبيذ...»

قالت: «ويسكي...»

قلت: «كأسان مزدوجان آخران من الويسكي...»

قال الساقى: «لم يعد لديّ ويسكي. أتعرف كم شربتما من الويسكي بالفعل منذ السابعة؟ اثنا عشر كأسا مزدوجا لكل واحد! الويسكي نادر...»

قلت: «جعة...»

قالت: «براندي...»

قلت: «كأسان كبيران من البراندي...»

قال الساقى: «ألا تفهم أن الساعة قد تجاوزت الواحدة، وحتى إذا كان هذا هو الفندق الغربي فمزال عليك أن تحترس. ربما يهجم البوليس...»

قلت: «سامشي معك إلى بيتك، حتى بابك...» بينما كان الساقى يغالب باب الفندق خلفنا.

قالت: «تمشي معي إلى بيتي حتى بابي! الحال التي أنت عليها ترجح أنه يجب عليّ أن أمشي معك إلى بيتك. استقم قليلا وإلا ستسقط من تلك النافذة. لا يمكنك أن تمسك شرابك، أليس كذلك؟ أنا منتبهة ورأسي يقظ، رغم أنني أسرفت في شرب البراندي أكثر منك! إن يخطر ببال أحد أني لمست قطرة منه، أليس كذلك؟... احترس حتى لا تصطدم بهذا العمود... هيا، امش، دعني أمسك بذراعك وسأرافقك حتى باب بيتك.

ربما نحتمي قليلا من الشراب في حانة سيمون أو هالوران على الطريق. إنها تفتح طوال الليل ولا تغلق أبوابها حتى الصباح...»

«مكنت من إلقاء نظرة عليها في الشارع نصف المضاء. كانت تلك البسمة المشرقة على وجهها. لكنني كنت أضع يدي في جيبي وأقرعها. اكتشفت أنني لا أملك إلا شلنا واحدا باقيا.

أيها الأحمق العبيط...

... يا ربي القدير، كما تقول أنت نفسك...

... أقول لك حق الله بصدق، يا بيتر الخمّار، جاءت كاترينا بودين إليّ. أتذكر ذلك جيدا. كان هذا في آخر العام، في نوفمبر. كان ذلك العام الذي وضعنا فيه سماء الشتاء في حقل جاري أبي. وكان ميكل يفرد الطحالب البحرية في نفس اليوم. كنت أنتظر عودة الصغار من المدرسة في أي لحظة وكنت قد قلبت للتو البطاطس في الجمر من أجلهم. ثم جلست في الركن أرتق كعب جورب.

والله! «ليبارك الرب كل من في الدار...» قلت: «حسنا، وأنت بالمثل. هروا بك يا كاترينا. اجلسي.»

والله! «لا يمكنني البقاء طويلا. أنا غارقة حتى أذنّي في الاستعداد لنفس. لم يبق إلا تسعة أو عشرة أيام قبل أن يقف فوقي. لا جدوى من الأبقاه يا كيتي. لقد بعث الخنازير في السوق الماضي. وخنازيرنا لن تكون جاهزة قبل عيد القديس بربيدج⁽²⁴⁾، إذا أبقاهم الرب... إنه طلب

(24) في اليوم من فبراير. وبكفي كعلامة على بداية الربيع (من هوانش الترجمة إلى الإنجليزية)

كبير يا كيتي، لكن لو أمكنك الانتظار حتى يوم عيد القديس بريجيد، ستفعلين فيّ معروفاً كبيراً لو استطعت أن تمنحيني جنيهاً من المال. لقد جئت بمن يصلح المدخنة وأنا أفكر في شراء مائدة مستديرة من أجل إفطار القس⁽²²⁾. لديّ جنيهان عن نفسي...

قلت: «مائدة مستديرة يا كاترينا؟ لا أحد حولنا هنا يملك مائدة مستديرة من أجل القس، إلا الأثرياء بالطبع. ولماذا لا يأكل على مائدة أيرلندية عادية مثل كل القساوسة الآخرين الذين نعرفهم؟»

قالت: «في المرة الأخيرة التي كان فيها بيتي نيل كان لديها إناء شاي فضي جلبته ماجي ابنة بيغ بريان من أمريكا. سأستعير إناء شاي فضي من جوان البيّاعة، لأنني أريد أن أكون مثلها رأساً برأس، بل وأسبقها بأنف! تلك المغرورة الوقحة!»

أعطيتها الجنيه. واشترت المائدة المستديرة. كانت الأشياء رخيصة في ذلك الوقت. وضعت إفطار القس عليها، وصنعت له شاياً في إناء الشاي الفضي المستعار من جوان البيّاعة.

أقسم ببلوغ هذا التابوت يا بيتر الخّمّار، أتى أعطيت كاترينا الجنيه، ولم أر لمحة منه قط حتى اليوم الذي مت فيه، ولا أعرف ماذا فعلت جوان البيّاعة بشأن إناء شايتها الفضي...

- أنت كاذبة، يا شمطاء البطاطس المحروقة في الرماد.. لا تصدقها يا عزيزي بيتر. لقد رددت كل قرش منه إليها، وضعت في راحة يدها، عندما بعث الخنازير في عيد القديس بريجيد التالي... لكن

22- عندما كان ينام قدام في بيت خاص كان لا بد من استئذنة القس على الإفطار بعدها (من مرامش لترجمة إلى الإنجليزية)

ماذا تفعل لها؟ وأما كانت كاذبة مثلها، إنه شيء في طبيعتها! لقد مت طاهرة كالبلور والحمد لله... فليقطع لسان من يقول إن كاترينا بودين تدين بملج أحمر لأحد عندما ماتت، وليست منك يا كيتي البخيلة يا طاهية البطاطس المحروقة في الرماد. عائلتك تركت كومة من الديون خلفكم أينما ذهبتم. أديك الشجاعة للحديث! لقد قتلت نفسك وأسرتك بالبطاطس المخبوزة في الرماد... أوه، لا تصدقها يا بيتر... لا تصدقها... لقد أعطيتها كل قرش أحمر من الجنيه في راحة يدها...

لم أفعل، أيتها الشمطاء العجوز؟... لم أفعل، تقولين؟

يا مارجريت!... مارجريت!.. هل سمعت ما قالته كيتي؟... سأنفجراً... سأنفجراً!...

له هنا، ولا الصوت لديه دفق الحياة؛ لأنه لا وجود للدفق ولا الحياة ولا الصوت في كيمياء القبر الفاترة. لا يوجد غير عظام تتحلل ولحم يتعفن وأعضاء جسد كانت حية يوماً ما وتتفسخ الآن. لا يوجد غير هذه الخزانة الترابية وحُلة الحياة البالية التي تقرضها العثة...

لكن فوق الأرض هناك ضباب حار يتسدل بخفة على الهواء. ومد الربيع يبيض باستمرار في قنوات الشاطئ. والمروج كأن علبه من اللين الأخضر قد انسكبت فوق عشياها. وكل شجيرة وأجمة وحقل كوصيفات ملكيات يرتين ثيابهن الرسمية قبل المثل في حضرة الملك. وشمة رنين مزين رخيم في غناء الشجور في البستان. تتسع عيون الأطفال وهم يمسكون باللعب الساقطة من حديقة البراءة المليئة بالعجائب. وتتجلى سحابة انبعاث الأمل في خدود الشباب الشجاع. وتشتعل زهرات (القمعية) التي يمكن تطفها من مروج الأبدية في الخدود الحبية للفتيات. وتتفتح زهرة الشجيرة اللامعة في وجه الأم الرقيق. الصغار يضحكهم الرنان يعبون الغميضة في الأفنية، وتبرأت أصواتهم ترتفع وتتخفص كأنها تحاول أن تجذب سلم يعقوب من الفردوس. والهمهمة الخافتة للعشاق تسرب من زوايا الطرقات الخلفية كنسيم خفيف يهب فوق أحواض زهر الربيع في أرض الشباب.

لما ارتعاش الشيخ مزمع الآن. وعظام الشاب تتيبس. وخصلات الشيب اصار بالذهب في شعر المرأة. والظلمة، كوحل الثعابين، تطلق بصير الطبل، والمرح والفرح يقسمان الطريق للتذمر والأثين. الضعف يطرد القوة. واليأس يهزم الحب. قماش الكفن يخاط إلى قماش المهدي، والقبر يعالج بالمهد. الحياة تؤدي مستحقاتها للموت...

أنا نغير المقبرة. فليسمع صوتي! لا بد أن يُسمع!...

أنا نغير المقبرة. فليسمع صوتي! لا بد أن يُسمع...

لأني كل صوت كان ويكون وسيكون. كنت أول صوت في ميولي الكون. أنا الصوت الأخير الذي سيُسمع في غبار الدمار الأخير. كنت الصوت المكتوم للجنين الأول في أول رحم. وعندما يُجمع القمح في الجرن، سينادي صوتي الحاصد الأخير من حقل الزمن. لأني أول ابن أول ولد للزمن والحياة، والقائم بأعمال بيتهما. أنا الحاصد والجامع والدارس للزمن. أنا الحارس والحافظ والحامل لمفتاح الحياة. أنصتوا لصوتي! عليكم أن تتصتوا...

لا وجود للزمن أو الحياة في المقبرة. لا نور ولا ظلام. هناك لا تغرب الشمس، ولا يهدد الفيضان، ولا تهب الرياح، ولا يتغير الطقس. لا يطول النهار، ولا يطارده أوريون الثريا، ولا يكتسي المخلوق الحي بعباءة البهجة والاحتفال. لا تعذبون هنا على عيون الأطفال اللامعة. ولا حمرة وجوه الشباب. ولا تورد خدود الفتيات. ولا الصوت اللطيف للنساء المتعلمات. ولا البسمة البريئة للعجائز. فالعيون والحمرة والخدود والبسمات كلها تنهرس في عصيدة الطين الواحدة غير المتميزة. دفق الحياة لا يسود.

- طويل...
- الجو! الوقت! هذان شيان لن يقلقك هنا يا جون. كنت أحرق طوال حياتك. قل لي فقط! لماذا لا توليني انتباهك؟ هل حصلت على جنازة كبيرة؟
- جنازة كبيرة جيدة!
- تقول جنازة كبيرة يا جون؟...
- جنازة كبيرة جيدة. القلب...
- فليأخذ إيليس وكل شياطينه ذلك القلب الذي يخصك، إن كان كنزا عزيزا عليك هكذا! هل تسمعني؟ سيكون عليك أن تكف عن هذا الهديان. لن يستمعوا إلى ذلك النوع من الحديث هنا. ما أنا أقول لك. كم من المال تم جمعه عند المذبح في جنازتي؟
- جنازة كبيرة جيدة...
- أعرفه. لكن كم من المال عند المذبح؟...
- مبلغ كبير جيد...
- كم؟ أسألك! كنت أحرق دائما. كم من المال عند المذبح؟
- حصل بيتر الخمائر على مبلغ كبير جيد، وجوان البياعة، وماجي فرانسيس، وكيثي...
- ألم أعرف بهذا؟ وهذا ما أسألك عنه. ألم أكن فوق الأرض أنا نفسي في ذلك الوقت؟ لكن كم حصلت على مال عند المذبح، أنا، كاترينا بودين؟ المذبح! سبعة عشر جنيها، أم ستة عشر جنيها، أم أربعة عشر جنيها؟...

- ... مرحى! ما هذا؟ من أنت؟ هل أنت زوجة ابني؟ ألم أكن على حق عندما قلت إنها ستحل هنا في ولادتها التالية...
- جون ويلى، أنا هو - إلا إذا كان عليهم أن يعمدوني من جديد هنا. هكذا كانوا يدعونني في المكان الذي جئت منه. القلب...
- كيف كانت جنازتي يا جون ويلى؟
- جنازة؟ القلب يا كاترينا! كنت ذاهبا للحصول على المعاش. لم أشعر بشيء. شربت رشفة من الشاي. وسرت الهوينى إلى الحقل العمومي لأحضر سلة من البطاطس. وعندما كنت أريحها عن كاهلي في البيت، تمزق الحزام وسقطت السلة مائلة. ارتطمت بجانبى بقوة، وجعلتني أفقد أنفاسي تماما...
- كيف كانت جنازتي، هذا هو سؤالى؟
- القلب، فليكن الله في عوننا! كان القلب عليلا يا كاترينا. كان لدي قلب عليلا...
- اللجنة عليك وعلى قلبك! سيكون عليك أن تكف عن هذا الهراء هنا...
- العني، لكن القلب شيء مسكين يا كاترينا. كنا نبني إسطبلا جديدا من أجل المهر الذي اشتريناه بعد الكريسماس. وكنا قد أنهيناه فيما عدا السطح. لم أتصن من مد يد العون للشاب، لكنه مع ذلك سيفقدني، لا مشكلة لدي، لكن الجو كان رائعا منذ وقت

جاءه بابنة عم جوان البائعة من بحيرة دبري إلى الكنيسة في اليوم التالي... لا مشكلة لدي لكننا كنا نستمتع بطقس رائع لفترة لا بأس بها، وكنا نعمل على ذلك الإسطنبول...

ولم يكن ستيفن ذو الكلام المعسول هناك بالطبع؟...

مهر اشتريناه بعد الكريسماس...

فليكن الرب رحيمًا بك يا جون، لكن لا تدع الناس المدفونة هنا تظن أنك لا تملك ذرة من عقل أكثر من هذا... هل كان ستيفن ذو الكلام المعسول هناك أم لا؟

ولا جزء منه، لكن باتريك قال إنه كان يتحدث إليه يوم السوق، وأنه قال له: «أؤكد لك يا باتريك ليدون، كنت لأحضر الجنازة ولو كان ثمن ذلك حياتي، كنت مدينا لكاترينا بولين...»

”بالقدوم إلى جنازتها حتى لو زاحفا على ركبتي، لكني لم أسمع شيئا، ولا كلمة، حتى ليلة دفنها. صبي صغير...“ فشار حقيقي، ستيفن ذو الكلام المعسول... أي نوع من التوابيت وضعوني فيه؟

عشرة جنيتها يا كاترينا. مبلغ كبير جيد.

هل تتحدث عن التابوت أم المال؟ لماذا لا تسمع؟... أي نوع من التوابيت وضعوني فيه؟ تابوت من...

أفضل تابوت من محل تيم، وبرميل ونصف من الجعة، وكمية طيبة من البوتشين. كان هناك شراب يكفي ضِعف الموجودين. قالت نيل هذا له، لكن لم يكن يكفيه شيء غير الحصول على البرميل والنصف. كانت هناك وفرة من الشراب بالفعل، ورغم

عشرة جنيتها، واثنا عشر شلنا.

عشرة جنيتها! عشرة جنيتها! والآن يا جون، هل أنت متأكد أنها كانت عشرة جنيتها، ليست أحد عشر جنيتها أو اثني عشر جنيتها، أو...؟

عشرة جنيتها يا كاترينا! عشرة جنيتها! مبلغ كبير جيد بالفعل، ليست هناك كلمة كاذبة في كلامي، كان مبلغا كبيرا جيدا عند المذبح، قال الجميع إنه كذلك. كنت أتحدث مع أختك نيل، وقالت: وحصلت كاترينا على مبلغ كبير جيد عند المذبح، لم أظن قط أنها ستقترب من جنيتين أو ثلاثة منه، أو أربعة في الحقيقة، القلب...

لعنة وضربة في قلبك! والآن يا جون، كف عن هذا الهراء لخالط الرب!... هل كان هناك أهل الجبل؟

قالت، بصدق: «ظننت أنها لن تقترب من جنيتين أو ثلاثة...»

أهل الجبل! هل كانوا هناك؟

أهل الجبل! لم يسمعوا شيئا عن الأمر. كان باتريك سيبلغهم. لكن نيل قالت: «ويحك! لماذا تجرر هؤلاء الخلق وتجعلهم يسعرون هابطين كل هذه المسافة؟» هذا ما قالته. القلب. قلب عليل...

أتمنى من الله لو كان قلبك قطعة سم محشورة في فم معدة نيل. وهل حضر أهل جبلين بولي؟...

ولا إصبع قدم منهم.

وأهل بحيرة دبري؟

أني كنت رجلاً عجوزاً أنا نفسي فقد شربت اثني عشر قدحاً تلك الليلة، ناهيك عن كل ما شربته في الليلة التي جاؤوا بك فيها إلى الكنيسة، ويوم الجنازة، وكى أقول لك الحقيقة كاملة يا كاترينا، ورغم كل الاحترام والمودة اللذين أحملهما لك، كان من المستحيل أن أشرب هذه الكمية لو عرفت أن القلب كان عليلاً...

ألم تسمع باتريك يقول أي شيء عن دفني في مكان آخر في المقبرة؟

شعرت بصدمة صغيرة في جانبي، وانقطعت أنفاسي تماماً. كان القلب، ليساعدني الله...

يمكنك الاحتفاظ بهذا لنفسك يا جوني. اسمعني. ألم تسمع باتريك يقول أي شيء عن دفني؟...

كنت ستدقنني على أي حال يا كاترينا، لم يكن من المهم كم الكمية التي شربت، حتى لو كنت الرجل ذا القلب العليل...

أنت أكبر أحمق ظهر على الأرض منذ قضم آدم التفاحة! هل سمعت باتريك يقول أي شيء عن دفني في مكان آخر في المقبرة؟

كان باتريك سيدفئك في مقبرة الجنيه، لكن نيل قالت إن مقبرة الخمسة عشر שלנו جيدة بما يكفي لأي شخص، وأنه من الفضل أن يعرض رجل فقير نفسه لهذه الكلفة.

العاهرة! هذا كلام جدير بأن نقوله! أكانت في البيت إننا؟

مهر كبير جيد اشتريناه بعد الكريسماس، عشرة جنيهات...

هل دفعت عشرة جنيهات مقابل المهر؟ أخبرتي من قبل أنه كانت هناك عشرة جنيهات هي أموال المذبح...

كانت هناك عشرة جنيهات في مال مذبحك بالتأكيد يا كاترينا، عشرة جنيهات واثنا عشر شلناً. كان هذا هو المبلغ بالضبط. جاء بيج بريان بينما كانت الجنازة تتعطف عند أعلى الطريق، وكان يحاول أن يدس شلناً في يد باتريك، لكنه لم يقبله. كان المبلغ ليغدو عشرة جنيهات وثلاثة عشر شلناً. لو قبله...

كان ينبغي أن يحشره في حلقه، بيج بريان! لو كان هذا الأخرق الدميم يبحث عن امرأة لما تأخر... لكن اسمعني الآن يا جون ويلى، اسمعني... أيها الرجل الطيب! هل كانت نيل في البيت؟

لم تغادره منذ مت حتى نهبت إلى الكنيسة. كانت تخدم النساء في البيت يوم الجنازة، دخلت الحجرة الخلفية كي أملاً بعض الغلايين⁽²³⁾ بالتبغ من أجل الناس القادمين من جورت ريبوك، الذين كانوا في حالة خجل شديدة تمنعهم من الدخول. وبدأنا نتحدث أنا ونيل:

اللت: «كاترينا جثة جيدة، فليرحمها الرب. وقد أرقدتموها بصورة جميلة...»

جذبني نيل إلى ركن معزول وقالت: «لم أكن أود أن أقول شيئاً، كانت الهني في النهاية...» أقسم أن هذا ما قالته.

لكن ماذا قالت؟ قلبه...

عندما كنت أريحها عن كاهلي داخل البيت صدمت جانبي صدمة صغيرة. انقطعت أنفاسي حتى لم يبق منها نفس واحد، ولا

(23) جرت العادة على توزيع غلايين من السلسل وبنغ على العزبان ليلة العزاء أو في الجنازة (من فوناش للترجمة إلى الإنجليزية)

نفس! القلب...

أه، فليرحمنا الرب وينجيها! كنت أنت ونيل في ركن الحجرة وقالت: «لم أكن أود أن أقول شيئاً، كانت أختي في النهاية...»

أقسم أن هذا ما قالته، وعسى ألا أعاد هذا المكان قط إن لم يكن هذا ما قالته: «كانت كاترينا تعمل بجِد، حمارة شغل.. لكنها لم تكن على نفس القدر من النظافة، فليرحمها الرب. لو كانت نظيفة، أؤكد لك أنها كانت سترقد رعدة جميلة. انظر إلى القذارة فوق ذلك الكفن الآن يا جون، انظر إلى البقع. أليس هذا مخزياً! ألا تعتقد أنه كان بمقدورها أن تغسل أكفانها وتحفظها جانباً، لو أنها ليئت مريضة لوقت طويل لم أكن لأبالي، الجميع يلاحظون البقع على الكفن. النظافة شيء مهم يا جون...»

المجد للرب! يسوع ومريم ويوسف! تركتها نظيفة كالبلور في ركن الخزانة. لا يد أن زوجة ابني أو الأطفال قد لوثوها. أو أيا كان من أرقدني، من أرقدني يا جون؟

ابنة نورا جوني ونيل. أرسلنا إلى كيتي الصغيرة، لكنها لم تأت... القلب، فليساعدنا الله جميعاً...

أي قلب! ألم يكن ظهرها ما تشكو منه؟ أعتقد لأن قلبك العجوز كان فاسداً فإن قلوب الجميع فاسدة؟ ولماذا لم تأت كيتي الصغيرة؟...

أرسل باتريك ابنته الكبرى لتأتي بها. لا أذكر اسمها. ينبغي أن أتذكره بالفعل. لكنني مت بغتة وعلى غير توقع. القلب...

اسمها مورين.

- هذا هو. مورين. مورين بالتأكيد...

- أرسل باتريك ابنته مورين لتأتي بكيتي الصغيرة، أليس كذلك؟ وماذا قالت؟...

- قالت: «لن أذهب إلى تلك القرية مرة أخرى. لقد انتهى أمرها معي. والطريق طويل للغاية عليّ الآن مع وضع حالة قلبي في الاعتبار...»

- لم يكن قلبها، كان ظهرها كما أقول لك. ومن ناح عليّ؟

- كان الأسطبل جاهزاً ماعدا السطح. حتى لو لم أكن قادراً على تقديم عون كبير للشاب...

- لن تتمكن من تقديم هذا القدر من العون على أي حال من الآن فصاعداً... لكن اسمع الآن يا جون. أياها الرجل الطيب! من ناح عليّ؟...

- قال الجميع إنه لشيء مؤسف للغاية أن سارة الثرثرة لم تأت، لأنها عندما تملأ معدتها بالجة...

- يا ربي! ولماذا لم تأت سارة الثرثرة لتنوح عليّ؟

القلب.

- القلب كيف يمكن أن يكون القلب؟ كانت سارة الثرثرة تشكو من الكلى، مثلي تماماً. لماذا لم تأت؟

- عندما أرسل أحدهم إليها، كان مما قالته: «لن أحرك قدماً من أجلهم. لقد بكيت ملة عيني من أجلهم، وهل حصلت على أي احترام مقابل ذلك؟ لا؛ سارة الثرثرة إسفنجة. إسفنجة تمتص

- الورك يا كاترينا. الورك. هناك كلام عن الدعوى القضائية التي ستقام في دبلن في الخريف. الجميع يقولون إنه سيخسرهما، وأنه سيتترك نيل وابنة بيج بريان دون مليم أحمر...

- فليكن! بعون الله... ماذا قلت عن توماس الداخل؟

- بعد أن نهب مباشرة للحصول على المعاش، تناولت رشفة من الشاي، وهبطت إلى الحقل العمومي...

- لا تقلق! لن تضع قدما فيه مرة أخرى... اسمع، اسمع، أقول لك. توماس الداخل...

- توماس الداخل؟ يضح بالحياة. كان الكوخ على وشك أن ينهدم فوجه لحاجته لسقف. وجاءت نيل إلى ابنتك باتريك قريبا وقالت له: «إنه لعار فطبع عليك أن تترك ذلك الرجل العجوز المسكين والمطر يسقط على أم رأسه، فقط بسبب ما حدث لابني بيتر...»

- وأذعن الأحقر الصغير للعاهرة...

- كان مشغولا، لكنه قال إنه سيضع بعض القش هنا ويعضه هناك في موضع أسوأ التسربات حتى يجد فرصة لصنع غطاء مناسب... القلب...

- يحق لك. القلب. لدى باتريك قلب طيب. أطيّب من اللازم... هل سمعت شيئا عن الصليب الذي من المفترض أن يضعوه فوقه؟

- صليب جديد نظيف جيد من أفضل أحجار الجزيرة يا كاترينا...

- قريبا؟

- قريبا، بالتأكيد...

الشراب. أراهنك أنك لن تسمع منها نعييا ولا نواحا إلا بعد أن تملأ بطنها حتى إبطيها. عندئذ ستندب بطريقة مروعة مثل جوقة الجحيم، دعهم يتدبونها الآن بأنفسهم، إذا كانوا يريدون. من الآن فصاعدا ساندب فقط أشخاصا معينين.. هذا ما قالته...

- عاهرة بصحيح، سارة الفرثارة تلك! لكنها ستنال ما تستحق متي عندما تحل هنا!... هل كانت نيل تهمس في أذن القس أثناء الجنازة؟

- لم يكن القس موجودا على الإطلاق. ذهب إلى جنازة ابنة عم جوان البائعة؛ لأنها كانت طيبة وقريبة منه. لكنه أشعل ثماني شمعات...

- وهذا شيء لم تتله جثة من قبل يا جوني.

- غير أن واحدة منها انطفأت يا كاترينا. اختنقت بدخانها...

- عسى أن يخنقوا جميعا!

- وتلى صلوات لا نهاية لها ورش الماء المقدس خمس مرات على التابوت، وهو شيء لم يره أحد من قبل... قالت نيل إنه كان في الحقيقة يبارك الجثتين معا، لكني لا أصدق هذا فعلا...

- آه يا جوني، ولماذا يفعل هذا؟ فليجازه الرب. إلى هذا الحد سيكون انتقاما عظيما من نيل. كيف حال ابنها بيتر؟

- فيه ما يكفيه من بؤس. فيه ما يكفيه من بؤس. القلب...

- آه يا ربي! ما هذا الهراء عن القلب! ألم يكن وركه هو المصاب؟ أم أن الوجع انتقل إلى قلبه من وقتها؟ هذا أفضل مع ذلك...

بالكتب. هذا انتقام كبير من نيل...
... مرشحتنا المشتركة في هذه الانتخابات...
يا يسوع، فلتذهب من فوق الصليب! لا تقولي لي يا كاترينا إن
هناك انتخابات هنا أيضا. كانت هناك واحدة بالأعلى منذ بضعة
أيام فقط.

وكيف صوت أهل قريتنا؟...
شعرت بألم صغير في جانبي القلب...
ها هو يسرح مع جنياته من جديد! اسمعني! كيف صوتت ناسنا؟
بالطريقة القديمة. وهل هناك طريقة غيرها؟ كل من في القرية
صوتت بالطريقة القديمة ماعدا أهل نيل. كل من في بيتها غيروا
اختيارهم لهذا الحزب الآخر...

فليخيب الله أملها، تلك العاهرة، بالطبع ستبدل وجهها. كانت
دائما خائنة...

يقولون إن هذا الحزب الآخر وعدما بطريق جديد صاعد إلى
البيت... لكن في الحقيقة لا قلق عليها حتى الآن. إنها تغدو أصغر
سنا. لم أرها قط في حال أفضل مما كانت عليه يوم دفنك يا
كاترينا...

فلتذهب في ستين داهية أيها القرية القديمة. لا أحد من أهلك
كانت لديه قط كلمة جيدة يقولها، أبدا... فلتذهب في داهية، هذا
ليس قبرك على أي حال... لا بد أن المقبرة انقلبت رأسا على عقب
تماما إذا كان أمثالك سيُدفنون في نفس القبر معي. فلتذهب
في ستين داهية إلى مقبرة النصف جنين. تلك هي البقعة التي

وزوجة ابني؟...
زوجة ابني؟... ابني ليس متزوجا على الإطلاق يا كاترينا. أخبرته
أنه عندما يكتمل اسطبل المهر، فإن أفضل شيء يمكن لفتي شاب
مثله أن يفعله هو...

أن يذهب إلى الطبيب من أجل قلبه يا جوني، في حالة إن كان قد
ورث العلة منك. زوجة ابني، ابني باتريك. ابنة نورا جوني، هل
فهمتها الآن؟...

آه، نعم. ابنة نورا جوني. مريضة قليلا. القلب...
أنت كاذب قدر. ليس قلبها، مريضة فقط...
مريضة قليلا فقط يا كاترينا...

شكرا على الإضافة! أعرف هذا القدر بنفسني. ظننت أنها ربما
أظهرت بعض الدلائل على قرب قدومها إلى هنا، ستكون هنا عند
ولادتها التالية بالتأكيد... هل سمعت شيئا عن بابة؟

أخذت بابة في أمريكا. كتبت لباتريك تحزيه في موتك. وأرسلت
إليه خمسة جنينيات. ولم تكتب وصيتها بعد. أخبرني أن ابنته
الكبرى - ما اسمها؟ لا أتذكر. ينبغي أن أتذكر، لكنني مت فجأة
على غير توقع...

ابنة باتريك الكبرى اسمها مورين...
ماذا هو، مورين. هناك راهبات من مكان ما في الريف سيأخذنها
ليجعلن منها معلمة عندما تتلقى ما يكفي من التعليم...

مورين ستصبح معلمة! فليحرسها الله. كانت دائما مغرمة جدا

لأدفن فيها... عسى ألا تأتي أي جثة أخرى إلى المقبرة قبلها!...

لكن بآبة أرسلت ورقة بخمسة جنيهات إلى باتريك، وهذا المبلغ عون كبير له. سيريح هذا تلك العاهرة ابنة نورا جوني، والآن لن تتمكن من قول إنها ليست مسؤولة عن صليبي. لكن هذه علامة جيدة أيضا... أن تكتب بآبة لنا... فقط لو عشت بضع سنوات أخرى حتى تُدفن تلك العاهرة المتخضنة نيل قبلي...

هذا خبر عظيم أن مورين ستصبح معلمة. سيزعج هذا نيل وماجي ابنة بيج بريان أليما إزعاج: سيكون لدينا معلمة في أسرتنا، وهم جميعا ليس لديهم معلم في كل عائلاتهم. أظن أن المعلمة تكسب كثيرا. سيكون علي أن أسأل الأستاذ الكبير عما كانت تكسبه زوجته. ومن يدري؟ ربما تحصل مورين على وظيفة معلمة في مدرسة بلدتنا، خاصة لو رحلت زوجة الأستاذ الكبير، أو لو حدث لها أي شيء. ساعتها ستعرف نيل بالأمر وتموت غيظا. أخيل مورين وهي تخطر عبر فناء الكنيسة كل يوم أحد مرتدية قبعاتها وقفازها وممسكة بمظلتها، وكتاب صلواتها كبير كسلة حطب تحت إبطها، تسير متجهة إلى شرفة الكنيسة مع أخت القس، وتعزف على البيانو. فلتأكل نيل وماجي ابنة بيج بريان قلبيهما هكذا وحسدا- إن كانتا مازالتا حيتين وقتها. لكنهم يقولون إن الأمر يرجع إلى القس في تعيين المعلمات. لو كان الأمر هكذا، لا أعرف ماذا أقول، ونيل صديقة مقربة له... لكن من يدري؟ ربما لن يمر وقت طويل قبل أن يرحل، أو قبل أن يموت...

وتلك العاهرة زوجة باتريك مازالت مريضة... إنه لما يدعو للدهشة الشديدة أنها لم تمت، لكنها ستموت، في ولادتها التالية بالتأكيد...

تنتمي إليها. انظر إلى كل مال المذبح الذي كان في جنازتي. انظر إلى الاحترام الذي أظهره القس لي. تابوتك لم يتكلف قرشا فوق الخمسة جنيهات. فلتنهب في داهية. أنت وقلبك العجوز. أتجرؤ؟... لا أحد من أهلك كانت لديه قط كلمة جيدة يقولها. فلتنهب في ستين داهية بأسرع ما يمكنك!...

33

... إذا لم يكن هناك غير عشرة جنيهات بائسة في أموال المذبح كلها، بعد كل ما بذلته من جهد ومال على مذابح كل كسول نكرة في البلد. لا أحد -حي أو ميت- يستحق لفته طيبة... ولم يأت أهل الجبل إلى جنازتي... أو أهل جلين بولي أو بحيرة ديربي... ولم يأت ستيفن ذو الكلام للعسول، الفشار- سيأتيهم الرد على هذا يوما ما. سيأتون إلى هنا...

لكن ما الفرصة التي كانت لدى أي شخص كي يأتي، بينما تلك المومس نيل تبني عشا في أذن باتريك، ناصحة إياه ألا يخبر أحدا بأمر موتي. وكانت هناك ترقدني وتوزع الشراب في جنازتي. كانت تعرف جيدا أن لم أعد حية، ففعلت هذا. لا يستطيع الميت أن يفعل شيئا حيال هذا...

لا يهمني أن كيبي الصغيرة وسارة الثرثرة لم تأتي. سأرد لهما الصاع صاعين على هذا، ولن يفاجئني بأي شكل من الأشكال لو كانت نيل قد نمت إليهما مقدما ووسوست لهما كي لا تجيئا بطريقة أو بأخرى، تفعلها هذه المومس! أي امرأة تقول إنني لم أجهز أكفاني بشكل لائق

مما يؤسف له أنني لم أسأل جون ويلى عن العشب والزرع والخنازير والعجول وغارات الثعالب هذه الأيام. كان هذا هو كل ما أريد أن أسأله عنه، ثم... لكن ما الفرصة التي لدى أي شخص لسؤاله عن أي شيء، مع كل أثرته عن قلبه العجوز؟ سيكون من السهل أن أتحدث معه قريباً؛ فقد حُشر هنا إلى جوارى على أي حال...

- الصبر يا كولي، الصبر. اسمعني، أنا كاتب...

- انتظر الآن، أيها الرجل الطيب، حتى أنتهي من قصتي: «قال فنّ: آه من ذلك الانتهازي الحقير! لم يكن ليخطر له أن يترك يُفّ ذاك الخصلات الذهبية مع أبيه المسكين حتى لو كان وحده كل ليلة منذ فرت جرونيا، تلك الفتاة الوائلة ابنة كورماك ابن كويين، مع بيچ ميجان، ابن المحارب الأسود من الغاية المقدسة التابعة لفرقة فيانا»⁽²⁴⁾...

- أصعب رجل تعاملت معه على الإطلاق في مجال التأمين كان الأستاذ الكبير. لم تكن هناك حيلة في جعبتي لم أجربها، هاجمته من الخلف ومن الأمام ومن كل زاوية. جنته من البحار المشمسة ومن القفار العتجمنة. من عين العاصفة وعلى السهل المنبسطة، هاجمته بحركة الكماشة، حاصرته، انهلت عليه لكما، طعنته، ضربته بالقبلة النرية. كنت كلباً متملقاً، ولصاً في الليل. ملأته بأساطيل من البر الإنساني وسخرت منه بتهمكات الهجاء. أغرقت بدعوات للدفاء في حانة بيتر، غذيته بالسجائر مجاناً ويتوصيلات بالسيارة دون مقابل. جلبت له تقارير دقيقة عن زيارات المقشدين

24- فنّ ونيلا ونيف وجرونيا: كان فنّ ملك كول هو القائد الأسطوري لفرقة من المحاربين اسها فيانا، ونيف وجرونيا شخصتان في الأساطير النارية حول فيانا. (من هوماس الترجمة للإنجليزية)

وأحدث القيل والقال عن الشجار بين ناظر وناظرة المدرسة في بلدة بارنا. حكيت له حكايات خيالية عن الشابات...

لكن كل هذا كان بلا فائدة على الإطلاق. كان يعتقد أنه لو اشترى بوليصه تأمين مني سيدعو هذا أسوأ شيء يمكنه أن يفعله. حتى كرب أسرة لم يكن ليشارك بمليم أحمر...

- لكنني شاركت...

- أنت شاركت وكذلك أنا. لكنه كان أكبر بخيل في العالم. كان بخيلاً جداً لدرجة أنه يمكن أن يسرق الفئران في تقاطع الطرق، كما يقولون. لم ينفق النقود عن سعة إلا مرة واحدة عندما ذهب إلى لندن، عندما حصل المعلمون على تلك العلوة...

- كان هذا عندما ذهب إلى الملهى الليلي.

- نعم، قضى بقية حياته يحكي لي كل ما دار هناك، وهو يحذرني كي لا أفنح فمي الكبير. كان يقول: «لو سمع القس أو الأستاذة بهذا...»

زوجها: الأستاذة.

فأت لنفسي: «ربما قد أتمكن الآن من العثور على نقطة ضعفه. قد تكون الأستاذة عوناً كبيراً، لو استطعت مدامنتها. ويمكنك دوما مدامنتها...»

لا توجد امرأة حية لا تملك تلك النواة من الغرور، فقط لو استطاع المرء أن يكشف عنها الغطاء. لم أقض سنوات أبيع التأمين دون أن أتعلم هذا.

- أعلم هذا أيضاً. أسهل أن تبيع للنساء عن أن تبيع للرجال لو كانت فنتلك حاضرة...

كان عليّ أن أمنحه وقتنا حتى تيلي جدة الزواج. لكنني لم أستطع أن أترك الأمر طويلا أكثر من اللازم كذلك، خوفا من أن يبهت تأثيرها عندما يخبر سحرها. مندوبو التأمين يعرفون كل شيء عن هذا...

ويأتى الكتب أيضا...

أعطيتها ثلاثة أسابيع... كان يوم أحد. وكنا هما الاثنان جالسين في الخارج أمام البيت بعد العشاء مباشرة. قلت: «ها أنا قد جئت أيها الوغد! أقسم بنخاع عظام أسلافي أنني سأعقد صفقة اليوم... لقد انتهيت من تحضير عمل الأسبوع، وتلك الملاحظات التي نتحدث عنها دوما. أنت محشو بالطعام، وإذا كانت زوجتك راضية، سيكون من الأسهل اللعب عليك الآن أكثر من أي وقت آخر...»

ثرثرنا قليلا عن السياسة. قلت إنني في عجلة من أمري بعض الشيء. قلت: «الأحد مثله مثل أي يوم آخر بالنسبة لي؛ دائما أجوس 'بحثا عن يمكنكني التهامه'. والآن بما أنك متزوج يا أستاذ، فينبغي أن تشجعه الأستاذة على شراء بوليصة تأمين. أنت أفضل حالا الآن من أي وقت آخر. ولديك زوجة يجب أن تعتني بأمرها... ورايبي هو...» قلت موجها حديثي لزوجته: «أنه لا يجب بالفعل على الإطلاق، وأنه مستعد فقط للحصول على ما يريدته منك، وإذا لم تكوني موجودة لكان منطلقا يطارده امرأ أخرى على الفور.»

ضحك الاثنان. قلت: «وكمندوب تأمين عليّ أن أخبرك إنه إذا مات فجأة، ليس هناك من مورد رزق لك. لو كان لديّ «سند ذهبي» مثلك...»

تجهيم وجهها قليلا وقالت للأستاذ نصف هازلة ونصف جادة: «نعم، لو حدث لك أي شيء، سنكون جميعا في ورطة كبيرة...»

فقال بصوت مستاء: «وماذا يمكن أن يحدث لي؟»

قلت: «والحوادث منتشرة كالهواء، ومن واجب مندوب التأمين أن يقول هذا دائما.»

قالت: «بالضبط، وأتمنى ألا يحدث شيء. فليبعد الله عنا كل شر! لو حدث لك أي شيء، لن أبقى على قيد الحياة من بعدك، لكن، والعياذ بالله، لو مت ولم أمت في نفس الوقت... ماذا سيحدث لي؟ إنه واجب...»

وهل تعرف ماذا حدث؟ اشترى بوليصة تأمين على الحياة! بقيمة ألف وخمسمائة جنيه. أعتقد أنه دفع أربعة أو خمسة أقساط فقط - أقساط شهرية أيضا. ثم جعلته يشترى واحدة أخرى بقيمة مائتين وخمسين عندما دفع القسط الأخير. «لن يبقى طويلا...» قالت باهتسامة وهي تغمز بعينها لي.

وكانت على حق. لم يمر وقت طويل قبل أن يموت...

سأمكنك لك عن ضربة أخرى موفقة لي. لكنها لم تكن بنصف جودة الصفقة التي عقدتها مع الأستاذ الكبير...

لقد تلاعبت بالأستاذ الكبير بنفس الحدة التي تلاعبت بها فيل بودين بكارتينا في موضوع جاك الفتى...

يا ربي! سأنفجر! سأنفجر! سأنفب...

بالنسبة لفتاة في سنها. كانت أفضل بكثير من الأستاذة -أي زوجة الأستاذ الكبير- قبل أن يموت هو نفسه. لا يوجد أحد في المدرسة يجازيها بأي درجة، أخبرني جون ويلي بهذا.

قال: «إنها متفوقة عليهم بمسافة. ستخرج قبل عام من أي أحد آخر.»

أقسم أنه قال هذا يا مارجريت... أه بريك الآن يا مارجريت، لا حاجة للحديث هكذا. هذه ليست مفاجأة على الإطلاق. لماذا تقولين إنها مفاجأة؟ كانت لدى عائلتي دائما عقول وذكاء يتقدح. ليس لأني أقول هذا...

... لكن هذا ليس ما سألتك عنه يا جوني.

أه يا أستاذ، كان قلبي! قلبي، فليساعدنا الله! كنت قد ذهبت للحصول على المعاش. لم أسمع همسة... والآن بريك يا أستاذ، لا تكن سريع الغضب. لم أستطع تجنب الأمر. أحضرت سلة من البطاطس. وعندما كنت أريحها من فوق كاهلي... لكن يا أستاذ، أنا لا أقول كلمة غير الحقيقة. لكني بالتأكيد لا أملك شيئا غير ما يقوله الناس لي. للأسف كانت هناك أشياء أخرى في بالي. هبطت السلة مائلة. وحدث... مانا كان يقول الناس يا أستاذ؟ ليس لدى قومتنا وقت لقول أي شيء يا أستاذ أو للاستماع إلى أي شيء. كنا نيني إسطبلا جديدا للمهر...

ماذا كان يقول الناس يا أستاذ؟ أنت تعرف بنفسك يا أستاذ -رجل مثلك قال هذا القدر من التعليم، بارك الله فيك- أن هناك بعض الناس لا يستطيعون العيش دون قرثرة. لكن شخصا بقلب عليل... سأخبرك بما قالوا يا أستاذ، فقط لو كان لديك قليل من الصبر ولم تكن غضوبيا

مارجريت! يا مارجريت... أسمعيني؟

... لقد أقوا بجون ويلي فوقي، أقسم أنهم فعلوا ذلك يا مارجريت... أه، تحلي ببعض العقل يا مارجريت! لماذا سأسمح له بالوجود في نفس القبر معي؟ أنا لم أضطر قط لجمع وبيع الحلزونات. ألم يعش هو وعائلته على الحلزونات؟ سأذكره بذلك قريبا. ورغم أنني تحدثت معه لقليل من الوقت، إلا أنه كاد يقودني إلى الجنون بثرثرته عن قلبه العجوز... هذا صحيح أيضا يا مارجريت. لو وضعوا الصليب فوقي، لكان أسهل عليهم كثيرا أن يميزوا القبر. لكن لن يطول الوقت الآن يا مارجريت. أخبرني جون ويلي بهذا. صليب من أفضل رخام الجزيرة مثل صليب بيتر صاحب الحانة... زوجة ابني، أليس كذلك؟ أخبرني جون ويلي أنها ستكون هنا عند ولادتها التالية، لا شك في هذا...

هل تتذكرين يا مارجريت؟ هل تتذكرين ابنة باتريك الكبرى؟... تلك هي، مورين... هذا صحيح. ستم الرابعة عشر الآن... أنت على حق. كانت قطعة لحم صغيرة عندما مت. هي الآن في المدرسة الثانوية. أخبرني جون ويلي... أنها ستصبح معلمة، وماذا غير ذلك! أنت لا تعتقدين، أليس كذلك يا مارجريت؟ أنهم يرسلونها إلى المدرسة الثانوية لتتعلم كيف تسلق البطاطس أو تطهو سمك الماكريل، أو لتجهز الفراش، أو لتكنس الأرض. قد يكون هذا مناسباً لتلك القرية المسماة بأهمها، لو كان هناك وجود لمثل هذه المدرسة...

مورين كانت دائما مغرمة بالمدرسة، لديها رأس عظيم مائل للتعليم،

- ... لكن يا كولي، كولي...

- دعني أنهي قصتي أيها الرجل الطيب:

"قال دانيال أوكوينيل⁽²⁵⁾: 'بالقطع لا يوجد أحد يمكنه أن يوجهني في هذه القضية الآن ماعدا شخص واحد فقط -بيدي إيرلي- وهي على بعد سبعمئات ميل من هنا، تصنع تمائم سحرية لمقترحي الخمر الذين تسرق الجنيات من ويسكي البوتين الذي يصنعونه كل قواه، في بلدة يسمونها (عظام الحصان)⁽²⁶⁾ في مقاطعة جالواي هناك في أيرلندا، جهزوا أفضل خيولي في الإسطلبل حتى أذهب وأحضرها إلى لندن في إنجلترا راكبة خلفي..."

وانطلق. وقال لها: يا آنسة ديبونير، كيف يجرو أي ابن عاهرة على إهانتني هكذا؟..."

- ... آه الآن هيا يا جوان البائعة! تجمعين الأصوات من أجل بيتير الخمار! ولم لا؟ ابنتك متزوج من ابنته فوق الأرض. وحتى لو لم يكونا، أنت وبيتير متوافقان كزوج من اللصوص...

- هذا هو الشكر الذي أناله الآن. كنت لتموتين قبل سنوات من أوانك لولا ما أعطيتك من قروض. كنت تعترضيني كل يوم متوسلة:

(25) دانيال أوكوينيل (1775-1847) هو القائد السياسي الكاثوليكي الأيرلندي وهو مادة لكثير من المؤلفات الفكرية. أما بيدي إيرلي (المتوفى عام 1874 في مقاطعة كاتل) فكانت معالجة بالأشغال وأبنة الشهرة قبل إنها كانت تصنع بأقدرة على التنوير. (من هوماش الترجمة إلى الإنجليزية)
(26) مكان غير معروف (من هوماش الترجمة إلى الإنجليزية)

معي هكذا. لم أكن لأبالي، لكن الطقس كان رائعا لوقت طويل بينما كنا تبني الإسطلبل... الناس يا أستاذ؟ يقولون أكثر مما يملون في صلواتهم. لكن شخصا لديه قلب عليل، فليساعدنا الله...

الأستاذة، أليس كذلك؟ لم أرها قط في حال أفضل يا أستاذ، ليباركها الله إنها تغدو أصغر سنا، لا شك في ذلك. لا بد أن لديها قلبا عفيا جدا... آه، بالطبع الناس معتادون على الكلام. هكذا هم. أقسم أنني والشاب كنا مشغولين بالإسطلبل... آه، بربك، لا تغضب مني. ألا تعرف أن الجميع قالوا إن بيلي البوسطجي إن يبرح منزلك مهما حدث؟

كان مهورا كبيرا جيدا يا أستاذ... ما الفائدة التي ستعود عليك من غضبك مني؟ لم يكن باستطاعتي أن أفعل أي شيء بخصوص أرضك. كان لدي المزيد لأتلق بشأنه، والله المعين... هو يقضي الكثير من الوقت في البيت، هل هذا هو السؤال؟ أقسم بروحي أنه يفعل ذلك بالتأكيد يا أستاذ. لا مشكلة لدي في ذلك، لكن في المدرسة أيضا؟ إنه يزور المدرسة كل يوم ويعطي الخطابات للتلاميذ، ويخرج هو والأستاذة إلى القاعة ليتسامرا، آه، فليبارك الرب براءتك يا أستاذ. أنت لا تعرف نصف الموضوع، لكن كان لدي المزيد لأتلق بشأنه. انقطعت أنفاسي تماما القلب...

«من أجل الرب وأمه المباركة اعطيني بعض الدقيق حتى أبيع الخنازير...»

لقد دفعت الخالي والنفيس مقابل ذلك الدقيق نفسه، يا جوان أيتها الحقيرة البائسة! كان الناس جميعا يقولون: «جوان البياعة امرأة طيبة وخيرة. إنها تبيع بالأجل». كنت تفعلين هذا يا جوان لأنك كنت تعلمين أنك ستحصلين على مالك مرة أخرى، وإذا لم يدفع لك واحد، سيكون هناك مائة آخرون يدفعون...
نفس هذا المبدأ الأساسي ينطبق على التأمين...

كنت لأحصل على كيس من الدقيق مقابل جنيه لو دفعت فوراً. أما لو انتظرت حتى يوم السوق أو بعث قبل السوق، فسيغدو الثمن جنبها وثلاثة شلنات، وإذا لم أتمكن من الدفع طوال ستة أو تسعة شهور، فكان يكلفني جنبها وسبعة شلنات، كنت لينة وعذبة مع الوجهاء، وكنت قاسية ومحتقرة للشخص الذي لا يملك قرشاً في راحة يده، الحمد لله أن جاء اليوم الذي لا نخشى فيه من قولها في وجهك...

اسمعي يا جوان أيتها العاهرة الماكرة -الداعمة الماكرة لمن يملك المال على أي حال- جوان أيتها العاهرة الماكرة، أنت من قتلتي قبل ثمانين عاماً من أجلي، بسبب نقص السجائر... رأيتك تعطينها للشاويش الذي لم يشتري منك إطلاقاً إلا في برايمت سيتي، ورأيتك تعطينها لسائق شاحنة لم يعرف أحد من أي داهية جاء، ولم تأخذي منه قرشاً كريح. كنت تخيبيها تحت لوح البيع.

قلت لك: «واحدة فقط، يمكن أن تكفيني واحدة الآن، وربما سيكون هناك المزيد غداً، أول الشهر...»

وقلت: «ومن أين آتي بالسجائر؟ أنت لا تعتقد بالتأكد أنني أصنعها...» قلت: «لو كنت غنيا كفاية لأعطيك أربعة أو خمسة شلنات مقابل العلبه، لقمتم بحشوها لي...»

وعدت إلى البيت.

قالت أمي: «كان أحرق بك أن تجمع ذلك النثار من الطحالب الذي تركته هناك وتنتثره على الحقل هنا...»

قلت: «طحالب! انتهى عملي في نثر الطحالب يا أمي.»

وبصفت بصفة كانت متببسة كالتصاب ذكر. عسى ألا أفاقر هذا المكان لظ إن كنت لا أقول الحقيقة. كان هناك قط صغير قرب المدفأة. بدأ بلعق كتلة البصاق. فانتابته نوبة من السعال، عسى ألا أفاقر هذا المكان لظ إن لم يفعلها.

قلت: «لا يبدو هذا جيداً... وأويت إلى فراشي، ولم أنهض بعدها قط. بسبب نقص السجائر. موتي في رقيبك أيتها العاهرة الماكرة جوان، يا من تتعهرين للأغنياء...»

وكذلك كان موتي! كان القيقاب الذي بعته لي أيتها الساحرة العجوز هو ما عجل بنهايتي. أعطيتك جنبيين وخمسة شلنات في يدك، كان ذلك في عز الشتاء وكنا نشق ذلك الطريق في قرية دوناه. كنت أحمل الحجارة على تقالة في ذلك النفق الرطب إلى الجنوب، عسى أن يختنق ذلك النفق ويغرق دائماً وأبداً وهناك كان مقدرا لي أن أموت، لبست القيقاب، ويعد يومين لم يمنع قطرة واحدة عن الوصول إلى قدمي...»

وضعت النقالة أرضا.

قال زميلي: «ماذا يسووك؟»

قلت: «كل شيء..» جلست بين ذراعَي النقالة ورفعت سروالي التحتي إلى أعلى كاحلي. كان كاحلي أزرق كأنف الظربان. أقسم بالسماء أنه كان كذلك.

عندما مر الرئيس قال: «ماذا يسووك؟»

قلت: «كل شيء..»

قال: «أخشى أن كل شيء لديك في غاية السوء..»

قلت: «قباب جوان البياعة.»

قال: «اللعة على هذه القباقيب وعلى كل شيء يمت لها بصلة. لو عاشت هذه المرأة أطول من هذا لن يكون لدي عامل طرق باقي خارج المقابر.»

عدت للبيت. رقدت في الفراش. أرسلوا إلى الطبيب في تلك الليلة.

قال: «لقد انتهيت، القدمان...»

قلت: «لقد انتهيت بالفعل، القدمان... القباقيب...»

قال: «قباب جوان البياعة فعلا. طالما أنها حية لن أكون عاطلا... لكنك انتهيت على أي حال...»

وبالطبع كنت منتهيا. بعد أسبوع من ذلك اليوم نُفنت. قبقابك يا جوان الغشاشة. موتي في رقبتك...

- وموتي في رقبتك يا جوان الدميمة. قهوتك. أه، قهوتك اللعينة! والمربى. المربى اللعينة التي كنت تبيعونها يا جوان الدميمة. قهوتك بدلا من الشاي؛ ومرباك بدلا من الزبد.

كان اليوم المحتموم بالنسبة لي - فقط لو كان بمقدوري أن أتجنبه - اليوم الذي جعلت فيه بطاقتي التمييزية معك يا جوان الدميمة:

«لم يأت أي شاي هذا الأسبوع. لا أعرف ما خطبهم حتى لا يرسلوا لي أي شاي.»

«لم يأت أي شاي يا جوان؟»

«ولا حبة منه.»

«ليس بمقدور الناس الحصول على أي شاي هذا الأسبوع يا جوان؟»

«ليس بمقدورهم فعلا. لكنكم ستحصلون على حصة أسبوعين من التموين في الأسبوع القادم.»

«لكك قلت هذا كثيرا من قبل يا جوان، ولم يجر تعويضنا قط عن الأسابيع التي لم يأت فيها... لخاطر الرب وأمّه المباركة يا جوان، قليل من الشاي. قليل من الشاي، حتى ما يغطي ظفر إصبع... لقد سممتي الفهوة...»

«ألا تعرف أنني لست من يصنع الشاي! إذا لم تكن راضيا يمكنك أن تنقل بطاقتك إلى...»

«كنت تعلمين جيدا أنه ليس بمقدوري فعل ذلك يا جوان الدميمة. كنت تدخرين الشاي لهؤلاء الذين يمكنهم دفع ثلاثة أضعاف ثمنه:

البيوت التي تضم متعلمي اللغة الأيرلندية والسياح والوجهاء ومن على
شاكرتهم. أعطيتيه لمديرة بيت القس أمام عيني، وأعطيت ربع رطل
لزوجة الشاويش، محاولة أن تجعلي القس يبتعد عن إدانة احتياك أمام
المذبح؛ ومحاولة أن تجعلي الشاويش يبتعد عن إدانة احتياك أمام
المحكمة...

عدت بالقهوة إلى البيت معي، أعدت المرأة العجوز بعضها.

قلت: «لن أشرب قطرة منها، بارك الله فيك على أي حال...»

قالت: «سيكون عليك أن تتناول شيئا بعد قليل. لم تتناول شيئا منذ
صباح الأمس.»

قلت: «فليكن.» ثم شعلت كتلة من البلغم. كانت كالجلد، بعد إذن من في
المقبرة. بدأ الكلب يشمشم حولها. لكن ليس لوقت طويل. سرعان ما فر
هاريا ولم يُر مرة أخرى طوال يومين.

قلت: «عصارة معدتي ليست كما ينبغي لها أن تكون. وقد أموت الآن فوراً
كذلك. ساموت إن شربت هذه القهوة الآسنة، وساموت إن لم أشربها...»

ومت بالفعل. لم يعد بمقدوري أن أنطق كلمة بعدها، فقط بصقتها
عرقا عندما أرقدونني. كانت قهوتك التي قتلنتني يا جوان أيتها الساحرة
العجوز. موتي في رقبتيك.

- وموتي!

- وموتي!

- وموتي!

... لن أصوت لك يا بيتر. لقد سمحت لمهرطق أسود أن يهين
الدين داخل محلك العام. لم يكن لديك دم في عروقك. لو كنت أنا
مكانك...

لقد كنت محتالا كاملا يا بيتر الخمّار. غرّمتني أربع قطع من
العملات المعدنية مقابل نصف كأس من الويسكي، وكنت بريئا
لدرجة أنني لم أعرف ما ينبغي أن أدفعه...

كانت زوجتك تعرف كل شيء عن الأمر. لقد قضت على الكثير
من أنصاف الكؤوس في حانتي. لكني أعتقد أنك لم تعرف قط
شيئا عن هذا أيضا، حتى الآن...

كنت محتالا يا بيتر الخمّار. كنت تخفف الويسكي بالماء...

لم أفعل.

أقول لك إنك كنت تفعلها. نهيتا أنا وتوماس الداخل إليك يوم
جمعة بعد أن قبضنا المعاش. كان هذا قبل الحرب. كان البلد
غارقا في الويسكي. وبمجرد أن رأيت توماس مرحا قليلا بدأت
تحدث إليه عن النساء. قلت: «إنه لمن العجيب أنك لم تتزوج
حتى الآن يا توماس. رجل يملك قطعة أرض لطيفة...»

قال توماس: «وحق الله أنت لم تتطوق أبدا بكلام أصدق من هذا! ولعلك
«أقدم لي ابتكك كذلك.»

قلت: «والله ها هي، لن أمنعها عنك...» كان يوما يا بيتر... لا تتذكر ذلك...

دخلت ابنتك الحانة في تلك اللحظة المناسبة بالضبط. وأخذت إزاء
الغريب الفخاري من الرف. أتعتقد أنني لا أذكر؟ قلت: «ها هي الآن،
بنتها أن تفعل ما يحلو لها...»

قال توماس وهو يتحرك مقترباً منها: «هل تتزوجيني؟»

قالت: «ولم لا يا توماس؟ لديك قطعة أرض لطيفة، ومعاش نصف جنيه...»

قضينا بعض الوقت نمزح بهذه الطريقة، لكن توماس كان نصف مزاح ونصف جاد. وكانت ابنتك تتقصّع وتلهو بكوفيته... كان يوماً يا بيتر... لا تنكر ذلك...

دخلت ابنتك المطبخ. ودخل توماس وراءها، ليشعل غليونه. أبقته بالداخل، لكنها سرعان ما عادت إلى الحانة من جديد لتأتي له بكأس آخر من الويسكي. وقالت: «هذا الأحمق العجوز سيسكر قريباً حد العمى، وسيكون ضيقنا حتى الصباح عندئذ...»

أخذت الكأس الذي كانت تمسك به في يدها. ووضعت نصفه تقريباً ماء من الإبريق، ثم أكملت ملاء بالويسكي... كان يوماً يا بيتر...

أظن أنني لم أرك تفعلها؟ كنت أعرف جيداً ما كان يحدث بينك وبين ابنتك وراء البار. أظن أنني لم أفهم همسك؟ أمدت ابنتك توماس الداخل دون انقطاع بالويسكي المخفف بالماء طوال اليوم. لكنه دفع ثمن الويسكي مقابل الماء، وكان سكرانا في المساء مع ذلك... قضيت ابنتك اليوم وهي تتدلل عليه. وسرعان ما بدأ يطلب كؤوس ويسكي من أجلها، وكانت هي تملؤها بالماء فقط. كاد سائق شاحنة أن يدهسه ذلك المساء لولا نيل بودين، زوجة جاك الفتى، التي جاءت وأخذته معها إلى البيت... كان يوماً يا بيتر. لا تنكر ذلك. كنت لصاً...

سرقنتي أنا أيضاً يا بيتر الخُمَار. أعوتني ابنتك بالدخول إلى

القاعة الداخلية، قائلة إنها مغرمة بي. جلست في حجري. ودخلت زمرة من الشباب المتهتكين من برایت سيتي وأرسلوا إلى القاعة الداخلية معي، وكان ذلك الأحمق يشترى لهم الشراب طوال الليل. وفي اليوم التالي فعلت ابنتك نفس الشيء. لكن لم يكن هناك أي شباب متهتكين من برایت سيتي حاضرين. وبدلاً من ذلك، أومأت إلى المتطفلين الجالسين في الركن ليدخلوا، وحيء بهم إلى القاعة الداخلية، وكان على هذا الأحمق الغبي أن يتحمل مشروباتهم...

أذكر هذا جيداً. فقد التوى كاحلي...

حتى لم يعد لديّ عملة واحدة ترن على بلاطة. كان هذا جزءاً من لصوصيتك يا بيتر: تزعم ابنتك أنها تشتتهي جسد كل كلب ظننت أن لديه قليلاً من المال، إلى أن تحلبه حتى الجفاف...

وسرقنتي أنا أيضاً يا بيتر الخُمَار. عدت إلى الديار من إنجلترا لنقضاء الأجازة. كان معي ستون جنيهاً في جيبي حصلت عليها بشق الأنفس. أعوتني ابنتك إلى القاعة الداخلية. وجلست على حجري، ووضعت شيء ما في شرابي خلسة. وعندما أفقت من غيبوبيتي لم يكن لديّ أي شيء في العالم الواسع بأسره غير شلنين وبضعة أنصاف قروش بانسة...

وسرقنتي أنا أيضاً يا بيتر الخُمَار. كان معي ستة وثلاثون جنيهاً حصلت عليها مقابل ثلاث شاحنات من عشب الحطب ذلك المساء. جئنا إلى حانكنا لنحتفل بالصفقة. وفي العاشرة والنصف أو الحادية عشر كنت وحدي في الحانة. وأنت لم تفعل شيئاً غير أن نأبت بنفسك، وهذا جزء من مكرك: لتبدو وكأنك لم تلاحظ شيئاً. دخلت القاعة الداخلية مع ابنتك، جلست على حجري، ووضعت

الاستراحة في ظهر الحانة.

هذا ليس صحيحا! هذا ليس صحيحا!

هذه كذبة لعينة! هذه كذبة لعينة يا بيتر...

أنت تنفث الأكاذيب! هذا ليس صحيحا!...

بل صحيح! لم تكن تشرب فقط، بل كانت إسفنجة شراب. كثيرا

ما أعطيتها الشراب بالأجل. لكنها كثيرا ما عجزت عن الدفع لي...

لم تشرب قط قطرة من شراب...

إنها كذبة لعينة...

هذا ليس صحيحا يا بيتر الخُمَار...

بل صحيح، أيها الزملاء من الجثث! كانت نورا جوني سكيرية

سرية. عادةً عندما لم يكن لديها عمل في أي محل آخر في القرية،

كانت تأتي قفزا عبر الرقاق القديم، وتخترق الغابة الصغيرة

وتأتي إلى المدخل الخلفي. واعتادت أن تأتي أيام الأحاد وكذلك

بقية أيام الأسبوع، بعد وقت الإفلاق ليلا وقبل وقت الفتح صباحا.

هذا ليس صحيحا! هذا ليس صحيحا! هذا ليس صحيحا!

نخب نورا جوني!...

نخب حزب الخمسة عشر שלנו!

تعيش نورا جوني إلى الأبد! إلى الأبد!...

فليحفظ الرب صحتك يا بيتر الخُمَار! تناولها حيث يؤلمها! أه يا

ربي! وأنا لم أعرف قط أنها كانت سكيرية سرية! وماذا غير ذلك

كان يمكن لها أن تكون! وهي التي ظلت في صحبة البحّارة...

ذراعها حولي من تحت إبطي. ووضَع شيء غير سليم مباشرة
في شرابي. وعندما عدت إلى عيني كان كل ما تبقى معي فكة
جنيه حصلت عليها قبل ذلك، وكانت في جيب بنطالي...

وسرقتني أنا أيضا يا بيتر الخُمَار. لا عجب أن ابنتك كان لديها
مهر كبير عندما تزوجت من ابن جوان البيّاعة. بصراحة يا بيتر،
إن أمحك صوتي...

كنت قد نويت منذ البداية أن أدير هذه الانتخابات بطريقة لائقة
لصالح حزب الجنيه. لكن بما أنكم، يا حزب الخمسة عشر שלנו،
قد أدخلتم في الصراع موضوعات شخصية بغیضة - أشياء لم
أظن قط أنها ستُنسب إلا إلى حزب النصف جنيه - فسأكشف

معلومات معينة عن مرشحكم المشتركة، نورا جوني. نورا جوني
كانت صديقة لي. ورغم حقيقة أنني أعارضها سياسيا، إلا أن هذا
لا يعني أنني لا أحترمها وأنا لا يمكن أن تتمتع بخلاقة مُرضية.

لهذا أكره فعلا أن أقول هذا. يحز هذا في نفسي. أبعض هذا. يثير
استيائي. لكنكم أيها الناس من بدأتم بالتقليب في الخراء، أنتم يا
حزب الخمسة عشر שלנו. لا تلوموني إن وضعتكم على الخازواي
الذي صنعتموه. الفرش الذي أعدتموه لأنفسكم، فلتناموا عليه

الآن! كنت خُمَارًا فوق الأرض. ولا أحد غير كل كذاب لعين يمكنه
أن يقول إن حانتي لم تكن حانة محتشمة. أنتم فخورون جدا
بمرشحكم المشتركة. بمقدورها أن ترفع رأسها في أي محل

من أجل اللياقة والأمانة والفضيلة، إذا كان ما تقولونه أيها الناس
صحيحا. لكن نورا جوني كانت سكيرية. هل تعلمون أنه نادرا ما
مر يوم دون أن تأتي إليّ - خاصة أيام الجمعة عندما كان توماس

الداخل يأتي إلى الحانة - وتشرب أربعة أو خمسة أقداح في

... القلب! القلب، فليكن الله في عوننا جميعا...

... فلينجنا الله جميعا دائما أبدا... قد يأتي أصدقائي وأقاربي ومعارفي ويركعون عند قبري، والقلوب الدافئة ستشتمل بالصلوات الحميمة، والأرواح الموسمية ستخترق في الترانيم العذبة، سيجابو الطين الميت على الطين الحي، وسيشفأ القلب الميت بحب القلب الحي، وسيستوعب القم الميت تلك الكلمات القوية من اللسان الحي...

ستصلح الأيدي الودودة قبري، سترفع الأيدي الودودة شامدي، وستنشد الأصوات الودودة صلاة راحتي. طين تمبل براندون هو طين عشيرتي! الطين المقدس لجبل صهيون الخاص بي...

لكن لا يمكن أن يكون هناك كيلى في جالو، ولا مانيون في ميتلو، ولا يمكن العثور على أي واحد من آل مأكجرات في أي مكان، وإلا لم تكن كومة عظامي ستترك لتتعفن في طين الجرانيت القط، في طين النال والمرقأ القاسي، في طين الصخر والركام الضئيل، في طين الحشيش وطحالب البحر العقيم، في الطين المتقلقل لمدينة بابل الخاصة بي...

تغدو حالتها سيئة جدا عندما يضرها الجنون...

انتظر الآن، انتظر حتى أنتهي من قصتي...

"بدأت الدجاجة الرقطاء في الصباح حول الغناء بعلو صوتها: 'وضعت بيضة! وضعت بيضة! طازجة ساخنة على كومة الروث...' قضاها

بها دجاجة عجوز فظة سمعتها: 'ابتعدي عن هنا ولا تزعجينا ببيضتك الصغيرة القذرة.. لقد وضعت تسعة أجيال، أربع فقسات، وست فقسات ثانية، أربع حضنات، حوالي ستين بيضة ومائة وواحد بيضة بدون قشر منذ اليوم الأول الذي بدأت أصبح فيه على كومة الروث. وكشفوا عن احتمال وجود بيضة لدي مائة وست وأربعين مرة...'

كنت أتمنى لو كنت مكانك يا بيتر. لم يكن ينبغي أن تسمح لمهرطق أسود أن يهين دينك...

... شربت اثنين وأربعين قححا، واحدا بعد الآخر. أنت تعرف هذا يا بيتر الخمار.

أقول لك إنه لم يكن هناك غبار على توماس الداخل...

أعتقد أنني لا أعرف هذا؟

فلتذهب أشعارك العقيمة إلى الجحيم. وعلى حد علمي في هذه اللحظة عينها يمكن أن تكون المرأة العجوز في البيت تقوم بتسليم الحيازة الكبيرة لابننا الأكبر وابنة روداند...

... "كانت لمارتين جون الكبير ابنة..."

... أعطاني النذل القاتل زجاجة فاسدة...

يا زينا المقدس، كما تقول...

أنا أكبر رجل في المقبرة، دعوني أحدث...

... "Qu'est-ce qu'il veut dire⁽⁷⁷⁾، دعوني أحدث؟"

(77) ماذا يريد أن يقول؟

- لكنني كنت أضغ يدي في جيبي وأخرجها فارغة...

- قيقابك يا جوان الغشاشة...

- آه يا عزيزتي دوتي، لقد أرهقتني الانتخابات، شجار وجدال طوال الوقت. أصوات! أصوات! أصوات! أتعرفين يا دوتي؟ الانتخابات ليست نصف العمل الثقافي المتحضر الذي توقعت أن تكونه. *بأمانة!* وكلها أكاذيب. *بأمانة!* هل سمعت ما قاله بيتر الخُمار عني: أنه كان من عادتي أن أشرب أربعة أو خمسة أقداح من الجعة السوداء كل يوم فوق الأرض. *بأمانة!* جعة سوداء لا بأس لو قال إنه ويسكي. لكن جعة سوداء! أكثر مشروب غير حضاري وغير ثقافي فيها جميعا. أف! بالطبع أنت لا تصدقين أنني كنت أشرب الجعة السوداء يا دوتي! هذا كذب الجعة السوداء القذرة غير الحضارية. إنها كذبة يا دوتي! وماذا تكون غير ذلك؟ *بأمانة!*

وأنني كنت أشرب على الحساب... إثارة فضائح يا دوتي. إثارة فضائح. وأنني كنت إسفنجة شراب. أف! أكاذيب وفضائح يا دوتي. من يتخيل أن يصدر هذا عن بيتر الخُمار؟ كنت صديقة ودودة معه يا دوتي. كان رجلا يتردد عليه رجال مثقفون... هذا ما يطلق عليه المثقفون: إلقاء الوحل وتلويث السمعة. كما يقول الأستاذ الكبير، هذا الوحش البدائي المقيد والمقموع بداخلنا - "الإنسان القديم" كما أسماه القديس بولس - ينطلق متحررا في وقت الانتخابات... أشعر بثقافتي تضمحل منذ أن أصبحت على اتصال بهؤلاء العوام...

توماس الداخل يا دوتي؟ قال بيتر الخُمار ذلك أيضا. قال إنني كنت حريصة دائما على الذهاب إلى حانته عندما يكون توماس الداخل هناك، من السهل تبين أي نوع من السمعة كان يحاول أن ينسبها إلي... *بأمانة!*

يا دوتي، لم أكن في حاجة إلى الجري وراء توماس الداخل. كان هو من اعتاد أن يجري ورائي. *بأمانة!* هناك أشخاص يا دوتي مقدور عليهم أن يكونوا رومانسيين. هل سمعت ما قاله كينكس لبليكسن في (القبلة الحمراء الساخنة)؟ «كان كيبويد من خلقك من ضلعه، يا عصفورتى الحلوة...»

لم يكن هناك قط أي وقت لا يوجد فيه سرب من الرجال يطاردونني. في شبابي في برايت سيتي، وكأرملة في جورت ريبوك، والآن هنا. لدي *affaire de coeur*⁽²⁸⁾، كما يدعوها هو نفسه، مع الأستاذ الكبير. لكنها علاقة غير ضارة: أفلاطونية، ثقافية...

دوتي! العاطفية المفرطة! لا تنبالي بسهولة شرق جالواي الجميلة. يجب أن تفهمي ما أقوله حتى تستطيعي تخليص عقلك من كل حكم خاطئ وانحياز مسبق. هذه هي الخطوة الأولى في الثقافة يا دوتي... كنت أرملة شابة. تزوجت صغيرة أيضا. القدر الرومانسي مرة أخرى يا دوتي. جن توماس الداخل بي عندما كنت أرملة.

كان يقول: «صدقيني، لدي كوخ لطيف دافئ. أملكه بالفعل يا عزيزتي، ومعه قطعة أرض طيبة، رؤوس ماشٍ وأغنام. وأنا مازلت رجلا قويا ومرنا أنا نفسي. لكن من الصعب على أن أفعل كل شيء: الماشية والزراعة وتسقيف الكوخ. سيغدو المكان خرابا لحاجته إلى امرأة صالحة... أنت أرملة يا نورا جوني، وابلك مستقر في البيت، ما الفائدة التي تجنيها من بقائك في جورت ريبوك الآن؟ أحلفك بكل ما هو مقدس، تزوجي مني...»

(28) مسألة قلب، أو علاقة عاطفية.

وكنت أقول: «De grâce, يا توماس الداخل...» لكن لم تكن هناك فائدة من قول «De grâce» له يا دوتي. كان يتبعني في كل مكان ككلب صغير. وكما قال بيبس في (القبيلة الحمراء الساخنة): «الحب الحقيقي لا يعرف أي عقبات». كان يضغط عليّ دائما كي أنهب معه لتناول الشراب في كل مرة تلتقي فيها بالقرية. بأمانة! كنت دائما أقول: «De grâce يا توماس. أنا لم أقرب قطرة شراب قط...»

بأمانة لم أفعل يا دوتي. لكن الأشياء التي كان يقولها لي عن الحب يا دوتي:

سأتزوجك يا نورا جونني...

”يا نجمي المضيء ويا شمس حصادي

يا كنزي الذهبي ويا نخيرتي في الدنيا...»

بأمانة كان يقول هذا يا دوتي. لكنني كنت أعرف أن هذا مجرد صيف كاذب من الرومانسية لكليتا، وكنْتُ أقول:

”أيها القمر الصغير، يا قمر أسكتلندا الصغير، ستكون وحيدا هذه الليلة، وليلة الغد، وفي ليالٍ طويلة بعدها، وأنت تقطع السماء الموحشة خلف (جلين لي)، بحثا عن عش الغرام السري لديردري ونيشا⁽¹⁾ العاشقين...“

جاء إليّ في جورت ريبوك قبل بضعة أسابيع من وفاتي ومعه زجاجة ويسكي. بأمانة فعل ذلك، كان هاجسا على الزواج كالحمار ويشكل يدغو

29- عاشقان سينا الطلع في واحدة من الليالي الأساطير الأيرلندية. مصدر إلهام ليشالوخ. (من رواية) ترجمته إلى الإنجليزية

للرثاء. ولعلي كنت سأشجعه يا دوتي، لولا عقبات الحب الحقيقي. عندئذ قلت له:

”قمر أسكتلندا الصغير لن يكشف أبدا مكان لقائنا السري، ليس مكتوبا أن نيشا وديردري سيلتقيان أبدا أحدهما بالآخر في عش غرام سري، أو سينذوقان طعم مباح العشق الحلوة على صخور (جلين لي) الرحيمة بالعشاق.“

قال: «ما هذا الهراء الذي تتحدثين عنه؟»

قلت: «عقبات الحب الحقيقي. غيرنا من الناس يتألون ما يريدون، لكني أنا وحيبي الحقيقي منفصلان للأبد. لن نحظى قط بعش غرام غير المقابر. لكننا ستعيش مباح العشق الحقيقي الحلوة هناك، دائما أبدا...“

كاد قلبي ينفطر وأنا أقول هذا له يا دوتي. لكنه كان حق الله. بأمانة، حق الله وصدقه. حالت كاترينا بودين بيني وبين حبي الحقيقي. هوم دينوية تافهة. لم تكن تريد أن ترى ظل امرأة أخرى في بيت توماس الداخل. أرادت أرضه لنفسها. لم يكن هناك شيء تحت الشمس لم تسرقه منه. بأمانة...

هذه كذبة لعينة أيتها العاهرة! لم أسرق ولم أسلب شيئا من توماس الداخل، ولا من أي شخص آخر. أيتها العاهرة! كنت سكيرة سرية في قلب حانة بيتر الخُمَان... سكيرة سرية!... سكيرة سرية. لا تصدقها يا دوتي! لا تصدقها!...

يا مارجريت... مارجريت... يا مارجريت... هل سمعت ما قالته تلك العاهرة نورا جونني عني؟... سأنفجرا سأنفجرا سأنفجرا!...

1

أنا نغير المقبرة، فليسمع صوتي! لا بد أن يُسمع...

هنا في المقبرة شبح عدم الإحساس يستبيح التوابيت، وينبش الجثث، ويعجن اللحم المتفسخ في موقده الترابي البارد. لا يبالي بوجنة كضوء الشمس، ولا بشقرة البشرة، ولا بأسنان اللؤلؤ التي كانت مفخرة للفتيات، ولا بالذراع المتين أو القدم الخفيفة أو الصدر القوي الذين كانوا مفخرة للشباب، ولا باللسان الذي خدع الحشود بالكلمات الفاتنة والنغمات العذبة. ولا بالجبين الذي حمل إكليل الغار عند الانتصار. ولا العقل الذي كان يوما ما النجم الهادي لكل ملاح في بحر المعارف العريض... لأنها كلها مكونات ضرورية في كعكة الزفاف التي يخبئها لأسرته ومعاونيه؛ الذباب واليرقات والدود...

فوق الأرض يزهو قطن المستنقعات بنفسه فوق كل رابية في المستنقع ونبته (إكليلية المزوج) أشبه بصيدلاني إلهي في كل مرج. وأقراغ النوارس ترفرف برقة فوق الحطام على الشاطئ، وضحكة الطفل الشقية ترن عالية بجوار شلال اللبلاب على سطح البيت، وفي الأغصان الميتهجة لشجيرات الشوك في السياج، وفي السقف الواقي للأشجار في البستان، والأغنية المرحلة للفتاة وهي تحلب البقر في الغروب عند مرعى الشاطئ هي الموسيقى البهيجة للسعادة التي تنفث سحرها في

لكن ندف الزبد على طرف الموجة الدافقة في المجرى تنسحب داخل قنوات النهر وتتحول إلى وحل. والهشيم الشاحب المتطاير من عشب الجبل فوق المستنقع الذي اكتسحته الرياح محمول إلى داخل الأخاديد الخفية وفق مشيئة الرياح. وطين النحل في رحلة عودته إلى الخلية من مخازن العسل الفارغة في زهرة قفاز الثعلب يخبو كشكوى يائسة. والعصفور ينظف ريشه فوق سطح الحظيرة، وصدى أغنيته يردد وحده الريح التي تصرخ عبر امتدادات الصحراء المقفرة. ورماد الجبل يتكوى على نفسه أمام الريح المهلكة...

قدما العناء تغدوان بطيبتين، وصغير راعي البقر يبذو أجش، والحصاد يضع منجله أرضا في البقعة التي كان ما زال عليه أن يحصدها...

لا بد أن يسد الأحياء مستحقاتهم للمقبرة...

أنا نغير المقبرة، فليسمع صوتي! لا بد أن يُسمع...

2

... ما هذا؟ جثة أخرى، يا إلهي! زوجة ابني بالتأكيد، هذه المرة. من السهل معرفة ذلك... تابوت رخيص أيضا. لو أنك بالفعل زوجة ابني...

بريد تعري! لا أصدق هذا. كان ينبغي أن تكوني هنا منذ زمن طويل. كان لديك رجفة ويلغم ومشاكل في القلب منذ وعيت... سقطت في النار؟...

ولم تكن لديك القوة لإخراج نفسك منها، لقد كانت مينة سيئة فعلا...

تعالى، أريدك، كلمة في أذنك... هل لديك أي أخبار على الإطلاق يا بريد؟ أي خبير لديك!... أه، تريدين قليلا من السلام! هذا ما يريده الجميع، يا إلهي، عندما يجيئون في البداية... هل سمعت أن الصليب سيقام فوقى قريبا يا بريد؟ أنه جرى الأمر بهذا. لكن متى؟ أسبوعان؟ شهر؟... لا تعرفين؟ في الحقيقة يا بريد أنت نادرا ما عرفت الكثير عن أي شيء...

أعرف. أخبرتيني بالفعل أنك سقطت في النار... لم يتركوا أحدا في البيت ليعتني بك؟ أه طيب، كانت لديهم أشياء أفضل يفعلونها! عجوز شمطاء مثلك. لا ضرر في ذلك على الإطلاق يا بريد. قد يكون الأمر أفضل من الآن فصاعدا... لكنك لن تسقطي هنا. وإن سقطت، لن تسقطي بعيدا...

أنصتي إليّ يا بريد... الآن يا بريد، تحلى ببعض اللياقة ولا تجعلني من نفسك جون وبلي آخر. لقد دفع كل من في المقبرة إلى الجنون بثرثرتهم المستمرة حول قلبه العجوز العفن... زوجة ابني ليست بخير طوال الوقت، أهذا ما تقوينه؟... لقد ولدت طفلا آخر، أفعلتها بالفعل؟ هل هذا حقيقي؟... ولم يقتلها ذلك! إنها لأعجوبة كبرى إذا، لكنها لن تنجو من هذا الحمل... أراهنك بأي شيء تحببته يا بريد، أنها ستكون هنا في ولادتها التالية... ولدت بنتا... يا إلهي القدير، بريد... وأسموها نورا... أسموها على اسم نورا ذات القدمين المتسختين! لقد استغلوا تماما أنني لست حية!...

دب شجار بين زوجة ابني وكيت الصغيرة؟... تقولين إنهما جذبتا شعر بعضهما البعض! عال عال، بالفعل! هكذا إذا يا بريد! لم يكن أحد ليصدق كيف كانت تعاملني تلك العاهرة من جورث ريبوك، منذ أن أقحمت في

البيت فوق رأسي. الشاي الذي كانت تقدمه لي وملاءات السرير، لولا أنني اعتدت أن أغسلها بنفسي! وبالطبع يجب أن تحول شرها نحو شخص آخر، الآن بعد أن لم أعد موجودة لديها يا بريد. لكن صدقيني، كيت الصغيرة ليست خصما ضعيفا، أقول لك ذلك...

تقولين إنه ستكون هناك دعوى قضائية؟ صدقي إذا، سيكون هناك نزاع وصراع ونفقات في هذا... كيت الصغيرة قالت هذا؟ أن ملابس معهد مورين جرى شراؤها من جاك الرخيص في برايت سيتي! إذا لم تعطها زوجة ابني نصف ما تستحق! كيف لكيت الصغيرة أن تعرف، إلا إذا كان لسانها أطول من اللازم؟ وحتى لو كانت الملابس كذلك، ما شأنها؟ أليس لديها قليل من الخجل من أن تبدي ملاحظات عن البيت المسكونة الزاهية إلى المعهد؟ سيمر زمان طويل قيل أن تتمكن واحدة من أهلها من أن تصبح معلمة. سيقترض القانون منها، فقط انتظري وسترين! أمل أن يكون لدى باتريك ما يكفي من العقل كي يتفق مع ماثيون المحامي كي يقيم الدعوى ضدهما. هذا هو الشخص الذي سيسكر أنفها...

تقولين إن السلام والهدوء هما ما تريدينه. أليس هذا ما تريده جميعا؟ لكنك أنتيت إلى المكان الخاطئ لتبحثي عن السلام يا بريد... تلك هي كل البطاطس التي زرعتها ابني باتريك هذه السنة، في حقل اللفت؟ لماذا؟ لا توجد قطعتان جيدتان من التربة في أرضه كلها... زرعت نيل المرجين، ثلهما بالبطاطس... طيب، الآن يا بريد، هذان الحقلان كيران للغاية، لكنهما بعيدان جدا عن السبع قطع التي تقولين إنه يوجد بها...

ماذا كان آخر ما قلته يا بريد؟... انسي ذلك السقوط في النار، فقط أبقني وتوقفي عن التتممة... ماذا تقولين عن ابن نيل؟... تعافى كالمطر من جديد! أه!... يقوم بالأعمال العادية، أليس كذلك؟ يا إلهي! ظننت مما

قاله جون ويلى أنه لن يقوم بالعمل يوماً آخر قطا...

شفي عند بئر القديسة إينا؟ احتمال ضعيفا كم أحسنت أمه تلك العاهرة بمعرفة أين تأخذه من أجل الشفاء. هذه العاهرة يمكنها أن تعرف شيئا أو اثنين عن الحياة! لكنني لن أصدق أنه شفي عند بئر القديسة إينا. ولن أصدق أنه يوجد أي دواء على الإطلاق في بئر القديسة إينا. لقد أبلت زوجة ابني ركبتيها في صلواتها وطوافها هناك. بالطبع لا يوجد بئر من أول بفرننا في البيت إلى البئر الكائن في آخر العالم⁽³⁰⁾ لم تزره، بحثا عن دواء وشفاء. دائما مريضة. أقول لك إن طفلها التالي سيكون فيه الكفاية.

هذا فقط بعض من تحاليل نيل: تأخذه إلى بئر القديسة إينا ويعد ذلك تقول إنه شفي هناك. تلك العاهرة والقس متماسكان كالصوصا... آه، فليباركك الرب أنت وبشر... بئر القديسة إينا يا بريد! إطلاقا. كان رجلك، القس. ومن غيره؟ أعطى ابنها إنجيل القديس يوحنا⁽³¹⁾. هكذا شفي يا بريد. وإلا كيف! القس. سيكون على أحد آخر أن يموت بدلا منه الآن. على اعتبار أنه شفي بإنجيل القديس يوحنا. سينال الموت مستحقته. سمعناهم يقولون هذا دائما...

فليبارك الرب في برائك يا بريد! وكأن نيل نفسها هي من ستموت! لا عجب أنك سقطت في النار يا بريد، يالك من مغفلة! ليس هناك أي احتمال في رحيل نيل... أو ابنة بيج بريان كذلك. أو أي شخص من أهلها. جاك الفتى، هو الذي سيدفعونه من فوق الحافة. يمكنك التأكد من أنها قد طلبت من القس أن يجعل جاك يموت، كتمن لإنقاذ ابنها. فليكن الله في عوننا جميعا! لقد عانى جاك المسكين من حياة شاقة مع تلك العاهرة. لم تقدم له أقل القليل من العناية. تذكرني كلماتي يا بريد: سيحط الحظ السيء على جاك الآن، وسترينه هنا قريبا. لن يزعج هذا نيل أو ابنة بيج بريان. ألن يجنبا كومة من أموال التأمين من ورائه؟...

هكذا؟ مازالت الدعوى القضائية سارية إنذا... سيذهبون إلى ديلن في الخريف؟ صدقي إنذا، الذهاب إلى ديلن شيء مكلف يا بريد... آه، يقولون إنها ستخضع لإعادة المحاكمة حتى بعد ذلك! سيجعل هذا من نيل مغلسة تماما، وعساها تكون كذلك! لكن يا بريد، لو أن ابنها قد شفي فهو بالتأكيد لن يحصل على أي مال... آه، هو يعمل فقط سرا، أهكذا؟... يحتفظ بالعكازين إلى جواره أينما عمل... لديه شهادات من الأطباء بأن وركه لن يتحسن؟ يفعلها! ليس هذا فقط، بل إنه يأخذ العكازين معه داخل الحديقة وهو خارج إلى المستنقعات! المزيد من حيل نيل. كانت دائما خائفة.

هناك حديث الآن عن شق طريق يصل حتى بيتها؟ إنذا سيتمكن القس والإبرل من الوصول إلى هناك بالسيارة. عسى ألا تعيش حتى تتمتع بطريقها إنذا... يا وبيا! انسي الطريق يا بريد، لن يكون هناك أي طريق هناك أبدا! من سينقل كل هذه الصخور؟...

السلام مرة أخرى، أليس كذلك؟ ستجعلين من نفسك أضحوة إذا ظلت

30- الفن الموجود في آخر العالم موثقة في المكاوت الفكرية في القرون الوسطى، وهي التي أوجت لويليام موديس بروايتها الفانتازية: *The Well at the World's End*. (من هوماس الترجمة إلى الإنجليزية)

31- سفر يوحنا في الأصل. الكلمات الإنجيلية للمخلل الشعري لإنجيل القديس يوحنا، وكانها في بلاطينية على قطعة ورق، لا يرى وتلف في ذلك حجاب حول الخلق أو الخفي في الملايين من سائر هذه الممارسات مستخدمة في التقليد المسيحي طوال العصور الوسطى ككلمة حامية وشافية في الفيلسوف المعمارية المعمورة يمكن أيضا أن يراها شعيرة مزججة يوقها فيس أن تعمل أيضا كنس تسمية والمثل الأول الذي الأمتف، وكان يظنر إلى الاستفاد غير الصحيح لقبية سفر يوحنا على أنه يعامل معروفة باسم سفر يوحنا. وكان يظنر إلى الموت «موروث» في حالة استئخدتها لإلا يوم مصدرة للقس الذي قدمها ويمكن حذر أن تؤدي إلى موت «موروث» في حالة استئخدتها لإلا يوم شخص مكتوب على نحو قتل، كما في حالة ابن نيل، في النص (من هوماس الترجمة إلى الإنجليزية)

تحدثين هكذا... تقولين إن سارة الثرثرة عقيدة تماما؟ مازالت الكلياتان تتعبانها! تستحق هذا! باستثناء نيل وزوجة ابني، هناك عدد قليل جدا من الناس الذين أفضل أن أراهم يأتون إلى هنا... هي على رأسهم! وظهر كيت الصغيرة في حالة سيئة مرة أخرى؟ فليأخذها الشيطان! إنها شريرة كبقيةتهم... تقولين إن بيغ بريان يبرطع كحمار في مايو. لم أكن أتوقع منه غير ذلك!... مازال قادرا على الذهاب لقبض المعاش؟ ألا يملك بعض الناس الحظ كله! إنه عجوز بما يكفي ليكون جدي - أعوذ بالله، من ذلك البائس القبيح!...

اسمعي يا بريدي، لقد سقط خلق كثير من النار تماما مثلك. وقد عشت حياتك على أي حال. ليس الأمر خطيرا طالما أنك لم تحرق البيت كله أيضا... فقد باتريك عجولين؟... بدء الساق السوداء؟⁽³²⁾ نجنا يا الله!... أليس غريبا أن يكونا حتما من عجول باتريك!... عالجت نيل عجولها في الوقت المناسب. ثمة روح ما تسهر على تلك العاهرة. ورغم ذلك كان ناء الساق السوداء كثيرا ما يحل بأرضها. القس...

تقولين إن باتريك لم يقطع الكثير من عشب الوقود طوال هذا العام؟ وكيف يمكنه أن يقطع العشب بينما هو يعتني بتلك المومس زوجته؟ ينبغي أن يخنقها تحت قدر مثلما تغلطين بقطة، لأنها لن تذهب وتموت وحدها... خمس دجاجات سرقت في يوم واحد فقط. يا إلهي، هذه مجزرة!... ولم تُسرق ولو واحدة من دجاج نيل؟ ألا تختبئ الثعالب دوما في الأرض الصخرية المحيطة بأرضها؟ أه، لديها امرأة هناك - ابنة بيغ بريان - يمكنها حراسة الدجاج، ليست مثل ابنة نورا جوني من جورث ريبوك. اعتقد أن حتى الثعالب تخاف أن تلمس دجاج نيل. إنه القس...

32. مرض خطير يصيب العائلة بسبب الذئب (من هوانس الترجمة إلى الإنجليزية)

لا يملك باتريك أي خنازير الآن. أليس كذلك؟ أه، تقصدين أنني عندما رحلت يا بريدي رحلت الخنازير أيضا. كنت أخرج بدفتين من الخنازير كل عام... حصلت نيل على خمسة وثلاثين جنيتها مقابل خنازيرها! يا ربي!... كانت خنازيرك أفضل من خنازيرها، وحصلت على اثنين وثلاثين جنيتها وخمسة عشر شلنا فقط مقابلها! بالطبع ستحصل نيل على أعلى سعر. القس...

تعتقدين أنه لم تأت رسالة من باية في أمريكا مؤخرا؟... لم تسمعي بأي أخبار؟... بيغ بريان يقول إن نيل ستحصل على كل أموال باية... هل هذا ما قاله يا بريدي؟ «من ستعطيه باية مالها غير أختها الوحيدة؟ على أي حال لا يمكنها بحال أن تعطيه لامرأة ألقى بها في حفرة في الأرض...» طبعاً، وماذا كان ليقول غير ذلك؟ وابنته متزوجة من ابن نيل!...

سمعتهم يقولون إن توماس الداخل مازال مجنوناً بالزواج؟ ذلك الشيء «ديم النفع» كان الأخرى به أن يعد روحه للأبدية... أنتعتقدين أن باتريك لا يتروره بكثرة كما كان يفعل وأنا حية؟ كان علي دائما أن ألح عليه كي يفعل أي شيء على الإطلاق من أجل توماس. هكذا هو باتريك. لن يبق على البيت بعد أن رحلت. ستتلاعب نيل به... تخبريني بأن نيل دفعت لرجل كي يقطع عشب توماس الداخل من أجله هذا العام؟ يا إلهي! ماذا قلت يا بريدي؟ أقول لك لا تنتمي وتهميهم... قال توماس الداخل إنه إذا لم يتزوج سيرك أرضه ويخوه لنيل! قال: "لم يكن لكاترينا قلب طيب كقلب نيل. أبدا لم يكن لها. لم ترد كاترينا غير قطعة أرضي... القفرا العاشل! الحقيرا الأبله! أه، نعم، ذلك هو توماس الداخل بالثقل!...

لعلكن قصة عظيمة يا بريدي تري! ألا تعرف أيرلندا كلها أن أرض نيل نصف بأرض توماس الداخل؟ بالطريقة التي تتحدثين بها يا بريدي يعتقد

المرء أن نيل تستحق أرضه أكثر من ابني باتريك... ألا يعرف كلانا جيدا أن أرض نيل كلها حجارة وصخور؟... والله إنك لجريئة يا بريد كي تقولي شيئا كهذا في وجهي. ما شأنك بمن يحصل على أرض توماس الداخِل؟ ماذا ستخسرين؟...

السلام والهدوء مرة أخرى! أنت لا تستحقيهما أيتها العامرة... ماذا تقولين يا بريدة؟ أتني ينبغي أن أنزاح في القبر وأفسح مكانا لك؟ من يسمع يظن أن هذا القبر ملكك. هل تعلمين أن الخمسة عشر شلنا الخاصة بي نُفعت قبل عام من موتي؟ أليس من حقي إذا أن تتمدد إلى جوارِي جثة سليمة وليس امرأة محروقة؟... ماذا جرى للعالم حتى تُدفني أنت أو أي شخص من أهلك هنا في مقبرة الخمسة عشر شلنا! لكنه من السهل عليك الآن... هناك خمسة من أهلك يحصلون على إعانات...

تريدن أن أتريك في سلام! خذي سلامك إذا! لكنك لن تتسلي بجسدك إلى جانبي هنا. حصلت على أفضل تابوت في محل تيم، وبرميل ونصف من الجعة، ورش القس الماء المقدس...

والآن أيتها العامرة لو دفعتني إلى هذا الحد سأخبرك أمام الجميع في المقبرة من تكونين... ماذا تقولين؟... «من النادر أن يُدفن واحد من آل بودين في مقبرة الخمسة عشر شلنا كما هو من النادر أن تضع سرجا على قطا...»

آه، هيا يا بريد، انظري فقط من يتحدث: واحدة من الشحاذين. ألم أرب أباك؟ كان يأتي إليّ في أي وقت من الليل أو النهار ليتسول كوبا من الشاي عندما لم يكن يحصل إلا على البطاطس والماء المالح. والآن

تتحدثين بهذا الغرورا لا عجب في ذلك، فأكوام الروث ترتفع في العالم هذه الأيام... ماذا تقولين أيتها العامرة؟... ليس هناك صليب فوق بعد مثل الصليب الجميل فوق قبر نورا جوتي؟ فلتذهبي إلى الجحيم حالا أيتها العامرة...

35

... بريد تري، العامرة... سارة الثائرة، المتسولة... كيتي آكلة البطاطس المحروقة... كيت الصغيرة، ذات البسمة الكالحة... توماس الداخِل، الفاشل... بيغ بريان...

من السهل على ذلك البائس القبيح أن يتفاخر الآن بعد أن تحسن حال زوج ابنته من جديد. أكان جون ويلي يكذب عندما قال إنه لن يقوى على القيام بأي عمل طالما هو حي؟ سُفي عند بئر القديسة إينا! سُفي بالفعل! أقسم إذا أنه لو سُفي فالسبب هو أن أمه العامرة حصلت على إنجيل القديس يوحنا من القس لأجله. والمسكين جاك الفتى هو من سيدفع الثمن. سيكون اسمه الآن في القائمة السوداء بسبب تميمة إنجيل القديس يوحنا. سيأتي إلى هنا قريبا. وأنا واثقة أنهم حتى لم يحذروه. يا إلهي الرحيم! أليس لديهم وازع من ضمير على الإطلاق؟

أعلمهم كانوا يتهايمسون معا: القس ونيل وابنة بيغ بريان...

«نقول نيل: "صدقني يا أبتاه، إذا كان على أحد أن يرحل فهو جاك العجوز الذي ينبغي أن يُشيع في طريقه. وسيرحل قريبا على أي حال.

فهو سقيم منذ وقت طويل. لكن دعونا لا نطق بكلمة حول هذا. فسيصيبه هذا بالقلق. لا أحد يريد أن يفارق حياته، ليكن الله في عوننا...»

هذا ما كانت لتقوله تلك العاهرة... أما زوجة ابني فقد أتت بطفل آخر. غريب أن هذا لم يقتلها. لكن هذه البقرة صلبة. صلبة كصخور جورث ريبوك التي طالما لعنها مهندسو الطرق لأن حتى الديناميت لم يتمكن من تفتيتها... لكنها ستأتي إلى هنا في ولادتها التالية. سأراهن بأي شيء على هذا...

وأسموا الطفلة نورا! للأسف لم أكن هناك! حاولت زوجة ابني أن تقوم بالحيلة نفسها عندما ولدت مورين. كنت قد لفتتها في البطانية بنفسها. قبل أن تأخذها لكي تُعْمَد. كانت ماجي فرانسيس موجودة وتساءلت: «ماذا ستسمون هذه الصرّة الصغيرة، يارك الله فيها؟»

قلت: «مورا، أي اسم آخر سأسميها به، على اسم أمي.»

فقال باتريك: «أمها المتمددة على السرير تقول إننا ينبغي أن نسميها نورا...»

قلت: «نورا متنسخة القدمين! كي تسميها على اسم أمها بالكامل. وماذا ستسميها غير ذلك؟ لكن لم هذا يا باتريك؟»

قالت ماجي: «لا تنقصكم الأسماء، كاترينا أو فيل أو...»

قلت: «فلتخفق تلك العاهرة وتغرق. أفضل ألا أمنحها اسما على الإطلاق عن أن أدعوها فيل. لا يوجد اسم أكثر مناسبة لها يا باتريك من اسم

جدتها: مورا...»

فقال باتريك وهو يستشيط غضبا: «هل الطفلة ابنتي أم ابنتكما؟ نورا هو الاسم الذي ستحملة.»

قلت: «لكن يا باتريك يا عزيزي... فكر في الطفلة والحياة التي أمامها. ألم تسمع ما أخبرتك به من قبل؟ البحارة...»

«اغلقي فمك، أو لياخذ الشيطان روحي...»

أعتقد أن هذه كانت أول كلمة غاضبة أسمعها يقولها لي. قلت: «إذا كان الأمر هكذا فلتعض فيما أنت ماضٍ فيه. لكن لن أكون أنا من تحملها إلى جرن التعميد. فالحمد لله مازال لدي بعض الاحترام لنفسي. إذا كنت ستسميها نورا، فليكن. يكفيني نورا واحدة تتردد على البيت دون واحدة أخرى موجودة فيه دائما. إذا كان الأمر سيسير هكذا، فلن أظل في البيت. سأهمم في الطرقات...»

داوت الطفلة لماحي وجذبت شالي من خلف الباب. عاد باتريك ودخل الحجره إلى ابنة نورا جوني. وعاد خارجا مرة أخرى في رقة عين. وقال: «فلتسميها بأبي اسم تريدين. فلتسميها أهلا بيدل الأعويان. القبط والكمان»⁽²⁴⁾ إذا أردت. لكن لا تضغطي علي أكثر من ذلك. أنتما الاثنان اضعانتي بين المطرقة والسندان كل يوم في حياتي...»

قلت: «إنها غلطتك يا باتريك! لو أخذت بنصيحتي ونصيحة بابة...»

لكنه كان قد خرج من البيت كالعاصفة. منذ ذلك اليوم وحتى اليوم الذي أسبلوا فيه جفوني لم تكن هناك كلمة واحدة أخرى عن تسمية أي من

(1) «طلع عيني في اخية للأطفال: Amhráinín síodraimín síosúram seó (من هراش ترجمه إلى الإنجليزية)

الأطفال باسم نورا، لكن زوجته تلك العاهرة تعلم أنني رحلت الآن...

على أي حال لقد أُعطي الأمر بالصليب. باتريك فتى طيب، رغم أنه قد يكون الآن مفلسا بسبب زوجته تلك المرأة الرثة التي لا تستطيع أن تربي خنزيرا أو عجلا أو تقوم بأي عمل في الحقل أو في المستنقع. أعلم في أعماق قلبي أنه لا يمكنه القيام بكل شيء. لكن عندما تصبح مورين معلمة، ستتمكن من مساعدته وتوفير بعض المال...

ألم تتسرع بريد تيري وتنسحب من لسانها عندما قالت: « ليس هناك صليب فوقك بعد مثل الصليب الجميل فوق قبر نورا جوني.»؟ لكن سيكون هناك صليب فوقي أيها العاهرة. صليب من رخام كونيما را مثل الصليب الذي فوق بيت الخضار، وسيج مثل سياج قبر جوان البياعة، وزهور ونقش بالآيرلندية...

لولا أنني لا أود ذلك، لأخبرت بيتر الخضار بأمر الصليب. أظن أنني ينبغي أن أتحدث إليه قريبا - بما أنني سأصوت له- بدلا من الحديث مع مارجريت أو كيتي أو دوتي. إنهم بالطبع من يملكون الصليبان. لا مشكلة لدي لولا كل الاهتمام الذي أولاه نورا مفسخة القدمين! لكن اللين قد انسكب الآن يا ربنا الرحيم، لقد أوسع أحدهما الآخر قدحا وتوبخا منذ يوم أو يومين. لو كان بيتر الخضار قد أولاني أي اهتمام في الوقت المناسب لأخبرته من تكون نورا جوني ذات القدمين التنتين. لكن ليس من السهل الحديث إلى هؤلاء القوم في مقبرة الجنية. ف لديهم فكرة مبالغ فيها عن أنفسهم.

سأدع بيتر الخضار في حاله الآن. فهو مشغول للغاية بالانتخابات على أي حال. سأخبر جوان البياعة، وستخبر الناس في مقبرة الجنية. ومن الأفضل أن أقول إن الصليب سيوضع فوقني ضمن هذا الكلام...

... لقد طعنني طعنة مرت بحافة كبدي. لقد كان نسل الأذن

الواحدة دائما قوما خائنين...

... ألم يكن غباء منا أن تركنا السوق الإنجليزي يا كوران؟

... قلت: «إنها حرب الاثنين الأجنيبين يا باتش.»...

... بأمانة يا دوتي! لدى قومنا عقول عظيمة. أنا على سبيل المثال...

ابني، المتزوج في بلدتنا بجورت ريبوك، لديه فتى صغير كان يذهب إلى المدرسة عند الأستاذ الكبير، وقد أخبرني أنه لم يكن هناك من يفوقه. كان الأدب هو مادته المفضلة، قال الأستاذ: «الثقافة موجودة في عظامه، عرفت بمجرد النظر إليه.» بأمانة، هذا ما قاله يا دوتي. أنت تعرفين ابنتي المتزوجة من ابن كاترينا بودين. فتاة من أبنائها بدأت للتو رحلتها كي تصبح معلمة. لقد ورثت نكاهها من ابنتي. ولولا ذلك، لما ورثت شيئا من آل ليندون أو آل بودين.

أنت تكذبين حتى النخاع أيها البقرة العجوز! يا من كنت تشربين سرا في مخبأ حانة بيتر الخضار! الشرب سرا! والبحارة! البحارة!... يا مارجريت! يا مارجريت!... هل تسمعين هذا؟... هل تسمعين ما نقوله نورا مفسخة القدمين!... سأنفجرا! سأنفجرا!...

حيا أنت نفسك. إن الأستاذة امرأة كريمة يا أستاذ. جاءت إلى بيتنا قبلها بليتين لتدعو جميع من في البيت إلى الزفاف. عن نفسي لم أكن قادرة على الحركة يا أستاذ. وحق كتاب الله، لو كنت قادرة لذهبت، لا شك في ذلك. قالت: «ربما يمكنك توفير علة من اللبن الطازج يا بريد». قلت: «بالفعل يمكنني توفير علبتين يا أستاذة، وحتى لو أكثر من هذا لم أكن لأضن به عليك أو على زوجك المسكين الموجود الآن في طين المقابر -الأستاذ الكبير- رحمه الله!»

قالت: «أنوي أن أجعل منه زفافا جيدا يا بريد. كنا نتحدث أنا وبيلي البوسطجي عن هذا. وقال: زفاف عظيم.. هكذا يود أن يكون هو نفسه، بارك الله فيه! فقلت: أنا متأكدة تماما أنه لو عرف، أن الأستاذ الكبير لو عرف يا بيلي أنني سأزوج مرة أخرى..» هكذا قلت له يا بريد.. «سيكون هذا ما يقوله لي بالضبط: أن أقيم زفافا عظيما. لم يكن ليضن به على الجيران. وبالطبع لم يكن ليضن به علي.. لم يكن سيفعل ذلك أيضا يا بريد..»

قلت لها «بالله إنذا يا أستاذة..» ولا أعرف إن كان ينبغي أن أقول لها هذا أصلا يا أستاذة، لولا أن لساني يقلت كثيرا من عقالي.. قلت: «بالله إنذا يا أستاذة، كنت أظن أنك لن تتزوجي مرة أخرى.»

فقلت: «حسنا بالفعل يا عزيزتي بريد لم أكن لأتزوج مرة أخرى لولا ما قاله لي الأستاذ الكبير قبل بضعة أيام من موته. كنت جالسة على حافة فراشه يا بريد. أمسكت بيده وقلت له: 'ماذا سأفعل لو حدث لك أي شيء؟' فانتفجر في الضحك يا بريد وقال: 'ماذا ستفعلين؟ ماذا ستفعل امرأة جميلة نشيطة متلك غير الزواج مرة أخرى؟' فبدأت في النسيج يا بريد وقلت له: 'لا ينبغي أن تقول شيئا كهذا..'' فقال بجديّة شديدة هذه

... هل يمكن بحق حب الله ورحمته أن تتركيني وحدي يا نورا جوني. تختارين وقتا مناسباً تماماً للروايات القصيرة! لا بد أن أجري محادثة مع جارتى القديمة بريد تري. لم تتح لي فرصة الحديث إليها منذ جاءت، بسببك أنت وثقافتك وانتخاباتك...!

هل أنت موجودة يا بريد تري...؟ سقطت في النار! كان ذلك دائما أول درس في العلوم أشرحه في المدرسة يا بريد: كم من المهم إبعاد الهواء عن النار. الهواء هو ما يغذي النار يا بريد. ينبغي أن يفهم هذا على نطاق واسع... أه، لم يبق أحد في البيت يمكنه إبعاد الهواء عنك يا بريد؟ في هذه الحالة فإن أفضل ما يمكن فعله... أخشى أن العلم لا يملك علاجاً لحالة مثل هذه يا بريد... أه، تبحثين عن السلام، أليس كذلك يا بريد؟ أخشى أن العلم لا يملك علاجاً لحالة مثل هذه أيضاً... ما هذا يا بريد؟ البلد بأكمله كان في الزفاف يا بريد!...

... تلك هي الحقيقة يا أستاذ. البلد بأكمله كان في الزفاف. يمكنك أن تفخر بزواجك يا أستاذ. كانت هناك كميات وفيرة من كل شيء الخبز، الزيت، الشاي، ستة أنواع من اللحم، جعة سوداء، ويسكي وشانباينايا⁽¹⁾ يا أستاذ. شانباينايا يا أستاذ! عندما زهق واحد من قومنا، شيموس، من شرب الويسكي والجعة سوداء، ذهب إلى القاعة الداخلية ليشرب الشانباينايا يا أستاذ. وقال إنها جيدة تماماً كالبرتئين الذي لدى نيد تاووني.

لا تتلق ولو مقدار شعرة يا أستاذ. كان زفافا بانخا.. بانخ وكأنا كنت

34- ملحق خاطئ كوميدي لكلمة شينباينا (من هوانش الترجمة إلى الإنجليزية)

المرّة يا بريد: 'شيء كهذا؟ شيء كهذا! إنه الشيء الصحيح تماما. لن أستريح في طين المقابر... هكذا قال: 'إذا لم تعديني أنك ستتزوجي مرة أخرى، والله يا بريد، هذا ما قاله...' هكذا قالت.

- العاهرة!...

- حاشا لله أن أنطق كذبا عنها يا أستاذ. هذا ما قالته. قلت لها: «ستكلفين تكلفة مائة يا أستاذة. لديك ما يكفي من المال، والبوسطجي لا يتلقى أجرا سيئا كذلك، فليمتعكما الله به، لكن صدقيني الزفاف موضوع مكلف في هذه الأيام يا أستاذة.»

فقلت: «لولا المال الذي ادخره جانباً هو نفسه قبل أن يموت، وتقود التأمين التي حصلت عليها بعد وفاته؛ لم يكن لدي أمل في القيام بذلك. كان الأستاذ الكبير رجلاً حريصاً للغاية بشأن ماله، بارك الله فيه. لم يكن يشرب ولا يذهب إلى أماكن الفجور. كان يدرّس نقوداً جيدة يا بريد...»

- العاهرة! العاهرة! لم تكن لتتفق نصف هذا المبلغ كي تضع صليباً فوقي...

- وهذا ما قلته لها يا أستاذة: «لكن لا ينبغي أن تفعلني أي شيء قبل أن تضعي صليباً فوق قبر الأستاذ الكبير أولاً.»

فقلت: «الأستاذ الكبير في مكان أفضل، ذلك الرجل المسكين. الأستاذ الكبير على طريق الحق، وبالتالي ليست الصليبان ما تهمة. لكنني واثقة يا بريد، أنه لو عرف بأمرّي وأمر بيبي البوسطجي -الذي مازال على طريق الضلال- لأخبرنا ألا نهتم بأمر صليب، بل أن نقدم لنفسينا كل راحة ممكنة. لم يكن الناس ينادونه بالأستاذ الكبير من فراغ يا بريد... كان كبيراً في قلبه وفي كل شيء.» أقسم بروحي أن هذا ما قالته بالضبط يا

أستاذ...

- العاهرة! العاهرة اللصّة...

- ... سقطت من فوق كومة شعير...

- ... القلب! القلب، فليكن الله في عوننا...

- ... أنا متأكد تماما أن جالواي فازت بنهائي بطولة آيرلندا لكرة القدم...

- في عام 1941، أليس كذلك؟ إذا كنت تقصد عام 1941 فهذا لم يحدث...

- في 1941 حدث ما أقول. لكن الفضل يعود إلى كونكانون، لم تشهد الملاعب لاعبا مثله. كان يحاور ويتاور ويداور ويشق طريقه عبر لاعبي فريق كافان واحداً بعد الآخر. كان فتى بارعا ولاعباً ماهراً ورجلاً أيقناً! كنت أشاهده ذلك اليوم في مباراة نصف النهائي على ملعب كروك بارك...

- فازوا بنصف النهائي أمام كافان، لكنهم لم يفوزوا بالنهائي...

- بل فعلوها بالفعل! فعلها كونكانون وفاز لهم...

- هل تقصد في عام 1941؟ لأنك لو تقصده، فإن جالواي لم تفز بنهائي بطولة آيرلندا. تفوقوا على كافان بثماني نقاط، لكن كيري تفوقت عليهم بهدف ونقطة في النهائي.

- يا ربي! فليكن الله في عونك، وكيف لهم ذلك؟ ألم أكن في دبلن أشاهد نصف النهائي ضد كافان؟ ذهب ثلاثة منا إلى هناك بالدراجات. وأنا لا أكذب عليك في كلمة واحدة؛ قطعنا الطريق كله

حضرت النهائي؟...

لم أحضر. لم أكن هناك. كيف كان لي أن أحضر؟ ألا تعتقد أنني كنت سأحضر لو تمكنت؟ أي نوع من الحمقى أنت؟ ذلك اليوم بعد العودة للديار من مباراة نصف النهائي، ألم أسقط مريضاً؟ أصابني البرد من العرق والنوم في العراء. ونال مني البرد على الفور. بعد خمسة أيام كنت هنا في طين المقابر. كيف كان لي أن أحضر المباراة النهائية؟ يالك من أحمق فطبع...

إذا أي هراء ذلك الذي تقوله بأن جالواي هزمت كيري؟

لم يكن ذلك ليشكل أزمة بالنسبة لهم، لا مشكلة...

1941، أليس كذلك؟ ربما أنت تفكر في عام آخر.

1941. وماذا غيره؟ فازوا على كيري في النهائي...

لكنني أقول لك إنهم لم يفعلوا. هزمتهم كيري بهدف ونقطة. هدف وثمانين نقاط لكيري مقابل سبع نقاط لجالواي. كان الحكم ظالماً مع فريق جالواي. ولم تكن تلك بالمرّة الأولى كذلك. لكن كيري فازت بالمباراة...

فلننعم عليك الرب بمقدار أوقية من عقل! كيف يمكن لكيري أن تفوز بالمباراة في الوقت نفسه الذي فازت فيه جالواي؟...

لكنك كنت ميتاً. وكنت أنا أشاهد المباراة. عشت تسعة شهور بعد ذلك. لم تمثل المباراة أي عون على الإطلاق لي. لم يمر يوم بعد ذلك اليوم دون أن أكون مريضاً. فقط لأنني كنت أشاهدهم يُهزمون...

من أجل الله! أنت أكبر أحمق رأيته في حياتي! لو شاهدتهم مائة

بالدراجات. وصلنا هناك في منتصف الليل. نمنا في العراء تلك الليلة. لم نتناول حتى شراباً. وكان يمكنك أن تحصر العرق من ملابسنا عصراً. وبعد المباراة اندفعنا نحو اللاعبين. لقد صافحت كونكانون بنفسي. وقلت له: "أراهن بحياتي كلها عليك! أنت أعظم لاعب كرة قدم رأيته في حياتي. انتظر حتى النهائي بعد شهر من الآن. سأكون هنا مرة أخرى، بعون الله، أشاهدك وأنت تهزم كيري..." وبالطبع هزمتهم...

1941، أليس كذلك؟ لم تفز جالواي على كيري، لكن كيري هزمت جالواي...

أه، فليرحمك الله! قل هنا لواحد من المشجعين. «كيري هزمت جالواي». أي نوع من الحمقى تظنني؟...

في 1941، أليس كذلك؟ كنت تشاهد المباراة النهائية؟

لم أكن، لم أشاهدها. لكنني شاهدت مباراة نصف النهائي ضد كافان، كما أقول لك. أي نوع من الحمقى أنت حتى أنك لا تفهمني؟ عدنا إلى الديار مرة أخرى ذلك الأحد بالدراجات. كنا جوعى وعطشى. لم نشعر بمثل هذا الجوع قط! لم تكن هناك بلدة مررنا بها ولم نصح فيها: «تحيا جالواي» ووصلنا الديار في وضوح النهار صباح الإثنين. نزلت من فوق الدراجة عند رأس الزقاق وقلت للثنين الآخرين: «لو حدث وتعافينا من جوعنا وعطشنا خلال شهر، أقسم بالله أن نذهب مرة أخرى. أحب أن أشاهد كونكانون وهو يهزم كيري». وبالطبع هزمتها. لم يكن هذا ليشكل أزمة له...

1941، أليس كذلك؟ أقول لك إن كيري فازت. هل أنت متأكد أنك

مرة فإن كيري لم تهزم جالواي. ألم أكن في مباراة نصف النهائي على ملعب كروك بارك لو رأيتهم ذلك اليوم وهم يهزمون كافان! كونكانون! آه، كان لاعباً قوياً! كانت الأمنية الوحيدة التي أردتها من الحياة أن أشاهده وهو يهزم كيري بعد شهر من ذلك اليوم... هزيمتها لم تكن لتشكّل أزمة بالنسبة إليه، بالطبع...

- نهائي عام 1941، أليس كذلك؟
- بلى، وماذا غيره؟ أي نوع من الحمقى أنت؟
- لكنهم لم يهزموها...
- بل هزموها، هزموها. كان كونكانون ليهزمها وحده...

5

... يا مارجريت!... هل تسمعينني؟... لماذا لا تتكلمين؟ ماذا حدث لكم مؤخراً؟ لا توجد جعجعة ولا تقهقهة من أي واحد منكم منذ الانتخابات. ستال برید تري السلام الآن. عسى ألا تستمتع بها الشمطاء الحقيمة! ورغم ذلك فإن الضوضاء أفضل من السكون... بالتأكيد أنت لست محبطة من هزيمة نورا متسخة القدمين في الانتخابات يا مارجريت. سيعلمها هذا ألا تكون منتفخة بالثقة في نفسها إلى هذا الحد في المستقبل. كانت ستفقد السيطرة على عقلها لو تجحت في الانتخابات... صوتت لصالح بيتر الخُمَار يا مارجريت، ومن غيره؟ بالطبع لم تتوقعي

أن أصوت لنورا امرأة البحارة، السكيرة السرية. لدي من الاحترام لنفسى ما هو أكبر من هذا يا مارجريت. أن أصوت لامرأة اعتادت أن تشرب سرا؟ أمكذا؟

والاستناد يتعامل معها بحدة شديدة هذه الأيام يا مارجريت. لقد أصبح إبقاؤه تحت الأرض عملاً مستحيلاً منذ أخبرته برید تري بأمر زواج زوجته. أتعرفين يا مارجريت ما قاله لنورا الجريانة بالأمس عندما انتابها الغضب لأنه لم يقرأ لها قطعة من رواية صغيرة؟ قال: «دعيني وحدي أيتها العاهرة، دعيني وحدي! أنت لست صحية مناسبة لرجل أو حيوان أو جثة...»

قسما عظما أنه قال هذا يا مارجريت... ما فائدة الجدل يا مارجريت؟ ألم أسمعها؟

لكن يا مارجريت، أنت كئيبة جدا في هذا الجزء من المقبرة، ولا تتحدثين كما اعتدت أن تفعلين... تتحليلين، أمكذا؟... ولسان الكاتب يتحلل أيضا؟ أعتقد أن كوي لن ينزعج من هذا. لقد أصابه بالخبال... آه، كوي نفسه يتحلل؟ أتعرفين يا مارجريت؟ أنا حزينة لسماع هذا. كانت تلك القصة التي يحكيها عن الدجاج لطيفة وبسيطة. كنت أربح نقودا من تربية الدجاج، على عكس العاهرة التي تركتها خلفي؛ زوجة ابني... إنها العدالة الإلهية يا مارجريت، أن يشعر بالغثيان وكأن هناك دودة في حلقه، رجل شرب اثنين وأربعين قدحا...

آه، إنذا فقد تحلل ذلك الشخص تماما يا مارجريت... أهل مقبرة النصف جنبه أخبروك أنه قد تحلل؟ ظننت أنك يا مارجريت لا تتحدثين إلى أهل مقبرة النصف جنبه! يا ربي! وماذا كان يمكن أن يكون غير أن يتحلل؟

لا يمكن لجة أن تكون غير ذلك هناك؛ في مقبرة النصف جنبه. لا عجب في ذلك! يبدو لي يا مارجريت أن هناك رائحة غريبة قادمة تأتي من صوب مقبرة النصف جنبه من وقت لآخر. لو كنت مكانك يا مارجريت، لتركتهم وحدهم تماما...

ما هذا الصراخ يا مارجريت؟... أهل مقبرة النصف جنبه... يحتفلون بانتخاب مرشحهم. سيصوبون أرض المقابر كلها بالصم. الشحاذون! الرعاع اللصوص الأجلاف! آه! هل تسمعين جعيرهم! ليرحمنا الله وينجيننا! إنه لبلاد رهيب أن نكون في نفس الجبانة معهم أصلا. لكني والله أسعد حالا برؤية رجل النصف جنبه يفوز في الانتخابات على ثورا متسخة القدمين، لو لم يكن هناك غيره، لقمتم بالتصويت له بنفسي نكاية فيها...

- ... كان يوما يا بيتر الخُمَار. لا تنكر ذلك...

- ... ذلك القاتل القطيع الذي أعطاني زجاجة فاسدة...

- ... مهرة بيضاء الوجه. اشتريتها في سوق القديس بارتولوميو...

- أتذكر ذلك جيدا. فقد التوى كاحلي...

- ... هتلا! هتلا! هتلا! هتلا! هتلا! هتلا!

- ... هذا صحيح. إنها أكثر النساء مرحا في أرض المقبرة حتى يسيطر عليها السخف...

- كانت تنوي دوما أن تعود إلى سهول شرق جالواي...

- كانت تعرف أن القطة ذات التسعة ذيول⁽³⁵⁾ في انتظارها. بعد

35- كورياج باشع عقد... أي أنها كانت منتظي استقبالا سينا. (من هوانش الترجمة إلى الإنجليزية)

أن صنعت جرحا في رأس الرجل المسكين بسبخ تقليب النار...
- ربما كان يستحق هذا. تقول بنفسها إنه لم يمنحها لحظة من السلام منذ اليوم الذي تزوجت فيه بابته...

- ... أطلب الإذن بالكلام!...

- ... لكن أفكه شيء كان رؤيتهم وهم يسقفون البيت له.

- ... كانت تلك البسمة المشرقة على وجهها...

- فليخوزك الشيطان أنت وهي على خطى الشيطان إلى جهنم معها! ما نفع ابتسامتها المشرقة لي؟ أنت ممل تماما كهذا الشاعر الصفيق هنا. ألا تملك ابنة رود إند نفس الإبتسامة المشرقة؟ فليخوزقها الشيطان، ألم تعد ابني الأكبر إلى الغواية؟ لقد سحرت عينيه أو فعلت شيئا لعينا ما. إنه مسحور تماما! إنها ماسونية أو شيء لعين من هذا القبيل. تحاول أن تضع قدما في حيازتي الكبيرة...

- ... انتظر حتى أحكي لك كيف بعث الكتب للأستاذ الكبير... دخلت حانة بيتر الخُمَار. لم يكن قد طال المقام بالأستاذ الكبير في المكان وقتها. قمت بتحريات سرية عنه. لم يكونوا متيمين به كثيرا في حانة بيتر. كان نادرا ما يذهب إلى هناك. كان شخصا بخيلا. لكنه كان مجنونا بالأستاذة.

قلت لنفسني: "وجدتها، وجدت الطعم الذي سأصيدك به يا ولدي..."
قلت له: «أعظم قصص الحب في العالم...» كان جائعا لها كرضيع شره يصبو للثدي.

قلت: «خمسة جنيتها للمجموعة..»

قال: «إنها باهظة الثمن..»

قلت: «مانا تعني بباهظة. نصف جنيهه الآن، والباقي على أقساط كما يناسبك تماما. إنها مجموعة أنيقة الشكل. لن تخجل من عرضها وإظهارها على رفوف كتبك في البيت. انظر إلى الورق! إنها أفضل وأزهى قصص الحب لدينا. انظر إلى العناوين هنا: هيلين من طروادة، تريستان وإيزولد، سقوط بيت أوشناه، دانتى وبياتريس... أنت لست متزوجا؟... لا... أنت في هذا السن ولم تقرأ أيا من هذه القصص: عن هيلين: "الوجه الذي أطلق ألف سفينة وأحرق أبراج طروادة ذات الصدر المكشوف" و"مصدر القيرة الوحيد لنيوردري"⁽³⁶⁾

"عندما شرب نيلاء أسكتلندا ذات يوم

مع أبناء أوشناه في جو ودود،

من ابنة لورد يرافيسفورت

سرق نيشا قبلة خلسة...»

"تخيل نفسك يا رجل... وأنت في غدير هناك قرب خليج جالواي، وفي أحضانك فاتنة شقراء وأنت غير قادر على أن تحكي لها واحدة من أفضل قصص الحب في العالم...»

بدأ يتردد، أحكمت قبضتي حوله. لكن بلا فائدة.

36- امرأة ذات جمال عظيم في واحدة من الأساطير السلتية الرومانسية العظيمة. (من مؤامرات الترجمة إلى الإنجليزية)

قال: «إنها باهظة الثمن للغاية على أمثالي، ألا تملك أي كتب مستعملة؟»

قلت: «نحن شركة لها سمعتها. ولا يمكن أن نعرض صحة مسافرينا أو عملائنا للخطر. من يدرى إن كان يمكن أن ننقل عدوى ما إليك أو إلى زوجتك؟... أنهم، أنت لست متزوجا. لكنك ستزوج إن شاء الله، وعندئذ ستدرك ما تساويه مجموعة كهذه. عند السهر لوقت متأخر، والريح تعول في الخارج، وأنت وزوجك جالسان مسترخيان قرب النار...»

لكن كان الأمر وكأنني أكلم الحائط...

انطلقت إلى المكتبات. لم يكن هناك أحد غير الشرطي ذي الشعر الأحمر. قال: "كتب! لديّ حجرة مليئة بها هناك بالأعلى. سيكون عليّ أن أحرقها قريبا إذا لم يأت أحد ليبحث عن قضاصة ورق."»

قلت: «أي نوع من الكتب؟»

قال: «روايات... زبالة... حثالة... لكنها تقتل الوقت بالنسبة لي مع ذلك، في هذا المكان المليء بالبراغيث...»

صعدنا إلى الدور العلوي. كان مليئا بالكتب. الحثالة، كما قال. ذلك النوع من الروايات الرومانسية الهرائية التي تلتهمها الفتيات الصغيرات. الحقيقة كان أغلبها يحمل اسم ولقب ممرضة من معارفي في برايت سيتي مشحبطا عليها. اخذت أفضلها -الكتب ذات المظهر الأنظف- وقطعت الصفحة الأولى من كل كتاب. قمت بجولة على المدارس الأخرى في المنطقة وفي غضون بضعة أيام

عدت إلى الأستاذ الكبير. كنت متضايقا قليلا من نفسي لأني هجوت بشدة الكتب المستعملة.

قلت: «سأسافر اليوم غربا في طريق عودتي للديار يا أستاذ، وفكرت أنه يمكن أن أزورك أيضا. لدي مجموعة من الروايات الرومانسية هنا. مستعملة. اشتريتها خصيصا من صديق لي في برابيت سيتي كان يبيع مكتبته، على أمل أنها قد تناسبك. وقد جرى تعقيمها.»

جذبه الألفة المبهجة، والعناوين الرومانسية: القبلية الحمراء الساخنة، رجلان وزمرة نساء، صفائر الغروب...

قلت: «جنهوان وعشرة شلنات من أجلك يا أستاذ. هذا بالضبط هو ما دفعته من أجلها أنا نفسي. لا مكسب لي فيها، لأنها ليست من كتب الشركة. لو رفضتها سأكون قد دفعت ثمنها من جيبي...»

وبدأت المساومة. كان يريد أن يدفعني إلى أقصى حد ممكن. في النهاية قلت له أن يأخذها أو يدفعها لكنني لن أتركها له بأقل من جنهين. وحصلت منه على ذلك المبلغ، بشق الأئفس. وبالطبع لم تكن تساوي مليما...

كنت تعرف الأعبى المهنة يا فتى. لكنني كنت أعرفها أنا أيضا. لم أحك لك أبدا عن هذه الخبيطة:

كانت هناك أختان تعيشان بالقرب مني. إحداهما اسمها نيل يودين، والأخرى اسمها كاترينا يودين. وهي هنا الآن. تكره إحداهما الأخرى... آه، سمعت القصة من قبل؟ ذات يوم توجهت إلى بيت نيل، كانت زوجة ابنها هناك أيضا. ألقيت عليها محاضرة عن التأمين على الأطفال: أنهم سيحصلون على مبلغ كبير من المال عندما يصلون إلى سن كذا، وما إلى

ذلك. أنت تعرف هذه الحيل. كانتا هما الاثنتان متشككتين جدا. أريتهما استثمارات ملأها بعض الجيران، بلا فائدة. قلت: «ليس هناك أي عش أو خداع في هذا، لكن هناك الكثير مما يُجنى من مكاسب. أسألا القس...»

وهذا ما فعلتاه. وخلال أسبوعين حصلت على تأمين على طفلين منهما. ثم دخلت في حوار طويل حول التأمين على كبار السن: تكاليف الجنازة وما إلى ذلك. كانت المرأة العجوز راغبة في الدفع لزوجها، جاك الفتى... ذهبت إلى الأخت الأخرى، كاترينا. كانت وحدها في البيت.

قلت: «انظري، هذه الاستثمارات ملأتها المرأة الساكنة هناك بالأعلى، من أجل طفلها والرجل العجوز. أخبرتها أنني قادم إلى هنا في طريق رجوعي نازلا، لكنها استحلقتني ألا أفعل...»

قالت كاترينا: «ماذا قالت؟ ماذا قالت؟»

قلت: «آه، لم أكن أحب أن أتحدث عن هذا، جيرانك...»

قالت: «جيران! نحن أختان، ألم تكن تعرف هذا؟... أنت غريب. نعم بالفعل، أختان، لكن رغم ذلك، عسى ألا تذهب أي جثة إلى المقبرة قبلها! ماذا قالت؟»

قلت: «آه، من الصعب الحديث عن ذلك، لولا أن لساني منفلت أكثر من اللازم لما ذكرت هذا على الإطلاق.»

قالت: «ماذا قالت؟ لن تخرج من هذا البيت قبل أن تخبرني.»

قلت: «كما تشائين. قالت إنني سأضع وقتي فقط بالقدوم إلى هنا، وأنكم لا تستطيعون دفع التأمين في هذا البيت...»

قالت: «الموسى! العاهرة!... سيكون يوماً حزيناً فعلاً لو أننا لا نستطيع دفعه مثل نيل، وسندفعه. سترى أننا سندفعه...»

وجاء ابنها وزوجته. وبدأ الجدل. هي تحاول عمل تأمين على طفلين، والزوجان يعارضانها بشدة. قلت: «أنا مستعجل. سأترككم تتشاورون، ربما ستكون لديكم كلمة نهائية لي بعد غد: سأعود إلى بيت نيل مرة أخرى، لقد طلبت مني أن أعود وأنها ستؤمن على الرجل العجوز الذي يعيش وحده هناك...»

قالت: «توماس الداخل! مستحيل! توماس الداخل. خطة أخرى من خطتها للحصول على أرضه بعيداً عنا. هل يمكننا أن نؤمن عليه؟... سأدفع التأمين بنفسى من النصف جنبه معاشي...»

تحولت الأمور عندئذ فعلاً إلى معركة الجزم⁽³⁷⁾. بدأوا يدورون حول أحدهم الآخر في كافة أرجاء البيت كما لو أنهم يرقصون الفالس. كان الابن وزوجته يودان لو كسرا عتقي على رصيف الشارع في الخارج، لكن كاترينا دافعت عني وأيقنتني داخل البيت حتى تم الانتهاء من ملء الأوراق...!

وامتلات الأوراق! كان لها أن تنفذ ما أرادته في النهاية. وكان ذلك أعظم خطر تعرضت له خلال كل الوقت الذي عملت به في التأمين.

هكذا استغفلت كاترينا. لم أستطع تجنب هذا فعلاً. الأعيب المهنة...

- هذه كذبة لعينة! هذه كذبة لعينة! أنت لم تستغفلي! لو

37- المعركة التي قُتل فيها تقريباً كل مقاتلي فرقة التينتا بواسطة حزم قنص التي كانوا يرمونها بها، وبقربها فرقة روسون بمضيق البعض، أقتل أحدهم الآخر عن غير قصد أثناء ذلك. وكان شخص ضليل من العالم المظلم اسمه تولى ماتوث هو الحاصل الوحيد (من توماس الدرجة إلى الإمبراطور)

استغفلتني، فقد استغفلت نيل أيضاً...

- لم تذكر نيل قط لا أنت ولا توماس الداخل. الأعيب المهنة يا كاترينا يا عزيزتي...

- يا مارجريت... هل تسمعيني؟... سأنفجر!...

6

بيتر الخُمَار أيضاً شخص فظ. رغم أنني مضيت ضد التيار بالتصويت له، لم يشكرني قط على ذلك أو أي شيء، لو كان لديه أي قدر من التحضر لتحدث إليّ ببساطة وقال: «يا كاترينا بوبين، أنا ممتن لك لقيامك بمنح صوتك لي. كنت امرأة شجاعة كي تتحدي كل حزب مقبرة الخمسة عشر שלנו. لقد أبلينا بلاء حسناً ضد نورا مقسفة القدمين...»

لكنه لم يفعل. كان ينبغي أن يتذكر -سواء خلال الانتخابات أو غيرها- أنني مازلت بلا صليب.

كان ينبغي أن أخبر جوان البياعة منذ زمن طويل أنني سأحصل على صليب. لكن لماذا ينبغي أن أهتم بأمرها؟ لقد مر زمن طويل منذ كنت تحت رحمة ديونها. لعلي أخبرها الآن، بعد أن انتهت ضجة الانتخابات...

مرحى يا جوان. يا جوان البياعة... هل أنت هنا؟... جوان، هل أنت هنا؟... هل تسمعونني يا أهل مقبرة الجنيه؟... لا يمكن أن تكونوا نائمين جميعاً؟... أبحث عن جوان البياعة... إنها أنا، كاترينا بوبين، زوجة شون توماس ليدون. يا جوان، سيضعون صليباً من أفضل رخام

كويمارا فوقي... تريبا جدا. مثل الصليب الذي فوق بيت الخمار، ومن حوله سيضعون سياجا، مثل سياجك يا جوان...

لا تريد أن أزعجك يا جوان؟ هل هذا ما تلتيه؟ ظننت أنك ستودين سماع الأمر يا جوان... لا تريد أن يكون لك علاقة بأهل الخمسة عشر شلنا من الآن فصاعدا؟ لقد صوّت من أجل بيت الخمار يا جوان. وقد أثرت سخط كل من في مقبرة الخمسة عشر شلنا عليّ بفعلي هذا... كنت تفضلين لو سار الأمر بدون صوتي؟ يا الهي! كنت لتفضلين أن يتم الأمر دون صوتي!... آداب اللياقة تحظر على أهل مقبرة الجنه الحديث إلى أهل الخمسة عشر شلنا والآن ماذا تعلمين؟... تقولين إنه يمكنني أن أبلّي لساني بالحديث لك لئلا تعيريني انتباهها... لست مستعدة للحديث مع ثرثرة مثلي بعد الآن؟... ثرثرة يا جوان! لست مستعدة للحديث مع ثرثرة مثلي بعد الآن!...

كما تشائين إذا أيتها الحفيرة. ستكلميني طويلا قبل أن أنطق بكلمة لك مرة أخرى. لا سبب لديك للتعالي، فقط لو تعلمين!... يكفي أنك كنت تملكين محلا صغيرا فوق الأرض، وكنت تدمرين البلد بقبايقك... أعلم جيدا ما يضايقك يا حفيرة! أنا صوّت لبيت الخمار في الانتخابات. أتصني لو لم أفعل! أنت وهو تحسدانني على صليب وسياج جديدين مثلما لديكما أنتما الاثنان. عندئذ سأكون في نفس وضعكما...

تلك الحفيرة جوان. يا أباها الذي في السماء، كم تغير العالم!...

... "كان توماس الداخل هناك بسرويله العمز-زقة

لكن العون كان يأتيه من كلا الجانب - نبين..."

... نورا! نورا جوني!...

- أهلا! كيف الحال؟ هل تغلبت على إرهاب الانتخابات الآن؟ أشعر أنني مرهقة قليلا عن نفسي.

- ستسامحيني الآن يا نورا!...

- آه يا بيت يا عزيزي، ولم لا؟ اللبيب بالإشارة يفهم. كان هناك شجار - أو فضيحة كما قد يقول أهل الثقافة - بيننا، لكن هذا لا يهم. بالنسبة لأصحاب العقول الصغيرة، نسيان الخطأ عمل بطولي. بالنسبة لأصحاب العقول النبيلة، هو مجرد احتياج عابر... كما قال جينكس في صفائح الغروب. بأمانة...

- يا الهي! بيت الخمار يتحدث إلى نورا جوني مرة أخرى، رغم أنه تعهد وأقسم خلال الانتخابات أنه لن يوجه إليها كلمة واحدة قط. آه، وما فائدة الكلام!...

بم وصفها؟... المومس والعاهرة والقجبة! نورا متسخة القدمين. نورا امرأة البحارة. السكيرة القادمة من جورت ريبوك أرض البرك والمستنقعات. قال إنها كانت تشرب سرا في مخبئه، وأنها كثيرا ما كان يجب حملها إلى البيت، وأنها بدأت في الغناء بأعلى صوتها عندما كانت جنازة مايكل توني تمر من أمام بابها، وأنها قامت بسرقة بائع ماشية متنقل قادم من الريف في الجنوب داخل مخبئه، وأنها شربت الجعة السوداء من الساقى الأسود الذي كان الإيرل يحتفظ به، وأنها بدأت تقذف الزجاجات عندما سكرت، أنها جلبت ذكر الماعز الخاص بشون كولم إلى داخل الحانة في نوبة سكر، ووضعت خلف البار، وأجلسته فوق نصف برميل بوظة وبدأت تمشط لحيته وتبللها بالشراب، وأنها اعتادت معانقة توماس الداخل!...

لكن ماذا كان اللقب الذي اعتاد أن يناديها به؟... أليس من الطغيح ألا

أتمكن من تذكره؟... هذا هو، أقسم بروحي! كذا وكذا. يجب أن أسأل
الأستاذ، إذا عاد إلى عقله من جديد، عن معنى كذا وكذا..

لكنه كان يناديني كذا وكذا أيضا، وكان ليناديني بما هو أسوأ من ذلك
لو استطاع. لكن رغم كل هذا ما هو يتحدث إليها برقة وهدوء الآن كما
لو أنهما لم يتبادلا قط كلمة غاضبة، ولم يفكر قط في أن يشكرني على
التصويت من أجله...

فقط لأني لا أملك صليبا فوقي... إن كان هذا هو السبب، أو ربما لأن نورا
اعتادت أن تترك الكثير من نقود الشراب معه فوق الأرض. لم يكن بيتر
الخمار ولا أي بيتر ليمك حائنة أو اعتمد على عاداتي، هو يعلم جيدا أنه
لم يكن سيملك صليبا ولا حسابا هنا لولا نورا ذات الأقداح وأمثالها... لم
أكن سكيرة قط... ومع ذلك، كثيرا ما كانت تخويني واجهة حائنه.

- ... بالفعل يا بيتر، صوتت من أجلي كل المثقفين، وأهل الخمسة
عشر شلنا أيضا، باستثناء كاترينا بوبين، وليكن الله في عوننا،
فلك السليطة لا تملك ثقافة ولا تربية. من الأفضل لي أني لم
أحصل على صوت كاترينا، رغم أن صوتها كان من المفترض أن
يكون لي، لولا سبب واحد، صوتت كاترينا من أجلك يا بيتر لأنها
قلقة على البضاعة التي لم تدفع ثمنها في محلك، بأمانة!

- هذه كذبة لعينة، أنت يا كذا وكذا! مت ولم أترك قرشا من الديون
لكائن من كان ولا حتى الطير في السماء، والحمد لله أيينا الذي
في السماء، أيتها العاهرة. «البضاعة التي لم تدفع ثمنها...»!

يا مارجريتا! يا مارجريتا!... هل سمعت ما قالته نورا سفاحة الجمعة
السوداء؟ سأنفجر! سأنفجر!

الفاصلة الخامسة الطين المخبب

I

أنا نغير المقبرة! فليسمع صوتي! لا بد أن يُسمع...

هنا في المقابر يدور المكوك للأبد: يتسج من الضياء ظلمة، ومن الجمال
قبحا، ويلقي على خصلات الشعر الذهبي الفاتنة ظلا من الرغاء، وشينا
من العفن، ولمحة من التفسخ، وقليل من الوحل، وصبغة رمادية بلون
الغبش، يتسج الحجاب الخشن للامبالاة والنسيان من خيوط الشمس
الذهبية، ومن نسيج القمر الفضي، ومن عباءة الشهرة المرصعة
بالجواهر، ومن السقوط الناعم للذاكرة المختلة. ومادة هذا النشاج هي
الطين اللين اللدن، ونوله هو الفضلات الذائبة التي تخرج منها أحلام
المرء الذي ربطت عربته بأسطع نجم في قبة السماء، أو الذي قطف
عنقودا من أكثر الفاكهة تحريما من أعمق ظلمة. قلق الأحلام، والتألق
التام للجمال بعيد المنال، والحنين للرغبة المعذبة... تلك هي الخيوط
المعتادة لحبك غزل هذا النساج القديم.

أما فوق الأرض فكل شيء مكسو بعباءة الشباب الدائم، كل زخة
مطر تخلق بشكل إعجازي حشودا من عش الغراب في العشب. زهور
الخشخاش تغطي المروج والحقول مثل حلم لربة النماء. شفاه القمح

... من أنت؟... أي نوع من الجثث العجوزة يدفعون بها فوقك الآن؟...
 زوجة ابني بالتأكيد. لكن لا. أنت رجل. أنت لست من آل ليدون على
 أي حال. أنت أشقر. لم يكن أي من آل ليدون أشقر. كانوا دائما سود
 الشعر. شعر أسود كلون التوت. ولا أحد من أهلي أيضا، فيما عدا نيل،
 تلك العاهرة...

أنت واحد من أقارب باتريك لورنس. ينبغي أن أعرفك. هل أنت ابن
 باتريك لورنس الثاني أم الثالث؟... الثالث... في التاسعة عشر من عمرك
 فقط... أنت صغير قليلا بالفعل على أن تبدأ هذا المشوار يا ولدي... كنت
 مريضا لمدة تسعة شهور... السل. هذا القاتل! هذه المقبرة سمتت من
 ضحاياه...

كنت ستذهب إلى إنجلترا لولا أن أصابك هذا المرض... تقول إنك كنت
 قد جهزت كل شيء للسفر... سافر كل شباب وشابات قرية دوناه في
 الأسبوع الماضي... ورعاع قرية جورت ريبوك... عسى ألا يعودوا أبدا
 إذن!... صحيح يا ولدي. يمكنك أن تكسب أموالا كثيرة هناك...

تقول لي إنك لم تسمع شيئا عن صليب يوضع فوقك. لا حديث عن ذلك
 الآن... تقول ولا حتى كلمة... ذكر ذلك عندما جاء لزيارتك... ماذا قال؟
 لا تخجل من إخباري يا ولدي. في الحقيقة، ينبغي أن تعرف أنت نفسك
 أنني لا أملك حيا أو مودة تجاه بيچ بريان... وقد ذهب أهل مرتفعات
 سافي جميعا إلى إنجلترا! فعلا يا ولدي، ألم يكن هؤلاء القوم أنفسهم
 عمال تراحيل وأجراء طوال أعمارهم؟... لولا أن المرض داهمك لذهبت

ملطخة بالذهب من تقبيل الشمس المستمر له. خريز الشلال يبعث على
 النعاس بينما يسقط ماؤه داخل أفواه سمك السلمون العطشى. عصفور
 النعمة يحجل سعيدا تحت أوراق الرصيف، مراقبا القفزات المرفرفة
 لفرخه الوليد. الساعي على رزقه ينطلق إلى البحر وعلى شفثيه لحن
 مليء بقوة المد والرياح والشمس. الفتاة السابحة في الندى مع شعاع
 الشمس الأول، تبحث عن الجنّي ذي كيس المال الذي لا ينفد، لعلها
 ترتدي الملابس البهية والمجوهرات والأحجار الكريمة التي يصبو قلبها
 لها.

لكن ثمة ساحر شرير قد أحرق رداء الشجر الأخضر بيده الملعونة.
 اجتثت تصال الرياح الشرقية التاج الذهبي لقوس قزح. ولاحت حمرة
 السل في صفحة سماء الشفق. اللبن يتخثر في ضرع البقرة بينما تبحث
 عن ملاذ في ركن من الحائط الحجري. خرس الأسى غير القابل للتعبير
 ماثل في أصوات الشباب الذين يرعون الأغنام هناك على التلال العطلة
 على المستنقعات. صانع الأكوام يهبط من كومة القمح المسقوفة جيدا
 التي صنعها ويخبط بيديه تحت إبطيه، لأن بثورا رهيبية من مادة سوداء
 تتجمع في السماء الشمالية وقوافل من الأوز الرمادي الصاحب تهرع
 مسرعة نحو الجنوب...

لا بد أن يسد الأحياء مستحققاتهم للمقبرة...
 أنا نغير المقبرة. فليسمع صوتي! لا بد أن يُسمع...

لي عن نهاب أهل جلين يولي إلى إنجلترا. فليذهبوا إلى إنجلترا! بش
العصير لأهل جلين يولي! هؤلاء الأوغاد لم يحضروا حتى جنازتي...

مستحيل! إذا فقد حصل ابن نيل على ثمانمائة جنيه... رغم أنه كان
على الجانب الخاطئ من الطريق. هل أنت متأكد؟ ربما أضافت العامرة
نيل خمسمائة أو ستمائة إلى الرقم الحقيقي... أوه، نُشرت في الجريدة!
قرأتها بنفسك في الجريدة... منذ ستة أسابيع... في جريدة نبي جالواي
مان. يا الله، لا ينبغي لأحد أن يهتم بتلك الجريدة... وكذلك في نبي
ريبورتر ونبي آيريشمان!... وتقول إنه لا بأس به على الإطلاق... لقد
تخلص من العكازين تماما الآن... وهو يقوم بكل أنواع العمل من
جديد... وثلاثة من الأطباء أقسموا أنه في صحة سيئة. يا رحيم! آه، لقد
كان قاضيا معتمدا. أقل له إنه كان على الجانب الخاطئ من الطريق؟
ضبط القس المسألة. ومن غيرها...

أعطت القس خمسين جنيهًا من أجل القداسات؟ تفعلها أيضا العامرة!
ابنتها في صحة جيدة ولديها حفنة من النقود... ومنحته أيضا عشرة
جنيهات كي يتلو قداسات على روعي!... تقول إنها ناولتها للقس في
حضور باتريك... آه، إن مال قداسات هذه العامرة لن يأتي لي بأي خير
يا ولدي...

أهل بحيرة ديربي ذهبوا إلى إنجلترا أيضا منذ خمسة أسابيع. حسنا الآن!
لا بد أنه مكسب عظيم لإنجلترا أن تستقبل هجم بحيرة ديربي فيها... لم
يكونوا ليأتوا إلى جنازة أحدهم بنصف هذه السرعة... انتظروا! لا تذهب
قبل أن تخبرني بالمزيد!... جاك الفتى ليس على مايرام؟ من السهل
معرفة هذا. إنجيل القديس يوحنا. سيكون هنا في أي يوم من الآن.
لقد أعدت نيل وابنة بيغ بريان تلك الجرعة له. سيحصلون على أموال

أنت أيضا... كي تكسب المال. تأخر الوقت قليلا عليك الآن كي تتحدث
عن كسب المال... لكن ماذا قال بيغ بريان؟ لمانا لا تقول؟... قال: «هذه
المرأة الغبية لا تستحق صليبًا. قومها ليسوا معتادين على الصليبان.
وباتريك ابن كاترينا - رجل لا يستطيع تحمل ثمن لقمة يعطيها لأطفاله
كي يأكلوها- يتحدث عن إقامة صليب من رخام كونيماراء! أقال هذا؟
ما زال يحمل ضعيفة نحوي...

تقول لي إن بيغ بريان كان في دبلن. في دبلن!... هذا البائس القبيح
ذهب إلى دبلن!... ورأى الرجل العالق فوق العمود الحجري! (38) من
المحزن أن الرجل والعمود الحجري لم يسقطا فوق الإبتسام الغبية
لهذا البائس القبيح!... وقال إن الجعة السوداء هناك عظيمة؟ عسى
أن يخلص بها أنفه السئال!... والنساء الجميلات في دبلن! من المؤسف
بشدة أنه لم يذهب إلى هناك منذ زمن طويل عندما رفضته مرتين. كانت
نساء دبلن ليعجبن للغاية بقدميه المفلطحين وظهره الأحدب. ورأى
الحيوانات البرية لا يوجد حيوان أكثر توحشا ولا قبحا منه هو نفسه.
وأنا لا أضيف كثيرا إلى حقيقته ولا أرغب في التحقير منه!... والقاضي
مدحه حتى طاول السماء؟ إذا فقد كان قاضيا معتمدا!... قال: «أنت
رجل عجوز رائع تسافر بمحض إرادتك كل هذه المسافة في مثل سنك
لكي تساعد المحكمة...» لقد كان قاضيا معتمدا إن لم يكن من الواضح
له أن ذلك البائس القبيح إنما يساعد ابنته وزوجها!...

قد يظن المرء أن شابا مثلك لن يكون بهذه السخافة، ومع ذلك فإنك
تجعل من نفسك جون ويلي آخر ويريد تريي أخرى لو بقيت على هذا
الحال. كنت أمل أن تحكي لي عن الدعوى القضائية، وما أنت تحكي

38- عمود نيلسون، مجرور لصلب، جمهوري إيرلندي عام 1966. (من مرشاهم الترجمة إلى الإنجليزية)

إنجلترا» وهل منعك من الذهاب؟... «كل أهل ويست هيدلاند ذهبوا إلى هناك منذ ستة أسابيع.» أنا لا أبالي قدر خردلة أين ستغرب الشمس على أهل ويست هيدلاند. هناك زوج من هؤلاء الفشارين هنا في المقبرة وهما لا يمثلان أهمية كبيرة للمكان...

تقول لي إنك لم تسمع شيئا عن وصية أختي بابة... لا شيء على الإطلاق... وكيف لك أن تعرف وأنت حريص حد الجنون على الذهاب إلى إنجلترا؟... وهذا كل ما سمعته عن توماس الداخل؛ أنه مازال في كوخه... يأتي إلى بيتنا الآن في كل مرة يذهب فيها لقبض المعاش. رجل طيب؛ هذا خبر جيد... وأحيانا يعطي دفتر المعاش إلى زوجة ابني، لتقبضه من أجله؟ رجل طيب؛ لم يعد رفيقا كما اعتاد أن يكون... أه، ويعطي الدفتر لثيل وماجي ابنة بيغ بريان أيضا هه!...

تقول لي إن كيتي الصغيرة تعاني من مشاكل في الظهر من جديد. أمل ألا تجد المرأة التي سترقد بها مكانا أقرب من طين المقابر!... وسارة الثرثرة قعيدة تماما؟ إنها واحدة أخرى منهم؛ لم تأت لتتدب علي، المتسولة!...

لم تكن مهتما بأي شيء آخر غير الذهاب إلى إنجلترا... كنت ستذهب إلى هناك منذ شهرين، عندما رأيت أن الانتهازيين من وودي هيلسايد كانوا ناهبين؛ أي شخص احتذى بأهل وودي هيلسايد لم يفلح؛ زوجة ابني مازالت مريضة بالطبع...

فليجننا الله!... كانت تتعارك مع ابنة بيغ بريان... مع ماجي ابنة بيغ بريان!... تتعارك معها!... صعدت إلى أرض ثيل، ودخلت بيتها، وأمسكت ابنة بيغ بريان من شعرها؟ أنت لست جادا!... أه، لم تكن

هناك طريق يُمد حتى بيت ثيل؛ فليكن الله في عوننا! ظننت أن الشيطان نفسه لن يبني طريقا في هذه البرية القفر... هذا الحزب الجديد الذي صوّتت من أجله أتاح لها هذا، كما تقول. لقد عرفت هذه العاهرة جيدا من تصوت لها! سيجري الاستيلاء على قطعة من حقلنا من أجل الطريق؟ مستحيل! ذلك هو الحقل؛ تل فلاجستون. لا يوجد حقل آخر لنا قرب الدرب المؤدي إلى بيت ثيل... ابني باتريك تنازل عن قطعة من تل فلاجستون! ماذا؟ عرفت منذ رحلت أن باتريك سيكون عجينة في يدي تلك العاهرة... زار القس المكان ليرى ماذا كان يحدث. تلك واحدة من حيل ثيل الحقيرة... إذا فقد وضع القس الحدود... وكان هذا في نفس اليوم الذي أعطته فيه ثيل النقود كي يتلو القداسات من أجلي. يا أبانا الذي في الأعلى، لا غبار على هذا الرجل! كانت تلك حيلة للحصول على حيز من أجل هذا الطريق. لم يكن هناك مجال لطريق دون التعدي على حقلنا في تل فلاجستون. تحتقد أن باتريك حصل على مال مقابل الحقل؟ لا بهم. كان ينبغي ألا يدعها تحصل عليه. كم كنت أتمنى لو عشت بضعة أعوام أخرى حتى!... إذا هذا ما قاله بيغ بريان: "أه بريك، ثيل تدفع مالا مقابل حقل بور قصي وعفن في فلاجستون، حيث لا يوجد شيء غير الحجارة التي تثبت مزيدا من الحجارة!... لو كان لدى باتريك ابن كاترينا أدنى لمحة من عقل لحفر حفرة ما من أجل عظام تلك العجوز المهينة... هناك في تل فلاجستون... وهناك سيجد الكثير من شواهد القبور دون الحاجة لرخام كونيماارا... ليبقي جون ويلي وبريد تري بعيدا عن هذه المرأة اللغظة... أه، البائس القبيح! البائس القبيح!..."

ها نحن نعود مرة أخرى: «فقط لو كنت في إنجلترا! فقط لو كنت في

ماذا قلت؟ أن زوجة ابني نشيطة ومجدة جدا الآن... أنها تعمل بجد منذ المعركة... ليس بها مرض ولا ألم الآن! باللعجب العجاب إذا! وأنا التي كنت واثقة من مجيئها إلى هنا في أي لحظة... تقول إنها تصحو مع صباح الديك... في الحقل وفي المستنقع... تربي الخنازير من جديد! أيها الفتى الطيب! اشتروا ثلاثة أو أربعة عجول في السوق الأخير! أيها الفتى الطيب! من المبهج الاستماع إليك يا ولدي... وسمعت أمك تقول إنها رأت فناءهم مليئا بالدجاج! أتساءل كم قفصة أنتجوها هذا العام؟... بالطبع لا لوم عليك على عدم معرفة هذا يا ولدي...

تقول لي إن باتريك يبلي بلاء حسنا أيضا. ومع ذلك سيمر وقت طويل قبل أن يتفوق على نيل والثمانمائة جنيه التي لديها. القاضي الذي حكم لهم كان قاضيا معتوها. لكن لو استمرت زوجة ابني على المعدل الحالي، وعندما تصبح مورين معلمة...

هذا صحيح يا ولدي! باتريك كان مقلسا... ماذا قال؟ ماذا قال بيج بريان؟... بما أن باتريك لم يستطع دفع إيجاره فينبغي أن يرهن لدى أحد حفنة الطين التي لديه والتي لدى زوجته ويرحل إلى إنجلترا ليكسب بعض المال... حفنة الطين، أهذا ما دعا به ذلك البائس الحقيق «هازلتنا الكبيرة؟» قال: «لكن من الطيب أن أمه المغفلة ليست حية كي نعطيه نصيحة من نصائحها السيئة». البائس الحقيق! البائس الحقيق! البائس...

أين ذهبت أبها الشاب؟ أين أنت؟... لقد حملوك بعيدا عني...

كيبي الصغيرة على الإطلاق من قالت إن ملابس المعهد الخاصة بمورين جرى شراؤها من جاك الرخيص! ولماذا أسهبت بريد تيري في الحديث عن هذا، العاهرة؟... آه، كانت ابنة بيج بريان هي أول من قال هذا لكيبي الصغيرة! من عاداتها أن تتحدث في التوقيت الخاطئ، ابنة ذلك البائس القبيح، وزوجة ابني جذبتها من شعرها، في بيتها... وطرحتها أرضا! ظننت أنها لا تملك الشجاعة والقوة لذلك، ابنة نورا متسخة القدمين!...

ألقت نيل في النار؟ ألقت نيل في النار! حياتي فداء لها! أيها الفتى الطيب! أيها الفتى الطيب! هل أنت متأكد الآن أنها ألقت نيل في النار؟... ذهبت نيل كي تنقذ ابنة بيج بريان، وألقت زوجة ابني بها في النار! فليبارك الله في صحتها إذا! أيها الفتى الطيب! ليبارك الله فيك يا ولدي. هذا أول خير ينعش قلبي في كتلة الطين الباردة تلك.

أمسكن بخناق بعضهم البعض حتى صعد باتريك في المساء وأنزل زوجته إلى البيت! فليسأحه الله على عدم تركه لهين يكمل المعركة!

يا ربي! كنا أفضل حالا دون أهل الجبل الأوسط، إنهم زمرة من البرابرة الجوعى! إن يتركوا لقمة في إنجلترا دون أن يأكلوها. لكن زوجة ابني وماجي ابنة بيج بريان ستذهبان إلى المحكمة...

لن تذهب! لماذا؟ صدقتي، لو ذهبت إلى برايت سيتي واستأجرت مانيون المحامي ليرفع دعوى قذف وتشهير ستصنع ثقبيا كبيرا في كيس نقود نيل. قد تأخذ خمسمائة أو ستمائة جنيه منها... أحضرت نيل القس ليعقد السلام! تفعلها... إذا هذا ما قاله باتريك عنون: «لا تعرف امتامنا لشجار النساء.» كانت نيل من جعلته يقول هذا. فهي تعرف أنني رحلت، العاهرة ذات القم الخالي من الأسنان!...

- ... أنت لا تعرف يا صاحبي الطيب لماذا منطقة كونيمارا وعرة وجرداء وضحلة التربة هكذا...
- الصبر يا كوي. الصبر. في العصر الجليدي...
- أوه، توقف عن هذا! عصر مؤخرتي الجليدي! إطلاقاً، ليس الأمر إلا لعنة كرومويل⁽³⁹⁾. عندما نفى الرب الشيطان إلى الجحيم لم يفلح الأمر تقريباً. وسقط في ذلك المكان من السماء، وقضى هو وميخائيل كبير الملائكة الصيف كله يتصارعان أحدهما مع الآخر. وقد مزقا أحشاء هذه الأرض من أدناها إلى أعلاها...
- أنت علي حق يا كوي. لقد أرثني كاترينا أثر حافره هناك في أرض نيل...
- اخرس أيها الشقي الحقيр...
- أنت تهين الدين. أنت مهزطق...

لا أعرف كيف كانت المعركة ستنتهي لو أن حذاء الشيطان لم يبدأ في الانخلاع. كان كرومويل هو من صنعه له. كان كرومويل إسكافيا هناك في لندن. انخلع الحذاء من قدميه تماماً في خليج جالواي. فردة منه انقطعت تصفين. وكونا جزر آران الثلاث من وقتها. لكن رغم أن (ملاك الكبرياء) كان في وطة نتيجة حاجته لحذائه إلا أنني أقسم بالشيطان أنه دفع ميخائيل إلى الورا مرة أخرى إلى مسافة بعيدة حتى (صخرة ميخائيل)؛ وهي جزيرة

39- نسخة مشرحة وتعمل طابع المحاكاة الساخرة لتفسح واسعة الانتشار من حكاية نكادورية عن لوليفر كرومويل. (من هوراشن الترجمة إلى الإنجليزية)

تقع إلى الغرب قبالة كارنا. ثم أطلق زثيرا جبارا مناديا كرومويل كي يأتي ويصلح الحذاء من أجله. ولا أعرف كيف كانت المعركة ستنتهي لو تم إصلاح الحذاء...

وأتى كرومويل إلى مقاطعة كوناخت. وجاء الأيرلنديون يتبعونه، ولا عجب، لأنهم كانوا دائماً وأبداً ضد الشيطان. وعلى مبعدة خمسة أميال جنوب مدينة أوتيرارد، في مكان يسمونه كهوف بيت لابان، قابلهم ميخائيل وكان مازال يقر من الشيطان... قالوا له: «أثبت مكانك أيها النذل ونحن سنعطى الشيطان ركلة جيدة في مؤخرته العجوز». وهناك أرسل إلى الجحيم، في بحيرة الكبريت. وهناك ينبع نهر الكبريت الذي يتدفق شرقاً عبر أوتيرارد. وكلمة سيلفر (الكبريت) هي الاسم الصحيح للشيطان بالأيرلندية القديمة، وسيلفريك هو اسم زوجته.

وسط البليلة والفوضى، ماذا تعتقدون غير أن كرومويل فر هارباً منهم إلى آران، وظل مقيماً فيها من وقتها. وكانت آران مقدسة حتى ذلك الوقت...

- لكن يا كوي، كوي، اسمح لي بالحديث. أنا كاتب...
- فليخوزك الشيطان أنت و(النجوم الذهبية)!
- صدقني، كما تقول، كل قطع عشب الوقود الجيدة سُرقَت منا...
- من أنت لتتحدث عن السرقة يا رجل رود إند، في الوقت الذي كنت لتسرق فيه البيضة من مالك الحزين، ومالك الحزين بالمرّة؟ كان من سوء حظي أن ضفة عشبي تتاخم ضفتك، والمكان الذي كنت أفرد عليه عشبي كان بجوار مكانك. اعتدّت أن تسحب عربتك أو حمارك وسلاك إلى الطرف المفتوح من كومة عشبك لكنت

كما تقول، لا توجد نار ولا لهب في ذلك العشب. ينبغي أن يكون أفضل من ذلك... لقد سرقت أفضل قطع العشب كلها منا...

تحدث عن السرقة، وأنت كنت لتسرق الكفن من فوق أي جثة. لقد سرقت الطحالب المنجرفة⁽⁴¹⁾ التي جمعتها من الجزيرة. قلت لزوجتي: «بما أننا لا نستطيع أن نجلب كل هذا الموجود على الشاطئ على ظهورنا أو بالحصان، فمن الأفضل أن نربط خيوطا⁽⁴²⁾ بسيقان الطحالب لنبين أنها من حقنا. لن يتورع هؤلاء القوم من رود إند في الاستيلاء عليها صباح الغد عندما يحملها المد مسافة أبعد.»

قالت زوجتي: «بالله عليك لن يسرقوا طحالب منجرفة..»

قلت: «عسى أن يمنحك الله عقلا! لو أنك فردتها على حقلك نفسه لأشوقها، ما بالك بأبي مكان آخر؟»

«سيحة اليوم التالي وأنا في طريقي هايبا من أعلى القرية قابلت ابنتك في الغور العميق، وكانت تضع حمولة من الطحالب البحرية على «مارها».

• أه، تلك الغانية يدوم ابني الأكبر على صحبتها!

• تعرقت على طحالي المنجرفة فوراً، رغم أن بعض الخيوط كانت منزوعة عن السيقان. قلت لها: «لقد جمعت هذا في خليج كولم.»

قالت: «في الخليج الأوسط..»

(41) طحالب بحرية طافية تجلبها الريح إلى الشاطئ. (من هوامش الترجمة إلى الإنجليزية)
(42) كان من الممكن لاصاف الحق في الطحالب أو الأخشاب أو أي شيء يلقى بها البحر على الشاطئ أن يتم خيط حولها أو وضع حجر عليها. (من هوامش الترجمة إلى الإنجليزية)

كنت تملأ حمولتك من كومة عشبي. هل تذكر ذلك الصباح الذي أمسكت فيه بك؟ كان ضوء النهار يبرز للتو. وكنت قد أخبرتك في الليلة السابقة أنني ذاهب إلى السوق بالخنازير. وأخبرتني أنك ذاهب إلى السوق أيضا...

واليوم الذي أمسكت فيه بزوجتك. رأيتها تذهب إلى المستنقع في وضح النهار. وعرفت أنه لن يكون هناك أي أحد هناك لأنهم كانوا جميعا يقطعون طحالب البحر في الساحل خلال جُزُر الربيع⁽⁴⁰⁾. وكان ينبغي أن أكون هناك أيضا، لكنني عرفت من منظر زوجتك أنها عازمة على السرقة. زحفت على بطني ببطء شديد من خلف التل حتى فاجأتها بالضبط وهي تحكم شد الحبل على الحمولة، مباشرة عند فتحة كومة عشبي...

قلت: «مهما أوغل التعلب، سيجري الإنسك به في النهاية..»

قالت: «سأرفع دعوى قضائية عليك، لا حق لك في مباغثة امرأة في مكان منعزل كهذا، سأقسم يمينا ضدك، وستبتم نفيك...»

• تتكلم عن السرقة يا رجل رود إند، وأنت كنت لتسرق العسل من الخلية. لقد بعثت كل قطعة من أرض عشبك. لا توجد قطعة واحدة لديك منذ يوم عيد كل القديسين ومازال لديك في مطبخك نار هادئة، وفي القاعة، وفي الحجرات التي بالطابق العلوي... كنت في زيارة لبيتك ذات ليلة. وتعرقت على عشب الوقود الذي جلبته من المستنقع بنفسني في اليوم السابق. قلت: «وحياة زوجي،

(40) واحد من أكثر موجات الجزر تنفصسا والتي تحدث مرة كل أسبوعين، لتكثف مسجلة واحدة من الشاطئ. (من هوامش الترجمة إلى الإنجليزية)

قلت: «لا وحق الله، بل كان في خليج كولم. إن تصل الطحالب القادمة من الجزيرة قط إلى الخليج الأوسط مع اتجاه الرياح جنوباً وجريان المد الربيع. هذه طحالبتي، لو كان لديك أي أزارع من ضمير لأنزلت هذه الحمولة وتركتني أخذها...»

قالت: «سأرفع دعوى ضدك على التهمج عليّ بهذه الطريقة في مكان منعزل. سأقسم ميمناً ضدك. وسيتم نفيك...»

- لقد سرقت مطرقتي الصغيرة. رأيتها معك عندما كنت تبني ظهر البيت...

- لقد سرقت منجلي...

- لقد سرقت الحبل الذي تركته في الخارج...

- لقد سرقت عصي التسقيف التي تركتها جاهزة مسنونة في الحظيرة بعد يومين من العمل الشاق في قطعها في غابة بانيشمنت... تعرفت على الشقين اللذين كنتم أضعهما على كل عصا...

- صدقوا إذاً، سرقت متي كومة صغيرة من الحلزونات. كنت قد وضعتها في أكياس على قمة الحارة. قلت لابني الصغير: «صدقني، لو جمعنا هذا القدر كل أسبوع حتى نوفمبر القادم، سيكون لدينا معظم ثمن المهر». كان هناك سبعة أكياس سميكة مليئة بها. في صباح اليوم التالي ذهبت لألتقي بائع الحلزونات نظر إليها وقال: «هذا الكيس ناقص رطلين...» وكان على حالي لقد فُتح وسُرقت منه رطلان في الليلة السابقة. من الأفضل قول الحقيقة: شككت في كاترينا بودين...

- يا إلهي!...

- شككت بالفعل. كانت تحب الحلزونات جداً. وقد سمعت أنا ساسا يقولون إنها مفيدة جداً للقلب. لكني لم أعرف وقتها أنني أعاني من مشاكل في القلب، ليكن الله في عوننا جميعاً! لكني شعرت بألم حاد في...

- أيها المعتوه! لا تصدقوه...

- اسمع يا جون وبيلي، ألم أر أي؟ الرجل المسكين، كان يشرب الشاي طوال اليوم. لم أر ولو قرش واحد من معاشه في البيت يا جون، ولا عرفت أين كان يضعه. لكن كان هناك الكثير من الشاي لدينا وقتها، وكان من عادته أن يشتري رطلاً ونصف أو رطلين منه كل يوم جمعة. أخبرتني جوان البياعة أنه غالباً ما كان يشتري رطلين ونصف حتى. وكان الرجل المسكين دائماً ما يقول: «قلتمت مع به طالما هو موجود...»

وكل يوم جمعة كانت كاترينا تكمن منتظرة إياه في طريق عودته إلى البيت، وكانت تسحبه إلى بيتها. كان الرجل المسكين ينفاد بسهولة هكذا. هكذا كان يجري إعداد الشاي. وربما كان يجري إعداده مرتين. لكن ما كان يصلني في البيت لم يكن يزيد على نصف رطل من كل هذا الشاي. حاشاً لله أن أنطق كذباً عنه يا جون!...

كان يقول دائماً: «اشترت رطلين، إلا لو كنت قد أضعتهم! انظري إذاً كان هناك أي ثقب في جيوبي، ربما تركت بعضه خلفي في بيت كاترينا بودين. سأحضره في اليوم التالي. وحتى إن لم أفعل، ما الضرر؟ المستمتع به طالما هو موجود. عندما تكونين مع كاترينا في البيت لشربين الكثير من الشاي، بارك الله في بيتها وآله!...» كان بسيطاً

بمقدور أي أحد ان يتسلل داخلا خلال النهار عندما لم تكن في الجوار والأطفال في المدرسة.»

قلت: «كان بمقدورهم طبعاً يا ميكيل، أو حتى في عز الليل...»

قال ميكيل: "الأمر أشبه بإغلاق باب الإسطلب بعد أن هرب الحصان..."

انطلقت إلى الحظيرة من فورى يا بريد، ونظرت إلى البطاطس.

قلت عندما دخلت: «تخيل يا ميكيل! إنه أشبه فعلاً بإغلاق باب الإسطلب بعد أن هرب الحصان. كانت هناك كومة لا بأس بها من البطاطس هناك قبل أسبوعين، لكنها تقلصت إلى لا شيء الآن. لم يتبق ما يكفي تقريبا لإقامة أودنا حتى تطرح البطاطس الجديدة، هل لديك أي إشارة يا ميكيل تدلنا من يسرقها؟»

قال ميكيل: "سأذهب إلى المستنقع. ولتصعدي أنت تل المرج، يا كيتي، متظاهرة أنك ستذهبين إلى المستنقع كما تفعلين كل يوم، واهبطي داخل الأغوار الحجرية في الخلف، واكمني واختبئي في البوص.»

وفعلت ذلك يا بريد. كمننت في البوص، أرتق كعب جورب وأبقيت عيني مسمرة على الحظيرة. مكثت وقتاً طويلاً هناك، وأعتقد أنني كنت على وشك السقوط نائمة عندما سمعت ضجة عند باب الحظيرة. ففزت عبر الفجوة الواطئة في الجدار. وهناك كانت يا بريد، وعلى ظهرها ما يمكن أن تطلق عليه كومة لا بأس بها من البطاطس...

قلت: «يمكنك أيضاً أن تأخذها معك وتتبعها إلى جوان البياعة، كما فعلت بمحصولك من البطاطس طوال العام، ليس لديك حبة بطاطس واحدة تضعينها في فمك منذ الأول من مايو الآن. لا يهمني لو كان عاماً

هذا كذب لعين أيتها العاهرة! لقد أضعت مالي عليه وأنا أغذيه بالشاي! كان يجيء إلي مع كل دقة ساعة، كان قد هلك من أكل البطاطس النابتة وشرب الماء المالح الذي كنت تقدمينه له يا بريد تري، أيتها الشحانة. لا تصدقوها...

كل ما أريده السلام والهدوء! السلام والهدوء! ارحميني من سيات لساتك يا كاترينا. أنا لا أستحق كل زمجرتك. السلام والهدوء! السلام والهدوء!

سأخبرك بالحقيقة الآن يا بريد تري. لقد زرنا حقل جارني أبي في نفس العام، وكان مليئاً بأفضل البطاطس. وقد طرحت قرب نهاية مايو. كنا أنا وميكيل نخرج إلى المستنقع كل يوم طوال الأسبوعين الماضيين. وكنا سنذهب إلى هناك ذلك اليوم عينه لولا أن ميكيل كان يحضر حزمة من الطحالب البحرية الجافة من الشاطئ حتى وقت العشاء. دخل الحظيرة بعد عشاءه ليأتي بحزمة من القش يضعها في بردة الحمار، لأنه كان سيقضي بقية اليوم في المستنقع. وقال: «لن تصدقي يا كيتي أن كثيراً من البطاطس القديمة هناك في الحظيرة قد اختفت. كنت لأقول شيئاً عن الخنازير لولا أنها بيعت منذ أسبوعين.»

قلت: «أقسم بالله يا ميكيل، لم أمر جوار أو قرب الحظيرة طوال الأسابيع الثلاثة الماضية. لم يكن هناك داع يدعوني للذهاب إلى هناك. كان الأطفال يأتون بالبطاطس من أجل الوجبات.»

قال: «كان ينبغي ان نضع قفلاً منذ أن بدأنا العمل في المستنقع. كان

واحد، لكن هذا ذاك كل عام.»

قالت: «كان عليّ أن أعطيها لتوماس الداخل. فقد خابت أرضه.»

قلت: «خابت! لأنه لم يعتنِ بها. لم يعزقها ولم ينزع حشائشها أو يضع
بخّة من المبيد عليها...»

قالت: «أتوسل إليك متذلة يا كيتي ألا تخبري أحدا وسأعوضك. لا يهمني
من يسمع بالأمر طالما أن تلك العاهرة نيل لم يبلغها خبر بها.»

قلت: «حسنٌ جدا يا كاترينا. لن أخبر أحدا.»

وقسما ببلوط هذا التابوت يا بريد، لم أخبر أحدا...

- اسمعي يا كيتي للعينة آكلة البطاطس المحروقة. كانت لديّ
دائما وفرة من البطاطس من أرضي، والحمد لله...

- دوتي! دوتي! لقد تركت توماس الداخل مفلسا. كثيرا ما قابلته في
القرية وكان يقول لي: «أقسم يا نورا أنه لم يبق لي مليم أحمر
لم تسرقه مني...» بأمانة. كان يقول هذا. واعتدت أن أعطيه ثمن
يضع كؤوس من الويسكي يا دوتي. بأمانة. كان يدعو للرزاء. ذاك
المخلوق، ولسانه أشبه بزهرة محروقة في إناء...

لكن عم أتحدث يا دوتي؟ ألم تقم ابنتي بنفس الحيلة؟ اكتشفت الأمر
هنا... فعلت ذلك بابنتي في جورت ريبوك بعد موتي مباشرة. كان وهو
وزوجته ناهبين إلى سوق في برايت سيتي. عرضت ابنتي أن تأتي
وتعتني بالبيت حتى يعودا. جمعت كل ما له قيمة في البيت وألقت به
في صندوق كبير. وكان لديها الحصان والعربة في الخارج. طلبت من
أربعة أو خمسة أولاد كانوا هناك أن يضعوا الصندوق على العربة. لم

يعرفوا أي شيء عن الأمر. وألقت إليهم بثمان شراب. قالت لهم: «هذا
صندوق أُمي وقد تركته لي.» بأمانة، هذا ما قالته، وأخذته معها إلى
بيتها. بأمانة يا دوتي. كان صندوقا جيدا من الطراز الأيرلندي القديم.
كان قويا كالحديد، وجميل الشكل كذلك. الفائدة والجمال مجتمعان
يا دوتي... ناهيك عن القيمة المالية لما كان بداخله! معالق وسكاكين
فضية. وعلبة ماكياج من الفضة اشتريتها بنفسني عندما كنت في
برايت سيتي. كتب ثمانية مجلدة بجلد العجل. ملاءات وبطاطين وخيش
ولفافات... لو كانت كاترينا بوهين قادرة على الاعتناء بها كما يليق لما
رقدت في كفنٍ قذر...

بالضبط يا دوتي! هذا هو الصندوق الذي تتحدث كاترينا عنه دائما أبدا...

- معالق وسكاكين فضية في جورت ريبوك أرض البط! أه يا أم
المسيح المقدسة! لا تصدقوها! لا تصدقوها! تلك الكنا والكنا.
مارجريت! مارجريت! هل سمعت ما قالته نورا الجربانة؟...
وجون ويلي... وبريد تري... وكيتي... سأنفجرا سأنفجر...

4

* ... مهرة صغيرة بيضاء الوجه. كانت الأفضل...

* كان لديك مهرة صغيرة. ولدينا مهر...

* مهرة صغيرة بيضاء الوجه بالفعل. اشتريتها في سوق القديس
بارتولميويو...

- اشتريتنا مهرنا بعد الكريسماس.

- مهرة صغيرة بيضاء الوجه. لم يكن يزعمها طن ونصف...

- لدينا مهر كبير جيد، بارك الله فيه! كنا نبنى إسطنبول جديدا من أجله...

- ... فازت «التفاحة الذهبية»: مائة إلى واحد.

- فازت جالواي. هزموا كيري...

- فازت «التفاحة الذهبية» أقول لك.

- اختلط عليك الأمر، مثل ذلك الأحمق الذي يجادل دائما بأن كيري فازت. أقول لك إن جالواي فازت...

- لكن لم تكن هناك «جالواي» في سياق الساعة الثالثة الكبير.

- لم تكن هناك «تفاحة ذهبية» في الفريق الذي فاز بذهابي كرة القدم عام 1941. ربما كنت تصعد أن تقول «كونكانون»...

- ... «كان توم-ماس الداخل هناك»...

- ... يوجد سبعة عشر بيتا في قريتي وكل صوت انتخابي فيها يذهب إلى إيمون دي فالبرا...

- سبعة عشر بيتا! ولم تطلق رصاصة واحدة حتى على جندي من السود والسُمر⁽⁴³⁾ في قريتك! ولا حتى طلقة واحدة! ولا حتى صوت طلقة.

- خذ بالك، لقد نصبوا كمينًا. في وقت متأخر من ليلة مظلمة.

43- لواء غير متضامنة من الجنود البريطانيين، سورا كذلك بسبب ازديادهم العسكرية المخلطة، قاموا بتوقيع أجزاء من أيرلندا خلال حرب الاستقلال. (من هوامش الترجمة في الإنجليزية)

وجرحوا حمار جلاتون الذي كان ناهبا إلى حقل كوران على جانب الطريق.

- أتذكر ذلك جيدا. فقد التوى كاحلي...

- ... أنت واحد من آل باتريك لاري؟... الصبي الثالث. كنت تأتي إليّ في المدرسة. كنت صبيبا قويا جيدا. برأس يعطوه شعر أشقر. عينان بنيتان. خدان متوهجان. كنت لاعب كرة يد رائعا... إنذا فقد ذهب أهل بحيرة ديري إلى إنجلترا... تقول لي إن الأستاذة في أفضل حال! أما بيبي اليوسطجي مريض جدا... مريض جدا...

- هو كذلك يا أستاذ. يقولون إنه الروماتيزم. تُكر أنه يعطي الخطابات لأول شخص يقابله. وكان عليه أن يبدأ إحضارها إلى البيوت مرة أخرى...

- هذا ما يليق به! النذل!...

- علق أثناء هطول الأمطار في طريقه إلى مساكن الجبل. تشبعت ملابسه بالماء إلى درجة رهيبية... وعندما عاد إلى البيت لزم الفراش...

- هذا خير جزاء له! الشحاذ! اللص!...

- كان يتحدث كثيرا عن الذهاب إلى إنجلترا يا أستاذ قبل أن يداهمه المرض...

- الذهاب إلى إنجلترا! الذهاب إلى إنجلترا!... احك كل شيء. لا تكن خجولا...

- يقول الناس يا أستاذ إنه لم يكن في صحة جيدة منذ تزوج...

- أحيانا يكون من الأفضل لهم ألا يتوقعوها. لقد سمعت الأستاذ الكبير بنفسك منذ قليل. لكن من السيدة الجميلة؟
- شابة من برايت سيتي. امرأة جميلة بالفعل! في اليوم الذي كنت سألتقط فيه صورتني من أجل الذهاب إلى إنجلترا رأيتهما معا. دخلا فندق ويسترن.
- ما شكلها تلك المرأة؟
- امرأة طويلة نحيلة. شعرها أشقر بضفائر...
- وفي أذنها قرصا؟
- نعم...
- عيناها سوداوان؟
- بحق الشيطان لا أعرف أي نوع من العيون كانت عينيها. لم تكن هي من أهتم بها...
- وابتسامتها مشرقة؟
- كانت تبتسم للأستاذ الصغير بما فيه الكفاية. لكنها لم تكن تتبسم لي...
- هل سمعت أين تعيش؟
- لم أسمع. لكنني أعتقد أنها تعمل في مكتب رهانات باري، إذا كان هناك مكان بهذا الاسم. أستاذ مدرسة بحيرة ديري وابنة القس سينزويجان الشهر القادم. يقولون إنه سيدير المدرسة الجديدة.
- المرأة ذات البنطلون؟

- آه، الدخيل! اللص الطماع الحقيير...
- لم تكن تريده أن يذهب عن نفسها. في الوقت الذي كنت مستعدة فيه للرحيل، كانت تتحدث إلى أبي عن الأمر، وقالت لو رحل بيبي اليوسطجي لن يبقى شيء أمامها غير الموت...
- العاهرة...
- جلبت ثلاثة أطباء من دبلن كي يروه يا أستاذ...
- بنقودي! لم تكن لتحضر طبيبا واحدا ليتفحصني، العاهرة... ذات الفرج الهائج..
- *De grâce* يا أستاذ!
- ... "كان توماس الداخل هناك مثلها على الز-زواج..."
- لم تكن لدي أي نية لعدم الزواج. كنت لأذهب إلى إنجلترا فقط لو لم أكن مريضا. لقد ذهب أهل قرية دوناه وأهل جورت ريبوك...
- وجلين بولي وبحيرة ديري. أعلم مثلك تماما من ذهب. لكن هل تزوج أي واحد من العجائز القدامى؟...
- توماس الداخل يتحدث كثيرا عن الزواج.
- فليحدث عنه كما يشاء، ذلك الشيء الفاشل. من غيره؟
- رجل الشرطة ذو الشعر الأحمر، وممرضة من برايت سيتي والأستاذ الصغير أيضا...
- الأستاذ الصغير، فعلا؟ يبدو أن المعلمين في اندفاع لعين نحو الزواج. لا بد أنهم يتوقعون زيادة أخرى في المرتب...

- رود إندا الذي قضى كل يوم من حياته يسرق عشبي...
- وعشبي...
- ومطرقتي...
- آه، فليخوزقها الشيطان! تحاول أن تضع قدما في حيازتي الكبيرة...
- إنها الفتاة التي هدوت بإقامة دعوى قضائية ضدي على طحالبي المنجرفة. لن يتزوج ابن جون ويبي منها، أليس كذلك؟
- إنها مناسبة له إلى درجة كافية. ماذا كان يملك جون ويبي بحق الشيطان؟ حلزونات. وماذا يملك الآن بحق الشيطان؟ حلزونات...
- صدقني إندا، لم تكن الحلزونات بالشيء الذي يستحق الازدراء، لا لم تكن. كسبت أنا والشاب أغلب ثمن المهر منها. لدينا أكثر مما تقولون أيها الناس أننا نملكه؛ لدينا مهر كبير جيد وإسطنبول لا يحتاج إلا إلى سقف. وقد أخبرته عندما ينتهي من الإسطنبول أن يبحث عن فتاة ذات ردف صغير ليتزوجها...
- لقد رُفض الفتى في البيت الذي على التل أيضا، ومن ابنة ريد في قرية دوناه، ومن ابنة النجار الضئيل في جورت ريبوك...
- لا فائدة من هذا الفتى. هل قال إننا كسبنا أغلب ثمن المهر من الحلزونات؟ وأنا انتهينا للتو من بناء إسطنبول جديد؟ وأنا اشترينا مهرا كبيرا جيدا بعد الكريسماس؟ أخشى أنه لن يستقر أبدا. لولا أنني مت فجأة هكذا...

اسمع يا جون ويبي، ريد ابن قرية دوناه هو ابن عمي. وكان محقا تماما في رفض ابنك. رفضتك أنت نفسك عندما طلبت ابنتي. هل

- إنها هي.
- أليس من الغريب أن تتزوجه؟
- لماذا؟ أليس رجلا وسيما جيدا، ولا يلمس الخمر.
- لكن حتى مع هذا، يبدو لي أن امرأة تلبس البنطلون لن تكون راضية بمجرد الزواج من أي رجل. ستكون انتقائية أكثر من النساء الأخريات...
- يا ربي، فليكن لديك مقدار أوقية من عقل! ابني متزوج في إنجلترا من امرأة فرنسية، ولن تعرف قط ماذا تقول، ليس أكثر من ثرثرة غير مفهومة. أن تكون انتقائية أكثر من امرأة البنطلون؟...
- دعه من أمراكث الفرنسية! ابني متزوج في إنجلترا من طليانية. ما رأيك في هذا؟
- اللعنة عليك أنت والطلايانية. ابني متزوج في إنجلترا من سوداء ما رأيك في هذا الآن؟
- سوداء! ابني متزوج في إنجلترا من يهودية. واليهودية ليست مستعدة للزواج من أي رجل والسلام...
- وليس أي رجل سيتزوجها أيضا. بعضهم لن يطيقونها...
- يوجد عدد أكبر بكثير لن يتخيلوا الشيء الذي تزوجه ابنك. سوداء! أقا!
- الزعيم الكبير سيتزوج امرأة من جلين بولي. وذلك الشاب ابن جون ويبي قد أنهى الإسطنبول، ويقولون إنه يبحث عن زوجة. وقد رُفض عندما طلب يد ابنة رود إندا.

تتذكر المرة التي جئت فيها لتطلبها؟

- لم أكن أملك مهرا ولا إسطبلًا في ذلك الوقت.

- تبدو ممثلًا بالفخر وأنت تتحدث عن ريد ابن قرية دوناه، بالمناسبة. وكأنه الإبرل ذات نفسه، وكان أبي لم يرفض تزويجه من ابنته! قال أبي: «هل تعتقد يا ريد أنني سأرسل ابنتي إلى قرية دوناه لتعيش على نبات القراص ونقيق الجنان؟»

- أبوك رفض ريدا وأمي رفضت تزويج أبيك! قالت: «هناك أربعون جنيها وبقرة ستؤول إلى ابنتي، وعلى جثتي أن أجعلها هي أو الأربعين جنيها تستقر على تلال قريتمك الموبوءة بالبراغيث.»

- أمك رفضت تزويجه! أمك! حاول أبوها أن يرميني بها، لكنني رفضت الزواج منها. كانت عمشاء. وكان لديها شامة تحت أذنها. وكل ما كانت تملكه من مهر خمسة عشر جنيها. لم أكن لأتزوجها...

- لم أكن لأتزوج بيج بريان. لقد طلب يدي...

- يا ربي! ولم أكن لأتزوج بيج بريان أيضًا. طلبني مرتين.

- ولا أنا. طلبتي ثلاث مرات. وحق بلوط هذا التابوت فعلها. وقد فشل تقريبًا في الحصول على أي زوجة مطلقًا. كانت كاترينا بودين لتتزوج منه عن طيب خاطر، عندما تركها جاك الفتى، لكنه لم يذهب ليطلبها...

- ويحي! كيتي أم الأكاذيب! شمطاء البطاطس المحروقة...

- بأمانة يا دوتي. لم يكن المكان جيدًا بما فيه الكفاية مطلقًا. كان من المستحيل فعلاً أن أسمح لابنتي بالذهاب إلى هناك بمهرها

البالغ ستون جنيها، لولا أنه لم يكن أمامي خيار في الموضوع. كنت دائماً ممسوسة بذلك الخط الرومانتيكي ولم أستطع أن أدع المسائل الدنيوية الدونية تمثل عقبة كؤودًا أمام حبهما المجهض. بأمانة، لولا ذلك يا دوتي، أكنتِ تظنين أنني سأسمح لابنتي ومهرها البالغ ستون جنيها أن تذهب وتعيش في كوخ كاترينا بودين الحقيق الأترب إلى السجن؟...

- أنت يا رغوة الخراء الثرثرة! انت يا زبالة يا كندا وكندا! لا تصدقوها! لا تصدقوا كلمة! مارجريت! يا مارجريت! هل تسمعين ما تقوله نورا متسخة القدمين؟ وكيتي الكاذبة القذرة؟... سأنفجر!

- ... هل تعتقد أنها حرب الاثنين الأجنيين؟

- أعطاني القاتل زجاجة فاسدة...

- شريت اثنين وأربعين قدحا، ولا قطرة أقل، عندما كنت أربط توماشين...

- أتذكر ذلك جيدا. فقد التوى كاحلي...

- "الك-لب يشرب" "Qu'est-ce que c'est qu" "الك-لب؟"

- "Qu'est-ce que c'est qu" "الك-لب؟" ك-لب. ك-لب.

(49) ... «القطعة البيضاء على الحصيرة.» «قطعة»: *qu'est-ce qu'il*

veut dire? (50) «قطعة؟» «قطعة؟»

- مياو! مياو!

- مياو! مياو! *Chat! N'est-ce pas? Chat*(51)

- نعم، وماذا أيضا؟

- "الحص-حصيرة صف-غفيرة، القب-بعدة طوي-يلتة، القب-بعدة

طويلة فوق رأس بول، ال..."

- أنت كاذب! لم أملك قط قبعة طويلة. ولا يمكنك حتى أن تقول

إنني كان لدي واحدة قصيرة! هل تظن أنني مطران أو شيء من

هذا القبيل؟

- *Je ne comprends pas*(52) "بول عجوز..."

- أنت كاذب. كنت شابا إلى درجة كافية. كنت لأكمل الثامنة

والعشرين فقط في العيد التالي للقدسين بيتر ويول.

- *Je ne comprends pas* "بول يشرب."

- لا يشرب الآن، لأنه لا يملك الفرصة. لكنه شرب كل ما كان لديه

قبل ذلك، ولم يكن ذاك كثيرا.

- *Je ne comprends pas*

- *Au revoir! Au revoir! De grâce! De grâce*

49- لا فهم. ربما بعد بضعة دروس.

50- ماذا يريد أن يقول؟

51- قطعا أليس كذلك؟ قط.

52- لا فهم.

- هاو هاو! هاو هاو!

- *Un chien, n'est-ce pas?*(45) كل-لب. هاو هاو. كل-لب.

- كلب! كلب! كلب! أيها المأفون!

- «الكلب يشرب.» *Le chien boit, n'est-ce pas*(46) «الكلب

يشرب.» لكن لا! «الكل-لب يبيكي.»

- وكان الكلاب تبيكي طوال الوقت أيها المأفون! ربما كان يعوي، أو

ينبح، أو حتى يشرب. لكنه لم يكن يبيكي. يبيكي! لم أر قط كلبا

يبيكي،

- «الكل-لب يبيكي.»

- «الكلب يعوي، الكلب يعوي.»

- «الكل-لب يبيكي.» «يبيكي؛ يا، به ك ي»! «يبيكي.» *Ces sont*

les mots qui se trouvent dans mon livre(47) «الكل-لب

يبيكي.» «*Pas*(48) يشرب.»

- طيب، إذا كان يبيكي دعه يبيكي بعيدا. لا نستطيع أن نفعل شيئا

بشأن هذا، ولا بشأن العبيط الذي وضعها في كتاب. ربما ذهب

الكلب ليشرب وبعد ذلك بدأ يبيكي على ما ناله من أثر السكر

وعلى جيوبه الخاوية...

- *Je ne comprends pas. Après quelques leçons peut-être*

45- كلب، أليس كذلك؟

46- الكلب يشرب، أليس كذلك؟

47- هذه هي الكلمات الموجودة في كتابي.

48- وليس.

... هل تظن أنني تربيت في حقل كرنب، ولم أذهب قط إلى
السينما؟...

شخص عجوز مثلك؟

شخص عجوز مثلي؟ لم أكن عجوزًا دائمًا، أتعرف!

إنها جميلة فعلا، رأيت أشياء جميلة في السينما، بيوت مثل بيت
الإيرل...

رأيت صليبا جميلا فيها، وأظن أنه كان مصنوعا من رخام
كوتيمارا...

رأيت الكثير من النساء ذوات البنطلون...

والنساء السوداوات...

والمثقفين والملاهي الليلية وأرصفت الموانئ وسفنا شراعية
طويلة وبحارة لهم بشرات من كل الألوان، بأمانة...

والبائس الحقيير الغريب...

ونساء بابتسامات حلوة خبيثة، مثل جوان البياعة عندما كانت
تأبى أن تبيعك السجائر...

ونساء بمقاصد مراوغة، مثل ابنة بيتير الخمّار، وهي تنتظر وراء
الباب لتلعب لعبة المخبأ على زبون مسكين غافل...

كنت لترى مهورا كبيرة جيدة، صدقني...

ومباريات كرة قدم، لكن أقسم بالله أن كونكانون كان سيصنع
سلاطة من مدافعي أي من هؤلاء اللاعبين...

لم تكن لترى أي طحالب منجرفة على الإطلاق في السينما...

أبدا لن يتعلم كلمة آيرلندية واحدة.

ومع ذلك، لن يستغرق وقتا طويلا حتى يلتقطها. كان يقيم معنا
متعلم للآيرلندية في العام الذي مت فيه. لم يكن يفقه كلمة
واحدة على الإطلاق، لكنه كان يتعلم من هذه الكتب الصغيرة
مثل صاحبك هناك. كان يدخل المطبخ كل صباح قبل استيقاظي
بساعة ويقلب البيت كله رأسا على عقب: «هذا قط، هذا جوال،
القط على الجوال، هذا كلب، هذا كرسي، الكلب على الكرسي»،
كان هذا حديثه الهراثي طوال اليوم. أصاب أمي بالخبل حتى أنها
كانت تقول لي: «لخاطر الله يا بول، خذ هذا الرجل معك إلى
الحقل»، كنت أجز حشائش مرج قرب الدرب الهابط إلى الشاطئ
وقتها، أخذته معي. وصلنا هناك تقريبا عندما حان وقت العودة
لتناول العشاء؛ لأنه كان يقرأ الدرس لكل من قابلناه في الطريق.

عدنا بعد العشاء، وبدأت أعطيه كلمات صغيرة مثل «منجل»، «عشب»،
«سور»، «ديك»... كلمات صغيرة كهذه. كان اليوم شديد القيث، وكان هو
يواجه صعوبة كبيرة في ضبط لسانه مع الكلمات. تناثر من فمه رذاذ
ثقيل. وسألني كيف أقول «قدح» بالآيرلندية. قلت: «بيونتا».

قال: «بيونتا، وأوما إلي...» ذهبنا نحن الاثنان عن طريق الشاطئ إلى
حانة بيتير الخمّار. اشترى لي قدحين، وعدنا إلى الحقل. أعطيته كلمة
أخرى. قال: «بيونتا...» قلت: «بيونتا». وذهبنا إلى الحانة مرة أخرى.
واشترينا قدحين آخرين. عدنا إلى الحقل من جديد. أعطيته كلمة أخرى.
ذهبنا مرة أخرى. وعدنا مرة أخرى. ذهبنا وعدنا هكذا طوال اليوم. أنا
أعطيه كلمة مقابل كل قدح، وهو يعطيني قدحا مقابل كل كلمة...

... سقطت من فوق كومة شعير في الحقيقة.

- أو اثنين يسقفان الجانبين المتقابلين لبيت...

- أو نباتات قراص مثل تلك التي كانت موجودة في قرية دوناه...

- أو تلال موبوءة بالبراغيث مثل تلك الموجودة في قريبتكم...

- عن نفسي كنت أفضل ماي ويست على أي ممثلة أخرى. لو نلت

فرصة أخرى للحياة ستكون أمنيتي الوحيدة أن أراها مرة أخرى.

أظن أنها ستكون امرأة رائعة في التعامل مع أي مُهر. كنا أنا

والفتى في برايت سيتي قبل ليلة من السوق. شربنا بضعة أقداح.

قلت: «هذا يكفي الآن، لو أسرفنا في الشرب سنتسبب ببساطة في

خرق ثمن الشهر». فقال: «مازال الوقت مبكرا على الذهاب إلى

النوم، هيا نذهب إلى السينما». قلت: «لم أذهب قط إلى السينما».

فقال: «وما الضرر؟ سيُعرض فيلم لماي ويست الليلة». قلت: «في

هذه الحالة سأذهب.»

ودخلنا. ظهرت امرأة. امرأة كبيرة جيدة، صدقني، وبدأت تبتسم لي.

فبدأت أبتسم بدوري لها. قلت: «أهذه هي؟» فقال الفتى: «يا ربي!

ليست هي على الإطلاق!» وسرعان ما جاءت امرأة مذكوكة جيدة أخرى.

وضعت يدها على وركها. ومالت بجسدها إلى جانبي وبدأت تبتسم لنا

جميعا. فبدأنا نبتسم لها بدورنا جميعا.

قال الفتى: «تلك هي الآن...»

قلت: «انظر إلى هذا! أظن أنها ستكون امرأة رائعة في التعامل مع أي

مُهر. بمجرد أن ينتهي الإسطبل لا يمكن لفتى مثلك أن يفعل شيئا أفضل.

من أن يجد امرأة لها ردف صغير شاب. لكنني لا أنصحك أن يكون لك

علاقة بواحدة من أمثالها. صحيح أنها ستكون رائعة في التعامل مع

المُهر، لكن...»

قال الفتى: «لكن ماذا؟!»

عندئذ أتى رجل قصير متين، يشبه ذلك الرجل الأكرش صياد الدجاج

الذي يزور جاك الفتى، وتحدث إلى المرأتين. وبدأ يلوح بيديه في الهواء

بطريقة مجنونة. ثم أتى رجل قصير مذكوك آخر. صورة طبق الأصل من

ذلك السيد الذي يأتي لصيد السمك في أرض نيل بودين - لورد كوكتون.

قالت ماي ويست شيئا له. في الحقيقة أخبرني الفتى بما قالته، لكن لا

أستطيع تذكره الآن بأي شكل من الأشكال...

انتفخت أوداج الرجل القصير المذكوك كأن في فمه بالونا ووضع راحتي

يديه على ضلوعه. كان سميئا جدا ومنقطع الأنفاس. أظن أنه كان رجلا

بقلب عليل، فليكن الله في عوننا!...

- ... مرة واحدة فقط يا كيتي. لم أذهب إلى السينما إلا مرة واحدة

في حياتي. أود أن أذهب مرة أخرى أكثر مما أود أن أعرف أي

نوع من الحياة مدخرة لي. كان ذلك عندما ولدت ابنتي المتزوجة

في برايت سيتي طفلا. قضيت أسبوعا هناك أعنتني بها. كانت في

مرحلة النقامة عندئذ. وذات مساء جاء زوجها من العمل. تناول

عشاءه، وارتدى ملابس.

قال: «هل ذهبت إلى السينما من قبل يا بريد تري؟»

قلت: «وما هي السينما؟»

قال: «إنها كل أنواع المناظر تُعرض في مكان هناك...»

قلت: «في الكنيسة؟»

قال: «إطلاقا، الصور المتحركة.»

«صور يسوع المسيح ومريم العذراء والقديس باتريك والقديس جوزيف؟» قال: «إطلاقا، بلاد أجنبية وحيوانات برية وأشخاص عجيبون.» قلت: «بلاد أجنبية وحيوانات برية وأشخاص عجيبون! أقسم بروحي ألا أقترّب منها على الإطلاق. أتعرف؟ فلينجنا الله من كل سوء...»

قال لي وهو يضحك عليّ ضحكا هستيريا: «لديك عقلية قروي، إنها مجرد صور. لا تستطيع أن تمسك بسوء.» فقلت: «حيوانات برية وأشخاص عجيبون، من يعلم ما قد يحدث؟»

قال: «سيكون هناك فيلم عن أمريكا الليلية.»

قلت: «أمريكا؟ أتساءل إن كان يمكن أن أرى عزيزتي بريد ونورين -ليكن الله معهما!- وأنا ليام...»

قال: «سترين أناسا يشبهونهن، سترين أمريكا.»

وبالطبع رأيتها. لم أشهد قط عجائب مثل هذه! من المؤسف أنني لا أستطيع أن أصفها! تلك النار الحقيقية دمّرت لي ذاكرتي تماما! لكن يمكنني أن أؤكد لك يا كيتي، كان كل شيء واضحا لي كما لو أنني كنت هناك إلى جوارهم. كانت هناك امرأة عجوز تنظف الباب بقطعة قماش، وعلى وجهها عيوس مثل عيوس وجه كاترينا بودين عندما كانت ترى نيل وجاك الفتى يمران بها في طريق صعودهما إلى البيت من السوق...»

- يا ربي!

- وكانت هناك حجرة فسيحة جميلة يا كيتي، بها مائدة مستديرة

مثل تلك التي أعطيت الجنّيه لكاترينا كي تشتريها، الجنّيه الذي لم تسده قط...

- تلك كذبة لعينة...

- وفوقها كان هناك إناء شاي فضي مثل ذلك الذي لدى نيل. وفتح الباب رجل بملابس سوداء لها أزرار ذهبية. ظننت أنه رجل الشرطة أحمر الشعر، حتى تذكرت أنهم في أمريكا. ثم دخل رجل آخر يرتدي ما يشبه قبعة البوسطجي، وبدأ هو ورجل البيت يجادلان. أمسك الرجل ذو الأزرار الذهبية وهذا الرجل برجل البيت وألقيا به من فوق السلالم. ظننت أنه سيحول إلى كومة من العظام لأن السلم كان يتكون من ثلاث أو أربع مجموعات. ثم ألقيا به خارج الباب على أم رأسه وكاد أن يقلب المرأة العجوز على وجهها. بأمانة الله يا كيتي، شعرت بالأسف من أجلها. كان رأسها يدور من الخوف.

ثم نظر رجل البيت وراه ولوح بقيضته في وجه الرجل الذي ألقى به. ظننت أنه الأستاذ الكبير -نفس الألف الصغير كالزر والعينين الضيقتين كالخرز- وأن من ألقى به خارجا هو بيبي البوسطجي، حتى تذكرت أنهم في أمريكا. وأدركت أنه حتى لو كان الأستاذ الكبير في أمريكا فلا مجال لأن يكون بيبي البوسطجي هناك لأن عليه أن يسلم البريد كل يوم...

- الخسيس! الفاجر! ال...!

- هذا الرجل الذي كنت لتحسب به بيبي البوسطجي صعد السلالم من جديد إلى الحجرة، وهناك كانت امرأة ترتدي ثيابا سوداء ذات نقوش من الورد.

وهكذا كسبت نيل قضيتها ضد سائق الشاحنة! رغم أن ابنتها كان على الجانب الخطأ من الطريق. بالتأكيد لم يكن قاضيا شديداً الذكاء. كانت تلك العامرة بريد تري مخطئة عندما قالت إن القانون سيجردها من آخر قرش لديها. وحصلت على ثمانمائة جنيه بعد كل هذا القس، ومن غيره؟ وكان لدى العامرة الشجاعة كي تذهب وتعرض تلاوة قداسات على روحي...

هناك طريق يُمد صاعداً إلى بيتها. طريق لم يكن من الممكن أن يُمد لو لم يكن ابني باتريك سانجا هكذا. إنها تتلاعب به الآن، بالضبط مثلما تلاعبت بجاك الفتى وإنجيل القديس يوحنا. لو كنت حية...

ولا ظل كلمة عن الصليب الآن. وما قاله ذلك البائس القبيح: «تلك العجوز الشكسة لا تستحق صليباً، ألا يخشى الله أو مريم العذراء! وهو تقريبا في المائة من عمره! عسى ألا تنفعه زيارته لدين!...

لقد نسوا أمري فوق الأرض. هكذا تسير الأمور، ليكون الله في عوننا! ظننت أن باتريك لن يخلف وعده. هذا إذا كان ذلك الشاب قد سمع القصة على نحو صحيح؟ ربما لم يسمعها. كان مثلها كثر من اللازم على الذهاب إلى إنجلترا...

فقط لو علم ابني باتريك كيف أعامل في طين المقابر! أنا أشبه بأرنبه «اصرتها كلاب الصيد. خائني وسلخني جون ويلي، وكيتي، وبريد تري، وجميعهم. وأنا أحاول الصمود أمامهم وحدي تماماً. ولا روح واحدة

قلت لنفسى: «تلك هي الأستاذة، إن لم أكن أحلم». لكن عندئذ تذكرت أنهم كانوا في أمريكا وأن الأستاذة كانت تعمل بالمدرسة في الديار قبل ذلك ببضعة أيام...

- المومس...

- *De grâce*، يا أستاذنا... والآن يا دوتي...

- فتحت الرجل ذو الأزرار الذهبية الباب مرة أخرى. دخلت امرأة أخرى لديها أنف صغير كالزهر ومعطف من الفراء بالضبط مثل ذلك الذي كانت ترتديه بابة بودين عندما عادت إلى الوطن من أمريكا، حتى اضطرت للتخلص منه بسبب كل لطخات السخام في بيت كاترينا...

- تلك كذبة لعينة، أينها العامرة...

- أه! فيلم مثل يا دوتي بأمانة! كانت فيه إثارة وذعر. فقط لو رأيت ذلك الجزء الذي قالت فيه إيوستاسيا لمستر كروكشانك: «عزيزتي، لا فائدة من الاستمرار في الجدال حول الأمر. أنا وهاري متزوجان. تزوجنا في مكتب التسجيل في الجادة السادسة هنا الصباح. بالطبع، يا عزيزتي، بوب مازال هناك...»

وهزت كتفها بانتصار. أه! من المؤسف للغاية أنك لم تري وجه مسز كروكشانك يا دوتي عندما تركت عاجزة عن النطق تماماً. لم أستطع تجنب التفكير - إذا أمكن السماح بالمقارنة الثقافية - فيما قالته نيل بودين لكاترينا: «ستترك بيغ بريان لك يا كاي».

- أينها العامرة الجريانة! يا كذا وكذا... مارجريت! يا مارجريت! أستمعيني؟ أستمعيني منسخة القدمين أم قمل، وبريد تري؟ سأنفجر! سأنفجر!...

تقف معي. لن أتمكن من تحمل هذا. سأنفجر...

تلك الكلبة، نورا متسخة القدمين، تحرضهم جميعا...

الزجاجات الذهبية في واجهة حانة بيتير الخُمَار، نشرب في نخب إحدانا الأخرى، أعرض صلاة على روح أمها وأحرص على أن تُعمد طفلتها التالية باسم نورا. لكن ما خطبي؟ هناك نورا بالفعل!

أقسم بروحي أن أنادي نورا جونني، وأخبرها بما فعلتها ابنتها وكيف أنها تعمل يجد الآن، وسأخبرها أنني سعيدة بزواجها من ابني...

لكن ماذا ستقول مارجريت وكيتي وبريد تري وبيقتهم؟ أنني اعتدت سبها، أنني اعتدت أن أذمها بالعامرة ونورا متسخة القدمين، أنني لم أصوت لها في الانتخابات...

سيقولون هذا. سيقولون أيضا -وهذا صحيح بالنسبة لهم- إنها قالت عني أكاذيب: أنها قالت إنني سرقت توماس الداخل، أن ابنتها كان لديها مائة وعشرون جنيتها مهرا...

لكن دعهم يقولون. سأغفر لها أي شيء بسبب إلقاء ابنتها لنيل على ظهرها في النار...

نورا... مرحى يا نورا... نورا العزيزة... أنا كاترينا يودين... نورا... نورا العزيزة... هل سمعت الأخبار من الأرض بالأعلى؟ عن ابنتك...

ما هذا يا نورا؟ ماذا قلت؟ يا ربنا الرحيم بالأعالي! أنك لا وقت لديك لسماع الهراء السخيف من العالم بالأعلى!... لم تكن لديك مشكلة في التورط في سخافة الانتخابات، وكل ما حصلت عليه في المقابل هو أن تتغمسي أكثر في الطين! بالله... لن تنزعجي من الاستماع إلى قصتي... عن أمور سخيفة! ستقضين وقتك من الآن فصاعدا في... في... في... ماذا قلت؟... في الثقافة... لا تملكين وقتا لسماع قصتي لأنها لا علاقة

لقد تغيرت ابنتها تماما. كنت واثقة من حضورها إلى هنا منذ زمن بعيد. إنها امرأة عظيمة. أنا سعيدة الآن لأن باتريك تزوجها. يجب أن أقول الحقيقة. أنا سعيدة بالفعل. قد أغفر كل شيء فعلته هي وأمها في حقي، مقابل إلقائها نيل على ظهرها في النار، وجذب كل خصلة شعر وكل قطعة جلد وكل سلخة ملابس عن ابنة بيج بريان. كسرت المزهرية. وقلبت الممخضة التي كانت نيل وابنة بيج بريان تصنعان الزبد فيها. قفزت فوق دفعة من الكتاكيت على الأرض. أمسكت بإناء الشاي الفضي الذي كانت نيل تستعرض به فوق خزانة المطبخ وجعلت منه فطيرة على الحائط. وألقت بساعة الحائط التي أعطتها بابة للعامرة من النافذة. هذا ما قاله الشاب...

إنها امرأة عظيمة. أتمنى لو لم أكن قاسية هكذا عليها. أن تلقي بنيل على ظهرها في النار! ذلك شيء لم أملك قط الشجاعة على فعله... وقد تركت مرضها خلفها الآن. تربي الدجاج والخنازير والعجول. لو عاشت ستكسب أموالا...

لكن أن تلقي بنيل على ظهرها في النار! طال رأسها ذا الشعر الأشقر الحرق. نسيت أن أسأل الفتى إن كان شعرها الأشقر قد احترق. كنت لأتنازل عن كل شيء تمنيته مقابل أن أراها تلقي بنيل في النار. من المؤسف أنني لم أكن حية!

كنت لأصافحها، أقبلها، أربت على ظهرها، أرسل لشراء واحدة من

لها بس... والثقافة. يا ابن الرب المقدس في هذه الليلة! فوراً الوسخة...
نورا متسخة القدمين من جورث ريبوك تتحدث عن... عن الثقافة...

هلا تكرر في هذه الجملة بالإنجليزية، حيث من النادر أن تسمع الإنجليزية
في جورث ريبوك كما من النادر أن تجدي قطة بسرج. قولها مرة
أخرى...

«Art is long and Time is fleeting»⁽⁵³⁾

«Fleet! Fleet!» الأسطول هو الخزانة الكبيرة في مسجحتك.
الأسطول والبحارة. آه! يا أم الرحمة الليلة، لا بد أنني لا أملك أي
احترام لنفسي لتفكيرتي في الحديث إليك أصلاً، أنت يا كذا وكذا...

الفصلة السادسة

الطين المعجون

1

أنا نفير المقبرة! فليسمع صوتي! لا بد أن يُسمع... هنا في المقبرة رجل
الشرطة المستبد هو الظلام، عصاته هي العتمة التي تكسرها ابتسامه
الفتاة العذبة، ومزاجه هو مزاج انعدام الإدراك الذي لن يزعجه بريق
الذهب ولا معسول الكلام من السلطة. عينه هي ظل البلوى التي تقطع
الطريق عبر الغابة. وحكمه هو الحكم القاسي الذي لن يعيقه سيف
فارس في الجيش عند لحظة الموت.

فوق الأرض يرتدي الضياء لباس البسالة. يرتدي عباءة من نور الشمس
بأزوار من زهور، وجاهية من أغنيات البحر، وغرز من شدو الطير،
وشراشيب من أجنحة الفراشات، وحزام من نجوم درب اللبانة، درعه
مصنوع من طرحات العرائس. سيف نوره مصنوع من لعب الأطفال.
مكافأة بسالته هي ساق الذرة التي تنضج عند الأكواز، والسحابة
المخصبة بشمس الصباح العذراء، والبنت الجميلة التي تلمع عيناها
بحلم الحب الشاب...

لكن العصاره تجف في الشجرة. وصوت عصفور السمعة الذهبي يتحول
إلى صوت نحاسي، تذبل الوردية، والصدأ الأسود الذي يثلّم ويصيب
العفن والتحلل يضرب نصل سيف الفارس.

53. الآن طريقه ملوول وفوقت تفلتت سرجهما. تلعب كاترينا في الجملة التالية على كلمة fleet التي
تعني يفر ويهرب بسرعة وفي نفس الوقت تعني الأسطول.

يتغلب الظلام على الضياء. تطالب أرض المقابر بمستحققاتها... أنا نغير المقبرة. فليسمع صوتي! لا بد أن يُسمع...

2

- مَنْ هنا الآن؟... مارتين ذو الوجه المجبور، لا شك! لقد حان وقت مجيئك! أنا هنا منذ وقت طويل وكنت في نفس عمرك... نعم، إنها أنا، نفس المرأة، كاترينا بودين...
تقول لي إنك عانيت من قرح الفراش...

- أه كاترينا يا عزيزتي، كان الفراش صليبا جدا. صلب فعلا على مؤخرتي المسكينة يا كاترينا. امتلأ ظهري تماما بالقرح. لم تبق قطعة من الجلد على فخذي وكان لدي إصابة قديمة في أعلى فخذي. لا عجب في ذلك يا كاترينا، بعد أن ظلت طريح الفراش طوال تسعة شهور. لم يكن بمقدوري أن أتقلب أو أنتقي. اعتاد ابني أن يأتي يا كاترينا ويقليني على فخذي الآخر. كنت أقول: «لا أستطيع أن أفرد جسدي بشكل صحيح» وكنت أقول: «لقد مر وقت طويل وأنا طريح الفراش» وكان يقول: «الرقدة الطويلة إشارة قلما كذبت إلى الرقدة الأبدية... أه يا كاترينا يا عزيزتي، كان الفراش صليبا جدا على مؤخرتي المسكينة...»

- مؤخرتك كانت قادرة على تحمل ذلك جيدا يا مارتين ذا الوجه المجبور. كان لديك فائض منها... إذا كنت عانيت من قرح الفراش فهذا أفضل لك حتى تعتاد على الألواح هنا... قلت سارة الثرثرة،

مازالت فوق الأرض. نحن أفضل حالا هنا بدونها. لست راغبة في التحقير منها، لكنها كانت ذات منظر قبيح فوق الأرض ولا أعتقد أن هذا المكان سيحسن منظرها كثيرا كذلك... تقول إنك وسارة كنتما تتنافسان لتريا من سيعيش منكما أطول من الآخر؟ نعم، بالفعل نعم. هكذا تسير الأمور يا مارتين ذا الوجه المجبور... ودفنتك قبلها! هذه الأشياء لا يمكن تجنبها يا مارتين العزيز. فليلاحظها الحظ السيء على أي حال، لكن ألم تعش طويلا هذه المرأة؟ كان ينبغي لها أن تموت منذ زمن طويل، لو كانت تملك ذرة من حياة... هذا صحيح يا مارتين، من المدمش للغاية أنها لم تُصَب بقرح الفراش، فقد كانت مغرمة للغاية بالفراش. كانت مريضة في كل يوم من حياتها باستثناء أيام الجنازات. أما بقية الأيام كلها فكان صوتها غليظا بسبب البرد. لكن صوتها لم يكن يعاني من أي مشكلة في أي جنازة. وكانت تقول بعد الجنازة: «لولا أن صوتي سيجوح لقمعت بالنواح عليه...» السليطة الوقحة! عازلت تقبض المعاش وتسحب القروش وتكترها في مئزر زوجة ابنها. أقول لك إنها طالما مستمرة في غرف المال داخل المئزر، لن تدعها زوجة ابنها تصاب بأي قروح فراش. سيدهنون هذه الأفضاخ والأوراك بالزبد... تقول إنها لا تنوح على أحد الآن! يالها من ثرثرة!... توم ذو الشعر الأحمر راقد في الفراش أيضا. شخص آخر... تقول إن الكوخ لم يسقط فوق توماس الداخ بعد... مستحيل! اشترت له نيل منضدة... وخزانة... وسريرا. سرير أيضا! مستحيل أن تشتري سريرا لأحد لولا ما حصلت عليه من مال حرام. أه، ذلك القاضي كان غبيا... كانت تخشى عليه من الإصابة بقرح الفراش في سريره القديم! بل تخشى ألا تضع

يدما على أرضه يا مارتين يا ذا الوجه المجذور...

تقول بيح بريان؟ هذا الرجل لن يموت حتى يُصب فوقه برطمان من البارافين ويلقى عليه عود كبريت. هذه هي الحقيقة يا مارتين ذا الوجه المجذور. هذا البائس القبيح لن يصاب بقروح الفراش... سيموت ميتة مباغتة. صدقني، بغتة بالفعل. عسى أن تستقر كومة عظامه بعيدا عنا هنا...

ماذا؟... مرض عضال آخر في لووير هيلسايد! هذا ليس جديدا عليهم، وأنا لا أرغب في التحقيق من شأنهم. سيكفونون عونا كبيرا لهذه المقابر، بالفعل! سيسمونها ويصمون أذاننا...

أختي بابة مريضة في أمريكا! يا خير!... ماذا تقصد؟ تعتقد أن لديها قروح فراش أيضا يا مجذور الوجه! لديها فخذان سمينان ومؤخرة أكبر من مؤخرتك مرتين. ويمكنها تحمل كلفة الإبقاء على فراش ناعم تحتها، على عكسك يا مارتين يا مجذور الوجه... فليكن لديك أوقية من عقل أيها الرجل الطيب... أظن أنك شعرت بصلاية فراشك القديم أن كل فراش صلب؟... فليتعلم الله عليك بالعقل، هناك أسرة ناعمة في أمريكا لأي شخص لديه مال... ألم تسمع إن كانت قد كتبت رسالة للديار؟ ألم تسمع إن كانت نيل جلست مع القس مؤخرا؟... لا شك في ذلك يا مجذور الوجه. ستبطل الوصية، بأي وسيلة.. القس يكتب لها؟ ومن غيرها!

بالطبع، ليس هناك فائدة من أن يكتب المعلم لأمثالنا... لا يعرف شيئا يا مارتين! أنت محق في هذا. كل شيء على ما يرام طالما أنه لا يثرثر مع القس عنه... تقول إن القس والمعلم كثيرا ما يتمشيان معا.. والطريق الجديد الصاعد إلى أرض نيل قد انتهى تقريبا. آه، ألم يكن ابني ذلك

الأحمق الصغير باثسا عندما تركها تأخذ حقل نل فلاجستون!؟...

نيل تتحدث عن بناء بيت بسطح من الإردواز! بسطح من الإردواز! عسى ألا تعش لتتمتع ببيتها العبئي بسطح من الإردواز، تلك العاهرة المغرورة! إلا إذا كانت حصلت على بعض من الوصية بالفعل؟ هؤلاء الناس في بحيرة ديري حصلوا على حصة من المال قبل أن يموت أخوهم أصلا... لكنها بالطبع حصلت على المال من المحكمة. وبالتأكيد ستدفن الآن في مقبرة الجنية...

جناك مازال مريضا. ذلك الرجل المسكين! آه، ألم تلعب نيل وتلك الخرقاء الهزيلة ابنة بيح بريان لعبة حقيرة عليه باستخدام إنجيل القديس يوحنا! ألم تسمع عن إنجيل القديس يوحنا! بالطبع لم تسمع! أظن أنهم سيخبرونك بأمراه!؟...

زوجة باتريك تستيقظ مع آذان الديك كل صباح! هذا خير لها... هل قلت إن عجولا كثيرة تملأ أرض باتريك؟... تولت الزوجة كل الأمور من باتريك! تقوم بالبيع والشراء بنفسها الآن. انظر إلى تغير الأحوال! وأنا التي أظن أنها ستكون هنا في أي يوم! ولا تعرف شيئا عن أي طفل قادم بالطبع؟... كان لديك في ذهنك ما يكفيك. قروح الفراش... من السهل معرفة أنك جديد هنا يا مارتين ذا الوجه المجذور، من طريقتك تلك في الحديث. ألا تعرف أن كل امرء يجب أن يكون لديه سبب ما للموت، وفروح الفراش ليست أسوأ من أي سبب آخر.

استحيل! سمعت أن خطط إقامة صليبي قد جرى التخلي عنها... هل هذا ما سمعته؟... لكن يا مارتين يا ذا الوجه المجذور، لعل هذا ليس ما سمعته، والتقطت القصة على نحو خاطئ بسبب قروح فراشك...

سمعت أنه جرى التخلي عنها... أن نيل كانت تتحدث مع باتريك عن الصليب... لا تعرف، خشية الكذب، ما قالته له. والآن يا مارتين يا ذا الوجه المجرد دعك من «خشية الكذب». «خشية الكذب» لن تخشى نيل الكذب بشأنك لو ناسبها هذا...

فليعصف الله بك ويفراقك القديم! لن ترى ذلك الفراش مرة أخرى بعد الآن. قل قصتك مباشرة. لا تعرف كيف سارت القصة! كان لديك قروح الفراش! اسمعتي هنا لحظة الآن. ربما قالت نيل شيئا كهذا لباتريك ابني: «صدقني يا عزيزي باتريك، لديك من الهموم ما يكفيك دون هم الصليب...» أه، ابنة نورا جوني هي من قالت هذا! زوجة باتريك قالت هذا... «يجب أن تكون شديد الثراء في هذا العالم حتى تبدأ في شراء الصلبان... هناك أشخاص كثيرون مثلها دون صلبان... ينبغي أن تكون ممتنة لأنها دفنت في مقبرة أصلا بينما الحال هكذا في هذه الأيام» تقولها! سلبية متسخي الأقدام! لكنها تعلمت كل هذا من نيل. عسى ألا تأتي أي جثة إلى المقبرة قبلها!... لن يهتم بهما باتريك إطلاقا...

ابنة باتريك في البيت... مورين في البيت! هل أنت متأكد أنها ليست في أجازة من المدرسة?... فقلت في الدراسة، فقلت!... لن تكون معلما على الإطلاق... أه، اللعنة عليها! اللعنة عليها!...

حفيد نورا جوني من جورت ريبوك رحل... على سفينة انطلقت من برايت سيتي... حصل على عمل على سطح السفينة... إنه يسير على هدي جدته إن كان مغرما بالبحارة...

قلها مرة أخرى... قلها مرة أخرى... حفيد نيل سيصبح قسا. ابن ابنة بيج بريان سيصبح قسا! قس! ذلك الوغد الضليل المغرور سيصبح

قسا... ذهب إلى معهد اللاهوت... ارتدى رداء الكاهن في البيت... ووضع الياقة... وكتاب صلوات كبير ضخّم هائل تحت إبطه. يقرأ ورده راثا غاديا في الطريق الجديد عند تل فلاجستون! وتظن أنه لن يصبح قسا على الفور هكذا... أه، إنه ليس قسا بعد، إنه فقط يذهب إلى المعهد. لن يجعلوا منه قسا أبدا يا مارتين يا ذا الوجه المجرد...

نعم، ماذا قال بيج بريان?... لا تهمهم بكلماتك بل قلها بصوت عال... تقول إنك لا تريد! لا تريد... لأن بيج بريان صهري! ليس صهري. بل هو صهر أختي المغرورة. قل... «ابنتي لديها مال تنفقه على تربية القساوسة.» «تنفقه على القساوسة.» البائس الحقير!... قلها واهب إلى الجحيم! أسرع وإلا حملوك بعيدا معهم مرة أخرى. بالطبع لا تظن أنني سأدعك تظل في هذا القبر، رجل موبوء بقروح الفراش طوال الشهور التسعة الماضية... «على عكس ابن كاترينا بوبين...» قل بقية الكلام يا ذا الوجه المجرد... «الذي لم يملك ما يكفي لوضع خرقة صغيرة من زي المعهد الموحد على جسد ابنته...» بريان الحقير! أه يا بريان الحقير!...

ليسلك الشيطان! ها أنت تهمهم من جديد. نيل تغني «إيانور ذات الأسرار» صاعدة الطريق الجديد كل يوم! عُز في داهية يا مجرد الوجه المؤخرة. قلما جلبت أخبارا طيبة أنت أو عائلتك كلها...

- ... هل تظن أن هذه حرب الاثنيين الأجنيبيين؟...

- كنت أعطي متعلم الأيرلندية المتحمس كلمة مقابل كل قدح، وكان يعطيني قدحا مقابل كل كلمة...

ذهبنا وعدنا مرة أخرى في اليوم التالي، في اليوم الثالث أحضر عربة ليربح مؤخرته فيها، كانت رحلة الذهاب والعودة تتعبنا.

قالت أمي لي ذلك المساء: «عزيزي بول، ينبغي أن يكون الشعير قد جف الآن».

قلت: «الله! كيف يمكن أن يجف يا أمي العزيزة؟ من المستحيل أن يجف ذلك الشعير العجوز...»

ظلت أسبوعين على هذا الحال قبل أن أنجح في صنع بضعة أكوام من الشعير. ثم نثرتها من جديد، ثم كومتها، ثم نثرتها مرة أخرى، وقلبتها رأسا على عقب.

كان هذا هو الحال عندما جاء ذلك الوبال المفاجئ من المطر، وكنا نحن الاثنان في حانة بيتير الخُمَار، اضطرت إلى نثرها كلها من جديد وتعريضها لمزيد من الشمس، ثم نظفت المصارف، وهدمت الأسوار الحجرية وبنيتها من جديد، قطعت حواف العشب والسرخس والعوسج شققت الجداول، قضينا ما يقرب من شهر في الحقل معا، غير أننا كنا نذهب ونجيء من حانة بيتير في السيارة.

لم أر قط رجلا ألطف منه، ولم يكن غيبا أيضا. كان يتلقى مني ما بين عشرين إلى ثلاثين كلمة أيرلندية كل يوم. كان لديه الكثير من النذور.

منصب رفيع مع الحكومة...

لكن ذات يوم، عندما ذهب بدوني، أخذته ابنة بيتير الخُمَار إلى القاعة الداخلية وخذعته...

افتقدته بشدة. بعد أسبوع من رحيله رقدت مريضا ب تلك العلة التي قتلتنى... لكن، يا سيدتي مديرة مكتب البريد... يا سيدتي مديرة مكتب البريد... كيف عرفت أنه لم يدفع أجرة سكنه؟ فتحت الخطاب الذي أرسلته أمي وراه إلى الحكومة...

- وكيف عرفت يا سيدتي مديرة مكتب البريد أن دار (آن جوم) رفضت مجموعتي الشعرية (النجوم الصفراء)؟...

- في الحقيقة أنت لا تستحق أي مواسة. كانوا لينشروا لك منذ زمن بعيد لو أخذت بنصحتي وكتبت من أسفل الصفحة إلى أعلى. لكن انظر إلي، قصتي القصيرة «الشمس الغاربة» رفضت من (أيريشمان)، والسيدة مديرة مكتب البريد عرفت بالأمر...

- والسيدة مديرة مكتب البريد عرفت بأمر نصحتي لكونك انون حول طريقة كسر فريق كيري في الخطاب الذي أرسلته له بعد يومين من مباراة نصف النهائي...

- وكيف حدث يا سيدتي مديرة مكتب البريد أن عرفت بأمر ما قلته للقاضي حول نسل الآن الواحدة عندما رفعت عليهم الدعوى القضائية؟

- ويا سيدتي مديرة مكتبة البريد، كيف عرفت ابنتك، التي أصبحت مديرة لمكتب البريد هي نفسها الآن، قبل أن أعرف أنا نفسي أنه لن يُسمح لي بدخول إنجلترا، وأن السبل هو السبب؟...

- فتحت خطابا أرسلته كاترينا بودين إلى ماثيون المحامي عن توماس الداخل. العالم كله يعرف ما كان فيه:

«سنأخذه إلى برايت سيتي في سيارة. سنجعله يسكر. لو لديك يضع فتيات جميلات في المكتب لإثارته، فقد يوقع تنازلا عن الأرض لنا. يكون مغرما جدا بالبنات عندما يثمل...»

- مستحيل!...

- فتحت خطابات اعادت سيدة في مكتب مراهقات في برايت سيتي أن ترسلها إلى الأستاذ الصغير. وكنت تحصلين على نصائح حول الخيول قبل أن يعلم بها هو نفسه...

- فتحت خطابا أرسلته كاترينا بودين إلى بيغ بريان تعرض عليه فيه الزواج...

- مستحيفا! مستحيل أن أتزوج بريان التعس...

- في الحقيقة يا سيدتي مديرة مكتب البريد، لم يكن لدي سبب كي أشعر بالامتنان لك. كنت تضعين الغلاية دائما على العوقد في الحجر الخلفية. فتحت خطابا كتبه ابني لي من إنجلترا يخبرني فيه أنه تزوج من يهودية. عرفت البلد كلها بأمره، ونحن لم نذكر كلمة واحدة عنه. ولماذا كنا سنفعل...؟

- فتحت خطابا كتبه ابني لي من إنجلترا يخبرني فيه أنه تزوج من امرأة سويدية. عرفت البلد كلها بأمره، ونحن لم نقل عنه شيئا لأحد...

- كتبت خطابا لإيمون دي فالجرا، أنصحته فيه بتوعية الإعلان الذي ينبغي أن يرسله إلى شعب أيرلندا. أبقيتيه في مكتب البريد. كان

عارا رهيبا...

- كل الخطابات الغرامية التي كتبها باتريك ابن كاترينا لابنتي، فتحتها مسبقا. أنا نفسي لم أفتح واحدا منها قط دون أن أرى أين مزقته. بأمانة! ذكرتني بالخطابات التي كنت أتلقها قبل أعوام. كنت أجعل اليوسطجي يسلمها في يدي. عطر أجنبي. ورق أجنبي. كتابة أجنبية، طوابع أجنبية. أختام بريد أجنبية كانت شعرا في حد ذاتها: مارسيليا، بورسعيد، سنغافورة، هونولولو، باتافيا، سان فرانسيسكو... شمس، برتقال. بحار زرقاء. يشرات ذهبية. جزر مرجانية. عباءات مطرزة بالذهب. أسنان عاجية. شفاه كانت ملتهبة... كنت أضمه إلى قلبي. كنت أقبّلها بشفتي. كنت أنرف عليها دموعا مالحة... كنت أفتحها. كنت أخرج *bil-let doux*⁶⁴. وعندئذ، يا مديرة مكتب البريد، كنت أرى بصماتك الغبية الدقيقة عليها. أفا!

- فتحت الخطاب الذي أرسلته إلى زوجتي في الديار، عندما كنت أعمل في جزر عشب الوقود⁶⁵ في مدينة كيلدير. كان فيه تسعة جنيتها. احتفظت بها...

- ولماذا لا أفعل؟ لماذا لم تسجلها؟...

- ألا تظنون أن أقدم سكان المقبرة ينبغي أن يكون لديه شيء ليقوله؟ أطلب الإذن بالحديث. الإذن...

- في الحقيقة يا سيدتي مديرة مكتب البريد، لا أجد سببا لشكر

64- الرسالة الغرامية

65- خدمة حكومية للتوظيف في قطع وتوزيع عشب الوقود خلال الحرب العالمية الثانية (من ماثيون رسالة إلى الإلخيزية)

... سأحكي لك قصة الآن أيها الرجل الطيب:

«كان كولم كيبي⁽⁵⁶⁾ في آران عندما جاء القديس بول لزيارته هناك. أراد بول أن يأخذ الجزيرة كلها لنفسه.

قال بول: 'سأفتح محلا للمرهونات..'

فقال كولم كيبي: 'صدق إذا، لن تفتح.. بل سأقول لك الآن بالآيرلندية الصريحة أن عليك أن ترحل.'

ثم تحدث إليه باللغة الشرعية القديمة للفين⁽⁵⁷⁾. وتحدث إليه باللاتينية. وتحدث إليه باليونانية. وتحدث إليه بأصوات الرضع. وتحدث إليه بلغة الإسبرانتو. كان كولم كيبي يعرف اللغات السبع للروح القدس. كان الشخص الوحيد الذي ترك له الحواريون الآخرون تلك الموهبة عندما ماتوا...

قال كولم كيبي: 'تمام جدا، إذا لم ترحل، وفقا للسلطات الممنوحة لي، سنحل المشكلة هكذا. سنذهب إلى شرق آران وسأذهب إلى الطرف الغربي من الجزيرة عند بونجولا. وكل واحد منا سيتلو قداسا عند شروق الغد. بعد ذلك سنسير نحو أحدهما الآخر، وكل واحد منا يمكنه أن يمتلك مقدار الجزر التي يقطعها قبل أن نلتقي.'

قال بول بلغة البيديش: «اتفقنا». تلا كولم كيبي القداس وبعد ذلك سار

(56) «محاولة ساخرة لكلمة للتكلمية مشهورة في كونستازا وكذلك في جزر آران، لحكي عادة فيما بينهم بقرام القديسين إندا ويريكان بتقسيم أكبر ثلاث جزر من جزر آران بينهما. (من هوماس للترجمة إلى الإنجليزية)»

(57) الفن Féne الجنس السالي القائل في إيرلندا القديمة. (من هوماس للترجمة إلى الإنجليزية)

أنت أو ابنتك أو بيبي البوسطجي الذي اعتاد معاونتك في الحجرة الخلفية. بعد أن عدت من لندن لم يكن هناك خطاب جاءني من هناك لم تفتحه. كانت هناك *affaire de Coeur* كما كانت نورا جوني لتقولها. حكيت للبلد كلها عنها. القس والأساتذة -زوجتي- علما بالأمر...

- هذا افتراء يا أستاذ. لو كنت فوق الأرض لأقمت عليك دعوى قضائية...

- عندما كتبت بابة لي من أمريكا عن الوصية، تمكنت تك الثرثرة نيل من إخبار باتريك بما قالته:

«لم أكتب وصيتي بعد. أمل ألا ألقى حادثا مميتا، كما تخيلت أنه حدث لي في خطابك...»

فتحتي، يا ذات المؤخرة الجريانة. أخذت رشوة من نيل.

- إطلاقا يا كاترينا بودين. لم يكن خطاب الوصية هو الخطاب الذي فتحتة إطلاقا؛ بل الخطاب الذي أرسله إليك أوبريان المحامي في برات سيتي، مهددا إياك بمقاضاتك خلال سبعة أيام إن لم تسددي لهولاند وشركاه ثمن المائدة المستديرة التي اشتريتها قبلا بخمسة أو ستة أعوام...

- مستحيل! لا تصدقهما، العاهرة الضئيلة الجريانة! مارجريتا! يا مارجريتا!... هل سمعت ما قالته مديرة مكتب البريد؟ سأنفجر! سأنفجر...

نحو شرق آران، وهذا هو السبب في مقولة قديمة تقول: 'أن يأتيك من الشمال الغربي'...

- لكن يا كوي، كان جون كيتي في قرية دوناه يقول إن كولم كيبي لم يتل أي قداس على الإطلاق...

- جون كيتي قال هذا! جون كيتي مهترق...

- ينبغي أن يحترس جون كيتي لما يقوله! ألم يتجلّ الله - سبحانه دائما أبدا! - هناك وقتها؟ كانت الشمس تصعد عندما كان كولم كيبي يتلو القداس. فغربت ثانية، وأبقاها الله غاربة حتى سار كولم كيبي قاطعا الجزيرة إلى شرق آران. وعندئذ رأى القديس بول الشمس وهي تشرق للمرة الأولى!...

قال كولم كيبي: 'انصرف الآن وبسرعة أيها اليهودي، سأترك عليك أثر تشويه، في طريق عودتك لحائط المبكى: سأضربك بسوط خيل مثل الضربة التي أعطاهم لك المسيح خارج المعبد، أليس لديك ذرة من خجل على الإطلاق! من بيالي، لكنك تبدو زلفا وديقا وأنت تنسل بعيدا...'
ولهذا لم يستقر أي يهودي في آران من وقتها...»

- كانت الرواية التي اعتدت سماع تلك القصة يا كوي بها من العجائز في قريتنا كالتالي: عندما كان الباتريكان⁽⁵⁸⁾ - باتريك الكبير المعروف باسم كوثريج، المعروف باسم كالبيرينوفيتش، وباتريك الصغير - يرتحلان في كافة أنحاء آيرلندا، محاولين هداية البلاد...
- الباتريكان. هذه هرطقة...

58. هذه نظرية بأن قسيسين يعملمان اسم باتريك هما من قاما بتبشير آيرلندا. (من هومانز الروربوا إلى الإنجليزية)

- ... كان يوما يا بيتر الخّمَار. لا تنكر ذلك...

- ... يا أستاذ، يا عزيزي، كان الفراش صلبا جدا. صلب جدا فعلا تحت مؤخرتي المسكينة يا أستاذ...

- لزمت الفراش شهرا واحدا فقط عن نفسي يا مارتين يا ذا الوجه المجذور، وشعرت به صعبا بما فيه الكفاية...

- امتلأ ظهري بالبثور تماما يا أستاذ. لم تكن هناك قطعة جلد على فخذَي...

- ولا قطعة واحدة يا مارتين، أيها الرجل المسكين...

- ولا قطعة واحدة فعلا يا عزيزي الأستاذ، وكان هناك جرح قديم في أعلى فخذَي. كان الفراش...

- دعنا ننسى الفراش الآن حتى وقت آخر. قل لي الآن يا مارتين يا ذا الوجه المجذور، كيف حال...؟

- الأستاذة يا أستاذ، في ريعان الشباب، هكذا هي. تكسب مرتبتها في المدرسة كل يوم يا أستاذ، وتعتني ببيلي البوسطجي من الليل إلى الصباح. تنسل من المدرسة مرتين في اليوم لتراه، ويقولون إنها تنام قليلا جدا، المسكينة، جالسة على حافة الفراش تواليه بالأدوية...

- العاهرة...

- هل سمعت يا أستاذ أنها أحضرت ثلاثة أطباء من دبلن ليروه؟ وطبيبنا يأتي لزيارته كل يوم، لكنني أرى يا أستاذ أن حال ببيلي لا يتغير. إنه راقد الآن منذ وقت طويل حتى أنه لا بد يعاني من قروح الفراش...

- فليطل رقاداه ولا يهنا براحة! لتحل عليه أمراض فلك نوح السبعة والثلاثون! فلتندس كل صماماته وفتحة شرجه! فلتتو قدماه وأمعاؤه عسى أن تهلكه آلام المخاض! عسى أن يهلكه الوباء الأصفر! عسى أن يهلكه طاعون البعازر! عسى أن تهلكه علل أيوب! عسى أن تهلكه حمى الخنازير! فلتتيس مؤخرته! فليهلكه ما يصيب المشية من عرج المستنقعات، والأورام، والدودة السلكية، وازدواج الجفون، ودوار الخيل! فليهلك منسحقا انسحاق كيلين ابنة أولتار! فتهلكه أمراض الشيخوخة التي أصابت الإلهة ساحرة بيارا! فليحل عليه العمى فلا يرى نورا، وعمى أوسيان فوق ذلك! فتهلكه حكة نساء النبي! عسى أن يصاب بتورم الركبتين! لتحل عليه الآثار الحمراء لشريط الذيل! لتصبه لدغات البراغيث!...
- قروح الفراش أسوأها جميعا يا عزيزي الأستاذ...
- لتهلكه قروح الفراش أيضا يا مارتين يا ذا الوجه المجذور.
- إنها تؤدي طقس درب الصليب من أجله ليلا ونهارا يا أستاذ، وتزور بئر القديسة إيما مرة كل أسبوع، وقامت بالحج إلى ضريح نوك من أجله هذا العام، والحج إلى جبل كروج باتريك، وإلى بئر القديس كولم كيلي، وإلى بئر القديسة ماري، وإلى بئر القديس أوغسطين، وإلى بئر القديس إيندا، وإلى بئر القديس بيرنان، وإلى بئر القديس كالين، وإلى بئر القديس ماك دارا، وإلى بئر القديس يودكين، وإلى فراش كوندريج، وإلى بئر القديسة بريجيد، وإلى بحيرة القديسين، وإلى بحيرة دريج...

- للأسف لست حيا! كنت لأفرغ بئر القديس بريكان على اللصة⁽⁵⁹⁾، على ال...
- وأخبرتني يا أستاذ أنها لولا حالة العالم المضطربة لذهبت إلى مدينة لوردز. قالت لي: «بحيرة دريج هي أسوأهم جميعا⁽⁶⁰⁾ يا مارتين يا ذا الوجه المجذور. كانت قدمي قدميان لثلاثة أيام، لكنني لم أكن لأبالي بكل المعاناة لو عادت ببعض الراحة على ببلي المسكين. كنت لأرحف على يدِّي وركبتي من هنا إلى...»
- العاهرة...
- قالت: «كنت مكسورة القلب بعد الأستاذ الكبير...»
- أه، العاهرة... لو عرفت فقط يا مارتين يا ذا الوجه المجذور! لكنك لن تفهم. لا فائدة من إخبارك...
- حسن، كما تشاء يا أستاذ، كان الفراش صليبا جدا...
- إلى الجحيم أنت وفراشك، أرحنا قليلا منه!... أه، الأشياء التي قائلتها تلك العاهرة لي يا مارتين!...
- صدقتي، أظن هذا يا أستاذ...
- جلسنا نحن الاثنان عند الغدير، ودفق المد الرقيق يلعب الصخر العريض عند أقدامنا، وثمة نورس صغير يشجع أبوه وأمه على القيام بأول رفرقاته، كعروس خجول تشق طريقها نحو المذبح، وظلال المساء تتحسس طريقها عند أقدام الشمس الغاربة فوق

(59) كل فراغ بئر القديس بريكان يُعتبر طريقة لوضع اللعنة على شخص ما. (من هوانش الترجمة إلى الإنجليزية)
 (60) كنت طقس قذرة المرتبطة بالحج إلى بحيرة دريج في تونجبال قاسية جدا. (من هوانش الترجمة إلى الإنجليزية)

نزوايات الموج، كطفل مُغمى العينين يتحسس طريقه «لئمس»
الأطفال الآخرين. وصوت ضربات مجدافَي زورق في طريق عودته
من رحلة صيد. كنت أحتضنها بين ذراعيّ يا مارتين. وخصلة من
ضفائرها الغزيرة تحكّك بوجنتي، وذراعها حول عنقي. وأنا ألقى
الشعر:

«جلين ماسون:

فوق صخر عالٍ، في مواجهة الشمس..

ثمنا طوال المساء

على مرجها ومزرها

«لو جئت يا حبيبي، تعال سراً

تعال إلى الباب الذي لا يحدث صريحا

ولو سألتني أبي من الهاتف الداعي

سأقول له إنها الريح في رؤوس الشجر.»

إما هذا أو أحكي لها قصص الحب يا مارتين...

- أعلم ما تقصد يا أستاذ...

- أبناء أوشناه، ديارمويد وجرين، تريستان وإيزولد، توماس
كوستيلو القوي وأونا ماكثيرموت أوجو الجميلة، كارول أوردالي
وإليانور ذات الأسرار، القبلة الساخنة الحمراء، زمرة نساء...

- أعلم ما تقصده يا أستاذ...

- اشترت سيارة يا مارتين بغرض واحد هو الخروج معها. تحملت
ثمنا بصعوبة، لكنني ظننت أنها تستحقه على أي حال. ذهبنا
معا إلى السينما في برايت سيتي، وإلى الرقص في ديري داف،
وإلى اجتماعات المدرسين...

- فعلتما ذلك بالفعل، وذهبتما عبر طريق الجبل يا أستاذ. ذات يوم
عندما كنت أحضر حمولة عربية من عشب الوقود، كانت سيارتك
واقفة على جانب الطريق عند تل ستيب وكنتما أنتما الاثنان هناك
في الوادي الضيق...

- فلننسى هذا الأمر حتى وقت لاحق يا مارتين يا ذا الوجه المجذور...

- صدق إنّا، أنا أتذكر اليوم الذي حصلت فيه على استمارة المعاش.
لم يعرف أحد في البيت ماذا تكون هذه بحق الشيطان. قلت:
«الأستاذ الكبير هو رجلنا.» ذهبت حتى حانة بيتر الخمار وظللت
هناك حتى عاد التلاميذ إلى بيوتهم. ثم تحركت. وعندما وصلت
إلى بوابة المدرسة سمعت تأوهات وأنات وتنهيدات من الداخل.
قلت متظاهرا بحسن اللياقة: «لقد جئت متأخرا أكثر من اللازم،
لقد عاد إلى البيت.» ونظرت عبر النافذة. صدقني، وأستمحك
عزرا يا أستاذ، كنت تضاجعها في الداخل...

- لم أكن، لم أكن يا مارتين يا ذا الوجه المجذور.

- صدقني إنّا يا أستاذ، كنت تضاجعها.. ليس هناك شيء أفضل من
الحقيقة.

- أحسنت يا أستاذ!

- ينبغي أن تخجل من نفسك يا أستاذ.

من قبل المد أو النجم أو النل. قالت لي إن حبها لي كان هو الأبدية ذاتها...

- قالت ذلك يا أستاذ...

- قالت يا مارتين يا ذا الوجه المجذور. قالت، أقسم على ذلك!

... لكن انتظر. كنت على فراش موتي، يا مارتين يا ذا الوجه المجذور. جاءت بعد أن أدت طقوس درب الصليب وجلست على حافة الفراش. أمسكت بيدي. قالت إنه لو حدث لي أي شيء فإن حياتها بعدي لن تكون حياة على الإطلاق، وأن موتها لن يكون موتاً بالنسبة لها لو متنا معاً. أقسمت ووعدت، أنها إن عاشت وقتاً طال أو قصر، ستقضيه في حداد. أقسمت ووعدت أنها لن تتزوج مرة أخرى...

- وعدت بكل هذا يا أستاذ...

- والله فعلت ذلك يا مارتين يا ذا الوجه المجذور! وبعد كل هذا، انظر كيف كانت الحية كاملة في قلبها. لم يمر علي سوى عام تحت التراب -عام باش قصير مقارنة بالأبدية التي وعدتني بها- وكانت تقطع وعودا لرجل آخر، وعلى شفيتها قبلات رجل آخر، وفي قلبها حب رجل آخر. أنا، حبها الأول وزوجها، تحت التراب البارد؛ وهي في أحضان بيبي البوسطجي...

- في أحضان بيبي البوسطجي فعلا يا أستاذ! رأيتهما بنفسني... هناك أشياء كثيرة ينبغي أن يتغافل المرء عنها يا أستاذ...

- والآن هو في فراشي، وهي تمنحه ما يشبعه وزيادة، وتسهر عليه ليلا ونهارا، وتحج من أجله، وتبعث إلى دبلن من أجل ثلاثة أطباء... لو كانت قد أحضرت طبيبا واحدا من دبلن لي، لشفيت...

- ومن كان يظن هذا يا بريد؟

- كان أطفالنا ينهبون إليه في المدرسة يا كيتي...

- لو أمسك به القس يا جوان...

- كان يوم عيد العنصرة يا مارتين يا ذا الوجه المجذور. كان اليوم عطلة لي، قلت لها بعد الغداء: «ينبغي أن تنهبي إلى ميناء روس، سيكون الخروج مفيدا لك.» وانطلقنا. تلك الليلة في ميناء روس ظننت، يا مارتين يا ذا الوجه المجذور، أنني عرفت سر قلبها أكثر من أي وقت مضى... كان نهار الصيف الطويل يفقد ضوءه بعد طول انتظار. وكنا نحن الاثنان مستندين إلى صخرة، نتطلع إلى النجوم المتلألئة في البحر...

- أعلم ما تقصده يا أستاذ...

- نتطلع إلى الشموع وهي توقد في البيوت القائمة على الألسنة البحرية عبر الخليج. نتطلع إلى الوميض الفوسفوري المنبعث من الطحالب البحرية التي خلفها المد المترامح. نتطلع إلى درب اللبانة كأنه غبار لامع ساطع وراء فم خليج جالواي. تلك الليلة، يا مارتين يا ذا الوجه المجذور، شعرت أنني جزء من النجوم ومن الأتوار، من الوميض الفوسفوري، من درب اللبانة ومن تنهدات البحر والهواء العبقية...

- أعلم ما تقصده يا أستاذ. أظن أن الأمر كان هكذا...

- قالت لي، يا مارتين يا ذا الوجه المجذور، إن حبها لي أعمق من البحر، إنه أكثر إخلاصا وأكثر يقينا من الشروق أو الغروب، إنه أكثر دواما من المد أو الجزر، من النجوم أو التلال، لأنه موجود.

... كان هناك مستعدا ومنتظرا ببيع بريان وهو يقبض معاشه كل يوم جمعة. وكان الوغد يقول: «من الأفضل لك أن تضع القليل من التأمين على نفسك قريبا يا بريان. من يدري؟ لعلك في يوم من هذه الأيام تخادر دنيانا...»

قال لي ببيع بريان يوم جمعة في مكتب البريد: «لا يوجد شيء في هذه الخليقة لن يأخذ هذا الاستغلالي الحقير المتسلق تأميننا عليه، فيما عدا كلب نيل بويدين الصغير، فلدبه عادة التشمم حول بيت كاترينا كلما مر صاعدا الدرب.»

كنت هناك أقبض المعاش مع بريان في اليوم الذي دُفن فيه. قلت: «متدوب التأمين نفسه لم يعيش طويلا...» فقال بريان: «ها هو يرحل غزيا الآن، قربة الريح. ولو صعد إلى أعلى سيثير جنون رجل الأعالي، يثروته حول تلك الحادثة القديمة، ومحاولته أن يجعله يقوم بالتأمين على ملكيته من القديسين والملائكة ضد شرارات رجل العالم السفلي. ولو نُزل إلى رجل العالم السفلي، سيثير جنونه ويلحف عليه كي يقوم بالتأمين على جمراته القليلة من مياه صنابير رجل الأعالي، أفضل شيء يمكن لهما أن يفعلاه مع ذلك الطفيلي الحقير الصفيق هو أن يلعبا عليه خدعة توماس الداخل: في كل مرة كان ينزعج فيها من قدوم قطيع نيل إلى قطعة أرضه، كان يدفعه إلى أرض كاترينا، وقطيع كاترينا إلى أرض نيل...»

هل سمعت ما قاله عندما مات رجل رود إند؟ «وحق المسيح يا أولاد، من الأفضل للقديس بيتر أن يحترس لمفاتيحه الآن، وإلا

هل تصدق ما قالته لي عنك يا أستاذ؟ قمت بزيارتها حاملا كيسا صغيرا من البطاطس بعد أسبوع من دفنك. وتحدثنا عنك. قلت: «الأستاذ الكبير خسارة كبيرة، ولم يكن هناك سبب كي يموت الرجل المسكين. لو لزم الفراش بعد أن أصيب بهذا البرد، واعتنى بنفسه، وشرب بضعة كؤوس من الويسكي، وأرسل إلى طبيب عندما أصابه المرض في البداية...» فقالت: «أتعلم ما حقيقة الأمر يا مارتين يا ذا الوجه للجدور؟» لن أنسى أبدا الكلمات التي قالتها يا أستاذ. «أتعلم ما حقيقة الأمر يا مارتين يا ذا الوجه للجدور؟ كل أطباء فيانا لم يكن بمقدورهم علاج الأستاذ الكبير. كان أفضل من أن يبقى في هذه الحياة...» نعم بالفعل يا أستاذ، وقلت شيئا آخر لم أسمع من قبل قط. ربما مقولة قديما ما يا أستاذ: «من تحبه الألهة، يموت صغيرا...»

العاهرة! العاهرة! العاهرة الحقيرة الفاسقة...»

De grâce يا أستاذ، احترس للكلام. لا تجعل من نفسك كاترينا بويدين. جاء مساعد القس إليها يوما. وكان جديدا في المكان. لم يكن يعرف أين بيت نيل. فقالت له كاترينا: «نيل، المومس...» بأمانه!...

أنت يا ابنة متسخي الأقدام! يا كذا وكذا!... مارجريتا...

سيفر بها هذا النزول الجديد في لمح البصر...

أها، لكن هذا لا يقارن بما قاله لتوماس الداخل عندما ماتت كاترينا: «توماس يا ملاكي الجميل، سيكون عليك أنت ونيل وبابة وابنة نورا جوشي أن تزوروا باستمرار مكان الحداد السماوي كي تصلحوا أجنحتكم، هذا إذا وافق الرب على السماح لكم بالطواف حول نفس المكان الذي ستكون فيه هي نفسها. أما أنا فلديّ فرصة ضئيلة جدا للحصول على أجنحة. لم تكن كاترينا تعتبر قيمتي عالية لدرجة كافية. لكن والله يا توماس، أيها اليمامة المباركة، ستكون أجنحتك آمنة إلى حد كبير لو تمكنت من الحصول على جحر سلطعون صغير كمسكن إلى جوارها...»

مستحيل! بريان الحقيير إلى جواربي! أعوذ بالله! آه، ماذا كنت لأفعل؟...

ما قالته السيدة مديرة مكتب البريد عن موتي كان أنها لم تتمكن من فتح خطاب واحد لأيام، لأنه كان عليها أن تهتم لأمر الكثير الكثير من البرقيات...

نُشر خبر موتي في الجريدة...

نُشر خبر موتي في جريدتين...

أنصتوا إلى هذا الخبر من جريدة نبي ريبورتر عن موتي: «كان أحد أفراد عائلة محلية قديمة وشهيرة. وقد لعب دورا بارزا في الحركة الوطنية. وكان صديقا شخصيا لإيمون دي فاليرا...»

وهذا هو الخبر الذي كان في جريدة آيريشمان عني: «جاء من

عائلة لها احترامها في المنطقة. وانضم إلى فيانا إيريان⁽⁶¹⁾ وهو طفل، وبعد ذلك إلى المتطوعين الأيرلنديين⁽⁶²⁾. وكان صديقا مقربا من آرثر جريفيث...»

وتلا كوي «حكاية الفرخة التي باضت على كوم الروث» ليلة دفنك أيضا.

أنت كاذب! هذه قصة مقرفة لا يمكن أن تتلى في أي ليلة دفن محترمة!...

لكن ألم أسمعها!...

أنت تكذب، لم تسمعها!...

... مشجرة في ليلة دفنك! مشجرة حيث لم يكن هناك أحد غير اثنتين مستنيتين على المعاش!

وأحدهما أصم كتوماس الداخل كلما اقتربت عليه كاترينا الذهاب معها لزيارة مانيون المحامي بشأن الأرض.

نعم بالفعل، وكل إناء في البيت كان طائفا بالماء المقدس.

كانت هناك مشجرة في ليلة دفني...

نعم بالتأكيد. أحس توماس الداخل بالإهانة عندما قال له بيغ بريان: «لقد شربت ما يكفي من لبن نيد الرائب منذ أن جئت يا توم، حتى أنك تملك بالتأكيد الآن ما يكفي بالفعل لمخضة.»

في ليلة دفني كان هناك نصف برميل...

61- حركة شباب وطنية موازية لحركة الكفالة (من هوماس الترجمة إلى الإنجليزية)

62- منظمة حزبية مكرسة للقتال من أجل استقلال أيرلندا. (من هوماس الترجمة إلى الإنجليزية)

- وضعوا فوقى صليبين ووشاحا...
- مهما كان أو لم يكن فوقى يا كييتي، لم تكن هناك ملاءة قدرة على كما كانت فوق كاترينا...
- يا ربي! لا تصدقوا هذه العامرة الحقيرة...
- ... صُنع تابوتك على يد النجار القصير في جورت ريبوك. وقد صنع تابوتا آخر لنورا جوني وكان صغيرا كقفص طائر...
- وأنت أيضا حصلت على تابوت من صنع نجار...
- لو حدث هذا، فهو لم يُصنع على يد نجار جورت ريبوك، بل على يد نجار أكمل تدريبه للنهاية. ونال شهادة من المدرسة الفنية.
- تكلف تابوتي عشرة جنيهات...
- ظننت أنك حصلت على تابوت بثمان جنيهات مثل التابوت الذي حصلت عليه كاترينا...
- أنت كاذبة! أنت مغفلة! حصلت على أفضل تابوت في محل تيم...
- كانت كييتي الصغيرة من أرقدنتتي...
- كانت كييتي الصغيرة من أرقدنتتي أيضا، وتاحت علي سارة الثرثرة...
- فعلا، ناحت عليك بطريقة سيئة. هناك بحة في صوت الثرثرة لا تفك إلا بعد أن تشرب كأسها السابع. وعندما تبدأ في غناء «دع إرين تتذكر»...
- أعتقد أن كاترينا بوبين لم تحظ بالنواح على الإطلاق، إلا إذا قامت زوجة ابنها وتبيل بأداء توبة من أجلها...

- في ليلة دفني كان هناك ثلاثة أنصاف براميل...
- كان هناك بالفعل يا كاترينا ثلاثة أنصاف براميل في ليلة دفنك. تلك أمانة الله يا كاترينا. كان هناك ثلاثة -ثلاثة كبار جيدون- والكثير من المياه الفوارة من نيد التل أيضا... ورغم أنني كنت الرجل العجوز، إلا أنني شربت اثني عشر قدحا عن نفسي. وإحقاقا للحق يا كاترينا، ما كنت لأحلم بشرب هذا القدر لو علمت أن قلبي كان عليلا. قلت لنفسي يا كاترينا، عندما رأيت وفرة الجعة السوداء: «أليس من الأفضل لهذا الرجل أن يشتري مهرا بدلا من جعل هذه الأقوام الثرثرة تشرب»...
- أيها الوغد!...
- لم يكونوا أكثر من ذلك. تمدد بعضهم كالجثث في طريق الجميع. وسقط بيتر ابن تيل على الفراش الذي أرقدوك فيك يا كاترينا. لم تستطع ساقه المصابة أن تسنده...
- المتسول القذرا!
- لم يكن هذا شيئا حتى بدأ ابن بويد تيري وابن كييتي في ضرب أحدهما الآخر، وكسرا المائدة المستديرة قبل أن يمكن الفصل بينهما...
- يا ربي!...
- ذهبت لأفصل بينهما. صدقيني إذا، لو كنت أعرف أن قلبي عليلا...
- ... في الحقيقة، بدا لي أنك راقدة بطريقة عادية جدا، إلا إذا خانتني عيناى...
- لا بد أن عينيك خانتك إذا لم تريا الصليبين على صدري...

كنتما أنت وابنتك يا بيتر الخمّار مشغولين بـ «بول» راج و«بول»
جاء عندما كانت تلعب خدعة القاعة الداخلية على متعلم الأيرلندية
المتحمس، لكن لم يكن هناك ذكر لبول عندما آن الأوان لوضع
شلمن على مذبحي...

قيدت توماشين بعد أن شربت اثنتين وأربعين قدحا، ومع ذلك لم
يأت شخص واحد من ذلك البيت إلى جنازتي، رغم أنهم يعيشون
في نفس القرية. لم يضعوا شلنا تقريبا على مذبحي. قالوا إنهم
أصيبوا جميعا بدور برد. كان هذا كل الشكر الذي حظيت به، رغم
أنه كان قد قبض على البطلّة الصغيرة. هل يمكنك أن تتخيل لو
كان لا بد من تقييده مرة أخرى؟...

لم أحظ بجنازة كبيرة. كان أهل قرية دوناه قد رحلوا إلى إنجلترا،
وأهل جورت ريبوك، ومرتفعات ساقى...

... ما رأيك يا كيتي في كاترينا بودين، التي لم تضع قدما في بيتي
منذ اللحظة التي مات فيها أبي حتى وُضع في التابوت، بعد كل
أرطال الشاي الخاص به التي شربتها...

كان ذلك في الأيام التي ذهبت فيها إلى مانيون المحامي بشأن
أرض توماس الداخل...

هل تسمعين تلك العاهرة بريد تيري، وكيتي الجريانة آكلة
البطاطس المحروقة؟

اضطرت إلى وضع يدي ثلاث مرات على فم ذلك العجوز فارغ
الرأس هناك، عندما كان يحاول غناء «كان لدى مارتين جون مور
ابنة جميلة» في جنازتك يا كوران...

... ستة جنيتها وخمسة شلنات هي كل نقود المذبح التي جُمعت
في جنازتك...

حصلت على عشرة جنيتها من نقود المذبح.

انتظروا الآن حتى أرى كم جُمع في جنازتي: 20 على 10 زائد
19 يساوي 190... زائد 20 يساوي 210 شلمن... يساوي 10
جنيتها، 10 شلنات، أليس هذا صحيحا يا أستاذنا؟...

حظي بيتر الخمّار بمبلغ كبير في المذبح...

وتورا جونني...

صدقوا إذا، كان هناك مبلغ كبير من مال المذبح في جنازة نورا
جونني. كنت لأحظى بمبلغ كبير في جنازتي أيضا لكن أحدا لم
يعلم بها، فقد مت على حين غرة. القلب، ليكن الله في عوننا! فقط
لو أنني لزمتم الفراش لوقت طويل حتى أصاب بقروح الفراش...

كنت سأحظى بأربعة عشر جنيتها كاملين، لولا أنه كان هناك شلمن
مضروب. كان نصف قرش فقط ملغوبا في ورقة سجائر فضية.
وكان بيغ بريان هو من لاحظته عندما تحسس النقش المنحوت
على نصف القرش. وهو يقول إن كاترينا هي من وضعته هناك،
وقد تركت على المذابح الكثير من هذه الشلنات المضروبة. كانت
تريد أن تكون حاضرة في كل مذبح، وهو ما لم تكن لتقدر عليه،
المرأة المسكينّة...

أيها الكاذبة الحقيرة العجفاء...

آه، أسامك يا كاترينا، لم أكن لأهتم مطلقا، لولا القس الذي قال،
«سيتركون أسنانهم القديمة على المائدة من أجلي قريبا».

- كانت البلد بأكملها في جنازتها، والصحفيون والمصورون و...
- لسبب وجيه جدا! لأنكم أيها الناس قُتلتم بواسطة اللغم. لو متم في الفراش القديم كما فعلت، كان سيحضر قليل من الصحفيين هناك...
- كان هناك *bien de monde* في الجنازة *à moi*. وجاء *Le Ministre de France* من دبلن ووضع *couronne mor-tuaire*⁽⁶³⁾ على قبوري...
- كان هناك مندوب من إيمون دي فاليرا في جنازتي وعلى كفتي العلم ثلاثي الألوان...
- كانت هناك برفقية من آرثر جريفيث في جنازتي وأطلقت الرصاصات فوق قبوري...
- أنت كاذب!
- أنت الكاذب! كنت أول ملازم لأول سرية لأول كتيبة لأول لواء...
- أنت كاذب!
- ليكن الله في عوننا، دائما أبدا! من المؤسف أنهم لم يأخذوا كومة طيني هناك شرق برايت سيتي...
- جاء الجزار الكبير من برايت سيتي إلى جنازتي. كان يحمل احتراماً لي، وأبوه كان يحمل احتراماً لأبي. كثيرا ما أخبرني بأنه يحمل احتراماً لي بسبب أن والده كان يحمل احتراماً لأبي...
- جاء الطبيب إلى جنازتي. وبالطبع لم يكن في هذا أي شيء!

63- كثير من الناس... الغلظة بي... الوزير الفرنسي... إكليل الجنازة

- عجيب. فأختي كيت لديها ابنان طبيبان في أمريكا...
- قتلها للتو لم يكن في ذلك أي شيء عجيب. كان الأمر ليغدو مخزيا تماما لو لم يجيء إلى جنازتك، بعد كل المال الذي أنفقته عليه عبر الستين؛ وأنت تلوي كاحك في جميع أوقات النهار والليل...
- حضر الأستاذ الكبير والأستاذة جنازتي...
- حضر الأستاذ الكبير والأستاذة والشرطي أحمر الشعر جنازتي...
- حضر الأستاذ الكبير والأستاذة والشرطي أحمر الشعر وأخت القس جنازتي...
- أخت القس! هل كانت ترتدي البنطلون؟
- من العجيب أن هانيون المحامي لم يحضر جنازة كاترينا بودين...
- عجيب بالفعل، أو أخت القس...
- أو حتى الشرطي أحمر الشعر...
- كان يتفحص رخص الكلاب في قرية دوناه ذلك اليوم...
- لا يمكن أن يعيش كلب على التلال المويومة بالبراغيث في قريتكم...
- ... «كان توماس الداخِل هناك، مبتسما ومبتهجا، لأن نيل كانت ستتزوج بعد أن ماتت كاتي...»
- أؤكد لك يا كاترينا بودين، كنت سأحضر جنازتك ولو كان الثمن حياتي، كنت مدينا لكاترينا بودين بالحضور إلى جنازتها، حتى

لو على ركبتي. لكني لم أسمع كلمة واحدة عن الأمر حتى الليلة التي دُفنت فيها...

أنت ثرثار عجوز يا ستيفن يا ذا الكلام المعسول. منذ متى وأنت هنا؟ لم أعرف أنك هنا على الإطلاق. الوباء...

كان هناك حشد كبير في جنازتي، قس الأبرشية، ومساعد القس، ومساعد قس بحيرة سايد، وراهب فرانسيسكاني وأخان متدينان من برايت سيتي، وأستاذ وأستاذة مدرسة كين تير، وأستاذ وأستاذة مدرسة ويست سايد، وأستاذ مدرسة مرتفعات سافي، والأستاذ والأستاذة المساعدة لمدرسة ليتل جيلين. والبائع في كيل...

كانوا هناك بالفعل يا عزيزي الأستاذ، ومعهم بيبي البوسطجي كي نعطيه حقه، كان خدوما للغاية ذلك اليوم. أحكم ربط الأحزمة على التابوت وكان من حامله عند مغادرة البيت، وأنزله إلى القبر. صدقتي، كي نوفيه حقه، كان مستعدا وقادرا. لقد خلع سترته هناك وقبض على جاروف...

اللص! الجاهل القاسق!

... كانت هناك خمس سيارات في جنازتي...

السيارة الخاصة بذلك المهرج في بحيرة ديرري، تعطلت في منتصف الطريق وعطلت جنازتك لمدة ساعة...

كان هناك ما يصل لحوالي ثلاثين سيارة في جنازة بيتر الخمار وكان هناك حصانان يحملان تابوته...

صدق إذا، كما تقول، كان هناك حصان يحمل تابوتي، لم تكن

المرأة العجوز لتسعد قبل أن تحصل على واحد. قالت: «سترتج أحشاؤه كثيرا على أكتاف الناس أو فوق عربة قديمة...»

كان من السهل عليها يا رجل رود إند أن تأتي بالحصان من مال عشب وقودي...

ومن طحاليبي البحرية المنجرفة.

... مع كل هذه الوفرة من الشراب في جنازة كاترينا بودين، لم يكن هناك ما يكفي من الناس لحمل تابوتها إلى الكنيسة. بل وبدأوا يتصايحون ويتشاجرون فيما بينهم. وكان لا بد من إنزال الجثة على الأرض مرتين، مع الحالة التي كانوا عليها. حدث ذلك بالفعل: ألقي بها في منتصف الطريق...

مستحيل!

أنا أخبرك بالحقيقة العارية يا عزيزتي كاترينا. لم يكن هناك غيرنا نحن الستة من بعد حانة وولش. أما البقية فدخلوا حانة وولش أو تساقطوا على طول الطريق. فكرنا أننا قد نضطر لجمع النساء يحملن الجثة...

مستحيل! لا تصدقوه، تخاريف...

تلك هي الحقيقة العارية بلا تجميل يا كاترينا. كنت ثقيلة كالجحيم. لم تلمزي الفراش لزمّن طويل، ولم تعاني من قروح الفراش.

قال بيتر ابن فيل عندما وصلنا درب مرتفعات سافي: «سيضطر الرجلان العجوزان إلى حملها...» كنا سعداء بوجود العجوزين يا كاترينا. كان بيتر ابن فيل نفسه يسير على عكازين وكان ابن كيتي وابن بريد تري

- ... وتقول لي إنك لا يمكنك التأمين على المهور؟
- أي وكيل تأمينات مثلي لن يفعل ذلك يا جوني.
- ألا تعتقد أنك لا تقوم بأي مخاطرة على الإطلاق بالتأمين على مهر جيد صغير. سيكون عوناً كبيراً، لو حدث له أي شيء، أن تحصل على حفنة من المال...
- كنت أحصل على حفنة من النقود أنا نفسي يا جوني في مسابقة الكلمات المتقاطعة في جريدة صانداي نيوز. خمسمائة جنيه...
- خمسمائة جنيه!...
- نعم بالفعل يا جوني. كان لديّ حرف واحد خاطئ...
- أفهم ذلك...
- كانوا يريدون كلمة من أربعة حروف تبدأ بحرف ز. وقال الدليل إن معنى الكلمة «سجن».
- أفهم ذلك.
- على الفور فكرت في كلمة «goal»، لكنها تبدأ بحرف g...
- أفهم ذلك.
- قلت: «ليست هذه...» وقضيت وقتاً طويلاً متأملاً ومترددًا. وفي النهاية كتبت كلمة «jaol»...
- أفهم ذلك.
- أتعرف؟ عندما ظهر الحل في الجريدة، كانت الكلمة «jail»!

يتناوشان من جديد: وكل واحد منهما يحاول لوم الآخر على كسر المائدة المستديرة في الليلة السابقة. لا شيء أفضل من الحقيقة يا عزيزتي كاترينا. صدقيني، لم أكن لأحمل نعشك على كتفيّ أنا نفسي ولا أصحابك خطوة واحدة على الطريق لو كنت أعلم وقتها أن قلبي عليل هكذا...

- كنت متفوحاً بحساء الحلزون أيها المخرف النابح...
- «تريد أن تمثل دور البغل الحرون حتى الآن، فلتنج روعي من الشيطان، سواء أرادت أم لا ستذهب إلى الكنيسة وإلى القبر...» هذا ما قاله بيج بريان بينما يدخل هو معي ومع ابن كيتي أسفل نعشك لنحمله صاعدين الدرب إلى الكنيسة...
- «لم تتنطق بالكذب يا حماتي...» قال بيتر ابن نيل وهو يلقي بالعكازين بعيداً ويدفع نفسه أسفل نعشك...
- مستحيل دائماً أبداً! ابن العاهرة حملني! بيج بريان حملني! ذلك الورد ذو اللحية. طبعاً كان النعش مائلاً إذا كان هذا الأديب المسيح يحملني. مستحيل... بيج بريان! ابن نيل! مارجريتا! يا مارجريتا...! لو عرفت يا مارجريت كنت لأنفجر. كنت لأنفجر هناك وقتها...

اللغة على الهجاء المبسط⁽⁶⁴⁾ يا جوني! لو كان هناك مسدس في متناولني لفجرت رأسي بنفسي ساعتها. كان هذا واحدا من الأسباب التي قصّرت عمري...

- أفهم ما تعنيه الآن...

- ... قسما ببلوط هذا التابوت يا ستيفن يا ذا الكلام المعسول، أعطيت كاترينا الجنيه...

- ... كانت تضع تلك الابتسامة الحلوة على وجهها...

- تلك الابتسامة الحلوة أثبتت شؤمها على الأستاذ الصغير! لكن بكرم الله سينتهي الأمر به كما انتهى بالأستاذ الكبير. هناك لعنة ما على مدرستنا تقضي بأن يكون الأستاذة سيثي الحظ مع زوجاتهم...

- النصيحة التي أرسلتها إلى كونكانون بعد فوزه ببطارية نصف النهائي في بطولة عموم أيرلندا لصالح جالواي:

قلت: «كونكانون يا صديقي، حتى إذا لم تستطع أن تترك الكرة في النهائي ضد كيري، فلتترك شيئا آخر! لا بد أن يكون هناك نوع ما من المساواة في ضرب الناس. سيكون الحكم منحازا لكيري على أي حال. أنت الرجل الموهل لهذا. لديك القوة والمهارة. وفي كل مرة ستركل شيئا سأرفع صوتي بثلاث صيحات نصر لك...»

- ... هتزر حبيبي! عندما يأتي إلى إنجلترا!... أعتقد أنه سيدفع بإنجلترا هذه إلى أعماق الجحيم تماما: سيطيح بإنجلترا تلك

(64) إعادة تشكيل الهجاء للغة الأيرلندية، 1948. (من هوماش للترجمة إلى الإنجليزية)

الخنزيرة المنقوخة الثقيلة كما أطاحت الريح بذلك الحمار: سيضع أنعاما وزنها مليون طن أسفل سرتها...

- فلينجنا الله!...

- صدق إذا، لا يجب إدانة إنجلترا. هناك تشغيل هائل هناك. ماذا كان سيفعل أهل قرية دوناه دونها، أو أهل جورت ريبوك، أو مرتفعات سافي؟...

- أو هذا المزيج العجوز هنا الذي يمتلك قطعة أرض أعلى القرية لا يمكن عزقها لتسمين الماشية...

Après la fuite de Dunkerque et le bouleversement de Juin 1940, Monsieur Churchill a dit qu'il retournerait pour libérer la France, la terre sacrée (65)

... لا ينبغي أن تسمح لأي مهرطق أسود بإهانة دينك هكذا يا بيتر. آه يا إلهي، أتمنى لو كنت مكانك! كنت لأسأله هكذا يا بيتر: هل تعلم حتى أنه يوجد إله؟ بالطبع أنت مثل بقرة أو عجل أو مثل... أو مثل جرو. كل ما يهم الكلب أن يملأ بطنه. كما يأكل الكلب اللحم يوم الجمعة⁽⁶⁶⁾ يأكلها هو أيضا. آه، لن يحمل نحوها أقل نفور. لكن مع ذلك ليس كل كلب يفعل هذا... كانت لدي قطعة من اللحم باقية في البيت ذات مرة. قلت: «سأضعها جانبها حتى السبت. غدا هو يوم الصيام، لا لحوم» وبعد وقت العشاء يوم الجمعة كنت داخلا من الحديقة بحفنة من البطاطس

(65) بعد الهروب من دنكيرك ولفظقة يوليو 1940، قال السيد تشرشل إنه سيعود لتحرير فرنسا، الأرض المقدسة...
(66) كان من عادة الكتوليك الامتناع عن كل اللحم يوم الجمعة. (من هوماش للترجمة إلى الإنجليزية)

... هل الأمر هكذا يا أستاذي العزيز؟ لو أنهم دهنوني بـ -ماذا تسميه يا أستاذ؟- الكحول الإيثيلي وقتها لم أكن لأصاب قط بقروح الفراش. أه يا عزيزي الأستاذ، لم يكن لدي أحد يقدم لي الرعاية المناسبة. المغفلون! العلم نور فعلا. الكحول الإيثيلي من المؤسف أنني لم أعرف بهذا! تقول إنه يأتي في زجاجة. تالله يا أستاذ لا بد أنها الزجاجات التي تشربها الأستاذة من ابنة بيتر الخمار. قالوا لي إنها تشربي كمية رهيبة منها. من أجل بيبي...

ليس تي يا مارتين يا ذا الوجه المجذور. لا تباع قط في حانة. إنها تشربها، العاهرة. تشرب بالتأكيد. أو ربما بيبي هو من يشرب. أو هما الاثنان. يالها من طريقة لإنفاق النقود الحلال يا مارتين يا ذا الوجه المجذور...

أؤكد لك يا مارتين يا ذا الوجه المجذور، كنت سأحضر جنازتك ولو كان الثمن حياتي. كنت مدينا لك بالحضور إلى جنازتك يا مارتين، حتى لو على ركبتي...

مارجريت! يا مارجريت!... هل تسمعين ستيفن ذا الكلام المعسول وهو يطنطن من جديد؟ سيقلب معدتك. يا مارجريت! هل تسمعينني؟ يا مارجريت... أنت لا تولين اهتماما كبيرا في الفترة الأخيرة. هل تسمعينني يا مارجريت...؟ هذا دورك في الكلام... كنت أتكلم عن ذلك الطنطنان ستيفن معسول الكلام. لم أعرف أنه وصل إلا مؤخرا. إنهم مجموعة من الأجلاف هنا يا مارجريت. لا يخبرون المرء بأي شيء. انظري كيف أبقوا خبر وصول ستيفن ذي الكلام المعسول سرا عني...

أه، أعرف أن مارتين ذا الوجه المجذور قد وصل يا مارجريت. كنت أتكلم

عندما رأيت الكاهن البروتستانتي مارا، في طريقه صاعدا الجبل لصيد الدجاج البري. قلت: «تبتعد بها أيها المهترق اللعين. بالطبع أنا مدرك تماما أنك لن تجعل يوم الجمعة يمر دون لحم طازج... أنت مثل بقرة أو عجل... أو مثل جروء» وعندما دخلت ومعني حفنة البطاطس. كان المشبك منزوعا من باب الخزانة. واختفى كل أثر للحم! قلت: «بالتأكيد قط أو كلب، عندما أمسك بك، لن تغفل بها.» أكل اللحم يوم الجمعة. ألتست أننا غبيا أحرق لأني لم أطربها وأغلق الباب خلفي! لحقت بهما في طريق الصعود. كلب الكاهن يلتهم اللحم، وكلبي يزوم في وجهه محاولا أن يوقفه. أمسكت بالمذرة وقلت: «من السهل معرفة كلب من أنت، يأكلك اللحم يوم الجمعة.» حاولت أن أغرس المذرة فيه حتى مقبضها. لكن الكائن القذر تمكن من الهروب. قدمت اللحم لكلبنا. عسى أن يسامحني الله! لم يكن ينبغي أن أغويه. لكنه لم يقترب منها أو يمسه. ولا حتى قطعة منها. والآن ما رأيك؟ كان يعرف أن هذا ليس صحيحا... لماذا لم تخبره بذلك يا بيتر ولا تسمح له بإماتة دينك؟ يا الله! لو كنت موجودا!...

وكيف كان لي أن أفعل ذلك؟ كلب الكاهن لم يسرق قط قطعة لحم مني...

لكن الإسبان يأكلون اللحم كل يوم جمعة في حياتهم، وهم كاثوليك.

هذا كذب، يا قرية الريح!

منحهم البابا إتنا...

هذا كذب. أنت مهترق أسود...

معه، حاولوا أن يدفنوه فوقى...

اسمعيني الآن يا مارجريت! لماذا انقلب كل من في المقبرة ضدي؟ لماذا لا يجدون أحداً غيري ليكون سيرته؟ هذا بسبب...

تقولين إن هذا ليس بسبب عدم وجود صليب فوقى! وماذا غير ذلك؟ ماذا غير ذلك إذًا؟

أهل المقبرة لا يحبونني منذ رفضت أن أتعاون! ماذا تقصدين بأني لم أتعاون يا مارجريت...؟

فهمت الآن، أتي صوتٌ ضد نورا جونى! ألا تعرفين في قرارة قلبك وروحك يا مارجريت أنه لم يكن بمقدوري أن أفعل شيئاً آخر؟ تلك الخسيعة المتسخة القدمين. هبة الله تلك للبحارة، تلك الكذا والكذا...

تقولين إنها في النهاية كانت مرشحة مقبرة الخمسة عشر שלנו، ولم نهال بالأقدام المتسخة أو البط أو البحارة أو الشرب خلف الأبواب المغلقة، أو أن تكون كذا وكذا يا مارجريت...

ماذا تقولين إن الأستاذ أطلق عليّ؟... «المنشقة». أسماني «المنشقة» لأني صوتٌ ضد حزب الخمسة عشر שלנו يا مارجريت. لكني لم أصوت ضد حزب الخمسة عشر שלנו. صوتٌ ضد نورا جونى ذات المؤخرة السمينة. أنت تعرفين بنفسك أن ناسنا فوق الأرض كانوا يصوتون دائماً بنفس الطريقة. نيل هي التي تغيرت. كانت نيل العامرة هي الخائنة. «صوت لهذا الحزب الجديد لأنها حصلت على طريق ممدود إلى بيتها...

وبعاني الأستاذ بهذا أيضاً. قولها مرة أخرى يا مارجريت... «عديمة المبادئ»، «عديمة المبادئ» يا مارجريت!... لأني تكلمت مع جوان «الباعة» رغم أنها أمانتني قبل ذلك! يا إلهي الرحيم! لم أحدثها قط يا

عندك حق يا مارجريت، لو وضعوا صليباً فوق المرء، لأصبح من السهل تحديد قبره. ولن يمر وقت طويل قبل أن يكون صليبي جاهزاً، لكنهم يقولون إن رخام كوينمارا شحيح؛ ومن الصعب الحصول على شاهد قبر مناسب لصليب هناك. يقول مارتين ذو الوجه المجدور إنه يجب أن تكون لك واسطة هناك حتى تحصلي على حجر أصلاً من كوينمارا الآن. لكنه أخبرني أنهم يعملون بسرعة على إقامة صليبي رغم ذلك...

تقولين إنه لم يفعل يا مارجريت... أن هناك الكثير من الرخام في كوينمارا حتى أنه لن ينفد أبداً! والآن يا مارجريت، هذا الشكل من التفضيل لن يؤدي بك إلى أي مكان. لماذا أتقول بالكذب على الرجل الطيب؟ لا هو ولا أنا نحاول التنافس في قول الأكاذيب بما أننا محشورون في هذه الهوة معاً...

تقولين إن زوجة ابني قالت ذلك يا مارجريت: «يجب أن نكون أغنياء» في هذه الحياة قبل أن نبدأ في شراء الصليبان. فهمت صدقيني. كنت تنصتين من الأبواب الخلفية مرة أخرى يا مارجريت، كما كنت تغلبن فوق الأرض... والآن يا مارجريت، لا فائدة من إنكار ذلك. كان من عادتك التنصت من الأبواب الخلفية. الحكاية التي رويتها لدوتي ونورا جونى هنا عن حياتي، أين عرفتها إلا عند بابي الخلفي؟

آه، كنت تنصتين إليّ وأنا أكلم نفسي أثناء سيرتي في الطريق! ووراء السور عندما كنت أعمل في الحقل! طيب يا مارجريت، أليس التنصت من الأبواب الخلفية عملاً غير لائق مثله مثل التنصت في الطرقات وخلف الأسوار؟...

مارجريت، هي من حدثتني يا مارجريت. سأقول هذا للأستاذ. سأفعل ذلك فعلا، سأقولها له مباشرة. قالت: «يا كاترينا، يا كاترينا بودين، هل تسمعينني؟ أنا ممتنة لك على منحنا صوتك. كنت امرأة شجاعة...»

أنا حتى لم أظاهر يا مارجريت بسماعي لصوتها ذي النغمة السقيمة. ولو رددت عليها أصلا كنت سأقول لها: «أنت أيتها البغي المنفوخة، أنا لم أصوت لك أو لبيتر الخُمَار أو لحزب الجنية، بل صوتت ضد الكنا والكنا، نورا جونني...»

قال إنني «مرتدة» لأني تكلمت مع نورا جونني... محاولة تعويضها... بعد التشهير بها منذ جئت إلى المقبرة... يا ربي الرحيم القديم، يا مارجريت! أني تحدثت إلى نورا جونني!... ما هذا يا مارجريت؟... أساماني هكذا. الأستاذ! لا بد أنه كان يقصد نورا جونني يا مارجريت. ومن غيرها؟... أساماني كذا وكذا يا مارجريت؟ كذا وكذا! سأنفجرا! سأنفجرا! سأنفجرا...

الفصلة السابعة

الطين المسبوك

I

أنا تغير المقبرة. فليسمع صوتي! لا بد أن يُسمع...

هنا في المقبرة يوجد المخطوط الذي تشكل كلماته الغامضة نسيج أحلام الجنس البشري؛ والذي يشكل مداده الباهت النضال الجسور للجنس البشري؛ والذي تشكل أوراقه الذابلة عصورا من هباء الجنس البشري...

فوق الأرض يشكل البر والبحر والسماء مخطوطا تضرا مزخرفا. كل طوق هو انحناء مهيبية. كل درب هو خط لوني، كل حقل ثرة هو غطاب ذهبي. كل قمة جبل مضاء بنور الشمس وكل خليج متعرج معاط بالارض ووليء بالأشعة البيضاء هما جملة مركبة من الجمال. ال سحابة هي نقطة تليين⁽⁶⁷⁾ بهية على الحروف الكبيرة الأرجوانية اللهم العالية، قوس قزح هو فاصلة منقوطة بين نصف رباعية شعرية في السماء ونصفها الآخر في الأرض. لأن مهمة هذا الناسخ هي نشر الجمال في مخطوط الأرض والبحر والسماء...

(67) في الخط الأيرلندي القديم نقطة التليين أو الإضعاف dot of lenition هي نقطة توضع فوق حرف ما كان تنطق إلى تليين الصوت. (من هوامش الترجمة إلى الإنجليزية)

- لماذا لا تستطيع الرد على شخص يتحدث إليك يا توم الأحمر
الشعر؟ كيف حالهم هناك في الأعلى؟
- بعضهم بخير. وبعضهم ليسوا بخير...
- يالك من جالب بارع للأخبار! من بخير ومن ليس بخير؟
- رجل حكيم من يمكنه قول ذلك يا كاترينا. رجل حكيم من يمكنه
قول ذلك يا كاترينا. رجل حكيم من يمكنه قول من بخير ومن
ليس بخير. رجل حكيم، صدقيتي...
- بما أنك كنت تعيش في القرية المجاورة، ألا تعرف إن كان ابننا
باتريك وزوجته وجاك الفتى بخير أو ليسوا بخير؟...
- فعلا يا كاترينا كنت أعيش في القرية المجاورة. في القرية
المجاورة فعلا. لا كذب في كلامك لكنني كنت في القرية المجاورة
فعلا...
- هيا يا رجل، فلنتمتع بقليل من النباهة. ليس عليك أن تكون خجولا
هنا، ليس أكثر مما كنت عندما كنت فوق الأرض. من بخير ومن
ليس بخير؟...
- كيت الصغيرة وسارة الثرثرة مريضتان معظم الوقت. صدقيتي،
قد يكونان حتى في حالة سيئة...
- يالها من قصة جيدة تلك التي لديك! أنا لا أتذكر وقتا لم تكونا
فيه غير مريضتين، إلا عندما كانت هناك جثث يجب إرقادها أو
النواح عليها. إنه الوقت المناسب لهما كي لا تكونا بخير في هذه
المرحلة. هل هما على أبواب الموت؟... هل تسمعي؟ هل سارة
الثرثرة وكيت الصغيرة على أبواب الموت؟...

- لكن الأشجار المتساقطة على قمة الجبل هي بالفعل جملة ناقصة.
والجرف المغطى على الشاطئ المنحدر هو نقطة سوداء. وهناك عند
الأفق ينتهي الحرف غير المكتمل ببقعة من الحبر...
- يجف اللون في الفرشاة وتشعر يد الناسخ بتشنج الكتابة...
- العقيرة تطالب بمستحقاتها... أنا نغير المقبرة. فليُسمع صوتي! لا بد
أن يُسمع...

22

- من أنت؟... أقول من أنت؟... هل أنت أصم أم ماذا؟ أم أبكم... من
أنت؟ فليأخذ الشيطان روحك العفنة، من أنت؟...
- لا أعرف...
- بحق كل ما هو مقدس! توم أحمر الشعر! لماذا تتصرف بهذا
الخجل يا توم؟ أنا كاترينا بودين...
- كاترينا بودين. أنت كاترينا بودين. والآن إذا. كاترينا بودين
كاترينا بودين، إنّا...
- نعم كاترينا بودين. لا حاجة لك كي تعيد وتزيد فيها. كيف حالهم
هناك في الأعلى؟
- كيف حالهم هناك في الأعلى؟ هناك في الأعلى. هناك في الأعلى
فعلا...

- بعض الناس يقولون إنهما ستتجاوزان المرض، وآخرون يقولون إنهما لن تتمكنا. رجل حكيم من يمكنه قول ذلك...
- وجاه الفتى؟... جاك الفتى قلت... كيف حاله؟... هل أصبت بالروماتيزم في لسانك؟...
- جاك الفتى، جاك الفتى الآن، نعم بالفعل، جاك الفتى. يقول البعض إنه ليس بخير، يقول البعض إنه ليس بخير بالتأكيد، لعله كذلك، لعله كذلك بالفعل... لكن أشياء كثيرة تقال ليس فيها ذرة من صدق. أشياء كثيرة، صدقيني. ربما هو ليس بخير على الإطلاق...
- هلا تكف عن سخافتك وتخبرني إن كان جاك الفتى ملازما الفراش...
- لا أعرف يا كاترينا. لا أعرف، صدقيني. إلا إذا أردت أن أكذب عليك...
- «إلا إذا أردت أن تكذب عليّ»، وكأنها ستغدو كذبتك الأولى وكيف حال نيل؟... كيف حال نيل العاهرة؟
- نيل، نعم بالفعل، نيل، نيل بالفعل. نيل وجاه الفتى، نيل بودين...
- نعم، نعم، نيل بودين. سألتك كيف حالها؟...
- يقول البعض إنها ليست بخير. يقول البعض إنها ليست بخير بالتأكيد...
- لكن أهي كذلك؟ أم أنه المزيد من ألعيبها؟...
- يقول البعض إنها كذلك. يقولون، بالطبع. لعلها كذلك، صدقيني

- لعلها كذلك، دون شك. لكن أشياء كثيرة تقال...
- اللعنة على فمك الخالي من الأسنان! لا بد أنك سمعت إن كانت نيل قادرة على الدخول والخروج من البيت، أو أنها طريحة الفراش...
- طريحة الفراش. لعلها كذلك، صدقيني، صدقيني إننا، لعلها كذلك...
- يا يسوع، يا مريم، يا يوسف... اسمعني يا توم الأحمر الشعر. كيف حال بابة أختنا في أمريكا؟
- أختك بابة التي في أمريكا. بابة بودين. إنها في أمريكا بالفعل. بابة بودين في أمريكا، هذا صحيح...
- لكن كيف حالها؟
- لا أعرف. صدقيني يا كاترينا لا أعرف...
- آه، بربك الآن، هذا شيء سخيف، لا بد أنك سمعت بعض الحديث يدور عنها. ربما لم تكن بخير...
- بعض الناس يقولون إنها ليست بخير. يقولون هذا بالتأكيد. من الممكن...
- من يقول هذا؟
- أقسم أنني لم لأكن لأخبرك بكلمة كاذبة واحدة يا كاترينا، لكني فقط لا أعرف. لا أعرف فعلا. ربما ليس هناك من خطب بها...
- من سيحصل على مالها؟... من سيحصل على مال بابة؟
- مال بابة بودين؟...

- نعم، ومن غيرها؟ مال بابة... من سيحصل على مال بابة؟...
- لا أعرف وحق الشيطان يا كاترينا...
- هل كتبت وصية؟ هل كتبت أختنا بابة وصية بعدة؟ ألا تملك بالفعل دليلا لما يحدث؟...
- يا إلهي، لا أعرف هذا يا كاترينا. رجل حكيم من يمكنه قول...!
- لكن ماذا يقول أهل قريتنا عن هذا، أو أهل قريتك؟... هل قالوا إن باتريك سيحصل عليه؟ أم أن نيل ستحصل عليه؟
- بعضهم يقولون إن نيل ستحصل عليه. وبعضهم يقولون إن باتريك سيحصل عليه. أشياء كثيرة تقال دون أن تكون بها ذرة من حقيقة. أشياء كثيرة بالفعل. عن نفسي لا أعرف أيهما سيحصل عليه. رجل حكيم من يمكنه قول...
- أنت أيها المعتوه الأيكم عديم الأسنان! كل شخص غيرك كان لديه شيء ليقوله قبل أن تأتي. ماذا عن توماس الداخل؟... توماس الداخل. هل تسمعي؟...
- أسمعك يا كاترينا. أسمعك بلا مشاكل. توماس الداخل. أقسم بكل ما هو مقدس أن هناك شخصا بهذا الاسم، بالتأكيد يوجد. لا شك في وجود توماس الداخل...
- أين هو الآن؟
- في قريتك يا كاترينا. وأين سيكون في غيرها؟ في قريتك بالطبع. كنت أظن أنك تعرفين جيدا أين يكون يا كاترينا. كان في قريتك طوال حياته، على ما أعتقد، أم نفي مخطئ؟
- عسى أن يصوبوا الصمغ المغلي على ابتسامتك العريضة! كان سؤالك لك هو أين هو الآن؟... أين توماس الداخل الآن؟
- ليأخذني الشيطان لو كنت أعرف أين هو الآن يا كاترينا، إلا إذا كذبت عليك. لو كنت أعرف أي وقت من اليوم هو، لكنني لا أعرف. لا أعرف فعلا. لعله...
- لكن قبل أن تموت أين كان؟
- في قريتك يا كاترينا. اعتاد أن يكون في قريتك بالتأكيد. في قريتك بالفعل.
- لكن أي بيت؟...
- صدقيتي إذا، لا أعرف هذا يا كاترينا...
- لكنك تعرف إن كان قد غادر بيته بسبب رشح السقف أو شيء آخر...
- بعضهم يقولون إنه في بيت نيل. وبعضهم يقولون إنه في بيت باتريك. أشياء كثيرة تقال دون...
- لكنه ليس في بيته؟... هل تسمعي؟ توماس الداخل ليس في بيته؟...
- توماس الداخل في بيته؟ في بيته... توماس الداخل في بيته... صدقيتي إذا، يمكنه كذلك بالفعل. يمكنه بالفعل. فقط شخص حكيم من يمكنه قول...
- أيها المعتوه السخيف، لأنك هكذا فعلا يا توم أحمر الشعر! من يملك أرض توماس الداخل؟

- ...سقطت من فوق كومة من الشعير...
- مهرة بيضاء الوجه...
- عسى أن يأخذك الشيطان أنت وأشعارك السقيمة! ألا يمكنك أن تفهم أن لدي ما يكفيني من هموم وأنا لا أعرف إن كانت المرأة العجوز في البيت قد منحت الحيازة لابن الأكبر...
- ... كانت لدي قطعة أرض في أعلى القرية...
- ... "كانت لدى مارتين جون مور ابنة
وكانت عريضة المنكبين كأبي رجل..."
- ... *Monsieur Churchill a dit qu'il retournerait pour libérer la France, la terre sacrée. Mon ami, the French Gaullistes and les Américains and les Anglais will capture la France. That is promis by Messieurs Churchill et Roosevelt . . . That is a prophétie . . . Prophétie . . . Prophecy, je crois en Irlandais . . .* (68)
- نحن نقول عليها "تنبؤ" في سهول شرق جالواي الجميلة. تلك هي الأيرلندية القديمة الصحيحة.
- أوه! اسمعها مرة أخرى!...

(68) قال السيد تشرشل إنه سيعود لتحرير فرنسا، الأرض المقدسة، يا صدقي، سيستولي الديروليون الفرنسيون والأمريكان والإنجليز على فرنسا، هذا وعد من السيدين تشرشل وروزفلت... هذه نبوءة... نبوءة... أنا مؤمن بالآلوردنديين.

- أرض توماس الداخل؟ صدقي إذا، هو يملك أرضا. توماس الداخل يملك أرضا بالقطع. توماس الداخل بالفعل يملك أرضا. يملك أرضا...
- لكن من يملك أرضه الآن؟ هل مازال توماس نفسه يملكها، أم يملكها باتريك، أم تملكها نيل؟...
- باتريك، نيل، توماس الداخل؟ نعم الآن، باتريك، نيل...
- كف عن تمثيل دور الخنزير والخبرني فقط من يملك أرض توماس الداخل!...
- البعض يقول إن باتريك هو من يملكها. والبعض يقول إن نيل من تملكها. أشياء كثيرة تقال دون نبرة...
- لكنك متأكد من أن توماس الداخل نفسه لا يملك الأرض؟...
- أنت متأكد يا توم أحمر الشعر أن توماس الداخل نفسه لا يملك الأرض؟...
- توماس الداخل نفسه، إن كان يملك الأرض؟ صدقيني إذا، يمكنه أن يملك، فيمكنه ذلك. رجل حكيم من يستطيع قول من يملك أرض توماس الداخل...
- أيها الخراء عديم النفع! يالها من هدية حظيت بها: توم أحمر الشعر! كومة من المرض! لقد جلبك الوياء إلى هنا. لولا ذلك لما جئت إلا بعد أن تتعفن. في الحقيقة، لم يكن أحد ليقتلك بسبب لسانك على أي حال! يالك من كنز للمقبرة أيها الزبالة حمراء الشعر! اغرب عن وجهي! أفا!...

قصور من مجيئه إلى مدرستنا. وذكر الأمر له. فقال: «صدقني إذا، ذلك الرجل يعيش في البلدة التي جئت منها». وأخبرني باسم المكان أيضا، فقط لو تمكنت من تذكره! في مكان ما جنوب البلاد على أي حال. قال: «أقسم بروحي أنه كذلك، أعرفه جيدا، وليست هناك كلمة كاذبة في تلك القصة: لديه كعبان في إحدى قدميه. وهو طحان، واسمه بيتر ديكي...»

... أن كل إنسان سيتوجب عليه أن يغمس خبزه في عرق جبينه. ألا يفعلون ذلك؟

إطلاقا! انظر إلى ببلي البوسطجي وهو يغمسه في عرق جبين الأستاذ الكبير، وهل تظن أن ابن نيل بودين، الذي تمكن من الحصول على مئات الجنيهات، يغمسه في عرق جبينه هو؟ وتوماس الداخل يغمسه دائما أبدا في عرق كاترينا ونيل بودين. وقرريبا جدا ستغمس نيل خبزها في عرق بابة...

مستحيل! عسى ألا تعيش لترى ذلك!...

... أن رجلا يُدعى ديفيل-آير⁽⁷⁰⁾ سيحكم أيرلندا. وألا يحدث هذا؟

تلك ليست نبوءة كولم كيلى على الإطلاق...

أنت كاذب! تلك نبوءة كولم كيلى بحذافيرها...

لا تصدق نبوءة كولم كيلى إلا إذا كان معك الكتاب الصحيح. هناك كتاب واحد فقط صحيح...

70- ترجمته الحرفية هواء الشيطان ريبالأيرلندية: Dull Air الهواء باعتدوه واحدا من العناصر الأساسية الأربعة، والاسم له وقع يشبه وقع اسم دي فلورا سيسلي الأيرلندي الذي تولى رئاسة الوزراء والجمهورية. (من هوامش الترجمة إلى الإنجليزية)

جرى التنبؤ دائما بأن الوادي سيغدو عاليا كالتل.⁽⁶⁹⁾ أذكر الوقت الذي كان فيه الناس يخشون من لمس قبعاتهم تحية لحشم وخدم الإيرل، ناهيك عن الإيرل نفسه. أما الآن، فالناس هم من يتوقعون من الإيرل أن يلمس قبعتهم تحية لهم. أنا نفسي رأيت ذلك ذات يوم ينحني لنيل بودين.

العاهرة! القذرة الحقيرة المغرورة! كان من عاداتها أن تعطيه الجوارب والدجاج بلا مقابل، لكي يمدوا طريقا إليها. لم يكن هناك غبار على ذلك الرجل. وكانت تعرف أن ذلك سيفيده أيضا، لأن الصيد...

ورأيت ذات يوم ينحني لنورا جوني...

الإيرل شخص مثقف، بأمانة...

بأمانة! أمانة مؤخرتك يا فورا ذات القدمين اللتنتين...

كانت في النبوءة «بيضة خبيثة». تلك هي اللغم الذي قتلنا...

أن مسيحا نجلا سيأتي قبل نهاية العالم وأن ثلث الناس سيتبعونه. أعتقد فعلا أننا قريبون من هذا الآن. ومع الحالة التي عليها العالم الآن: الناس الذين يعيشون على الإعانة يلتهمون اللحم كل جمعة بنهم كأى مهرطق أسود...

... قبل أن تأتي نهاية العالم، سيكون هناك طحان في مكان ما جنوب البلاد له كعبان في إحدى قدميه. سيُسمى بيتر ديكي. كثيرا ما سمعت هذا يقال. كنت أحدثك إلى الأستاذ الصغير، بعد وقت

69- من مجموعة نبوءات غامضة منسوبة إلى اندريس كولم كيلى وانتشرت على نطاق واسع في كتاب «دوريات شفافية» (من هوامش الترجمة إلى الإنجليزية)

- ذلك هو الكتاب الذي لدي: النبوءات الصحيحة للقديس كولم كيبي.
- انتظروا الآن. دعوني أتحدث. أنا كاتب. النبوءات الصحيحة للقديس كولم كيبي كتاب كتب لخداع الجمهور...
- أنت كاذب، أيها التافه العجوز!
- هو كذلك بالفعل، وكاذب وقح!
- أنا كاتب...
- حتى لو كنت قد كتبت ما يملأ السماء كلها وأكثر، أنت تكذب. رجل مقدس مثل كولم كيبي يكتب كتابا لخداع الجمهور!
- بالضبط! رجل مقدس. أنت تهين الدين. أنت مهرطق. لا عجب أن اقترب مجيء المسيح الدجال فعلا. هل تعلم أصلا أن هناك إله؟
- أقدم ساكن في المقبرة هنا. أطلب الإنن بالكلام...
- رجل واحد فقط لديه النبوءة الصحيحة لكولم كيبي الآن. جون كيبي في قرية دوناه...
- يالها من مصادفة! ابن عمك شخصيا...
- وريدمان في قرية دوناه لديه إياها أيضا...
- يبدو أن الأنبياء هاجروا إلى بساتين قرية دوناه الفجاء، وأصبحت الآن أرضهم المقدسة...
- على الأقل يمكن العثور على النبوءة الصحيحة لكولم كيبي هناك، وهو ما لا يمكن أن يقال عن تلال قريتك الموبوءة بالبراغيث...
- ويبي ابن قريتنا نبي عظيم. كنت لأفضي حياتي كلها منصتا إليه.

- يتكلم كلاما معقولا جدا، وكثير مما قاله تحقق بالفعل...
- النبوءة الكاذبة لويبي ابن مرتفعات ساقى.
- ليست نبوءة كاذبة على الإطلاق. إنها النبوءة الحقيقية والخالصة لكولم كيبي، آخر نبوءة قام بها. لكن ويبي كثيرا ما اعتاد أن يقول إن ثلثها فقط ما سيتحقق، لأن كولم كيبي ترك ثلثي النبوءة خاطئا...
- أنت كاذب! رجل مقدس مثل كولم كيبي...
- أه! لا تندموا إن رأيتم المسيح الدجال مقبلا في أي لحظة الآن!
- فلينجكم الله أنتم وكولم كيبي خاصتكم! في قريتنا لدينا نبوءة العفرية للمؤذي...
- ولدينا نبوءة كونان في قريتنا...
- نبوءة النقب المسدود لابن قرصان البحر هي النبوءة التي لدينا في قريتنا...
- سمعت نبوءة تشارلي المستهجن من رجل من ويست هيدلاند...
- كان لدى رجل من قريتنا نبوءة الردف للعقود. لكنه في أمريكا الآن...
- كانت نبوءة ماليكي النواح شائعة جدا في منطقتنا. الرجل الذي كان يعرفها تزوج في لوخ سايد. كان يقول إن ماليكي كان رجلا مقدسا، وعاش في بلاد جويس⁽⁷¹⁾...
- كان لدى خالي نبوءة أودوجان. وكان يسميها "حكم أودوجان"...

71- مملكة جالنية في شمال شرق كرايمرا، استعمرها في العصور الوسطى الجوينيون فولزيون- (من هومانس الترجمة إلى الإنجليز)

- ماذا تقصد بمئذ ثلاثين عاما؟ كان القتال في عيد الفصح وأنا مت قرب عيد سيدتنا...

- استيقظ يا رجل. أنت تظن أنك جئت إلى هنا هذا العام فقط...

- هو محق بشأن العام السادس عشر...

- يا ربي! اسمعني يا ابن باتريك لاري. تحل بأوقية من العقل. كولم كيلى لم يقل هذا قط...

- إذا لم يقلها، فقد قالها بريان الأحمر. وما لديه هي نبوءة بريان الأحمر. عمي يمتلكها أيضا:

"في العام السادس عشر بعد الثلاثين

ستكون أيرلندا حمراء بالدماء.

وفي العام السابع عشر ستتساءل النساء:

'رياه أين ذهب كل الرجال؟'

نساء قرية دوناه وجورت ريبوك ومرتفعات سافي وجلين بولي وبحيرة ديرى وشاناكليل يسألن ذلك السؤال بالفعل. كيف سيكون حالهن في رأيك بعد بضع سنوات، عندما لا يتبقى حتى رجل واحد؟

سمعت عمي يقول إنه في نبوءة بريان الأحمر أن امرأة وابنتها ستقفان فوق جسر بحيري ديرى وستريان رجلا يقترب قادمًا من الشرق. سيكون أسود ولكنهما لن تجدا غضاضة في ذلك. ستتدفعان كلاهما نحوه كالكلاب وتستمسكان به. سيكون الرجل ممتلئا بالخوف. لكن المرأتين ستهاجم إحداها الأخرى بعدها، وكل واحدة منهما تقول إنه

- هناك رجل مازال يعيش في قريتنا لديه نبوءة العميد سويقت...

- ... أنه سيكون هناك "طريق فوق كل أخدود ولغة إنجليزية في كل كوخ". وما هي تتحقق! نورا جوني من جورت ريبوك تعرف الكثير من الإنجليزية، وليس هناك من درب يؤدي إلى أرض نيل بودين بلا جسر فوقه...

- ... أن الرومان سيتزوجون المهترقين. ألم يتزوج أبناء هؤلاء الموجودين هنا من طليانية ويهودية وسواء!...

- احترسوا لأنفسكم الآن! لن يمر وقت طويل قبل أن تروا مسيخا دجالا. الزواج من الهراطقة... هل يعرفون حتى أن هناك ربًا؟...

- ابني يعرف منك تماما أن هناك ربا، حتى لو تزوج من طليانية... أن الرجل العجوز سيقلب في الفراش ثلاث مرات...

- من المؤسف يا عزيزتي أنني لم ألق من وقت لآخر. لو حدث لي هذا، ما كانت مؤخرتي المسكينة لتمتلئ بكل هذه القروح...

- ... أن جالواي ستفوز ببطولة عموم أيرلندا عام 1941...

- في عام 1941؟ ربما في عام آخر؟...

- إطلاقا. إطلاقا. ولماذا في عام آخر؟ 1941. ماذا غيره؟ أتريد أن تعارض النبوءة؟

- هذه حرب الأجنبيين. كانت في النبوءة: «في العام السادس عشر ستكون أيرلندا حمراء بالدماء...» وأليست هي كذلك هذا العام؟ كانت هناك حرب في دبلن وشرق جالواي في عيد الفصح...

- استيقظ يا رجل. كان هذا منذ ثلاثين عاما، أو قريبا جدا من هذا...

ملكها. سيتمكن الرجل من الهروب بجلده وسط كل هذه الفوضى. ذلك هو الوقت الذي سيكون فيه الرجال نادرين!

لا عجب في ذلك، عندما يتزوجون اللطانية واليهود والسود...

منذ أن وصلت الأخبار إلى الديار انطلق الرجال كلهم إلى إنجلترا. أظن أن «خريف النساء الباكيات» كما كان عمي يسميه قد اقترب كثيرا الآن. لن تتمكن نساء جورت ريبوك من الزواج، ولا نساء قرية دوناه أو مرتفعات سافني. أليس ذلك هو السبب في أني أردت بشدة أن أذهب إلى إنجلترا أنا نفسي؟ كانت النساء لتمزقنني إريا بينهن... كنت سأغدو مثل بيبي البوسطجي...

اسمع هنا يا ابن باتريك لاري، أنت وعمك قد شوهتما سمعة نساء أيرلندا...

ألا يفعل الأستاذ الكبير هذا كل لحظة من اليوم؟!

اسمع هنا يا ابن باتريك لاري، أنت وعمك قد أهنتما الدين. مهرطقان أسودان...

الجميع يقولون إن هؤلاء الذين يغادرون البلاد هم أفضل الرجال والسبب في ذلك كما أعتقد أننا نتقرب من المسيح الدجال ونهاية العالم، ولو تصادف أن كان الطريق الهابط إلى الجحيم موجودا في هذا الجزء من البلاد لن تكون هناك نهاية لعدد الأوغاد الذين يقدون علينا من برابيت سيتي، من دبلن، وبالطبع من كافة أنحاء إنجلترا. أخشى على أخواتنا...

امسك لسانك يا ابن باتريك لاري المزعج!...

امسك لسانك يا مزعج!...

يا ربي! أعتقد أنه لن يمر وقت طويل قبل أن تلقى إنجلترا كلها في الجحيم، هنتو...

تقول نبوءة كاترينا بودين إن زوجة ابنها ستكون هنا في ولادتها الغالية...

يا ربي!

كنت لأؤمن بالنبوءات أنا نفسي. لم أكن لأرغب في أي سوء تفاهم حول هذا. لا أقول إني أؤمن بأي نبوءة معينة، لكن يمكنني فهم أن الناس يمكن أن تكون لديهم تلك الموهبة. هناك مواهب لا يعرف العلم المادي شيئا عنها لأنها لا يمكن إثباتها بالتجربة. الشاعر يشبه النبي في نواح كثيرة. كان الرومان يطلقون على الشاعر: «Vates»؛ أي الشخص الذي يمتلك رؤية أو بصيرة. ناقشت هذه النقطة في «التجم الهادي» في مجموعتي الشعرية «النجوم الذهبية»...

فليخوزك الشيطان! كان الشيء الوحيد الذي فعلته فوق الأرض هو قصادتك عديمة النفع...

امسك لسانك أيها المزعج. كان من الصعب عليك أن تفعل أي شيء طيب فوق الأرض، حيث لم يرب أبوك وأمك أي شيء طيب فيك، سمحا لك بالموكوث في البيت ترعى الجمرات وتحلم أحلام اليقظة، بينما قتلا أنفسهما كذا...

... قيل في النبوءة إن الأجانب سينزلون على شاطئ ويست هيدلاند، وسيطلقون متوجهين شرقا...

إذا سيكون هناك الكثير من الرجال لنساء جورت ريبوك وقرية

- دوناه ومرتفعات سافى...
- أنت تهين الدين...
- ثمة قائد كبير لهم سيهبط إلى النهر عند جسر بحيرة ديري ليسقي حصانه. وسيطلق عليه رجل آيرلندي النار وسيقتل الحصان...
- سيذهب ذلك القائد الكبير على الفور للبحث عن حصان آخر! هل تعتقد أنه لو رأى مهراً كبيراً جيداً سيسرقه؟...
- تلك حرب الأجنبيين. كنت هناك عند غور المستنقع أرض طبقات عشب القوود لتجف بعد تقطيعها عندما مر بي باتسي جوني وقال: «هل سمعت آخر الأخبار؟»
- قلت: «لم أسمع شيئاً.»

قال: «هاجم القيصر بالأس البلجيك المساكين..»

قلت: «إنهم يستحقون الكثير من الشفقة. هل تعتقد أنها حرب الأجنبيين؟»

- استيقظ يا رجل. تلك الحرب انتهت منذ زمن بعيد...

- ... قال الأستاذ الكبير منذ يومين إن هذه قد تكون الحرب العالمية. بما أن السماء متقلبات هكذا...

- قال توماس الداخلى هذا أيضاً. قال: «أقسم بالله يا عزيزي هذه نهاية العالم. مع الطريقة التي فقد الناس فيها طبيعتهم الطيبة. انظر إلى كوخى الصغير المليء بالشقوق في السقف...»

- عندما بدأ وكيل التأمينات عمله هنا لم يترك بيتا دخله دون أن يقول إنها حرب النبوءة. كان يقول: «الآن أو لا سيبل أبدا، يجب أن تقوم بالقليل من التأمين على نفسك. لا خوف منهم لو قتلوا شخصاً مؤمناً عليه، لو أنهم لو فعلوا ذلك سيضطرون لدفع أموال أكثر من اللازم عند نهاية الحرب. كل ما عليكم فعله هو حمل ورقة التأمين معكم طوال الوقت، وإظهارها لو...»

- أه! ألم يخدعني ذلك الفاشل؟...

- ألعاب المهنة...

- كاترينا نفسها قالت منذ بضعة أيام إنها لا بد وأن تكون حرب القارات. قالت: «رخام كونيمارا شحيح، وجاء في النبوءة أنه عندما يشخ رخام كونيمارا ستكونون قريبين جداً من نهاية العالم.»

- يا ربي! رخام كونيمارا. رخام كونيمارا. سأنفجر! سأنفجر!...

4

- ... الصبر يا كوي. الصبر...

- اسمح لي بإنهاء قصتي يا صاحبي الطيب:

«وضعت بيضة! وضعت بيضة! حمراء ساخنة على كوم الروث...»

- نعم يا كوي. رغم أنه لا يوجد فيها أي براعة فنية، إلا أنني أعتقد أن بها معنى ما عميقاً وغامضاً. هكذا دائماً القصص التي من هذه النوعية. أتعرف ما قاله فريزر في (الغصن الذهبي)... أستميحك

عذرا يا كوي. نسيت أنك لم تكن تستطيع القراءة... والآن يا كوي،
اسمح لي أن أتكلم... يا كوي، اسمح لي أن أتكلم... أنا كاتب...

بأمانة يا دوتي. مورين فشلت. لو كانت قد سارت على خطايا أنا
أو على خطي ابنتي لما فشلت. لكنها سارت على خطي آل بودين
وآل ليدون. فشلت راهبات الدير تماما في وضع أي شيء في
رأسها. أتصدقين يا دوتي أنها بدأت تقول لمعلماتها يا «موس»
ويا «عامرة»... بأمانة الله يا دوتي، لم يستطيعوا تنظيف فمها
من الكلام القذر. ماذا تنتظرين بعد سماعها لها منذ أن ولدت،
وعيشها في نفس البيت مع كاترينا بودين...

يا ربي! نورا...

تظاهري أنك لا تسمعنيها يا دوتي يا عزيزتي. ألا ترين بنفسك
الآن أن مورين كان «مقدورا عليها أن تُبْتَلَى»... كما يقول بلينكس
في رواية القبلية الحمراء الساخنة؟... أنت على حق يا دوتي. هو
ابن خال مورين. لا عجب أنه سيصبح قسا يا دوتي. كان محاطا
بمقدار طيب من الثقافة منذ وُلِد. كان من عادة القس أن يتردد
على البيت كلما جاء لصيد الدجاج البري. وكان صائدو الدجاج
البري والطيور من برايت سيتي وديلن ومن إنجلترا يجيئون هناك
بانظام أيضا. بالطبع نيل هي الجدة وهو مازال معها. نيل امرأة
متقنة...

آه... آه...!

أه، ابنة بيج بريان، كانت في أمريكا وقابلت أناسا مثقفين هناك.
أمريكا مكان عظيم للثقافة يا دوتي. واعتاد الجد، بيج بريان، أن
يزور البيت من وقت لآخر، ورغم أنك قد لا تعتقدين في ذلك، إلا

أن بيج بريان رجل مثقف على طريقته... هو كما تقولين يا دوتي،
لكن على الأقل كان لديه ما يكفي من الثقافة كي لا يتزوج كاترينا
بودين. بأمانة...

آه!... آه!... أنت يا خلية البراغيث...

تظاهري أنك لا تسمعنيها على الإطلاق يا نورا...

بالطبع يا دوتي... ومع ذلك، أليس عجيبا كم يمكن أن تختلف
أسرتان!... حفيدي في جورت ريبوك ابن خال آخر لمورين؛ وهو
الشاب الذي يتحدث عنه الأستاذ الكبير. سيكون ضابط صف على
سفينة يا دوتي. بالحظه! مارسيليا، بورسعيد، سنغافورة، باتافيا،
سان فرانسيسكو... الشمس. البرتقال. البحار الزرقاء...

لكن البحر سيكون خطرا جدا بما أن الحرب بدأت...

"البطل لا يتجنب قط تحدي الخطر" كما قال فريكس في رواية
رجلان وزمرة نساء. سعيدة، سعيدة حياة البحار يا دوتي. وعليه
ثياب رومانسية جميلة هي مشتهى قلب كل امرأة.

قلت لك من قبل يا نورا، أنا رفيعة عتيقة الطراز عن نفسي...

الرومانسية يا دوتي، الرومانسية... لقد سقطت رأسا على عقب
في حبه يا دوتي. بأمانة! لكن لا تقولي كلمة عن هذا. أنت تعرفين
يا دوتي الغريزة أنك صديقتي. ستحب كاترينا بودين أن يكون
لديها شيء تثرثر حوله. وبما أنها لا تملك أي نوع من الثقافة
فستتخذ موقفا غير راقٍ على الإطلاق من أمور مثل هذه...

تظاهري أنك لا تسمعنيها على الإطلاق يا نورا...

بالطبع يا دوتي. سقطت رأسا على عقب في حبه يا دوتي. كان

أشبه بتمثال برونزي جديد تماما نُفخت فيه الحياة. كان يؤبى
عينه مثل ومضة نجم على بحيرة جبلية في ليلة مثلجة. كان
شعره مثل الحرير الأسود... لكن شفتيه يا دوتي. شفاته... كانتا
مشعلتين. مشعلتان يا دوتي. مشعلتان من القبة الحمراء
الساخنة نفسها...

والقصص التي حكاهما لي عن البلاد الأجنبية والموانئ. عن البحار
المضطربة والعاصفة المندفعة تلقي بالزبد الأبيض على رؤوس الأشربة.
عن مصبات الأنهار الرملية اللامعة، في حنايا الألسن البحرية المشجرة.
عن الذرى المكسوة بالثلج والمكتوسة بالريح. عن المروج المنقوعة في
الشمس على حواف الغابات المظلمة... عن الطيور الأجنبية والأسماك
الغريبة والحيوانات البرية. عن القبائل التي تتعامل بالحجارة كنفود.
وعن قبائل أخرى تخوض الحروب للاستيلاء على الزوجات...

- هذا كلام مثقف بما فيه الكفاية يا نورا...

- عن قبائل تعبد الشيطان، وعن آلهة تشتهي الفتيات الحلابات...

- هذا كلام مثقف أيضا يا نورا...

- وعن مغامرات قام بها هو نفسه في مارسيليا وبورسعيد
وسنغافورة...

- أظنها مغامرات مثقفة...

- آه! كنت لأمنحه آخر قطرة من دم قلبي يا دوتي! كنت لأذهب معه
كعبدة إلى مارسيليا، إلى بورسعيد، إلى سنغافورة...

- لكنكما افترقتما في النهاية بعد كل هذا...

- لم يكن أحدهما قد عرف الآخر إلا لفترة قصيرة وقتها، شجار عادي
بين عاشقين حقيقيين يا دوتي. كان هذا كل شيء. كان يجلس
إلى جوارى على الأريكة. وقال: "أنت جميلة يا نوريتا، ضفارك
أكثر تألقا من شروق الشمس على ذرى جبال آيسلندا المتوجة
بالثلج." بأمانة قال هذا يا دوتي. قال: «عينك يا نوريتا أكثر
لمعانا من النجم الشمالي وهو يلوح عند الأفق للبحار وهو يعبر
خط الاستواء.» بأمانة قالها يا دوتي. قال: "وجهك أجمل يا نوريتا
من الأمواج المتوجة بالبياض على شطآن هاواي الناعمة." بأمانة
قال هذا يا دوتي. قال: "جسدك الرشيق أفخم يا نوريتا من نخلة
تطل على أسوار قصر الحريم في جاوة." بأمانة يا دوتي قال هذا.
قال: «جسدك الأبيض كالثلج أرق من الفغار الذي يرشد البحارة
إلى ميناء برايت سيتي والذي يذكرني بالحضن الحبيب لجميلتي
نوريتا.» بأمانة، قال هذا يا دوتي. وعانقني يا دوتي. وكانت شفاته
مشعلتين... مشعلتين... قال: "ساقك البديعتان أكثر تناسقا
يا نوريتا من جسر القمر الفضي فوق خليج سان فرانسيسكو."
وأمسك بسمانة ساقتي...

- أمسك بسمانة ساقك يا نوريتا. والآن دورك!...

- بأمانة فعل ذلك يا دوتي. قلت: "De grâce لا تمسك سمانتي."
فقال: «انحناء سمانتيك أجمل يا نوريتا من دوران التوارس
في أعقاب سقينة.» وأمسك بسمانتي مرة أخرى. قلت: «De
grâce اترك سمانتي في حالهما!» فقال: «سمانتا ساقيك أجمل يا
نوريتا من درب اللبانة، وهو مستقل على ظهره في بحار الجنوب
الغاضبة.» قلت: «De grâce سيكون عليك أن تترك سمانتي
ساقتي في حالهما.» وأمسكت بكتاب كنت أقرأ فيه من فوق حافة

- أف! أف! دوتي. أنت تعرفين كم أنا حساسة. سيرعجنني كثيرا لو سمع أي أحد بترك القصة. بأمانة سأزرجع يا دوتي. أنت صديقتي يا دوتي. ما ثلثيه منذ قليل سيضفي عليّ سمعة فظيعة. أنه جذب سكيننا! أن أفعل شيئا غير حضاري لدرجة أن أضرب أحدا بمقبض وعاء! أف!

- هذا ما أخبرتيني به منذ زمن لا بأس به يا نوريتا، لكنك وقتها لم يكن لديك هذا القدر من الثقافة الذي تمتلكينه الآن...

- إمام يا دوتي. يتطلب الأمر ريفية فظة مثل كاترينا بوبين كي تفعل شيئا كهذا. سمعت ماجي فرانسيس وهي تقول إنها ألقت بماء مغلي على بيج بريان. لا بد أنها امرأة شكسة فعلا. بأمانة!...

- إنه لمن المؤسف تماما أنه لم يدفن السكين حتى مقبضه فيك يا فضلات البحارة. أين قلت إنه جلس بجوارك؟ أه يا ربي الأعلى، لم يكن لدى الرجل التعس عقل كي يقوم بما هو أهل له. من السهل معرفة أنه كان سيظعن في النهاية لو جلس مع نسل متسخي الأقدام. لقد تلقى هدية جيدة بمفارقتك لك، فعلا: يا عش القمل... تظاهري أنك لم تسمحيهما على الإطلاق يا نوريتا...

- والآن يا توم أحمر الشعر، لخاطر الله اسمعني. أنا أصرخ فيك طوال الساعة الماضية وأنت لا توليني اهتماما أكثر مما يمكن أن توليه لبيضة ضفدع. لماذا لا تتق بي؟ ألم تكن أقرب المعارف فوق الأرض؟...

- أقرب المعارف يا أستاذ أقرب...

- قل لي إذا يا توم أحمر الشعر. هل يبلي البوسطجي في حالة

النافذة وصغته بحافته على رسغه...

- لكنك أخبرتيني يا نوريتا أنك ضربتيه بمقبض وعاء، كما فعلت بالضبط...

- دوتي! دوتي!...

- لكن هذا هو ما أخبرتيني به يا نورا...

- *De grâce* يا دوتي...

- وأنه سحب سكيننا يا نوريتا واندفع اندفاعا مفاجئا ليطلعك! ويعد ذلك اعتذر وقال إنها كانت عادة في بلده أن يمسك المرء بسمانة ساق الشخص الآخر كعلامة على الصداقة...

- *De grâce* يا دوتي. *De grâce*...

- وأنكما التقيتما مرة أخرى بعد ذلك، وأنه في كل مرة كانت سفينته تصل فيها إلى برابيت سبتي لم يكن يرفع إصبعه عن أنفه قبل أن يبيح عنك دون إبطاء...

- *De grâce* يا دوتي. "يرفع إصبعه عن أنفه" تلك عبارة غير راقية إطلاقا...

- لكن هذه بالضبط الطريقة التي وصفت بها الأمر أنت نفسك يا نوريتا. وقلت إنه اعتاد أن يكتب إليك من سان فرانسيسكو وهونولولو وباتافيا وسنغافورة ويورسعيد ومارسيليا. وأنت كنت في الحضيض لوقت طويل عندما لم تتلقي خطابا منه، حتى أخبرك بحار أنه مات وشبع موتا بعد أن طعن بسكين في حافة صغيرة في مارسيليا...

بيبي البوسطجي؟ بيبي البوسطجي الآن. بيبي البوسطجي. بيبي البوسطجي بالفعل. صدقتني، هناك مثل هذا الرجل يا أستاذ. يوجد بيبي البوسطجي بالقطع...

يا الله! عسى أن تأتي الشياطين والعفاريت والسبعة وثلاثون مليون جني الذين كانوا حاضرين حول فراش موت البابا ألكسندر السادس وتأخذ بيبي البوسطجي إلى الجحيم معها! ألا أعرف أنه موجود؟ هل تعتقد يا توم أحمر الشعر أنني لا أعرف أن بيبي البوسطجي موجود؟ هل هو في حالة سيئة ذلك الجاهل الحقيير الذي يكسو الرغام شفتيه؟...

بعض الناس يقولون إنه كذلك، وبعض الناس يقولون إنه ليس كذلك. أشياء كثيرة تقال دون أن تكون فيها نبرة من حقيقة. لكن لعله في حالة سيئة. لعله كذلك، صدقتني. لعله، بالتأكيد. رجل حكيم...

أتضرع إليك يا توم أحمر الشعر، أن تخبرني إن كان بيبي البوسطجي في حالة سيئة...

أه! لعله كذلك يا أستاذ. لعله كذلك بالفعل. يمكن أن يكون كذلك يا أستاذ. يمكن بالتأكيد. أه، بالطبع لن أعرف عن نفسي...

أتوسل إليك باسم العادة الأصيلة لثرثرة الجيران، أن تخبرني إن كان بيبي البوسطجي في حالة سيئة... أيها الرجل الطيب توم أحمر الشعر... سأحبك إلى الأبد يا توم أحمر الشعر... أنت تفاحتني الذهبية يا توم أحمر الشعر، لكن أخبرني هل بيبي البوسطجي في

حالة سيئة، أم أنه من المحتمل أن يموت قريباً؟

رجل حكيم...

أتوسل إليك يا توم أحمر الشعر، كرجل تزوج من امرأة - كما كنت أنا نفسي - أن تخبرني إن كان بيبي البوسطجي في حالة سيئة... لعله كذلك...

يا كذز دنياي، يا بياض عيني، يا عون عمري، يا توم أحمر الشعر!... هل تؤمن بالملكية الخاصة على الإطلاق؟... باسم حق كل إنسان في دوام الأساس الطبيعي للزواج، أتوسل إليك يا توم أحمر الشعر أن تخبرني إن كان بيبي البوسطجي في حالة سيئة...

لو كان لدي شيء أقوله يا أستاذ لأخبرتك به قبل أي شخص آخر، لكن لا شيء لدي لأقوله. يتبخر على المرء أن يبقى فمه مغلقاً في مكان كهذا يا أستاذ. ليس هذا مكاناً للثرثرة. حتى القبور لها آذان...

فلتحل عليك سبعة آلاف لعنة الليلة والغد ولعام من الغد، أيها الشيعوي، أيها الفاشي، أيها النازي، أيها المهترق، أيها المسيح الدجال ذو الشعر الأحمر، أيها التعبير الصحيح عن الدم السوقي، أيها البقايا العفنة لمعازيم مائدة ريفية، يا أثر المرض، يا فضلات الذباب واليرقات ودود الأرض، أيها الحقيير عديم الحياة الذي أخاف الموت نفسه حتى اضطر لإرسال مرض سيء إليك، أيها المخلوق التافه، أيها الجلف الفاضل، أيها الوغد الأحمر...

De grâce يا أستاذ. تحكم في نفسك. تذكر أنك رجل مهذب مسيحي مثقف. لو ظللت على هذا الحال ستغدو قادراً عما

قريب على الاستمرار في مباراة سجالية مع تلك الهمجية كاترينا
يودين...

أستاذ، يا أستاذ، رد عليها. أنت تملك التعليم يا أستاذ. رد عليها.
رد على نورا...

تظاهرا أنك لا تسمع الكذا والكذا على الإطلاق يا أستاذ...

الكذا والكذا! الكذا والكذا! نورا جوني تدعوني بالكذا والكذا!
سأنفجر! سأنت...

5

... زجاجة فاسدة، إذا، زجاجة فاسدة. زجاجة فاسدة...

في مرة أخرى رأيتهما هما الاثنين على سطح البيت: باتريك ابن
كاترينا وبيتر ابن نيل...

هل تعتقدان أنني لا أعرف؟

... فعلا يا بريد تيري، لو كلفني الأمر دم قلبي كنت لأحضر
جنازتك. كنت مدينا بالحضور لجنازة بريد...

ستيفن ذو الكلام المعسول يطنطن من جديد، أوليس كذلك؟
يعلم الله أنني أواجه صعوبة في سماع أي قصة هنا. تلك الدودة،
لعتها الله! لم يناسبها مكان غير ثقب أنثى لتدخل فيه! جاءت
مباشرة من قبر ماجي فرنسيس. هذا القبر يعج بالدود. كأنه
ماجى معتادة على هذا بالطبع. فقد كان لديها مسكن قدر فول

الأرض أيضا. التراب على الأرضيات تكوم عاليا كصاري سقينة،
وطبقة من الوسخ على كل قطعة أثاث تحت السقف. لا عجب أنها
الآن في محيطها الطبيعي في الطين. ناهيك عنها هي نفسها.
كان بمقدورك أن تزرع البطاطس في أذنيها، ولم تنظف حذاءها
قط قبل أن تذهب إلى القديس. كان بمقدورك أن تميز لطلحات
التربة الصفراء من البالوعة خارج منزلها، والتي كانت تتركها في
أثرها طوال الطريق الصاعد إلى الكنيسة. ولم تكن تستريح إلا
بعد أن تحشر نفسها إلى جوار المذبح أمام جدران البياعة وتبل
العاهرة الحقيرة. لو كانت ماجي تزوجت بيج بريان لكانا زوجين
متوافقين تماما. فهو لم يغتسل قط، إلا إذا كانت القابلة قد غسلته
عندما وُلد. يقولون إن النظافة فضيلة، لكني لست واثقة تماما من
ذلك. إذ يبدو أن الناس القدرة تتكاثر وتزدهر أيضا. لقد حافظت
على بيتي نظيفا طوال حياتي. لم تمر ليلة سبت في العام دون أن
أغسل وأدك كل شيء داخل الحوائط الأربعة للبيت. حتى عندما
لم يكن بمقدوري الوقوف كنت أفعل هذا أيضا. وكل ما جنيته من
هذا هو تقصير عمري.

ما هذا؟ أي نوع من الضجيج ناك؟ رغم أن أنثى مسدوتان، إلا أنه
ما زال بمقدوره أن يمر إليهما... جثة أخرى. الوياء... اللابوت يبدو أشبه
بلفص دجاج قديم. هذا هو كل ما في الأمر. سيلقون بأي فاشل عجوز
بوقى الآن...

من أنت؟... اللعنة عليك، هلا رفعت صوتك؟ أنثاى مسدوتان... قالوا
إنهم سيضعونك في هذا القبر إلى جوار أمك؟ ومع ذلك أنا لا أميز صوتك.
لكلك امرأة. امرأة شابة... كنت في الثانية والعشرين فقط. أخشى أنك لا

بد ضللت الطريق في «أرض الحيرة»⁽⁷²⁾. لو تمكنت من قلب كفتك من الداخل إلى الخارج، قد تجددين طريقك. كل بناتي متن منذ زمن بعيد... لماذا لا ترفعين صوتك وتقولين لي من أنت؟... هل أنا بحاجة إلى أي مساعدة روحية؟ أي نوع من المساعدات الروحية تتحدثين عنه؟... ما المساعدة الروحية؟...

ابنة بيج كولم؟ بيج بريان عمك! إنه لغباء شديد منك أن تحاولي وتتطفلي على نفس القبر الذي أنا فيه. لدي من أمثالك ما هو أكثر من اللازم حولي هنا. أنا لست حتى قريبة لك من بعيد. اذهبي إلى أمك هناك. سمعتها تولول منذ قليل. كنت عائدة إلى البيت من جنازتها عندما أصابني ما عجل بموتي. كان المطر يهطل من قلب السماء طوال اليوم... أفا ابتعدني عنى! وباء التلال المنخفضة⁽⁷³⁾. ابقِي بعيدا، أو ليعينك الله. كان بيت عمك بيج بريان مكانا غير مضياف للزائرين.

ماذا قلت الآن؟... كنت تعلمين حق العلم كم كان مكانا غير مضياف... اختلفت معه؟... لم تقتربي من بيته طوال العام الماضي؟ لم تخسري الشيء الكثير يا أختي العزيزة... يمكنك أن تقولها مرة أخرى يا أختي العزيزة. أليس هذا ما قلته منذ قليل؟ لم يرش هذا الإنسان قطرة من ماء على جسده منذ ولد... أتعلمين؟ أنت محقة في هذا: كان أبوك رجلا نظيفا جدا. لم يكن ليخطر ببال أحد أنه قريب لهذا الوغد الآخر. اغتني أبوك بأمك. كان رجلا رقيقا وطيبا جدا... زرت بيج بريان منذ حوالي

العام... سألتيه إن كان بمقدورك أن تقدمي له مساعدة روحية؟ آه، لقد أسأت لنفسك تماما بعرض أي نوع من المساعدة على ذلك البائس الفقيح... آه، فهمت، ذهبت إلى هناك لصالح (فيلق مريم)⁽⁷⁴⁾... عندك حق، لعله لم يتل صلاة واحدة منذ اليوم الذي انزلق فيه إلى العالم... أهدأ ما قاله لك؟... قال لك أن تبطلعي مساعدتك الروحية... وأخبرك أن الفيلق عبارة عن ثلثة من الحمير! هذا الرجل الذي لا يخشى الله ولا مريم العذراء...

البائس مريض أخيرا. فلأخذه الشيطان، لقد آن أوانه... أهدأ ما قاله؟ : «أعتقد أنني سأقوم بجولة هناك في أي يوم من الآن... وأضمن لك هذا القدر: ستكون هناك مشاجرات في تلك الحفرة... لو كانت بغلة بودين...» هل أنت واثقة أنه لم يكلم ما كان يقوله؟...

ألم أخبرك بالفعل أنني لا أريد... ماذا تسمينها؟... مساعدة روحية... نيل تحدثت عن بناء بيت جديد يسبق من الإردواز؟... يكسرون الصخر من أجله. يا ربي! هذا ما قالته الحدياء الحقيرة: أنه يجب عليهم القيام بذلك، بما أن الطريق الجديد يُمد الآن حتى البيت. آه، العاهرة الحقيرة!... "وأنة سيكون هناك قس في البيت قريبا، ليكن الله في عوننا." آه من تلك المومس!... ساقاها تخلاها؟ سيكون خيرا لها لو لم تتمكن من السير على الطريق الجديد... الأشياء التي لا تعرفينها الآن، ستعرفين كل شيء عنها في غضون أسبوع. لكنهم كانوا خائفين جميعا من الاقتراب من بوبك.

ماذا قلت؟... أن جاك الفقى مريض جدا. ذلك هو مرض الموت الآن.

72- "أرض اللبنة" قطعة من الأرض يقال لها تجلك تمتل طريقك لو طالتها. والعلاج هو أن تلبس

مسطك من الداخل إلى الخارج. (من هوانش الترجمة إلى الإنجليزية)

73- تفتي الفيتود في قرية سيدال... د. تشارلز ماكون، الذي يشغل موقعا منصب المسؤول الطبي للمفظمة... يسمي للقلب على قضي الوباء... «(أيريش تايمز، 14 نوفمبر 1942). (من هوانش الترجمة إلى الإنجليزية)

74 - منظمة كاثوليكية علمانية تأسست عام 1921. (من هوانش الترجمة إلى الإنجليزية)

معركة بقرات بلا قرون. كلهن قُشلة... ستعرفين المزيد في غضون أسبوع...

إنّما وصل خطاب؟... لم تقل لمن ستترك المال... أوه، وكنت لباتريك أيضا... ألم تكن العاهرة الوقحة تكتب لبيت بيج بريان، وهي لا صلة لها ولا علاقة بها... قالت فعلا إنّها في حالة سيئة... وأنها قد كتبت وصيتها. يا ربي!... وأنها قد أعدت ضريحا في مقبرة بوسطن. ضريح! مثل الذي لدى الإيزل. ضريح فوق أختنا باهية. خبيها الله! ألم يكن بمقدورها أن تصنع شيئا أكثر تواضعا من ضريح!... وضعت مالا في أحد البنوك كي تضمن الصيانة الدائمة للضريح. يا الله، الآن... وخصصت مالا للقديسات! أغان ونصف من الجنيهات من أجل القديسات! أغان ونصف من الجنيهات! لم تعد الوصية تساوي الكثير الآن. وستسقط عائلة بيج بريان في أمريكا بقيتها. في الحقيقة، لم يعد يهتمي الأمر. لا بد أن نصيب نيل سيكون ضئيلا الآن. لن تغني «اليانور ذات الأسرار» بعد الآن، وهي صاعدة في طريقها مرة بيتنا...

تظنين أن باتريك لم يرد بخطاب على باهية. إنه مغفل حقيقي إذا لم يفعل!... هلا توقعت عن إزعاجي حول كيف ستعرفين المزيد في غضون أسبوع! ماذا يعود عليّ بالنفع مما ستعرفيه في غضون أسبوع؟... الأستاذ الصغير لا يكتب خطابات لأحد الآن... مشغول جدا... ماذا قلت إنه يفعل؟... يدرس النموذج. هذا كلام غريب فعلا... براهن على خيول السبق. أوه، أنت لست جادة في حديثك! لا يفعل شيئا في المدرسة غير القراءة عنها... انقلب القس ضده. يا إلهي! كنت أظن لهما الاتقان يخرجان للشمسية سويا. أم أن هذا لم يكن صحيحا؟ لا بدغي للمرء أن يصدق كلمة واحدة يسمعها في هذا المكان... ألقى عظة

إنجيل القديس يوحنا. ستحصل نيل وابنة بيج بريان على كومة أخرى من المال... لم تسمعي أي شيء عن إنجيل القديس يوحنا... لم تعرفي أن جاك كان بحاجة لمساعدة روحية. هو بحاجة لكل مساعدة يمكنه الحصول عليها الآن، الرجل المسكين...

تقولين إن بارتلي ذا الساق السوداء جرى مسحه بالزيت... وكيت الصغيرة وسارة الثرثرة في حالة سيئة جدا... لا تتحركان خارج البيت على الإطلاق الآن. لن تقوما بإرقاد أو ندب أي جثة أخرى من الآن فصاعدا، إنّا...

وضعوا الصليب فوق قبر مارتين ني الوجه المجذور منذ بضعة أيام... وفوق توم أحمر الشعر أيضا. بالطبع، لم يمر وقت طويل على ذلك الفاضل الأحمر هنا... هذا ما سمعته: أن نيل نصحت باتريك ألا يضع صليباً من رخام كونيما را فوقي... ستعرفين كل شيء عن الأمر خلال أسبوع. شكرا جزيلا!... آه، فلتأكدني يا أختي العزيزة أن هذا حقيقي. حري بها أن تقول هذا - تلك العاهرة - وابنة بيج بريان وابنة نورا جونتي سيحطانها على ذلك... بيج بريان قال: «لو كنت مكان باتريك، لمنحت هذه الشمطاء الضئيلة الثرثرة ما يكفيها من رخام كونيما را... كنت لأبش جثتها من تلك الحفرة... وألقي بها داخل كونيما را... كنت لأضعها على أعلى قمة من الحجر هناك... مثل الرجل الموجود على العمود الكبير في دبلن... هذا مخيف فعلا، رغم أنه على حافة الموت، إلا أن أنفاس الله لا تزين فمه... اسمعي، أقول لك، لا أريد ولا أحتاج أيا من مساعداتك الروحية...

ابنة نورا جونتي ونيل وابنة بيج بريان يتحدثن سويا من جديد؟ من السهل معرفة ذلك. يا الله! وكأنه لم تحدث أي معركة بينهن أصلا. فقط ذلك التمام ابن باتريك لاري يتقوه بالأكاذيب... صدقت يا أختي العزيزة.

يعتمد على أي أحد. ذلك هو الرجل الذي لم يكن ليستغرق وقتاً طويلاً في كتابة خطاب قوي مقابل سبعة شلنات وستة بنسات. لكن ابنة نورا جوني لن تتحمل فراق حتى نصف قرش... سمعت أن باتريك كان خائر العزم بشأن الوصية؟... هذا مزيد من خداع نيل. بالطبع لا تعتقد أن لديها موانع من خداع ابني في الوقت الذي تقوم فيه بخداع زوجها نفسه... «باتريك هذا صار بخير منذ ماتت أمه». هذا ما سيقوله بيج بريان... هلا توقفت عن الحديث عن مساعداتك الروحية!...

مورين ستعود إلى المعهد من جديد؟ ستستمر على نحو طيب هذه المرة. أوه! هي لم تعاد إلى البيت في المرة الماضية؛ بل عادت من نفسها. المسكينة شعرت بالحنين إلى الديار! لا تعرفين ماذا ستكون؟... معلمة كما أظن... هذا هو كل ما سمعته عنها؟...

باتريك لديه الكثير من الماشية في الأرض. ليزده الله قوة!...

غادر توماس الداخل بيته؟... السقف الراشح جعله يرحل... كان ينبغي أن يجعله يرحل منذ زمن بعيد. هذا ما قاله: «أنسم بالله أن القطرة القذرة كانت تصفعني أحياناً في فمي، وبعد ذلك في عيني، مهما كان المكان الذي أنقل فيه السرير من البيت. أعتقد أنني سأذهب لأحتك بعليّة القوم لما تبقى من حياتي». جاء إلى بيت باتريك لليلتين وبعد ذلك انتقل بشكل دائم إلى بيت نيل؟ إنّا فقد تركت الأرض لنيل... لا تحرقين إن كان قد وُقِعَ تنازلاً عنها لها أم لا. فقط مانينون المحامي من يمكن أن يعرف هذا!... لا يهتمي إطلاقاً ما ستعرفيه أكثر في غضون أسبوع بالضبط! بل يهمني ما تعرفيه الآن!... توماس الداخل قال إن: «نيل أطلب بكثير من كاترينا. أفضل أن أبقى في بيت نيل حيث سأحتك بعليّة القوم. لا أحد من عليّة القوم يقترب من بيت كاترينا.» ستكون رأس

عنه... بالطبع سيعرف أي شخص من كان يتحدث عنه دون ذكر اسمه أو لقبه... قال: «يضيعون وقتهم ومالهم على المقامرة، والتسكع مع النساء السكيرات في برابيت سيتي... سمعت عن رجل من هذه الأبرشية شرب اثنتين وأربعين قنحاً، وعن نساء نيمات يمكنهن أن يجرعن برميلاً صغيراً من البراندني دون أن يضطرون لوضع البودرة على أنوفهن بعدها... يا ربي لو عرف بأمر نورا جوني!... هناك كلام يدور عن أنه سيتخلص من الأستاذ الصغير... أه، ما نحن فبدأ من جديد! ستعرفين المزيد في غضون أسبوع... ستعرفين أشياء في غضون أسبوع، بالفعل يا أختاه، أه!...

رباه! الأستاذ الصغير نسي أن يرسل الخطابات الأمريكية التي كتبها لباتريك... وجدتها زوجة كيني محشورة في بعض الملابس القديمة التي تركها خلفه عندما غير مسكنه... لا أصدق هذا! أخبرت نيل بكل ما كان في الخطابات!...

هناك شكل ما من النحاس لدى باتريك: لماذا لم يأخذ الخطابات بنفسه ويضعها في صندوق البريد؟ هل تظنين أنني كنت لأترك أصلاً خطاباتي خلفي مع الأستاذ الصغير، أو مع الأستاذ الكبير؟ المعلمون أشخاص غريبون. كان واضحاً دوماً لي أن لديهم في أذهانهم مشاغل أكثر من خطاباتي. ألم أر الأستاذ القديم بينما كان يكتب لي وهو يتحرك كالملك من المنضدة إلى النافذة ليحاول أن يلمح الأستاذة وهي تخطر على الطريق!...

تقولين إن الأستاذة لم تكن لتكتب خطاباً لأي شخص أيضاً؟... مشغولة أكثر من اللازم برعاية بيبي الموسطجي، العاهرة اللصّة! أه، فقط لو كان باتريك قد أخذ بنصيحتي وذهب إلى مانينون المحامي، لما كان عليه أن

ابن رود إند حذر لورد كوكتون كي لا يذهب للصيد معها بعد ذلك إلا إذا كان هو نفسه معها... ابن جون ويبي سمعه يقول هذا له...

ما هذا؟ أين أنت؟... إنهم يحملونك بعيدا... يعرفون أن هذا ليس قيرك... حظا سعيدا لك يا صديقتي! رغم أنك قريبة لبيج بريان إلا أنه كان من الطيب الحديث معك. لست مثل ذلك الفاشل عديم النفع، توم أحمر الشعر...

6

- ... كنت أعطي كلمة مقابل كل قذح لمتعلم الآيرلندية المتحمس...
- ... كثيرا ما أخبرتي الجزار الكبير أنه يكن احتراما كبيرا لي بسبب الاحترام الذي كان يكته والده لوالدي...
- ... واهنت حتى آخر شلن معي...
- أتساءل إن كان الأستاذ الصغير راهن حتى آخر شلن معه الآن...
- *C'est l'histoire des poules, n'est-ce pas?*⁽²⁹⁾
- ... بأمانة يا دوتي. عقلي في حالة كسل بالغة في الفترة الأخيرة. أنا في حاجة للثقافة مثلما يحتاج كوز الذرة لضوء الشمس. وليس هناك أي ثقافة على الإطلاق هنا الآن. ينبغي أن يخجل الأستاذ الكبير من نفسه. عندما ينزل امرء إلى القبر ينبغي عليه

75- هذه قصة لتاج، اليس كذلك؟

توماس الداخل الصغيرة كراس السمكة متعة للناظرين بالنسبة لعلية القوم فعلا!... «علية القوم لديهم أفضل التبغ ولديهم نساء جميلات من حولهم، قريبا ستملأ هذه العاهرة الحقيرة بطنه بالنساء، ولو شعرت بأي أعراض مرض تنتابها ستأتي بإنجيل القديس يوحنا من القس وسيكون توماس الداخل أول من يخرج من الباب. من المؤسف أنه لا توجد روح طيبة مازالت حية فوق الأرض لتحذر ذلك البائس المسكين! كم تغير العالم! توماس الداخل الحقيير يحتك بعلية القوم...

لورد كوكتون جاء للصيد السمك في أرض فيل كل يوم هذا العام. تمكن من الوصول بسيارته حتى باب بيتها... والقس يأتي بسيارته إلى باب بيتها أيضا... رياه! لورد كوكتون أخذ تلك الشمطاء الشعثاء معه في سيارته... أخذها لجولة في ميناء هيدلاند لتشم الهواء. إن لديه احتراما قليلا لسيارته كي يقل فيها مومسات مثلها...

وأخت القس ذهبت إلى هناك للصيد الطيور أيضا. أكانت ترتدي بنطلونا أم فستانا إذا؟... بنطلون... هي ولورد كوكتون كانا يصيدان معا. ليس من الغريب أن القس لم يوقفهما أظن أن لورد كوكتون نفسه مهرطق أسود. كان هناك كلام كثير حول أنها ستتزوج من معلم بحيرة ديربي... آه! ها قد عدنا! ستعرفين بالضبط في غضون أسبوع! سيكون علينا أن نحصل لك على إذن بالعودة فوق الأرض من جديد لمدة أسبوع...

تعتقدين أن الزواج قد ألغى؟ كنت أظن أن معلم بحيرة ديربي رجل محترم وأنه لم يلمس قطرة شراب... مانا قلت؟ أنثاي مسدودتان... أنها تصاحب باستمرار ابن رود إند؟ أن أخت القس تصاحب باستمرار ابن رود إند! والله إته لعالم غريب!...

أن يترك تفاهات الحياة العقيمة فوق الأرض خلفه ويستخدم وقته لتطوير عقله. كثيرا ما أقول هذا للأستاذ لكن بلا فائدة. لا يستطيع الحديث الآن إلا عن الأستاذة وبيبي البوسطجي. لا بد من عمل شيء لإنقاذه. بأمانة يا دوتي. نحن لا نملك الكثير من الأشخاص المثقفين حتى نتمكن من تحمل كلفة الاستغناء عن أي واحد منهم. لا بد من منعه من محاكاة شتيمة وسباب كاترينا بودين. كلمات مثل "مومس" و"عاهرة" و"وجه المخاط" على شفثيه دائما الآن. لكاترينا تأثير سيء عليه. هذه المرأة مكانها هناك في قفار مقبرة النصف جنيه...

يا نوراً الجريانة...

تظاهري أنك لا تسمعيها على الإطلاق يا نوريتا...

بالطبع يا دوتي. أنوي المضي قدما بالاعتماد على نفسي وإنشاء جماعة ثقافية في هذا المكان. أعتقد أنه يمكن عمل الكثير لتحسين عقول الناس هنا ومنح مشاعرهم الثقافية اتساعا وأفقا. ستجري مناقشة مجموعة واسعة من الموضوعات، من المسائل السياسية إلى الاتصالات والاقتصاد والعلم والتعلم والتعليم وما إلى ذلك. لكننا ستناقش بأسلوب صحيح وأكاديمي، بغض النظر عن الجنس أو العرق أو الدين. لن يُمنع أي شخص مقبول في هذا الجماعة من التعبير عن آرائه، والمؤهل الوحيد للعضوية سيكون حب الثقافة...

هل تعتقدين أنني لسبب ما كنت أفكر في الثقافة عندما أمسكت بمقبض الرعاء وضربت به...

De grâce يا دوتي. "الرب يغفر الخطايا الكبيرة، لكن نحن

من لا نستطيع أن نغفر لأنفسنا الخطايا الصغيرة." كما قالت إيوستاسيا لمدام كروكشالك عندما كانتا تتقاتلان حول هنري. سنسعى لبث المعلومات عن جوانب الحياة الأخرى - الشؤون الخارجية على وجه الخصوص - وبقيامنا بهذا تمنح مجموعات مختلفة من الناس فهما لبعضهم البعض. سنعقد بانتظام نقاشات ومحاضرات وسهرات وطلبات استجواب وجلسات حوار ودورية محترمة وندوة ومناقشة ومدرسة صيفية وعطلات نهاية أسبوع وطلب معلومات من أجل مناطق النصف جنيه. ستكون هذه الجماعة عوناً عظيماً لقضية الثقافة والسلام واسع النطاق. هذا النوع من الجماعات يُسمى بالروتاري. والأشخاص المثقفون مثل الإيرل يكونون مشتركين في الروتاري...

والبحارة...

تظاهري أنك لا تسمعيها على الإطلاق يا نوريتا...

بالطبع يا دوتي. سأفعل. لكن هذا مثال جيد على نوعية الآراء التي يجب محوها عن طريق الضوء الساطع للروتاري. كاترينا ليست الشخص الوحيد الذي لديه عقلية كهذه. لو كانت، لما أهتم المرء، لكن هذا التصور شائع إلى حد كبير. البحارة جماعة مثيرة للاهتمام. فقط العقل الضيق غير المثقف هو من ينتقدهم...

لولا تلك السكاكين التي يحملونها يا نوريتا...

De grâce دوتي. هذا تصور آخر لا بد من محوه...

من أيضا سيكون في الروتاري يا نوريتا؟

لست متأكدة تماما بعد. أنت يا دوتي. الأستاذ الكبير. بيتر الخضار.

الدينياصور... لن أستمع. حلم الدينياصور. هراء جويسي⁽⁷⁶⁾ فعلا.
أنت عينة منحطة جدا من البشر... لن تُقبل حتى تحفظ كل كلمة
من الإحدى وستين عظة عن ظهر قلب...

- أقترح قبول الرجل الفرنسي. إنه متحمس للأيرلندية. وهو يتعلم
اللغة بسرعة شديدة...

- إنه يكتب أطروحة عن الحروف الساكنة الخارجة من ثنابا الأنياپ
في لهجة أهل النصف جنبي. ويقول إن لنتهم صارت ثلثة الآن
بدرجة كافية للقيام بدراسة شاملة لأصواتهم...

- يعتقد المعهد أنه قد تعلم الأيرلندية أكثر من اللازم - من النوع
الذي لم يصبح ميتا خلال الفترة المحددة- وهناك شك في أن
بعض كلماته «أيرلندية إحيائية»، عليه أن ينسى كل مقطع قبل
أن يكون مؤهلا للقيام بالدراسة على نحو صحيح.

- كما يتوي أن يجمع ويحفظ كل الفلكور الضائع حتى تتمكن
الأجيال القادمة من الجثامين الغابلية من معرفة نوعية الحياة
التي كانت في جمهورية الجثامين الغابلية في الماضي. ويقول
إنه لا يوجد حكاء قصص تقليدي مثل كولي في روسيا الآن. وإن
يكون هناك مثيل له مرة أخرى. ويعتقد أنه سيكون من السهل
إنشاء متحف فلكور للمقبرة وأنه لن تكون هناك صعوبة في
الحصول على منحة للقيام بهذا...

- أه! لكن ألم يكن ذلك الشخص البدين يحارب ضد هتلر...

76- ندمع أوكاين هذه العجاءة في حادثة في دنين، عندما كتبت رواية طين المقابر لأشتر مسألة في
«رواية إيريش برون: بهذا للشخص المدعو أوكاين. إنه لغرق حقيقي. هراء جويسي خلسة لحصص
جويسي. (من مؤامرات الترجمة إلى الإنجليزية)

- الشاعر...

- ليخوزقه الشيطان، ذلك الشقي الصفيق...

- ... لكنك لم تقرئي (النجوم الذهبية) يا نوريتا؟

- ممنوع الاستئناءات الجهتية أيها الرجل العجوز! لن تُقبل.
بأمانة! أنت منحط!...

- ينبغي السماح لبريد تري بالانضمام للجماعة. لقد ذهبت إلى
السينما مرة في برايت سيتي...

- صدقوا إذا، لقد ذهبت إلى هناك مع الفتى، في المرة التي اشترينا
فيها المهر...

- انتظروا الآن. أنا كاتب...

- لا يمكن السماح لك بالدخول. لو انضمت ستمزق المقبرة
نصفين. فقد أهنت كولم كيبي.

- ... لا فائدة من قرائتها. ولن أستمع إلى قصيدتك غروب الشمس.
بأمانة! لن أسمعها... لا فائدة من الضغط عليّ؛ لن أستمع. لديّ

عقل ليبرالي جدا، لكن مع ذلك ثمة مستوى ما من اللياقة يجب
الحفاظ عليه... أنا امرأة... لن أستمع. بأمانة... لن تُقبل. كتابتك

جويسية الطابع... لن تغير رأيي. لن أستمع لغروب الشمس.
لديك ذهن منحط كي تكتب شيئا كهذا... وتعمل الآن على حلم

- سيُقبل بائع الكتب. لقد تعامل مع آلاف الكتب...
- ووكيل التأمين. فقد اعتاد على حل الكلمات المتقاطعة...
- وستيفن ذو الكلام المعسول. كان مرئاد جنازات جيدا...
- ... ولماذا لا تُقبل؟ أليس ابنك متزوجا من سواداء! والسود جنس متقف، نوعا ما.
- على الأمل هم أكثر ثقافة من الطلاينة الذين تزوج ابنك منهم...
- ينبغي قبول كاترينا بودين. لديها مائدة مستديرة في البيت...
- وخزانة نورا جوني...
- وهي تعرف مانيون المحامي جيدا...
- وابنة ابنتها ستكون معلمة...
- وينبغي قبول ابنة بيج كولم. كانت في فيلق مريم. وهي تقدم المساعدة الروحية للناس...
- من السهل معرفة ذلك، مع كل ثرثرتها! لم تتوقف عن الكلام منذ أن أَلقت مراسلتها هنا...
- أنت تهين...
- لو هذا هو الحال، فينبغي قبول مديرة مكتب البريد. فقد كانت مسؤولة المعلومات والتحريات في فيلق مريم، ولا يمكن أن تكون إلا محشوة تماما بالثقافة بعد كل ما قرأته...
- وكيثي أيضا. كان ابنها وكيل عريف بحرية في الفيلق، وكان لديها مؤسسة ائتمانية هي نفسها...

- فليُقبل...
- أشكركم جميعا، *Merci beaucoup mes amis!*...⁽⁷⁷⁾
- هتلر ضد الروتاري...
- لو كان، فلنتهيبوا أنتم والروتاري خاصتكم إلى الجحيم!
- ... رجل شرب اثنتين وأربعين قدحا! في الحقيقة لن تُقبل، ولا في (مدمنو الكحول المجهولون) ولا في (ماونت ميلاري)⁽⁷⁸⁾. لن تُقبل في أي مكان غير "السكراري المحدودون"...
- صدقوا إذا، شربت اثنتين وأربعين قدحا...
- لكن نورا جوني كان من عاداتها شرب ضعف هذا القدر في الخفاء...
- اخرس أيها الشقي الحقيرا
- بالطبع من المستحيل أن تقبلي أي شخص من نسل ذوي الأذن الواحدة. لو فعلت، سَطَّعني...
- ... كيف يمكن أن تُقبل في الروتاري وأنت لا تعرف جداول الضرب؟...
- لكنني أعرفها. اسمع. اثناسر في واحد تساوي اثنا عشر. اثنا عشر في اثنتين...
- ... كيف لك أن تُقبل وأنت قتل نفسه كي يذهب لرؤية كونكانون؟ كانت هذه مينة غير مثقفة تماما...

77- يا استغفاني، شكرا جزيلًا...
78- دير سينترسدالي في مقاطعة وونرفورد. (من هومش الترجمة إلى الإنجليزية)

- والرجل الذي هناك: «الوسيلة المباشرة لالتواء الكاحل»...
- وكاترينا بودين: "جمال بيح بريان"...
- آها بريان البائس ذو القدمين المسطحتين...
- ثم توم أحمر الشعر...
- لن أقول شيئا، لن أفعل بالفعل. لا شيء...
- ستلقي محاضرة عن أنبياء قرية دوناه...
- وأنت، ستكون محاضرتك عن تلال قريتك الموبوءة بالبراغيث...
- ... بأمانة يا دوتي، لم يمر يوم قط دون أن أكون حريصة على الثقافة. كل من يقول لك إنني بدأت هنا هو شخص متحامل، أؤكد لك. عندما كنت فتاة صغيرة في برايت سيتي، وبمجرد عودتي إلى البيت من الدير وانتهائي من عشائني كنت أخرج على الفور مرة أخرى بحثا عن النشاط الثقافي. كان هذا عندما قابلت البحار...
- لم تخبريني قط يا نورا أنك كنت تحضرين دروسا في الدير...
- *De grâce* يا دوتي. كثيرا ما أخبرتك، لكنك نسيت. لا بد أن تدركي أنني كنت أضع اللمسات الأخيرة لتعليمي في برايت سيتي، وكنت مقيمة عند قريبة لي، أرملة اسمها كوريش...
- أنت كاذبة لعينة يا نورا متسخة القدمين. لم تكن قريبة لك. كنت خادمة عندها. كان من العجب العجاب أن تسمح لك ولمخزوتك من البراغيث بالدخول إلى بيتها أصلا. لكن بمجرد أن علمت بأمر تسكعك مع البحارة جلدتك بعود من نبات القراص على مؤخرتك وأعادتك إلى جورت ريبوك، جورت ريبوك أرض البط والبرك

- ورود إند. وضعت امرأته العجوز نعهه في سيارة نقل الموتى خوفا من أن تهتز أعضاؤه المسكينة...
- فليكن كما تقول...
- كان كل من في بيت رود إند في الفيلق...
- وابنه يخرج مع أخت القس...
- أهل بيته كلهم سرقوا عشبي...
- ومطرقتي...
- أنتم تهيئون الدين. أنتم مهرطقون سود...
- ستقبل. كان الجزار الكبير في جنازتك، أليس كذلك؟...
- سيكون توماس الداخلة عضوا جيدا في الروتاري، إنه صديق للثقافة.
- وبيح بريان. لقد ذهب إلى دبلن...
- ونيل بودين، فهي تقابل الكثير من ناس الروتاري. لورد كوكوتون...
- أطلب الإذن بالحديث. الإذن...
- سيلقي جون ويلى المحاضرة الأولى للروتاري. «قلبي»...
- ثم كيتي: "تسليف النقود"...
- ودوتي: "سهول شرق جالواي الجميلة"...
- ومارتين ذو الوجه المجدور: "فروح الفراش"...
- ثم الأستاذ الكبير: «بيلى البوسطجي»...

- ... الخاصة...
- ابتعد عنى! وحق بلوط هذا الثابت، لن تنزل فوقى. سأنضم إلى الروتاري...
- ... السلام هو ما أريده، وليس الصحبة. سأنضم إلى الروتاري...
- ... ستؤذيني. وأنا بالفعل لدي قروح قراش...
- قلبي غليل...
- ... ابتعد خارج هذا القبر. لن أخبرك بأي شيء. للقبور أذان. ألا تعتقد أنه من السهل عليك تمييزنا جميعا؟ لدينا صلبان فوقنا. ومع ذلك، فقد حفروا قبرك وتمادوا في الاقتراب نحوى. آه! فلتذهب هناك نحو كاترينا يودين. هناك قرب كاترينا!...
- إنها تحب الترحيب بكل جثة جديدة. ستمنحك الكثير من الرثرة...
- إنهم يلقون فوقها بأي شخص لا يستطيعون العثور على مكان له في المقبرة...
- لا بد أنك قد وطأت على أرض التيه حتى أنك لم تذهب إليها. لا صليب فوقها...
- ولن تُقبل في الروتاري...
- يا توم أحمر الشعر! يا توم أحمر الشعر! يا مارجريت! يا كيتي! يا بريد تيري! يا مارتين ذا الوجه المجذور! يا جون ويلي! يا توم احمر الشعر! توم احمر الشعر لديه شيء يقوله! سأنفجر!

- والبراغيث والأقدام النتنة. لم أكن لأهتم، لكن أن تقول إنها كانت تذهب إلى المدرسة في برأيت سيتي...
- تظاهري أنك لا تسمعيها على الإطلاق...
- يا خبر يا دوتي، هذا القطاع لا حق له في الكلام إطلاقا. راقدة هناك دون صليب أو نقش فوقها، كخطاب مرسل دون عنوان...
- كوني شاكرا لأخيك العبيط يا نورا...
- ابنك في الديار ولا يستطيع تحمل أن يدفع التأمين الذي قمت به على توماس الداخل. وبمجرد أن عرف توماس بذلك، غادر بيتك وذهب إلى نيل...
- آه! آه!...
- سواء آه أو أوه، تلك هي الحقيقة. لقد ترك ابنك باتريك أرضه لنيل، وكل الماشية في حيازتك الآن هي ماشية مستأجرة من نيل...
- أوه! أوه! أوه!...
- ولو تصادى أكثر من ذلك في الطريق الذي يسير فيه، سيضطر إلى بيع الأرض. لا يستحق الرجل زوجة إذا لم يستطع التكفل بالحفاظ عليها. لقد أعطيته ابنتي لأنني لم أرد أن أكون عقبية في سبيل حب جدير بالشفقة. وكان ذلك هو السبب الوحيد لحصوله عليها. كنت دائما رومانسية. لكن سواء كنت رومانسية أو لا، لو عرفت فعلا ما كنت مقبلة عليه، لو عرفت فعلا ما كانت ابنتي مقبلة عليه...

... ما هذا؟... جثة أخرى... جثة جديدة... لن أقبل بأي تعامل معك في هذا القبر. قبر الميت قلعته. يوجد هنا احترام للملكية

I

أنا نغير المقبرة، فليسمع صوتي، لا بد أن يُسمع...

التراب الأحمر المحروق غير مرحب بحواشيه من الثلج، وقلب الطين حامض الطعم، لأن هذا هو مرج الدموع...

حُلة الربيع الجديدة يجري تفصيلها كي تزين سطح الأرض، والسيقان الصغيرة الرقيقة للذرة التي تأخر نضجها، والابتساماة الخضراء الباهتة التي تتقافز في كل أنحاء الطين العاري؛ هما الخيط العريض في هذه الحُلة، وأشعة الشمس -مثل الذهب الخالص على أكتاف السحب- هي حواشيتها. وأزرارها هي عنقايد أزهار الربيع في أذرع السياجات المرحبة، وفي ثنايا كل سور، وفي ظل كل جرف، بطانيتها هي أغنية الحب التي تشدو بها القُبُرة، تنساب نحو الحارث من القبة الزرقاء عبر ضباب أبريل الخفيف، والأبيكة التي صارت قيثارة رقيقة مع الأغنية المرافقة من طيور الشحورور. أما الوثبات المرحبة للصبي الذي نال مكافأة عثوره على حمل ولید فوق المرتفعات الوعرة، والنخعة البيهجة للمراكبي الذي يرغع شراعه وسط رغاء الموجبات المرحبة، فهي خيوط الأمل التي تخطيط جمال العين والقلب الزائل وتربطه بالمجد الأبدي،

وهو الناحية المقلوّبة من هذا الرداء الفاني المكون من الأرض والبحر والسماء...

لكن الخيوط التي يمررها الحائك عبر عين إبرته هي الآن قوس قزح شاحب، ومقصات العاصفة تمزق الأزرار، القماش يلوكه المنجل القاطع بسلاسة، والحاشية الذهبية تنهراً في الحقل حيث تتساقط بذور الذرة من رؤوسها...

العاصفة السحرية تهدر في الحظيرة وتكتسح كل قرن ذرة وحزمة شعير وقشرة تين بقوا من حصاد العام الماضي.

ثمة رجفة في أغنية الفتاة الحلاية بينما تعود من مرعى الصيف، فهي تعرف أن القطيع سينتقل قريباً إلى مكان الحلب القديم قرب البيت...

لأن الربيع والصيف قد انسلا بعيداً خلصة، اختزنهما السنجاب في جحره أسفل الشجرة، لقد اختفيا على أجنحة العصافير ونور الشمس...

أنا نغير المقبرة، فليسمع صوتي! لا بد أن يُسمع...

2

... "هو-مو-رو، يا مورين، بأحزمتك وأمتعتك

حبيبتي في كومة الشعير..."

ما هذا؟ بارتالي ذو الساق السوداء، أقسم أنه هو، وهو يغني لنفسه.
مرحباً بك يا بارتالي!

- "هو-هو-رو، يا مورين، بأحزمتك وأمتعتك..."
- أقسم أنك بخير ومرح كما أنت، يا صديقي الطيب أسود الساق...
- تسميا بدموع وجروح المسيح، من يخاطبني؟
- كاترينا، كاترينا بودين...
- وحق دموع وجروح المسيح، كاترينا، سنكون جارين مرة أخرى إذا...
- إنهم لا يبدونك في المكان الصحيح يا بارتلي.
- وحق دموع وجروح المسيح يا كاترينا، بالطبع لا يهم المرء أين ستلقى كومة عظامه. "هو-هو-رو، يا مورين..."
- يبدو أن الموت لم يزعجك كثيرا يا بارتلي. ماذا كان سبب موتك؟
- وحق دموع وجروح المسيح يا كاترينا، ألم تسمعي أن الجواد لا يمكنه الحفاظ على سرعته للأبد، كما قال بيج بريان عن...
- أهذا ذلك السليط المتبحر!
- لم يكن هناك سبب على الإطلاق، غير أنني رقدت دون أثر من حياة. وحق دموع وجروح المسيح، لكن أليس هذا سببا كافيا؟! "هو-هو-رو..."
- كيف يبدو الآن هناك بالأعلى يا بارتلي؟...
- وحق دموع وجروح المسيح يا كاترينا، تماما كما رأيتهم دائما، يكسبون واحدا ويخسرون واحدا ويبقى واحد بين بين. أليس هكذا تكون الأمور وهكذا يجب أن تكون، مثل بندقيّة تُحشى ويعد ذلك تُطلق، كما قال بيج بريان...
- أه، صدق إذا، هو مطلق النار، فعلا...
- لم يخرج من بيته يا كاترينا، منذ ذهب لرؤية توم أحمر الشعر بعد دهن جسده بالزيت⁽⁷⁹⁾. أقعده الحزن بعد توم...
- كانا متوافقين تماما، النحاس أحمر الشعر والباش القبيح ذو الأنف السعال...
- كنت أنصت إليه تلك الليلة وهو ينصح توم هناك في الحجرة. قال: «وحق دموع وجروح المسيح، إذا كنت ستقوم بجولة هناك، يا توم أحمر الشعر، وإذا قابلتها في جولتك، فأحرص ألا تخبرها بشيء، إذا لم تكن قد تغيرت كثيرا، ستبحث عن النسيمة...»
- لكن من هي يا بارتلي؟
- وحق دموع وجروح المسيح يا كاترينا، لا يصح لي ولا يليق بي أن أجيب على سؤال كهذا...
- أه يا بارتلي، لخاطر الرب، لا تجعل من نفسك توم أحمر الشعر. هذا هو مسلكه منذ جاء إلى طين المقابر...
- وحق دموع وجروح المسيح، إذا كانت هناك مشكلات ستحدث، فلتحدث المشكلات. أنت، ومن غيرك يا كاترينا؟
- أنا يا بارتلي؟ أنا أبحث عن النسيمة! إنه كاتب لعين، فم هذا الرجل الكبير سيظل يدخله في مشكلات حتى يضع الموت قفله على لسانه...
- أرى أن هذا لن يكون بعد وقت طويل من الآن يا كاترينا.

79- أعطى سر مسحة العرصى (أو المنقوش الأخيرة) على يد القس، في انتظار الموت. (من هوانش الترجمة إلى الإنجليزية)

- "هو-هو-رو، يا مورين، بأحزمتك وأمتعتك..."
- أقسم أنك بخير ومرح كما أنت، يا صديقي الطيب أسود الساق...
- تسميا بدموع وجروح المسيح، من يخاطبني؟
- كاترينا، كاترينا بودين...
- وحق دموع وجروح المسيح، كاترينا، سنكون جارين مرة أخرى إذا...
- إنهم لا يبدونك في المكان الصحيح يا بارتلي.
- وحق دموع وجروح المسيح يا كاترينا، بالطبع لا يهم المرء أين ستلقى كومة عظامه. "هو-هو-رو، يا مورين..."
- يبدو أن الموت لم يزعجك كثيرا يا بارتلي. ماذا كان سبب موتك؟
- وحق دموع وجروح المسيح يا كاترينا، ألم تسمعي أن الجواد لا يمكنه الحفاظ على سرعته للأبد، كما قال بيج بريان عن...
- أهذا ذلك السليط المتبحر!
- لم يكن هناك سبب على الإطلاق، غير أنني رقدت دون أثر من حياة. وحق دموع وجروح المسيح، لكن أليس هذا سببا كافيا؟! "هو-هو-رو..."
- كيف يبدو الآن هناك بالأعلى يا بارتلي؟...
- وحق دموع وجروح المسيح يا كاترينا، تماما كما رأيتهم دائما، يكسبون واحدا ويخسرون واحدا ويبقى واحد بين بين. أليس هكذا تكون الأمور وهكذا يجب أن تكون، مثل بندقيّة تُحشى ويعد ذلك تُطلق، كما قال بيج بريان...

إذا كان يريد أن يجعل من نفسه أحق بشأن هذا- من سيشاركه قبره. «هو-هو-رو، يا مورين...»

أراهن أن نيل كانت في أفضل حالات زهوها يوم الجنازة! تتألق وتتألق دون أقل أثر من شفقة على المخلوق المسكين الذي أرقده رعدة الموت. دفنته في أرض الجنيه بالطبع؟...

في قبر إلى جوار جوان البياعة...

تلك العاهرة، جوان البياعة. جاك المسكين بجواره بضاعة فاسدة. تلك الغاية سيطرة اللسان ستفتري عليه. لكن ماذا يهم نيل ذات الشعر الملبد غير أن تلقي به في أي حفرة قديمة...

وحق دموع وجروح المسيح يا كاترينا، لقد أتت له بقبر جاف ولطيف إلى جوار جوان البياعة وبيتر الخمّار، واستأجرت عربة لنقل الموتى، وكان هناك الكثير من كل شيء في ليلة الدفن وفي الجنازة، غير أنها لم تدع أحدا يشرب حتى الشمالة، وأقامت قداسا كبيرا له، مثل ذلك الذي أقيم ليبيت الخمّار وجوان البياعة، كان هناك أربعة أو خمسة قساوسة ينشدون، وفي الشرفة بالأعلى كان الإيزر ولورد كوكوتون وصياد الطيور الآخر ذلك الذي يأتي هناك... وحق دموع وجروح المسيح، ماذا كان يمكنها أن تفعل غير ذلك؟...

مازالت مغرمة جدا بالقساوسة واللوردات. لكنني سأجازف بأي رهان على أنها لم تترف ولو دعة واحدة على الرجل المسكين. رباها هي وابنة بيع بريان لم تتباليا إلا بالتخلص من الرجل المسكين بعيدا عن البيت، بعيدا عن طريقهما...

مرحبا به بحق الشيطان...

وحق دموع وجروح المسيح، ألا تعرفين أنه رجل محتضر إذ لم يملك الشجاعة لحضور جنازة جاك الفتى؟...

رباه! جنازة جاك الفتى! جنازة جاك الفتى! جاك! أنت تتنطق بالكاذيب يا ابن الساق السوداء...

وحق دموع وجروح المسيح، أليس هو هنا منذ ثلاثة أسابيع!

رباه! وويلاه دائما أبدا! جاك الفتى هنا طوال هذه الفترة ولم تخبرني مارجريريت والآخرون. أه! لقد انقلب هذا المكان رأسا على عقب بيد نورا متنسخة القديمين يا بارتلي. خمن ماذا تخطط له الآن؟... روتاري!...

وحق دموع وجروح المسيح، روتاري! «هو-هو-رو، يا مورين، بأحزمتك وأمتعتك...»

جاك الفتى! جاك الفتى! جاك الفتى هنا من السهل معرفة أنه لم يكن ليعيش طويلا. إنجيل القديس يوحنا...

وحق دموع وجروح المسيح، إنجيل القديس يوحنا يا كاترينا!...

إنجيل القديس يوحنا، تجلبه تلك العاهرة بالتملق من القس، وماذا غير ذلك؟ جاك الفتى! جاك الفتى! جاك الفتى في المقبرة طوال الأسابيع الثلاثة الماضية وأنا لم أعرف هؤلاء المغفلون لن يخبروا أحدا بشيء، خاصة منذ تلك الانتخابات العينية، جون ويلي الأبله وبريد تريي القحبة وتوم أحمر الشعر النحس كلهم تكوّموا في قبر واحد معي. جاك! جاك الفتى...

وحق دموع وجروح المسيح يا كاترينا، بالطبع لا يهم المرء - إلا

- وحق دموع وجروح المسيح يا كاترينا، هي وأبنة بييج بريان ناحتا عليه بالدموع. والجميع يقولون إنهم لم يسمعوا قط نواحا أفضل من ذلك من سارة الثرثرة...

- سارة الثرثرة! ظننت أن هذه المتسولة طريحة الفراش الآن...

- وحق دموع وجروح المسيح، هي كذلك أيضا! ألم يقل بييج بريان عنها وعن كيت الصغيرة وبيبي البوسطجي: "لقد دهن القس هؤلاء الثلاثة بمقدار كبير من الزيت حتى أنه لن تبقى لنا قطرة واحدة عندما نحتاجه...؟"

- في الحقيقة، لا يستحق هذا البائس القبيح أي زيت! وسارة الثرثرة جاءت إلى نيل؟...

- وحق دموع وجروح المسيح، ألم ترسل نيل سيارة لتحضرها هي وكيت الصغيرة؟ لكن كيت قررت أن تمشي...

- أنعشتها رائحة الجثة، وماذا أيضا؟...

- قالت وهي ترقد جاك: "وحق دموع وجروح المسيح، لو كنت سأحمل غدا على أعمدة النعش أنا نفسي لما أمكنتني غير القدم، باعتبار من طلب مني المجيء على وجه الخصوص..."

- سارة الثرثرة المتسولة! كيت الصغيرة الحفيرة! ذهبنا إلى نيل لكنهما لا تذهبان إلى الناس المحترمين إطلاقا. لم أكن لأغضب جاك الفتى على هذا، الرجل المسكين، لولا تلك العاهرة الحفيرة الشعماء الأخرى. جاك الفتى! جاك...

- إن يمر وقت طويل قبل أن يتوجب على أحدهم أن ينوح على سارة الثرثرة نفسها. وحق دموع وجروح المسيح، ألم تسقط

في طريق عودتها للبيت من جنازة جاك، وألم يضطروا لإرسالها بالسيارة إلى البيت مرة أخرى؟...

- سكرادة! كما كانت غالبا...

- مرضت. ولم تنهض من وقتها. «هو-هورو، يا مورين، بأحزمتك وأمتعتك...»

- هل لدى نيل نفسها أي نية في القдом هنا؟

- تقول إنها ليست بخير. لكن وحق دموع وجروح المسيح على أي حال، جاءت لتعودني، وأعتقد أنني لم أرها قط تبدو شابة هكذا.

- هذا لأنها فرحة بالتخلص من جاك. جاك! جاك...

- وحق دموع وجروح المسيح يا كاترينا، أليس من السهل عليها، مع وجود سيارة تحت مؤخرتها، أن تذهب إلى أي مكان تريده؟...

- في سيارة لورد كوكتون. أليس لديها قليل من الحياء أو الخجل فتخرج هكذا رفقة رجل آخر! جاك الفتى!...

- وحق دموع وجروح المسيح، ليست مضطرة لذلك يا كاترينا. لديها سيارة خاصة بها!

- سيارة خاصة بها!

- ندمي الوحيد فيما يتعلق بمفارقة الحياة هو أنني لم أحظ بركوبة فيها، وعدتني هي وبيتر أن يأخذاني إلى أي مكان في البلد أريده، لكن وحق دموع وجروح المسيح، رقدت دون أثر من حياة باقية!...

- رباها! لا يمكن أن تكون تلك السيارة ملكها، يا ابن الساق السوداء!...

- ملكها وملك ابنتها بيتر. وحق دموع وجروح المسيح يا كاترينا، ألم تسمعي أنها اشترت سيارة لبيتر؟
- أه! لم تفعل! لم تفعل! يا بارتلي يا ذا الساق السوداء...
- وحق دموع وجروح المسيح يا كاترينا، فعلتها. بيتر ليس صالحا للعمل الشاق بسبب ساقه. لن يتمكن قط من تحمل أي إجهاد عليها، رغم أنك لن تلاحظي أي عرج في مشيته، وهو يكسب مالا كثيرا بالسيارة، حيث يأخذ الناس إلى الأماكن في سرعة.
- أظن أنه لا نهاية للوضاء التي تصنعها بها وهي مارة ببيتنا. ألسنت محظوظة لأنني لست حية يا بارتلي؟...
- وحق دموع وجروح المسيح، وهي ترتدي قبعة في أي يوم تسافر فيه بعيدا عن البيت!...
- أه! بارتلي! يا بارتلي يا ذا الساق السوداء! قبعة...
- قبعة فاخرة كالقبعة التي ترتديها زوجة الإيرل...
- أنا مقتنعة تماما يا بارتلي أنها قد شفطت بعض المال من بابة...
- وحق دموع وجروح المسيح يا كاترينا، بالطبع فعلت، ومنذ أربعة شهور! ألفا جنيه!
- ألفا جنيه! ألفا جنيه يا بارتلي يا ذا الساق السوداء!...
- ألفا جنيه يا كاترينا! وحق دموع وجروح المسيح، وبهذه الطريقة اشترت السيارة، وستضع نافذة كبيرة فاخرة في الكنيسة!...
- لديها سبب وجيه لتبدي امتنانها للقس. لكني أقسم على الكتاب المقدس يا بارتلي، أن بابة لم تكن لترفع مخالبتها عن مالها إلا بعد.

موتها!...

- وحق دموع وجروح المسيح، ألم تمت منذ فترة طويلة! حصلت نيل على ألف قبل موتها، وألف أخرى بعده. ولديها بضع مئات باقية لم تحصل عليها بعد، وستضعها في البنك هناك لتنفق منها على الفتى الذي سيغدو قسا...
- ربا! ما سيحصل عليه ابني باتريك لن يغطي راحة يده...
- بعض الناس يقولون إنه سيحصل على الكثير، لكن لن يكون بمقدار ما حصلت عليه نيل. وحق دموع وجروح المسيح، إنه متسامح للغاية حتى أنه لا يتساءل عن الأمر!...
- لقد خدعته نيل.
- "هو-هو، يا مورين، بأحزمتك وأمتعتك!..."
- أه! يا ربي الرحيم القدير! وصية بابة، جاك المسكين، مثل عصاة محترقة ملقاة في الزباله، وابنها بقي حيا بفضل إنجيل القديس يوحنا. طريق جديد صاعد إلى بيتها. ابن ابنتها سيكون قسا. العاهرة تبني بيتا بسقف من الإردواز. سيارة. أرض توماس الداخل. جاك...
- وحق دموع وجروح المسيح يا كاترينا، لا يملك أحد أرض توماس الداخل.
- لكن أليس هو مقيما في بيت نيل؟
- لا وحق دموع وجروح المسيح، ليس لوقت طويل. إنه في بيت ابنتك باتريك، وماشية باتريك في أرضه. لم يعجبه عليه القوم الذين يترددون على بيت نيل. قال لباتريك: "أقسم بالله أنهم ليسوا في

نصف الكرم الذي من المفترض بهم أن يكونوا عليه. لم أتمكن من النوم ولو غمضة عين هناك. سيارات تهدر في الخارج ليلاً ونهاراً، تقطع ودق وطرق من الصباح إلى المساء، ألم يفلسوا ببيوتهم ذات السقوف الإردوازية! بالله انظر إليّ، وليس هناك بقعة جافة من أجل الفراش في كوخِي، حيث تصفعتني قطرة المطر بين فمي وعيني...»

لم ينطق بكلمة كاذبة وحق الشيطان في حق البيوت ذات السقوف الإردوازية...

تركت له بابة مائتي جنيه في وصيتها، وحق دموع وجروح المسيح، وبالطبع لم يرفع خطمه من الشراب من وقتها. وبيت نيل بعيد جداً عن الحانات بالنسبة له...

الفاشل عديم النفع، توماس الداخل...

فاشل عديم النفع بالفعل. تلك هي الحقيقة الصادقة يا كاترينا. فاشل عديم النفع بالفعل. وحق دموع وجروح المسيح، ألم أقل هذا كثيراً أنا نفسي؟ أنه فاشل عديم النفع. أي رجل يغادر بيت نيل بطريقة غاضبة لأنه لم يُسمح له بركوب السيارة...

لكن يا بارتلي، ألم يكن هو في نفس مستوى الرعاع الذين سُح لهم بركوبها؟...

وحق دموع وجروح المسيح يا كاترينا، عندما حصلت نيل على السيارة في البداية، فلما كان يخرج منها أصلاً. يتنسم الهواء في أرجاء الريف كل يوم وعلى وجهه تلك الابتسامة السخيفة - إلى برابيت سيتي، إلى جانب البحيرة، إلى مرغاً هيدلاند- هو وبيج

بريان...

البائس القبيح...

وحق دموع وجروح المسيح، لم يكن بمقدور بيتر ابن نيل أن يدخل السيارة دون أن يكون الاثنان جالسين قرب فخذه. كان يحاول أن يكسب القليل من المال، ولم يكن من المناسب له أن يجد خياليّ المائة العجوزين هذين يعششان في سيارته. يقول البعض إن هذا كان هو السبب وراء صحة بيج بريان المتداعية - أنه حُرّم من السيارة. على الأقل في هذا الوقت تقريباً بدأ يلزم بيته...

عليه لعنة الله في كل حال، ألم يأت أوانه! بريان الأخرق في سيارة! ياله من منظر رائع!

وحق دموع وجروح المسيح يا كاترينا، ألم يكن منظراً رائعاً مثله مثل منظر توماس الداخل في السيارة! استأجر ابن رود إند ذات ليلة بيتر ابن نيل كي يأخذه هو وأخت القس إلى الرقص في برابيت سيتي. كان توماس الداخل قد عاد إلى بيته للتو من حانة بيتر، وحق جروح ودموع المسيح، ماذا تظنين غير أنه جلس داخل السيارة! قال: «سأذهب إلى الرقص أيضاً. أقسم بالله، ستكون هناك نساء جميلات.»

البصباح العجوز...

كان ينفخ ويدخن كالمجنون، وحق دموع وجروح المسيح، بصق بصقة كبيرة! لم يقل أحد شيئاً يا كاترينا، لكنني سمعت أن بيج بريان قال بعد ذلك إن أخت القس اضطرت لتغيير بنطلونها قبل

الذهاب إلى الرقص...

- تستحق هذا، تلك العاهرة الصفيقة، لركوبها سيارة نيل الفضولية...

- طلب بيتر ابن فيل من توماس أن يذهب إلى البيت، فقال: «واله إن أفعل...»

- فلينعم عليه الله بالعمر والصحة!...

- طلبت منه ابنة بيج بريان أن يدخل، فقال: «واله لأذهب إلى الرقص...»

- فعل خيرا، ألا يولي اهتماما لابنة بريان القبيح...

- وحق دموع وجروح المسيح، ألم يمسك به ابن رود إند من مؤخرته ويلقي به رأسا على عقب في الطريق ويأوله ركلتين مدويتين! وحق دموع وجروح المسيح، ألم يمض إلى بيت ابنك باتريك، للقر والحين، وهو مقيم هناك من ساعتها!...

- تلك صفة حقيقية في وجه نيل! سبتك الأرض كلها الآن لباتريك...

- وحق دموع وجروح المسيح يا كاترينا، لا أحد يعرف لمن سبتك توماس الداخل قطعة الأرض. عندما كانا يخرجان للتجول بالسيارة معا، اعتاد بيج بريان أن يضغط عليه كي يوقع تنازلا عنها لابنته، لكن بلا فائدة!

- هذا هو ما يليق بذلك البائس القبيح بيج بريان وبالعاهرة ذات الشعر الملبد نيل! لكن ألم تسمع أي شيء عن أي صليب يا بارثي!

- الصلبان، وحق دموع وجروح المسيح لا حديث في البلدة عن شيء غير الصلبان. صليب جون ويلي، صليب بريد تري، صليب توم أحمر الشعر، صليب جاك الفتى الذي لم ينه بعد... وحق دموع وجروح المسيح يا كاترينا، ماذا يهم في هذا الكون كله إن كان الشخص سيمك صليباً أم لا! «هو-هو-رو، يا مورين...»

- لن تقول هذا يا بارثي، عندما تكون قد قضيت فترة هنا تستمع إلى نورا جوني. كنت لتظن أنها أم الإبرل. لكنت لم تسمع أن باتريك سيضع فوق صليباً قريبا؟

- هو ونيل يخرجان كثيرا في السيارة، منذ دُفن جاك الفتى. ثمة أمور حول الصلبان أو الوصايا...

- أوه! لن يفعل ما هو خير له، بتجواله مع تلك العاهرة المداهنة...

- وحق دموع وجروح المسيح يا كاترينا، تسير أموره بخير، بارك الله فيه! لم يملك قط مثل هذا القطيع في أرضه من قبل. وقد باع دفعتين من الخنازير قريبا جدا: خنازير كبيرة ضخمة لحمها ساخن كالأرغفة الخارجة من الفرن. وحق دموع وجروح المسيح، يذهب اثنان من أولاده إلى المعهد...

- اثنان؟

- نعم، البنت الكبرى والتي تليها...

- فليحفظهما الرب!...

- والثالثة ستذهب في الخريف كما يقولون. وحق دموع وجروح المسيح، أليس هذا ما قاله بيج بريان!... «هو-هو-رو، يا مورين، بأحزمتك وأمتعتك...»

- ماذا قال بريان خط الفقر والقيح؟

- "هو-هو-رو، يا مورين، بأحزمتك وأمتعتك..."

- لكن ماذا قال يا بارتلي؟

- وحق دموع وجروح المسيح، كانت تلك زلة لسان يا كاترينا!
"هو-هو-رو..."

- لكن ما الضرر يا بارتلي؟ أنت تعرف أنني لن أكون قادرة على ردها له. بارك الله فيك يا بارتلي، قل لي. سيكون هذا خيرا لي.

- وحق دموع وجروح المسيح، لن يفعل هذا أي خير يا كاترينا، أي خير على الإطلاق. «هو-هو-رو، يا مورين...»

- سيكون هذا خيرا لي يا بارتلي. لن تصدق الخير الذي يجلبه مجرد خبر صغير للرزء هنا. الناس في هذه المقبرة لا يخبروك بأي شيء، حتى لو كان ذلك سيعيدهم إلى الحياة من جديد. جاك الفتى، على سبيل المثال، الموجود في المقبرة طوال الثلاثة أسابيع الماضية. جاك الفتى! جاك...

- "هو-هو-رو- يا مورين..."

- آه، قل لي. أيها الرجل الطيب، يا بارتلي ذا الساق السوداء!... بسرعة الآن. هؤلاء الناس فوقنا سيكتشفون سريعا أن هذا هو القبر الخطأ...

- وحق دموع وجروح المسيح يا كاترينا، لا يصنع فارقا مع الشخص أي قبر سيلقون فيه عظامه العجوز...

- آه! قل لي يا بارتلي، ماذا قال بريان المنقوخ؟...

- إذا كانت ستحدث مشكلات، فلتحدث المشكلات يا كاترينا. قال: "كل شيء يسير جيدا مع بارتيك منذ أن ترك أمه تلك الدمية المتطفلة في تلك الحفرة في المقبرة. كان ينبغي منذ زمن بعيد بعيد أن يلقي قدرا مقلوبا فوقها، ويضع تحته جمرة حمراء ويتركها تموت كقطعة في الدخان..."

- لقد كسحوك مرة أخرى يا بارتلي الوغد ذا الساق السوداء!... جاك الفتى! جاك الفتى!... جاك الفتى!...

3

- ... لقد تحطم قلبي عندما سمعت أن جراف شبي⁽¹⁰⁾ قد أُغرق. وبعدها بأسبوع جئت إلى هنا...

- تمكن النغم بالكاد من قتلنا. لولا ذلك، لتمكن مروكين من الفوز بدور ورقة الخمسة الراحبة...

- ... أن يطعنني عبر حافة كبدي. كانت الضربة الغادرة دائما سمة أساسية لنسل ذوي الأذن الواحدة...

- برد أصابني من العرق والنوم في العراء، عندما قدت الدراجة إلى دبلن لأرى كونكانون...

- ... سقطت من فوق كومة من الشعير وكسرت فخذي...

- من المؤسف أنك لم تكسر لسانك أيضا!...

80- طراد بعوي للماني نُمر في المعركة تمَّ اغرق عام 1939. (من هولش للفرصة إلى الإنجليز)

- ألم يكن هذا طريقا طويلا قطعته ساقاك؟ على كومة من الشعير!
- أراهن أنك لن تسقط من فوق كومة من الشعير مرة أخرى. يمكنك التأكد أن هذا لن يحدث...
- لو لم تسقط من فوق كومة من الشعير لمت بطريقة أخرى. ربما رفسك حصان، أو خذلك ساقاك...
- أو يعطيك صاحبك زجاجة فاسدة...
- أو لا تعطيك زوجة ابنك ما يكفي كي تأكل، بعد أن فقدت معاشك لألك اندخرت مالا في البنك.
- يمكنك أن تتأكد أنك كنت ستموت على أي حال...
- السقوط شيء سيء...
- لو كنت قد سقطت في النار كما حدث لي...
- القلب...
- قروح الفراش. لو كنت قد نمت بالكحول الإيثيلي...
- أنت يا جوان الجبانة! كنت سبب موتي. بسبب نقص السجائر...
- وقهوتك يا جوان القبيحة...
- صدقُ إذًا، كما قلت، كان سبب موتي...
- وحق دموع وجروح المسيح، لم يكن هناك سبب لموتي على الإطلاق. لكني رقدت، ولم يبق بي أثر من حياة...
- كان سبب موت الأستاذ الكبير...
- الحب المثير للراء. ظن أنه لو مات لن ترى الأستاذة أن الحياة

تستحق العيش بدونه...

- لا، بل ظن أنه سيظلم بيبي البوسطجي لو بقي حيا أكثر من ذلك...
- إطلاقا، كانت كاترينا من استنزلت عليه لعنة بعد أن كتب لها خطابا إلى بابة. قالت: "عسى ألا تنزل أي جثة المقابر قبل ذلك الشخص! وهو يذهب من المائدة إلى النافذة..."
- سبب موت جاك الفتى أن نيل استبدلته بإنجيل القديس يوحنا...
- اخرس أيها الشقي الحقير!
- صحيح. صحيح. أتت العاهرة الحقيرة بإنجيل القديس يوحنا من القس...

... الخزي هو ما سبب موتك. بزواج ابنك من سوباء في إنجلترا...

كان ليغدو ضعف خزيك لو تزوج من طليانية كما فعل ابنك. منذ ذلك اليوم فضاء، خاب سعيك. رأيتك تسير في الطريق ذات يوم فقلت لنفسي: "هذا الرجل هالك، إنه أشبه برجل ميت يمشي. منذ جاءه نيا زواج ابنه من طليانية وهو في حال منحدر. خزي خالص. ولا عجب..."

... مات ذلك الرجل من شرق البلدة مكسور القلب بعد فقدنا للسوق الإنجليزي...

... أما ذاك الشخص فمات ساخطا بعد قضاء شهر كامل دون أن يلتوي كاحله...

قال بيعج بريان إن كوران مات نادما لأنه لم يتمكن من شق حمار جلاتون نصفين بالقُدوم عندما وجده يلتهم الشعير في حقله...

- لقد سُرقتُ في بيتك يا بيتَ الخُمَارِ...
- وأنا كذلك...
- عدالة الله يا جلاتون. تشرب اثنين وأربعين قدحا!...
- قلت: «لا يمكن لأحد أبدا أن يقول إنني متبجح. فقد وقفت بين الرجل الغاضب والبلطة الصغيرة! ولم أكتف فقط بصلاة التوبة، بل كنت قد بدأت في القسم الثاني من قانون الإيمان الرسولي عندما جاءت الفتاة الصغيرة إلى البيت بحثا عني. أقول لكم يا عائلة توماشين، لعلمكم تشكرون نجوم سعدكم لأنني كنت قد شربت اثنين وأربعين قدحا...»
- ... كان انتقام الرب منك يا مندوب التأمين، لأنك خدعت كاترينا بودين وتوماس الداخل...
- رباها! لم يفعل. لم يفعل...
- الحق يا كاترينا أنني فعلت ولم أفعل. ألعاب المهنة...
- ...لأن دار أن جوم لم تقبل مجموعتي الشعرية (النجوم الذهبية)...
- من الأفضل أن تكون ميتا عن أن تكون حيا، أيها الشقي الوقح. هناك وحده في البيت قرب الموقد، تصلي للرماد: «آه أيها الرماد المقدس!... آه أيها الدم المتخثر الذي سال كي تدفأ أحشائي!...»
- إنه مهرطق أسود...
- لم تكن جريدة آيريشمان راغبة في نشر (الشمس الغاربة). ولم يكن هناك أحد في البلدات الست ليسمعني وأنا أقرأها...
- عدالة الرب بالتأكيد! أنت قلت إن كולם كيبي قام بنبوءة كي يضل

- ظننت أنه كان حمار رود إند...
- فليخوزقه الشيطان، كان حمار رود إند، لكني كنت أفضل لو كانت ابنته بدلا من الحمار!...
- ماتت ابنة بيج كולם من...
- وباء التل الأذن...
- لا خوف من هذا. لكن بمجرد أن أصابها الوباء لم يقترب أحد من بيتها غير الطبيب، لذا لم تتمكن من سماع أي شائعات...
- أنت تهين الدين. أنت مهرطق أسود...
- ... كان ينقص مندوب التأمين حرف واحد كي يفوز بمسابقة الكلمات المتقاطعة. وهذا ما عجل بموته...
- كان سيب موت توم أحمر الشعر طول لسانه...
- ما سيب موتي؟ ما سيب موتي، أهو ذلك؟ ما سيب موتي؟ رجل حكيم من يمكنه قول...
- مات ستيفن معسول الحديث من الندم لأنه لم يسمع بخبر جنازة كاترينا بودين...
- صدق إذا، كما تقول، كان سيب موتي هو الأمعاء...
- آه! أسمعونه؟ الأمعاء بالفعل! الأمعاء! آه! كان انتقام الرب هو سيب موتك يا رود إند، أنت سرقت عشبي...
- ... الضيق من أنه لم يُعين كبير المحققين...
- ... انتقام الرب يا بيتَ الخُمَارِ. كنت تخطل الويسكي بالماء...

- ... كان انتقام الرب بالتأكيد هو سبب موت كاترينا بودين.
- بأمانة...
- أنت كاذبة لعينة يا نورا...
- أنزل انتقامه عليها لسرقة توماس الداخل، ولسرقة شاي والد بريد تيري، وبمطاطس كيتي وحلزونات جون ويلي...
- إطلاقاً يا نورا جوني، كان إنجيل القديس يوحنا الذي استعارته نيل من القس من أجل ابنتك، أرسلوا كاترينا إلى حتفها بدلا منها. لولا ذلك، لكانت ابنتك هنا في تلك الولادة. كانت مريضة طوال حياتها حتى ماتت كاترينا. لكن بعد ذلك بدأت صحتها تزدهر...
- رباه! لم تتلق بكلمة كذب واحدة! أقسم بالكتاب المقدس، لم يخطر هذا ببالي قط!
- ... الميتة التي تستحقها جوان البياعة هي جعلها تشرب قهوتها...
- ... أو تلبس قبائبيها.
- الميتة التي تستحقها يا جلاتون، هي جعلك تشرب أقداحا من الجعة السوداء حتى تخرج من مخدريك وعينيك وأذنيك ومن تحت أظافرك وفي إبطيك وأسفل حاجبيك وبين أصابع قدميك وفي تجاويف مؤخرة ركبتيك وفي كوعيك وفي جذور شعرك حتى تتعرق سبعة أنواع من الجعة السوداء...
- ... أنسب ميتة لك أن تحيا حتى ترى كيري تهزم جالواي في نهائي بطولة أيرلندا عام 1941. وأغنية "وردة مقاطعة ترالي" تُعزف على مؤخرة كونكانون...
- ... الميتة التي تستحقها أنت وكل واحد من نسل عائلتك ذوي

الناس...

- ... لا عجب أنك مت. سمعت الطبيب يقول إنه لا أحد يمكنه البقاء بصحة طيبة في تلك الحقول الموبوءة بالقراص في قرية دوناه...
- أخبرني القس أن تسع عشرة أسرة كانت تدفع له في تلال قرينك الموبوءة بالبراغيث منذ عشرين عاما، لكن الآن...
- كانت جنازة جاك الفتى سبب موتي. نهضت من فراشي لأذهب وأنوح عليه، وسقطت في طريق عودتي للبيت. وبدأت أتعرق. كان العرق يتصبب مني من ساعتها حتى انتهيت...
- وكانت جنازة جاك الفتى سبب موتي أيضا، بدأت أتورم بعدها...
- رباه! لا عجب، بعد الطريقة التي حشوت بطنك بها، قواي لي يا سارة الثرثرة أيتها المتسولة، منذ متى وأنت هنا، وأنت يا كيتي الصغيرة الحقيرة؟...
- وحق دموع وجروح المسيح يا كاترينا، توفينا جميعا تقريبا معا. رحلت قبل ستة أيام من سارة الثرثرة، وقبل عشرة أيام من كيتي الصغيرة...
- سيعلمها هذا أن تبقى في فراشهما المرة القادمة! لمانا رغبتا في الذهاب إلى نيل ذات الشعر الملبد؟ الفضول، لم تكن لديهما نصف هذه الرغبة في المجيء إلى الناس المحترمين...
- لن يبقى أحد الآن كي يُرقد أو ينوح على توماس الداخل أو نيل بودين...
- آه! هذا أفضل لوجه العاهرة!

- الأذن الواحدة الخائنين هي جعلكم...
- جعلهم يصيحون: «حيا دي فاليرا»...
- ... لا، لكن الميثة التي يستحقها رود إند...
- أن تتركوه لي حتى أحشر واحدة من بوصات التسقيف خاصتي في حلقه، لتدخل في بلعومه ومنه إلى أحشائه...
- أن تتركوه لي حتى أكسره بالمطرقة التي سرقها مني...
- سأفصل بكل سرور وسرعة رأسه بمنجلي...
- ليس بسرور أكبر من سروري لو شقنته بحبلي...
- ... بيتر الخُشار؟ تفرقوه في خمره عديم القيمة المخلوط بالماء...
- ... بول؟ اجعلوه ينتظر بحلقه الضامى حتى ينتهي المتعلم المتحمس للآيرلندية من قراءة «الدرس»...
- ... فليخوزقة الشيطان بأشعاره التافهة! يموت هذا الشقي الوقح، هذا الفاشل، بعدم إعطائه شيئاً يأكله إلا "رماده المقدس"...
- الميثة التي تفضلها كاترينا لنورا جوني هي أن تظهر نفسها، خاصة قديمها...
- اخرس أيها الشقي...
- ... الكاتب، أليس كذلك؟ لقد أمان كولم كيلى، هذا الجرو التافه. أن يُجبر على القيام برحلات حج عندما ما قامت به الأستاذة من أجل بيلى اليوسطجي...
- أن تُحشر الإحدى وستون عظة في حلقه...
- أن يستتاب على الملأ من هرطقته وإمانته لكولم كيلى، ويُجبر على طلب الغفران عن كل ما كتبه، عن كل الفتيات البريئات اللاتي ضلن الطريق بسبب كتاباته الشريرة، عن كل الأزواج الكثرين الذين افترقوا، عن كل العائلات السعيدة التي فرق بينها، عن كونه المبشر بالمسيح الدجال، وبعد ذلك يجري حرمانه كنسياً وحرقه على الخازوق، لا شيء أقل من هذا سيعطي المهترقين درساً...
- ... تلك هي الميثة التي يودها الأستاذ الكبير لبيلى...
- ذلك الوغد للصر! الميثة التي أفضلها لذلك الجاهل المتبجح...
- مديرة مكتب البريداً منعها من قراءة خطابات أي شخص آخر، بل خطاباتنا هي لمدة أسبوع...
- فعلاً، أسبوع دون نعيمة كان السبب في موت ابنة بييج كولم...
- يقولون إن الأستاذة قالت إن سبب موت الأستاذ الكبير كان...
- أنه كان أفضل من أن يبقى في هذا العالم...
- صدقوا! إذًا، قالتها. لن أنسى قط ما قالت: «من تحبه الآلهة»...
- أه! العاهرة! القحبة الغدرة! السافلة!...
- *De grâce* يا أستاذنا. أنت تتحدث مثل كاترينا!
- ألا تذكرين أنني أقدم سكان المقبرة! أطلب الإنن بالحديث...
- ... كيت الصغيرة! أن تبعدوها عن الجثث...
- لا بد أنك تزحج! حتى الفيلق الألماني في أفريقيا لا يمكنه فعل ذلك إذا شمّت راحتها...

- الميثة التي كان يفضلها بيح بريان لكاترينا بوبين...

- ميثة القطة السارقة تحت القدر!...

- أن يجعلها تقف خارج بيتها، وتمر نيل مرتدية قبعتها المزهرة أمامها في سيارتها، وعلى وجهها ابتسامة كهلال صغير بينما تنظر نحو كاترينا، وتطلق نيل بوق السيارة بعزم شديد...

- أه! دعوني وحدي! دعوني وحدي! سأنفجر...

- ألم أقل هذا!

- سأنفجرا سأنفجرا!

-4-

- ... "أتأتي معي إلى البيت:

هناك بر-راح أسفل ش-شالي

آه، لماذا لا يا جاك..."

- *Écoutez-moi, mes amis. Les études celtiques* (191) .. سنعتقد ندوة الآن.

- ندوة يا شباب! مرحى! يا بريد تيري، يا ستيفن معسول الحديث، يا مارتين يا ذا الوجه المجدور! ندوة...

81- استمر إثنى يا لصداقه الدراسات اللغوية.

- ندوة يا توم أحمر الشعر!...

- لن أقول شيئاً، لاشيء...

- أليس من المؤسف أن توماس الداخِل ليس هنا! كان ليغدو الرجل المناسب للندوة...

- نتيجة اكتشافاتي فيما يتعلق بلهجة أهل النصف جنبيه. أخشى أنها لن تكون ندوة لائقة. فاللغة الوحيدة التي يمكن أن تقام بها أي ندوة لا يمكن الحديث بها بسرعة كافية مني أو منكم أيها الناس...

- بسرعة كافية؟

- بسرعة، *mes amis*. المؤهل الأول لأي ندوة هو السرعة. علي أن أقول، يا أصدقائي الأيرلنديين، أنني محبط بشدة من بحثي...

- آه، فليكن الله في عوننا، أيها الرجل المسكين!...

- *mes amis*، لا يمكن القيام ببحث موسع في أي لغة يتحدثها عدد كبير من الناس، مثل الإنجليزية أو الروسية...

- لدي شك كبير في أنه مهترق أسود...

- من الممكن فقط -ومن الجدير بالاهتمام فقط- القيام ببحث في لهجة يعرفها شخصان، أو ثلاثة على أقصى حد. ينبغي أن تكون هناك ثلاثة مصادر لرذاذ الشيوخوخة مصاحبة لكل كلمة.

- ... كان يوماً يا بيتز الخمّار. لا تنكر ذلك...

- لا يستحق الأمر البحث في كلام شخص إلا إذا كانت كل كلمة من كلامه تخرج وحدها كغراب على الرمال...

- ثمانية على ثمانية تساوي واحد، ستة عشر على ثمانية تساوي اثنين...

- ... هذه الندوة فرصة أرسلتها السماء لي كي أقرأ الشمس الغاربة...

- *Pas du tout*! هذه الندوة *convenable*...⁽⁸²⁾

- لن أستمع إلى الشمس الغاربة. بأمانة!...

- انتظر الآن يا صديقي الفرنسي الطيب! سأحكي لك قصة...

- اسمع مسيو كولي، هذه ندوة، ليست محاضرة جامعية عن الأدب الأيرلندي...

- سأحكي لكم القصة. ورحمة روجي لأحكيها! «القط الذي ارتكب فعلا قبيحا على الملاءات البيضاء لنصف كوون⁽⁸³⁾ من أيرلندا كله...»

- ... «كان لمارتين جوني الكبير ابنة

وكانت عريضة مثل...»

- ... «عند ديلان العزيرة الباسلة قابل موغكات ذا الفخذين الهائلين.

قال موغكات: 'ياك أن تتقدم أكثر من هذا، لقد عدت للتعو من قلب

ديلن بعد أن ارتكبت ذلك الفعل القبيح الصغير على كل الملاءات

البيضاء هناك. ومن الآن فصاعدا ستُسمى ديلن ذات البركة

السوداء. وقد تركت تلك القطعة الظاهرة من الأذى -سلسلة لثال

82- إعلانا... خاسية...

83- كوون وموغ، بطلان أسطوريان كما أيرلندا بينهما. (من هوماش الترجمة إلى الإنجليزية)

ريدي⁽⁸⁴⁾ - في طريق قديمي، وقبل ذلك تركت لطفة صغيرة من الأذى على تلك الملاءات الجميلة التي تغطي نصف أيرلندا الخاص بموغ'... نصف موغ، يا صاحبي الطيب، من موغكات: القط الكبير بالأيرلندية القديمة...

- *Ce n'est pas vrai*⁽⁸⁵⁾ الكلمة الصحيحة: مائكات. ماتو⁽⁸⁶⁾. الحجم الكبير. السماتان الكبيرتان.

- جاست⁽⁸⁷⁾ كانت الكلمة المستخدمة بمعنى قطة أنثى في الأيرلندية القديمة الصحيحة...

- *Gaiste*⁽⁸⁸⁾ *Mais non!* تعني أنشودة، أحبولة، فخ، مصيدة، بطارية مدفعية، وسيلة راحة. قال الورد المعقود وعباهته تتمزق من عليه: «أه أنا في فخ ابن عاهرة...»⁽⁸⁹⁾

في البريتانية الحديثة: *gaist*: امرأة لديها عرية جر تحوي أشياء مقدسة تبيعها لجمع المال من أجل الفقراء وقت الباردون في ليون.⁽⁹⁰⁾ وفي لهجة جوينيد⁽⁹¹⁾... سيكون عليّ أن أرجع إلى ملاحظاتي حول هذا يا

84- سلسلة من الرواس الجبلية تمتد تقريبا بطول الطريق عبر أيرلندا وقد رفرت طريقا مليئا عبر المسطحات، وكانت ليحنا بمثابة الحدود بين نصفي أيرلندا. (من هوماش الترجمة إلى الإنجليزية)

85- هذا ليس صحيحا

86- القط الذكر بالفرنسية. (من هوماش الترجمة إلى الإنجليزية)

87- *Gast* هي الكلمة الأيرلندية التي تعني عاهرة. أما الكلمة الأيرلندية *gaiste* فتعني الفخ أو الكمين. (من هوماش الترجمة إلى الإنجليزية)

88- لكن لا.

89- من التعبير الأيدي الوثائقي: "*Gast ar chast*" الذي يعني عاهرة المعاهر، ويُستخدم للتذكير على إظهار الدهشة أو عدم التصديق، ويبدو الاستخدام المعاصر لخاصة "من ثروموة". (أنا في فخ ابن ثروموة!) (من هوماش الترجمة إلى الإنجليزية يتصرف)

90- هذا التعريف تفاصيل خاطئة ومعمد بطريقة سخرية لهذه الكلمة. البارون *pardon* كان عبدا دينيا مثل كلمة *pattern* الأيرلندية، يتم في ليون شمال غرب بورنيالها، وهي منطقة مشهورة بأسرارها وتاريخها. (من هوماش الترجمة إلى الإنجليزية)

91- جوينيد هنا *Gwened* اسم لغة وأسقفية في مدينة لنان في جنوب شرقى بورنيالها، حتى لا نخلط بينها وبين جوينيد *Gwynedd* في ويلز. (من هوماش الترجمة إلى الإنجليزية)

كوي. لكن الفرضية سليمة: في الأيرلندية القديمة في كلمة Gast يكون حرف S صامتاً، فتُنطق *Gât*: مثل *Cat*: ومثلها *Pain*: *Pangur Bán*⁽⁹²⁾: *Panther*: *téar*: قطّة كبيرة سميّة نكيّة ذات معرفة وثقافة...

- انتظر الآن يا صاحبي الطيب، وسأخبرك كيف تمزقت العبادة من فوق الريف للعقود...

- كوي، جون كيتي في قرينتنا يقول إنه فقدنا فقط...

- جون كيتي في قرينتك! ليس معتاداً أن يقول رجل من قرينتك أي شيء محترم...

- ... أقسم ببلوط هذا التابوت يا كيت الصغيرة، أعطيت كاترينا بويدين الجنيه...

- ... معطف كبير من الفراء عليها يا نوم أحمر الشعر، مثل ذلك الذي اعتادت بابة بويدين أن ترتديه حتى اضطرت إلى التخلص منه بعد كل البقع التي لحقت به في بيت كاترينا...

- أنت كاذبة لعينة يا بويدي تري...

- السلام والهدوء هو ما أريده. توقفي عن الإساءة إليّ يا كاترينا...

- ... هل يمكنني تقديم أي مساعدة روحية إليك يا ستيفن معسول الكلام...؟

- ... بيبي البوسطجي يا أستاذ؟ وحق دموع وجروح المسيح، لو كان أحد سيموت فسيموت. لو كان بيبي سيموت، وحق دموع

وجروح المسيح يا أستاذ، سيرقد دون أثر من حياة فيه...

- ... ألم يمت المهر الصغير!

- ألم تمت المهرة الصغيرة!

- حدث ذلك منذ أيام كثيرة، لكن بارتلي ذا الساق السوداء أخبرني بأن المهر الصغير مات مؤخراً فقط...

- مرت أيام كثيرة منذ اشتريتها بالفعل. كانت عظيمة! اشتريتها في سوق القديس بارتلوميو. لم يكن يزعجها أن تحمل طناً ونصف صاعداً أي ثل، امتلكتها عامين بالضبط...

- بمجرد أن أخبرني بارتلي ذو الساق السوداء أن المهر مات، قلت: «قتله المطر الغزير. لم ينته الغنى من وضع السقف فوق الإسطبل، وترك المهر وقتاً أطول من اللازم في العراء.» فقال لي: «وحق دموع وجروح المسيح، لم يحدث هذا على الإطلاق...»

- كان ذلك قرب موعد عيد القديس بارتلوميو، من بين كل أيام السنة. كنت أنقل المهرة الصغيرة هايبنا إلى الحقل الجديد قرب البيت. وكانت قد قضعت ومضغت نصف نباتات القرية طوال الطريق حتى صارت الحقول عارية! قابلت نيل وابنها بيتر عند تل المرج، في طريقهما صاعدين إلى البيت. قال بيتر: "هل أجد معك عود كبريت؟" فقلت: "والله ممكن..". فقال: "إلى أين أنت ذاهب بهذه المهرة الصغيرة، بارك الله لك فيها!"⁽⁹³⁾ فقلت: «أنقلها إلى الحقل الجديد...»

93- كل الحديث عن حوان (أو شخص) دون إضافة بركة الله يعتبر حسداً وعلماً شريفاً، قد تجلب العنة السوء. (من حوامش الترجمة إلى الإنجليزية)

92- بانجر بان: اسم قط في قصيدة أيرلندية شهيرة من القرن الوسطى. (من حوامش الترجمة إلى الإنجليزية)

- قلت: «الدودة السلكية إنًا...» فقال بارتلي ذو الساق السوداء:
"وحق دموع وجروح المسيح، إطلقا...»
- قالت نيل: "إنها مهرة صغيرة جميلة، بارك الله فيك وفيها.." فقال
بيتر: "كان يمكن أن تكون كذلك لولا حالتها." قلت: "حالتها! لا
يزعجها أن تحمل طنا ونصف صاعدة أي تل..."
- قلت: «السعال..» فقال بارتلي: "وحق دموع وجروح المسيح،
السعال! إطلقا...»
- قال بيتر: "هل لديك أي نية لأخذها إلى سوق القديس بارتولوميو،
بارك الله فيها؟" فقلت: «والله لا أعرف حقيقة، أنا بين نارين.
أكره أن أفارقها. إنها مهرة عظيمة صغيرة. لكني لا أملك الكثير
من العلف هذا الشتاء.»
- قلت: «الديدان..» فقال ابن الساق السوداء: "وحق دموع وجروح
المسيح..."
- قالت نيل: "كم ستطلب مقابلها، بارك الله فيها؟" فقلت: «والله
لو أخذتها إلى السوق لطلبت ثلاثة وعشرين جنيتها..» فقال بيتر:
"ماذا تقول؟! ثلاثة وعشرون جنيتها! ويم وجهه صاعدا الدرب.
قالت نيل: "أتقبل ستة عشر جنيتها؟" فقلت: "في الحقيقة يا
نيل لا أقبل..» قالت: «سبعة عشر جنيتها..» فهتف بيتر: «ماذا
تقصدون بسبعة عشر جنيتها! هيا بنا!» وانطلقت الأم خلفه، لكنها
ظلت تلتفت ناظرة إلى المهرة الصغيرة بيضاء الوجه...
- قال: «ماذا تقصد بالديدان؟ وحق دموع وجروح المسيح، لم يكن
به من الديدان ما يزيد عما بي! ألم يشقوا بطنه!...»

- جاءت كاترينا بودين من خلف سياج الحقول الصغيرة، أرضها،
وسألت: «ماذا كانت تقول هذه العاهرة؟» فقلت: «عرضت عليّ
سبعة عشر جنيتها مقابل المهرة بيضاء الوجه. صدقيتي، كنت
لأتركها لها مقابل عشرين، أو حتى تسعة عشر. كنت لأعطيها
لها يسعر أقل جنيتها مما كنت لأخذها من أي رجل من خارج
القرية. كان ليبهج قلبي أن أراها تمر من أمامي كل يوم. أظن، من
الطريقة التي أعجبتها بها، أنها أو ابنتها سيهبطان إليّ مرة أخرى
قبل الصباح. لن يجعلاني أخذها إلى السوق.» فقالت كاترينا:
"رباه، تلك العاهرة! ستهلك مهرك بيضاء الوجه بصعود هذه
الدروب الصخرية المنحدرة. لو اشتريتها فعلا، عسى ألا يكون لها
حظ معها!..."
- قلت: «لا أعرف ما سبب موت المهرة، لم يكن بسبب علة في القلب،
أليس كذلك!...»
- صدقتي إذا يا جون ويلي، قالت لي: «انهب إلى السوق بمهرك
بيضاء الوجه، واحصل على الثمن المناسب لها، ولا تأبه لحديث
هذه العاهرة المعسول...»
- قال ابن الساق السوداء: "وحق دموع وجروح المسيح، أي سبب
كان لموته غير أنه رقد ومات؟...»
- قالت كاترينا مرة أخرى: «انهب إلى السوق بمهرك بيضاء
الوجه..» ولم ألاحظ قط أنها لم تقل: «بارك الله فيها، لولا
الطريقة المسعورة التي كانت تنظر بها للمهرة...»
- إنها ضربة هائلة للفتى المسكين أن مات المهرة. سيكون عليه أن
يفعل الكثير كي يحصل على زوجة الآن.

- ذلك المساء كانت المهرة تلهث وتسهل، في الصباح التالي مع آذان الديك نزل بيتر ابن نيل إلي. وذهبنا نحن الاثنان إلى الحقل الجديد، كانت خسارة رهيبية يا جون ويلى! كانت ممتدة هناك دون حراك من أذنها إلى ذيلها.

- بالضبط كما كان المهرة...

- قلت: «هذا هو الأمر؛ العين الشريرة.»

- فعلا، يقولون إن كاترينا لها عين شريرة. لم أكن لأشتري مهرا وهي حية...

- رياه! كانت العاهرة نيل من نظرت لها بعينها الشريرة.

- مرت بي دون أن تقول: «بارك الله فيك» وقيل أن أضع حفتين أخرتين من الشعير على الكومة سقطت من فوقها...

- صدق إذا، لم تقل لي «بارك الله فيك» والتوى كاحلي في اليوم نفسه...

- بالطبع، لم يشهد الأستاذ الكبير يوما واحدا بصحته منذ أن كتب الخطاب لها. لعنة...

- لا يمكن أن تكون قد ألفت بنظرها الشريرة على مانتون المحامي؛ لأنه مازال حيا...

- لا تصدقهم يا جانا جاك الفتى!...

- ... ألم تسمعي يا كيتي بأن توماس الداخل قد رحل مرة أخرى؟... فعلها بالفعل، منذ أسبوعين...

- رياه!

- لم يتمكن من النوم ولو طرفة عين في بيت باتريك ابن كاترينا مع نخر الخنازير من الليل إلى الصباح. ولدت الخنزيرة عددا من الخنازير الصغيرة وأتوا بها إلى داخل البيت. قال: «وكأنه كان ينقصهم الخنازير! انظر إلي أنا التي لم أملك خنزيرة قط! سأمضي إلى بيت لا يوجد فيه نخر خنازير وحيث تعلقو رأسي حجارة من الإردواز.» وفي طريق صعوده إلى بيت نيل طرد قطع باتريك من قطعة أرضه...

- ... ذلك الأحمق العجوز المغرور، هذا عهدي بتوماس الداخل...

- ... سيكون خزيا أكبر لك، كما تقول، لو كان ابنتك قد تزوج طليانية. هؤلاء السود لطيفون جدا. ألم تر الأسود الذي كان كبيرا للخدم عند الإيزل منذ زمن بعيد؟

- صدق إذا، كان يمكن لهذا الأسود نفسه أن يغدو سريع الغضب أيضا...

- أحيانا، كما تقول، كان يمكن أن يغدو سريع الغضب. طيب، أنا لا أعرف ماذا سيفعل ولدي في البيت، عسى أن يرشده الله لما فيه خيره. طلبت منه أخت القس أن يتزوجها. وهما مترافقان دائما منذ فترة إلى الآن...

- أليس هذا ما حدث لابني في إنجلترا أيضا! كان يرافق تلك السوءاء لفترة لا بأس بها، وطلبت منه أن يتزوجها. وهل تعرف؟ ذهب المغفل وتزوجها!

- وحق المسيح، كما تقول، هكذا تسير الأمور. سمعت أن زوجتي العجوز سعيدة في البيت بنانسي - أعتقد أن نانسي هو اسمها -

لكني لو كنت حيا لقلت لابني: «احترس لنفسك الآن، ماذا تستطيع هذه الفتاة الصغيرة أن تفعله في بيت ريفي؟ أتعتقد أنها تستطيع أن تفرط طبخة من العشب أو تحمل سلة من الطحالب؟...»

أليس هذا ما كتبتَه بالضبط لابني في إنجلترا! قلت: «لقد ارتبطت بالتحبة المناسبة هناك، لو جرّوت أن تعود إلى الديار في يوم من الأيام، فيالها من جماعة بهيمة المنظر ستأتي بها إلى الريف متعلقة بأذيالك، سوياء، وحفنة من السود الصغار يجرون حول القرية، ستنتشر سمعتك في كافة أنحاء أيرلندا، سيأتي الناس من كل فج بعيد وقريب ليتقروا عليهم، ألا تعرف أنها لن تستطيع أن تجمع العلف من أرض أو شاطئ؟ فلم ير أحد قطعة من طحلب أو عشب وقود في الأرض التي جاءت منها...»

ليس هناك مبرر للحماقة، كما تقول، لم يكن هناك سبيل كي تجعل صاحبنا يستمع إلى صوت العقل، كان دائما... ما هذا الذي كانت تسميه نورا جوني؟...

أبله؟... حقير؟... وغد؟

لا، إطلاقا، لم يكن وغدا قط، لقد ربيته فتى أمينا حسن السلوك، وليس فقط لأني أقول هذا، لكن لماذا لا أتذكر الآن الكلمة التي كانت تقولها نورا جوني؟...

أدونيس!...

صدق إذاً كما تقول، ذلك هو. أخذته نانسي إلى برابيت سيتي ووضع خاتم الزفاف حول إصبعها. وقد أدفأ هذا سويداء قلب امرأتي العجوز...!

وقد ابتهجت امرأتي العجوز بشدة أيضا! اعتقدت أن الزنجية نوع ما من الهوانم حتى أخبرتها أنها تحمل نفس لون بشرة كبير خدم الإيرل. وعندما سمعت هذا، كان لا بد أن نرسل للقس حتى يأتي...

هكذا تسير الأمور، كما تقول. كان القس يحاول أن يجعل نانسي تتزوج معلم مدرسة بحيرة ديربي، لكن صدقني إذا، قالت له بصراحة، ودون أن ينعقد لسانها، أنها لن تتزوجه. قالت: «هذا النكرة البائس متزوج بالفعل من المدرسة، ولماذا يريد أن يتزوجتي إذا؟ أنا لا يعجبني معلم بحيرة ديربي. بالتأكيد لا حياة فيه ولا حيوية! إنه شيء واهن عنين...»

كان ابني شيئا واهنا عينا، على أي حال. ألم يكن معوزا عاجزا لدرجة أن يذهب ويتزوج سوياء في لندن، حيث يوجد من الناس ما يساوي الموجودين في أيرلندا كلها؟... سمعت أن شعرها أجعد ككلب البحر...

الحماقة، كما تقول. قالت نانسي: "لن أتزوج ذلك الشيء العنين من بحيرة ديربي. لدى ابن رود إند دراجة بخارية، وهو صياد طيور، وصياد سمك، وعازف كمان، وراقص من الدرجة الأولى. وعندما يتأق يكون متعة للعين. وقد هدد بإطلاق النار على اللورد كوكتون لو رآه في صحبتي مرة أخرى. وبيته رائع كأنه فيلاً - قالت فيلاً، قسما بروحي - وهي جيدة الغرش والزينة. وكلما زرتها يتطهر قلبي من أدراجه...»

من السهل عليك أن تزهو ببيتك المزين يا رود إند. المزين...

بفضل طحالب المنجرفة...

- ... كنت أنا من أرقدكم جميعا يا أصحابي وأهلي وجيراني الأكرام...
- كنت عظيمة يا كيت الصغيرة، إحقاقا للحق...
- لم أقبل قط جنيتها أو شلنا أو بنسا من أي أحد. أرسل إلي الإيزل عندما ماتت أمه. وعندما انتهيت منها قال: «كم تطلين؟ ستحصلين على كل ما تسألين...»
- كنت سترسلين إلى السجن بقية حياتك يا كيت الصغيرة، لو حاولت فقط أن تضعي إصبعها عليها، أو حتى تقتربي من الحجرة التي أرقدت فيها...
- كنت أنا من أرقد بيتي الخُمَار...
- لم تفعلي يا كيت الصغيرة، بل مرضتَان من برايت سيتي، بزيمها الرسمي وقبعتيهما البيضاوين. قال الناس إنهما كانتا راهبتين...
- كنت أنا من أرقد الرجل الفرنسي...
- لو كنت قد وضعت يدا عليه يا كيت الصغيرة، لأرسلوك إلى السجن لقيامك بانتهاك حياد آيرلندا في زمن الحرب...
- كنت أنا من أرقد جوان البياعة...
- تلك كذبة لعينة. ما كانت بناتي ليسمحن لك بتنسم مقدار قسط من هواء يكفي منخرا واحدا في الحجرة التي أرقدت فيها. ولماذا سيفعلن؟ حتى تشرعي في جسني وتقليبي!...
- حتى مشاهدة جثة جوان كانت بالقسط يا كيت...

- ... بأمانة يا دوتي. كل كلمة مما أخبرتك به هي الحقيقة. لم تسد كاترينا بويين قط أي شيء؛ ثمن المائدة المستديرة، أو جنيه كيتي...
- أنت كاذبة لعينة...
- وابنها مثلها أيضا يا دوتي. مازال ثمن تابوتها لم يُسدّد لمحل قيم، وكذلك ثمن الشراب الذي قدم في ليلة دفنها وفي جنازتها من محل جوان البياعة...
- أنت كاذبة لعينة يا نورا...
- ألا يطالبون ابنها بثمنها كل يوم وآخر؟ بأمانة. لذلك فإن بيتي الخُمَار وجوان البياعة متضايقان منها هنا.
- رياه نورا، نورا...
- ولا أقل القليل من تكاليف دفنها جرى دفعه يا دوتي، إلا ما دفعه ابني من جورت ريبوك مقابل التبخ والنشوق...
- آه! يا نورا يا نور البحارة الهادي! لا تصدقها يا جاك الفتى...
- سيداقتنا الرب...
- دفعت نيل مقابل قبرها هنا أيضا، بدافع الخجل الصرف...
- آه! العاهرة، لم تفعل، لم تفعل. لا تصدق ذات الفخذين اللتئين ابنة جورت ريبوك! لا تصدقها يا جاك! سأنفجرا! سأنفجرا! سأنفجرا!...

في الحقيقة لم تكن أنت يا كيتي الصغيرة. كنت أعمل هناك بجوار بيته، في حقلنا على جانب الطريق. وناداني ببلي البوسطجي، قال: «صاحبك في طريقه إلى مكتب الرسائل الضالة...» عبرنا أنا وأنت يا كيتي الصغيرة الباب في نفس اللحظة بالضبط. صعدنا إلى الطابق العلوي وتلونا مجموعة كبيرة من الصلوات مع الأستاذة وببلي البوسطجي. قالت الأستاذة وغصة في حلقها: "لقد انتهى الأستاذ المسكين. بديهي. فقد كان أفضل من أن يبقى في هذه الحياة».

آه! العامرة!...

وتوجهت يا كيتي الصغيرة، وفردت يدك كي تغلقي عينيه. لكن الأستاذة أوقفتك وقالت: "سأفعل كل ما يجب فعله تجاه الأستاذ الكبير، الرجل المسكين..."

آه! المومس الحقيرة المتبجحة!

والآن يا أستاذ، تذكر أن مارتين ذا الوجه للمجدور قد رآكما في المدرسة...

صدق إذا، لا شيء أفضل من الحقيقة يا أستاذ...

قالت: «انزلي إلى المطبخ واستريحي يا كيت الصغيرة..» وطلبت مني ومن ببلي البوسطجي أن نذهب كي نأكل ونشرب وندخن التبغ. وقالت لببلي: "لا تقتصد في شيء من المال، لا يمكنني أن أضن بشيء على الأستاذ الكبير، الرجل المسكين..."

بمالي! آه!

وعندما عدنا كنت مازلت في المطبخ يا كيت الصغيرة. وضعد ببلي إلى الأستاذة التي كانت تتشج بالبكاء في الطابق العلوي...

آه! الشحاذ! الجامل الحقيير للعب!

وعندما نزل تحدثت إليه يا كيت الصغيرة قائلة: «هذه المرأة المسكينة في الأعلى لا بد أنها مرهقة. سأصعد وأساعدها في غسله». فقال ببلي: «استريحي هنا يا كيت الصغيرة، الأستاذة في حالة أسى كبيرة على الأستاذ الكبير حتى أنه من الأفضل لها أن تبقى وحدها لفترة». وأخرج موسى من خزانة وأمسكت بالمشهد الجلدي من أجله كي يسنه.

موسي ومشحني! كانا موضوعين في أعلى الخزانة. كم كان يعرف جيدا أين يجدهما، اللص...

كنت تتقافزين في أرجاء المطبخ يا كيتي، تماما ككلب مليء بالبراغيث...

تماما كما كانت نورا جوني عندما جاءت إلى بيت كاترينا...

اخرس أيها الشقي الحقيير...

قلت: «لا بد أن أصعد وأجعله قائما على جنبه بينما تحلق ذنك...» فقال ببلي: "ستفعل الأستاذة ذلك، يمكنك أن تستريحي هنا يا كيت الصغيرة..."

آه! الاثنان الأجربان!...

لا تعره انتباهها يا أستاذنا الكبير. كنت أنا من أرقدك. وكنت جثة بهية المنظر، يارك الله فيك! هذا ما قلته للأستاذة عندما انتهينا من تزييتك. قلت: «لا لوم عليك يا أستاذة.. لقد صار جثماننا

جميلاً، ليرحمه الله، لكن هذا هو المتوقع: رجل طيب مثل الأستاذ الكبير...

- صدقي إذا يا كيت، لا يهم كيف يُرقدون أمثالنا، لكن يبدو لي أنك كنت مستعدة أكثر من اللازم لتحسس جثمان معلم...

- ... قضيت خمسة أيام أراقب حالك يا رجل الجانب الشرقي من القرية؛ صاعدة هابطة إلى منزلك لاراك؛ صاعدة هابطة إلى التل الصغير لأطل على بيتك وأرى إن كانت هناك أي علامة على موتك. كنت تهذي في نومك، وكانت الشكوى الوحيدة التي تخرج منك تتعلق بقطعة أرض في أعلى القرية كانت هي الأفضل لتسمين الماشية. بدا لي أنك لا تفضل الرحيل إطلاقاً إذا لم تستطع أن تأخذها معك...

- وثرثرة لا تنتهي من ذلك الانتهازي عن السوق الإنجليزي...

- ... كنت أنا من أرقدتك بالفعل يا كوران، ومع ذلك كنت كارها جدا للرحيل. كنت بالقطع تمر بسكرات الموت. وفي كل مرة كنت أوشك فيها على إغلاق عينيك، كنت تصحو مرة أخرى. جئت زوجتك نبضك وقالت: «لقد انتهى، ليرحمه الله!» وقال بيح بريان الذي دخل للتو: «يا إلهي! لتنعم روحه بالهدوء والإبحار الطيب! لقد حصل على حق عبوره أخيراً. والله كنت أظن أنه لن يبحر قبل أن يأخذ ابنة رود إند معه على المركب.»

فقلت أنا نفسي: «عسى أن يكون فراشه منيراً في الجنة الليلية!» وأمرت بإعداد حوض من الماء. لكنك صحت في هذه اللحظة ذاتها! وقلت: «تأكدني أن توم لن يحصل على الحيازة الكبيرة. أفضل أن أراها والرياح تذرهما، إلا إذا تزوج امرأة أخرى غير ابنة رود إند...» ورفعت جسدك

قليلاً وقلت لزوجتك: "لو وضع الابن الأكبر يديه على الأرض، أقسم بكل شياطين الجحيم أن شبحي سيكون في ذيل ثوبك ليلاً ونهاراً! أليس من المؤسف أنني لم أنهب إلى محام وأكتب وصية واضحة!..."

ثم نهضت مرة ثالثة وقلت: «ذلك الجاروف الذي استعارته ابنة توماشين، وقت بشارت البطاطس، فليذهب أحدكم ويسترده، لأنهم لا يملكون الأمانة الكافية لإعادته من أنفسهم. فليخوزقهم الشيطان! وتأكدي من إقامة دعوى على جلاتون لتركة حميره تقحم حقل شعيرنا، وإذا لم تحصلني على تعويض يرضيك في المحكمة، ففي المرة التالية التي تمسكين بها داخل سورنا، دقي مسامير حدوة الحصان في حوافرها. عسى أن يخوزقه الشيطان هو وحميره! لا تتهاوني ولا تتكاسلي أكثر من اللازم في التهوؤ قبل الفجر وابقِ عينيك ساهرتين على عشبنا، ولو أمسكت برود إند...»

- ظننت أن المرأة العجوز هي من كانت تسرقه...

- كلهم سيئون لا فرق بين أحدهم والآخر، هو وامراته العجوز وأبناؤهم الأربعة.

- ... كنت على وشك أن تسلم روحك عندما دخلت. ركعت بينما كانت الإبهاتات تتلى، حتى في تلك المرحلة كنت مازلت تهمهم. ظللت تقول: "جاك، جاك، جاك..." فقلت لنيل بودين التي كانت راكعة إلى جواري: «كم يتذكر الرجل المسكين جيداً جاك الفتى! كانا دائماً صديقين حميمين.» فقالت نيل: "فليمتحك الله قليلاً من العقل يا كيتي الصغيرة. إنه يقول بلاك بلاك بلاك!! الابن..."

- سمعت يا كيت أن آخر تحذير أعطته كاترينا بودين لابنها كان...
- أن يدفنها في مقبرة الجنين...
- أن يضع صليباً من رخام كوينمارا فوقها...
- رباها!
- أن يذهب إلى مانيون المحامي ويجعله يكتب خطاباً قوياً بشأن وصية بابه...
- أن يترك بيت توماس الداخل يسقط...
- أن يسم نيل...
- رباها! لا تصدقه يا جاك...
- أن يطلق ابنة نورا جونني إن لم تمت في ولادتها القادمة...
- أنت تهين الدين أيها الشقي الحقيق. سيكون المسيح الدجال قريباً هنا...
- آه! كان هناك هرج ومرج في كافة أنحاء القرية على الفور:
- "لقد سقط من فوق كومة الشعير."
- "لقد سقط من فوق كومة الشعير."
- "صاحبكم سقط من فوق كومة الشعير."
- ذهبت إلى بيتك على الفور. كنت متأكدة أنني سأجد جثة جديدة تماماً في انتظارني هناك. وبدلاً من ذلك وجدتك أنت نفسك هناك مثل برميل فارغ تحكي للجميع كيف انزلت قدمك اليسرى.

- قسماً بروحي يا كيت، انكسر فخذي نصفين.
- وما الفائدة التي استفدتها أنا من هذا؟ ظننت أنني سأجد جثة جديدة في انتظاري...
- لكنني مت يا كيت...
- ... لم أر قط برميلاً كبيراً فارغاً يرقد في فراش لقلقا كما كنت. كنت تضع ساقي على الأرض...
- عرفت يا كيت أنني أموت، وكنت أحاول أن أنهض وأذهب إلى قاتلي وأقتله. «اشرب ملء ملعقتين من هذه الزجاجة...»
- وحق دموع وجروح المسيح، على أي حال...
- تفحصتُ حلقك وقلت: «أين العظمة التي خنقتها؟» فقالت أختك: «أخرجها الطيب.» فقلت: «عسى أن تكون رحمة الله غامرة! لا ينبغي لأحد أن يكون نهما. لو لم تكن هذه المرأة نهما هكذا في أكل طعامها لما كنا نقوم بإبقاها الآن...» فقالت أختك: «لم تذوق نسيلة من لحم منذ عيد القديس مارتين⁽⁹⁾...»
- وحق دموع وجروح المسيح، ألم يقل بيغ بريان إنها كانت ستظل حية تلعب اليوم لو لم تطارد كلب كاترينا بودين وتطرده خارج البيت قبل وقت العشاء؟ قال: «كان مسعوراً من الجوع، حتى أنه كان من السهل عليه أن يقفز على قصبته الهوائية ويستخرج العظمة التي خنقتها...»

(9) الخادي عشر من نوفمبر. وكانت هناك عادة توجب إرفاق اللحم تكريماً للقديس مارتين، وهو ما تضمن بيع طير أو حيوان وحمل شاة الصليب بالدعاء فرق كل جبهة وكل بلب. وكان هذا يعني أنه حتى الأشخاص شديدي الفقر كانوا ياكلون اللحم مرة واحدة في السنة على الأقل. (س. هيرمان ترجمة في الإنجليز)

آه! بريان الحقير!

... كان الوقت صيفا، وكان العرق متخثرا في جلدك، قالت أُمي:

"لم يكن من الممكن أن يفوح إلا برائحة العرق. كان ابني المسكين صعبا أحرق، وهو ما يبدو عليه الآن جليا. أن يبثلي نفسه بالذهب إلى دبلن على دراجة قديمة، والنوم في العراء في الليلة ذاتها! أمل ألا يتخذها الرب بيئة ضده..."

آه! لو ظلت حيا بعد ذلك اليوم شهرا واحدا لرأيت كونكانون يهزم كيري...

قي عام 1941، أليس كذلك؟ لو كان...

... لقد شيعتني أنا وماجي فرانسيس. دعكنا وفركناك، ودعكنا وفركناك، لكن بلا فائدة. قلت في النهاية لماجي: "هذه البقع ليست قذارة على الإطلاق." فقالت ماجي: "هناك خمس أو ست منها." فقالت ابنتك: "إنها شعارات لا بد أنها تتعلق بهتلر." ألسنت الآن بالمرأة النشأية لاني لا أستطيع تذكر ما أسمتها...

وشم.

صليان معقوفة...

تلك هي الكلمة، وحق كل ما هو مقدس. لقد أهدرنا ثلاثة قدور من الماء المغلي فوقك، وأربعة أرتال من الصابون، وعلبتين من مسحوق رينسو، وقطعة كبيرة من صابون ماركة القرد، ودلوين من الرمل، لكننا لم نستطع إزالتها. ليس مهما، لكنك لم تُبدِ أقل قدر من الامتنان بعد كل الغناء الذي جلبته لنا...

كنت لأجلب عليكما المزيد من الغناء، لولا الطراد جراف شبيهي

لأني كنت سأوشم كل جزء صغير في جسدي. كان هتلر يستحق هذا وأكثر.

قالت ماجي: "يا الله! فلينهب إلى السعير! اتركها..". فقلت: "لا يمكن أن يُترك ليمضي بهذه الحالة. أليس مجدورا كخطاب ضال مليء بالأختام! ضعي قدرا آخر من الماء على النار، باسم الله." وتصادف أن دخل بيغ بريان في تلك اللحظة ذاتها وقال: «بيدو لي أنكما تريدان أن تسلقا الرجل المسكين كخنزير ميت...»

آه! كان هو من يستحق السلق، وكان ليغدو مسلوفا قبيحا كما هو!

... تماما مثل الشخص الآخر، استنفدت طاقتي في غسلك. لم يكن هناك جزء مهما صغر في جسدك دون أن يتغطى بالبحر. قلت: «هذا الرجل أشبه بامرء تركوه منقوعا في حوض من البحر...» فقالت أختك: «لعله كان كذلك. فالبحر هو ما قتله. كان يمتصه في رتيته من الصباح إلى المساء ومن المساء إلى الصباح...»

أصيب بشد الكتابة العظلي، كما قال...

أيا كان ما أصابه، فقد جلبه لنفسه. كان مهرطقا أسود. لم يكن ينبغي السماح بدخوله إلى الأرض المكرسة إطلاقا. من العجيب أن الله لم يجعل منه عبرة...

... تتسمت راتحتك بمجرد دخولي عليك الحجر. فقلت لزوجة كوران: "هل انسكبت جعة سوداء أو شيء كهذا هنا؟" فقالت: «لا علم لي.»

ولا عجب: رجل اعتاد أن يشرب اثنين وأربعين قدحا...

- ... لقد تركوك وقتنا أطول من اللازم وجعلوا جسدك يبرد. وهناك رقدت، كتلة متييسة، وأربعة منا يعملون عليك دون جدوى. قال بيج بريان: "دعوا أحدهم يذهب ويأتي بمطرقة زوجك وسترين كيف سافروا ركبتيه..." فقال ابن الساق السوداء: "وحق دموع وجروح المسيح، ألم يسرقها منه رود إندا..."
- كان هو من سرقها بالفعل، مطرقة جميلة...
- ... سلة البطاطس التي جلبتها من الحقل العمومي تركت أثرها على عرض ظهره يا جون ويلى...
- عندما كنت أريحها عن كاهلي داخل البيت، انزلق الحزام وسقطت السلة مائلة. شعرت بألم خفيف في جنبي. وبدأت الخزانة في الرقص. ذهبت الساعة من الحائط إلى المدخنة، وذهبت المدخنة إلى الباب، والمهر الذي كان أمامي مباشرة في المرعى ارتفع في الهواء وهبط الدرب ومنه إلى الطريق. قلت: «المهراء» وتوجهت نحو الباب لألحق به، القلب...
- شممت رائحة الفراش منك على الفور يا مارتين يا مجدور الوجه...
- صدقُ إندا، كانت تقروح الفراش هي ما أنهت عليّ...
- لا يرضيني أن أنشر هذا يا شاعر، لكنك كنت مغطى بطيقة من القذارة من قمة رأسك إلى أخمص قدميك...
- ... إنها "رماده المقدس" ليخزوقه الشيطان، ذلك الشقي الوقح! لم يغتسل قط...
- أزلناها عنك أنا وعمتك، حتى لم يبق إلا بقعة على فخذك. لم نستطع إزالتها. قلت لعمتك: «القذارة ملتصقة به كالكلاب هنا. نحتاج

- لم تكن هناك قطرة من شراب في جوفي يوم مت، ولا حتى مقدار قطرة بحق الشيطان!...
- الحق ما تقول. لم يكن هناك شيء. كانت تلك واحدة من حيل كيت الصغيرة، النمامة القذرة. كانت تتوق لشراب، عندما قالت هذا لزوجة كوران...
- ... كانت تلك هي عنتي يا كيت الصغيرة. قهوة جوان البياعة. لقد عفنت أحشائي...
- ... كانت ساقاك جافتين كالخشب اليابس، وبهما كدمات سوداء، وتصدران صريحا كبقرة مريضة بعرج المستنقع...
- قباقيب جوان البياعة بالتأكد...
- أظن أنه لم يكن بمقدورك أن تذهبي بعيدا إلى جورت ريبوك يا كيت الصغيرة. لو كنت قد رأيت قدمي نورا جوني، التي لم ترتد قبقبا قط! هذا بالطبع إن صدقنا كلام كاترينا...
- اخرس أيها الشقي الحقيير...
- ... في اللحظة التي وصلت فيها إلى الباب شممت رائحة بطاطس محروقة يا كيتي. قلت: "أبعدوا هذه البطاطس المحروقة حتى يتم إعداد المية"، فقال ميشيل: "لا توجد بطاطس في الرماد، وكنت أتمنى لو لم يوجد أي منها منذ الصباح أيضا. لقد أكلت بطاطس محروقة أكثر من اللازم. كانت ثقيلة للغاية على معدتيها. لقد صنعت صخرة من الرماد في جوفها..."
- وحق دموع وجروح المسيح إنها لقصة! لقد تمددت كيتي فقط، دون أثر من حياة باقية...

- إلى دلاء من الماء المغلي والرمل.. وكانت أمك قد خرجت لتبحث عن أكفان.. وجاءت في تلك اللحظة ذاتها فقالت: «هذه شامة. في كل مرة كانت تأتي لولدي العزيز نوبة من الشعر كان يحك نفسه في هذا الموضع وكانت الكلمات تأتي بصعوبة كبيرة...»
- كان سمينا، كان رخوا، كان كتلة من شحم الخنزير. لقد بذلنا مجهودا رهيبا كي نحمله إلى هنا أصلا.
- لم أر قط جثة من الصعب إغلاق عينيها أكثر من جثة رود إند. وضعت إبهاما على عين، ووضعت امرأته العجوز إبهاما على الأخرى، لكن ما إن كنت أغلق ناحيتي حتى تنفتح ناحية المرأة العجوز...!
- ليرى إن كانت هناك أي مطرقة عابرة سبيل...!
- أو أي طحالب متجرفة...!
- ولم أشم قط رائحة عطرة مثل تلك التي فاحت من السيدة مديرة مكتب البريد...!
- إنها رائحة العقاقير التي كانت تستخدمها لفتح الخطابات وختمها من جديد. كانت الحجرة الخلفية أشبه بصيدلية...!
- إطلاقا! كانت الغلاية تقوم بالأمر على خير وجه. العطور من أجل حوض الاستحمام. وقد أخذت حماما قبل أن أموت مباشرة...!
- هذا صحيح يا مديرة مكتب البريد. لم تكن هناك حاجة لغسل جثتك على الإطلاق...!
- لا تعرفين إن كانت هناك حاجة أم لا يا كيت الصغيرة، يا ربي! لو لمست جثتي مجرد لمسة لأقام وزير البريد والبرق عليك دعوى

قانونية...

- ... أيا كان من أرقك أعتقد أنه شم رائحة نبات القراص الذي يملأ قرية دوناه وهو يفوح منك...!
- حتى هذا كان أفضل مما فاح منك...!
- لم أر قط جثة أنظف من جثة جاك الفتى. لم يجرؤ تيبس الجثث حتى على لمسه. كان مثل الوردة. كنت لتظن أن جلده حرير. كنت لتظن أنه رقد للتو ليأخذ استراحة... ليس هذا فقط، بل إن كل غرزة من الثياب التي وضعت عليه كانت صافية البياض مثل ذلك «الدقيق» الذي نثره على الإبرل عند باب الكنيسة صبيحة يوم زفافه! بالطبع لم يكن من الممكن السماح بدخولها إلى بيت نيل بودين لو كانت غير هذا...!
- العاهرة! المتطفلة الصفيقة!
- يقولون يا كيت إن جثة كاترينا لم تكن...!
- جثة كاترينا! تلك المرأة! لقد أرسلوا إليّ، لكني لم أكن لأذهب قرب جثتها أو أمر بجوارها...!
- رباها!
- كانت لتقلب معدتي...!
- رباها! كيتي الصغيرة، المتطفلة! كيتي الصغيرة، المتطفلة! سأنفجر! سأنفجر!...

سهلا عليها - مع أموال الشمطاء العجوز السهلة.

لم يخن جاك الفتى أغنية واحدة في ذلك اليوم الأخير. لقد فقد حماسه تماما. لا عجب، بعد أن قضى حياته مع تلك العاهرة. وكل الاحترام الذي أبدته له في النهاية كان الحصول على إنجيل القديس يوحنا لتودي به إلى حتفه!...

عندما أخبرته أنه لم يقل كلمة قط في ذلك اليوم الأخير غير «سيعاقبنا الرب...» «أظن أنه في حالة غضب عارم الآن بسبب الطريقة التي عاملته العاهرة بها... والمغفل لم يلاحظ شيئا على الإطلاق هو نفسه. كان دائما وأبدا لا يحمل مكرًا. وإلا لأدرك أن هذه الحقيرة ذات المفاصل المتيبسة نيل كانت تلعب عليه عندما طلبت منه الزواج. قالت: «لديّ جاك، وستترك بيج بريان لك يا كاترينا»... لكنني أقرب إلى جاك الآن منها. يمكنني الحديث معه كلما أردت...»

لولا أن باتريك أنصت لابنة نورا جوني لدُفنت في مقبرة الجنين إلى جواره. جوان البياعة سليطة اللسان تلك إلى جواره الآن. ستطلق عليّ اسما بذيئًا. لقد أخبرتني بالفعل من الأكاذيب ما يتختم البطن. لذا هو يشعر بكل هذا التفور. لا يهمني، لكن تلك الغانية سلية ذوي الأقدام المتسخة تحاول غوايته كي ينضم إلى جمعيتها! وسارة الثرثرة وكيت الصغيرة يتوحان للأبد من جنازته. يظن المرء أن الرجل المسكين كان مسؤولًا عن موتهما. ليس هذا فقط، بل يكيلان المديح للعاهرة التي أنهضتهما من فراشيهما...

ماجى فرانسيس وكيتي آكلة البطاطس المحروقة، فليصّب الشلل اسانيهما، يمتدحان نيل أيضًا، وكذلك بريد تيري وجون وبيلي، والفاشل

... لا يوجد إله في الأعلى وإلا لعاقب هاتين الاثنتين على هذا! هذا بديهي! لم أشعر بألم عنيف. قال الطبيب إن الكليتين لن تقتلاني لبعض الوقت. لكن تلك العاهرة نيل أخذت بالمداخلة إنجيل القديس يوحنا من القس لأجل ابنة نورا جوني، وجاءتا لي بتذكرة نهاب فقط إلى هذا المقر، كما فعلتا مع جاك الفتى، الرجل المسكين. كان واضحا لأي عمود خشب في المستنقعات أنه لولا حيلة ما كانت تحاك لجاءت ابنة نورا جوني إلى هنا في ولادتها التالية. وبدلا من ذلك، فارقتها الألم والمرض تماما...

وبالطبع لم يكن هناك غبار على تلك العاهرة! كانت تعرف أنه طالما ظل هناك نفس أخير في جسدي كنت سأظل أرد لها الضربة مقابل الضربة بشأن وصية بابة وأرض توماس الداخل. لكن يمكنها خداع باتريك عن مكثون قلبها...

ألقا جنينه. منزل مسقوف بالإردواز. سيارة. قبعة... قال ابن الساق السوداء إن باتريك سيحصل على حفنة من المال، لكن ما تقع هذا إذا كانت الوصية بأكملها لا تؤول إليه! فليحرق الله تلك المرأة وراء البحار، أتمنى لو كانت قد تركت كل قرش لديها للقساوسة!...

ثلاثة وعشرون جنينها من مال المذبح لأجل جاك الفتى. وهي لم تُخرج شلنا من بيتها قط لأي جنازة... قداس كبير. قساوسة. الإيرل. لورد كوكتون. أربعة أنصاف براميل من الجعة السوداء. ويسكي. لحم بارد... وكم أجادت المتأمرة الحقيرة التفتكير بإشعال اثنتي عشرة شمعة فوقه في الكنيسة! ليزيد عني بوحدة. وماذا غير ذلك؟ لم أكن لأضن على جاك المسكين بأي شيء، لكن العاهرة فعلت ذلك لمجرد الاستعراض. كان

أحمر الشعر ومارتين مجدور الوجه. لكنهم لا يفتحون فمهم ليخاطبوني لأنني لا أمتدحها. لا. ولا حتى كلمة. تظن كما لو أن الحديث إليّ يجلب سوء الحظ! تظن أنهم يحاولون تجنبني. وأنا أحب أن يأتي أحدهم إليّ مباشرة ويخبرني في وجهي مباشرة... هذه المقبرة الآن أسوأ من تلك الأماكُن التي كان يتحدث عنها الرجل الفرنسي منذ يومين: بيلسن، وبوخنفالد، وداخاو...

- ... لو كنت حيا، حقا، لحضرت جنازتك يا جاك الفتى. كنت مدينا بهذا لـ...

- انتظر الآن يا صاحبي الطيب. هل سمعت أبدا باللقب الذي أطلقه كونان على أوسكار؟...

- وحق بلوط هذا التابوت يا سارة الثائرة، لقد أعطيت كاترينا الجنية، ولم أر منه حتى قرش واحد...

- أنت تطلقين الأكاذيب، يا صاحبة المؤخرة الجريئة! مارجريت! مارجريت! هل سمعت ما قالته شمعاء البطاطس المحروقة مرة أخرى يا مارجريت؟ مارجريت. أقول! يا مارجريت! لماذا لا تردين عليّ؟... مارجريت، أقول... أن تتكلمي؟ تقولين إنني ثائرة!... أني أسعد يثارة العراك!... تقولين إنه كان هناك سلام وهدوء في طين المقابر حتى جئت! عار عليك يا مارجريت أن تدمري سمعة شخص هكذا!... المكان أشبه بمأدبة بريكيرو⁽⁹⁶⁾ بسبب أكاذيبي! والآن يا مارجريت، هكذا الأمر إن! لم يكن عليك أن تغادري كوخك الحقيق لتجدي حزمة من الكذابين. أنا لم أنطق قط بالأكاذيب أو

أنشر الشائعات، والحمد لله على هذا!...

يا مارجريت! هل تسمعيني؟ كان أهلك هم عصابة الكذابين.. لن تعيري اهتماما لسفاهتي من الآن فصاعدا، أهكذا؟ سفاهة، وحق الدعارة! إنها الحقيقة العارية! يا مارجريت! مارجريت!... ولا كلمة إن! أهلا يا مارجريت!... لماذا لا توقظين لسانك؟

يا كيت الصغيرة!... كيت الصغيرة!... هذا ليس من أخلاق الجيران يا كيت الصغيرة... جون ويلي!... هل تسمعني يا جون ويلي؟... ولا حتى كلمة!...

أهلا يا بريد تيري!... بريد تيري!... قولي لي يا بريد تيري، ماذا فعلت أصلا لأضايقك؟

مارتين يا ذا الوجه المجدور!... مارتين! كيتي!... كيتي!... هذه كاترينا. كاترينا بودين تحدثكم... كيتي، أقول!

جاك! جاك!... جاك الفتى!... أهلا يا جاك الفتى، إنها أنا، كاترينا بودين... يا أهل مقبرة الجنية، نادوا جاك الفتى! قولوا له إن كاترينا بودين تناديه! جاك، أقول!... جوان البياعة، جوان! ليباركك الله يا جوان، ونادي لي جاك الفتى!... إنه إلى جوارك هناك... جوان!... جاك!... جاك!... سأنفجر، سأنفجر، سأنفجر، سأنفجر...

96- حكاية أسطورية أيرلندية عن بريكيرو المشاعب الأصل الذي يدعو نيلام مملكة أوليان إلى مأدبة في بيته ويعرض ثلاثة من الأجمال الماضرين على الفور بقب بطل المأدبة.

- *Monsieur Churchill a dit qu'il retournerait pour libérer la France. Vous comprenez, mon ami?...⁽⁹⁷⁾*

- إنه يفقد لغته الأيرلندية مرة أخرى وبسرعة، منذ أن التحق بمستوى أعلى من التعليم...

- ... سقطت من فوق كومة الشعير يا ستيفن معسول الحديث...

- بأذنيّ الاثنتين سمعت «هاو هاو»⁽⁹⁸⁾ وهو يتعدد بالانتقام لإغراق جراف شيبي...

- ... جاء الجزار الكبير إلى جنازتي يا ستيفن معسول الحديث...

- ... هتتر بنفسه سيأتي إلى إنجلترا ويديه الاثنتين سيحشو قنبلة صغيرة في حجم رغيف خبز داخل هذا البطون الممتلئ جيذا الخاص بتشرشل...

- ... تقديم المساعدة الروحية للناس هو ما أفعله. لو تحتقد أنك بحاجة لمساعدة روحية في أي وقت...

- لن أحتاج، وها أنا أقولها لك، وأحذرك في الوقت نفسه يا ابنة بيغ كولم، كي تتركي الهرطقات السوداء هنا لي، وألا تدسي أنفك في العمل بأي طريقة، وإلا قسما بروحي...

97- قال السيد تشرشل إنه يعود لتحرير فرنسا. هل تفهم يا صديقي؟

98- لقب ويليام جويس، الذي كان يذيع الدعاية النازية الموجهة لبريطانيا وأيرلندا وجرى إعدامه بتهمة الخيانة في سجن والتزوروث، عام 1946. (بن هوانان الترجمة إلى الإنجليزية)

- السماء ملكي، والبحر، والبر...

- وأنا ملكي الجانب الخلفي، الجانب السفلي، الجانب الجواني، الأعماق الدنيا. لديك فقط الحواف والأعراض الزائلة...

- الشمس الوهاجة، والقمر الساطع، والنجم اللامع ملكي...

- وأنا ملكي الأعماق الغامضة لكل كهف، والقاع الوعر لكل هاوية، والقلب المظلم لكل حجر، والأحشاء المجهولة لكل طين، والأوردة الخفية لكل زهرة...

- دقة الجنوب، والضياء، والحب، وحمرة الزهر وضحكة الفتاة العاشقة ملكي...

- وأنا ملكي زهرير الشمال، والظلام، والشقاء، ومنظومة الجذور التي تبعث النماء لأوراق الورد، وشبكة الأوردة التي تأخذ دم الكأبة الفاسد ليتفجر على الوجنة المبتسمة...

- البيض واللحاح والبذور والمحصول ملكي...

- وأنا ملكي...

- ... فليحل المولى بيننا وبين أي أذى، لو انزعلت إنجلترا هكذا، أين سيجد الناس سوقاً؟ لا أرض لديكم عند أعلى القرية...
- *Mon ami ... les États Unis, la* المتحدة، إنجلترا، *Russe, et les Français Libres* ضد... *des Boches nazifies*... *quel est le mot*... ضد بربرية ⁽⁹⁹⁾ بيلسين... لقد حكيت لك بالفعل عن معسكرات الاعتقال، بيلسين...
- فيل بودين في صف تشرشل. صيادو الطيور والسماك من إنجلترا، بالطبع...
- كانت دائماً خائفة، المومس الحقيرة! يحيا هتلر! يحيا هتلر! يحيا هتلر! هل تعتقد أنه لو جاء سيسوي بيتها الأرض؟
- مديرة مكتب البريد في صف هتلر أيضاً. تقول إن مديرة مكتب البريد هي موظفة إدارية لها أقصى الأهمية في ألمانيا وأنها لو تشككت في أحد فإن جزءاً من واجبيها أن تقرأ خطابات ذلك الشخصى...
- بيلي البوسطجي أيضاً في صف هتلر. يقول...
- آه، المدعي الحقيير الأشعث! وماذا كنت تنتظر منه غير ذلك؟ بالطبع، هذا الشخص لا يؤمن بالملكية الخاصة ولا بمعايير العيش التقليدية التي نحبها في أوروبا الغربية. إنه شيوعي، معاد للتقاليد، ثوري، مسيخ دجال، حقيير سافل وغد، روح شريرة تماماً مثل هتلر نفسه. يحيا تشرشل!... اغلقتي فمك المتبجح يا نوراً جوني! أنت عار على جنس النساء! تقولين إن هذا الوجد

99- يا صديقي... الولايات المتحدة الأمريكية، روسيا، والفرنسيون الأحرار... ما هي الكلمة...
الفرنسيون الأحرار...

- شخص رومانتيكي...
- أحسنت قولاً يا أستاذنا! فلنقلها لغذورة نسل متسخي الأقدام ساخنة وثقيلة الآن!...
- يقول توم أحمر الشعر عن توماس الداخل...
- توماس الداخل؟ في أي صف يكون توماس الداخل؟ رجل حكيم من يقول في أي صف يكون توماس الداخل...
- ... أتظن أنني لا أعرف هذا؟...
- لا أحد يمكن أن يعرف الأمر على نحو صحيح إلا شخص من نفس القرية مثلهم... كان توماس الداخل مغرماً بذلك الجحر المسمى كوخه كما يمكن أن يخرم ملك بعرضه.
- والله يا عزيزي، لقد تركوا كوكي يسقط فوقي في النهاية!...
- رباها! توماس الداخل هنا!...
- كان التسرب من السقف يضريني بين الفم والعين، مهما نقلت الفراش داخل البيت. خذلوني بطريقة سيئة. خذلوني يا عزيزي. كاترينا لديها ابن كسول وفيل لديها ابن كسول آخر، ولو لم يكونوا بشس الأهل لوضعوا القليل من قش التسقيف على كوكي!...
- توماس الداخل مدقون في مقبرة الخمسة عشر شلنا يا كيتي!...
- نعم بالفعل يا بريد، توماس الداخل في مقبرة الخمسة عشر شلنا!...
- أقل ما كان يمكنهم فعله هو دفنه في مقبرة الخمسة عشر شلنا. لديهم قطعة أرض، وسيحصلون على حفنة مال من التأمين.

كان يزور فيه نيل مر بي في الدرب بينما كنت في طريقي إلى
بيتر الخُمار من أجل قليل من التبغ...

التبغ في حانة بيتر الخُمار أفضل من أي مكان آخر...

هو كذلك يا عزيزتي كاترينا، وأرخص بنصف قرش. قلت: «صدق
إذًا، هذه المرأة المسكينة هنا ضعيفة وأهنة يا سيدي القس...»

أيها المتجحجج!...

قال: «لا يبدو أنها بخير. إنها طريحة الفراش منذ زمن طويل. إلى

أين أنت ذاهب الآن يا توماس الداخِل؟» قلت: «ذهاب لآتي بقليل
من التبغ يا سيدي القس...» قال: «سمعت يا توماس الداخِل أنك

مولع بهذا المكان هناك، وأنت لا ترفع رأسك عن الشراب إطلاقًا...»
أه، أخبرته العاهرة. كانت دائما خائنة...

قلت: «والله يا سيدي القس أنا أشرب جرعة زائدة قليلا، كما
يشرب أي شخص آخر.» فقال: «الجرعة ليست مشكلة يا توماس

الداخِل، لكن قيل لي إنه في إحدى هاتيك اللبالي سيعثرون عليك
ميتا في الطريق إلى البيت.» قلت: «لا مشكلة لديّ يا سيدي القس،

لم أشعر قط بألم أو وجع، والحمد لله، وبالطبع الآن لديّ الآن
تحت أقدامي ذلك الطريق الجديد الصاعد مباشرة إلى بيت نيل.»

سيدمر هتلر ذلك الطريق من جديد، بعون الله!

قال: «نصحتي لك، وهي لصالحك يا توماس الداخِل أن تبعد
عن ذلك المكان هناك قدر ما تستطيع، وتكف عن نوبات شريك.

إنها ليست جيدة لك في هذه المرحلة من حياتك. وهؤلاء القوم
هنا لديهم ما يكفيهم من مشاغل دون الحاجة للخروج كل ليلة

لكن نورا جوني تقول إن باتريك لم يستمر في دفع الأقساط بعد
موت أمه.

إنها كاذبة لعينة! العاهرة متسخة القدمين!...

حتى لو استمر في دفع الأقساط لن يعرضه التأمين عما أنفقه
على توماس. لقد نجبت كل صلوات كاترينا من أجل موته سدى.

سنسأل مندوب التأمين...

هل أنت هنا منذ وقت طويل يا توماس الداخِل؟

والله لقد استقر بي المقام هنا منذ قليل يا عزيزتي كاترينا. لم
أشعر قط بألم أو وجع، ومع ذلك أليس من الغريب أنني مت مع

ذلك؟ لقيت حتفي مثلما يلقي الجميع حتفهم تماما. سأخبرك بما
قاله لي الطبيب...

ليس من المهم على الإطلاق الآن ما قاله الطبيب لك. نيل دفنتك
أولا...

إنها ليست بخير يا كاترينا. ليست بخير. لقد قضت ثلاثة أسابيع
أو شهرا في الفراش، لكنها شفيت تماما الآن...

بالطبع تفعلها، العاهرة!...

وانظري لحالي يا كاترينا، أنا الذي لم أشعر قط بألم أو وجع،
أليس غريبا أنني مت مع ذلك...؟

هل كنت تظن أنك ستعيش إلى الأبد؟

حسنا، إحقاقا للحق اعتقدت أنني سأفعل يا كاترينا، ولم يكن
القس راضيا عني على الإطلاق، بالتأكيد لم يكن. في اليوم الذي

لإحضارك إلى البيت...

يا ربنا الرحيم في الأعالي تلك العاهرة الحقيرة المتبجحة طوته تحت جناحها. لكننا لن تطوي هتتر بهذه السهولة...

قلت: «بالله يا سيدي القس، ألا يملكون سيارة!» فقال: «وإن كان يا توماس الداخل، البنزين لا يوجد في حفر المستنقع. انظر إليّ وأنا مضطر للتجول بدراجتي كما قيل لي يا توماس الداخل إنك أشبه بعربة التسوق في المحلات، تتحرك جيئة ونهايا بين البيتين.» قال: "من الأفضل أن تفكر الآن يا توماس الداخل في التحلي بقليل من الحس السليم في هذه المرحلة من حياتك وتستقر في بيت واحد من الاثنين، أتمنى لك التوفيق من الله يا توماس الداخل." قال: "ولا تدع نصيحتي تدخل من أذن وتخرج من الأخرى." قلت لنفسى: "إذا كان الحال كذلك، لن أزعجهم بإحضاري إلى البيت كل ليلة من الآن فصاعدا. هناك قساوسة أكثر من اللازم حول هذا البيت. هم وقساوستهم!..."

لم تتطق بكلمة كذب واحدة يا توماس الداخل...

عدت إلى رأس الدرب من جديد، وانطلقت هابطا نحو بيت باتريك. والله، لن تصدقي هذا، لكن فجأة لم أعد قادرا على السير ولو خطوة، أو الحديث ولو بكلمة. كان نصفي ميتا والنصف الآخر حيا. لم أشعر قط بألم أو وجع يا كاترينا، ومع ذلك أليس من الغريب أنني مت!...

أن تنفجر كعجلة دراجة على جانب الطريق! نيل هي الشوكة التي فعلتها بك، أيها الرجل البائس المسكين!

لم أمت على جانب الطريق يا عزيزتي. مر بيتر ابن نيل في تلك اللحظة ذاتها وأقطني بسرعة إلى بيته في السيارة. لولا ذلك لمت في بيتك يا كاترينا. لكنني كنت في الفراش في بيت نيل قبل أن أستعيد قدرتي على الكلام، وعندئذ فكرت أنه سيكون من الوقاحة أن أطلب منهم أخذي إلى بيت باتريك.

لم يمر يوم واحد من حياتك لم تفعل فيه شيئا غيبيا يا توماس الداخل...

عشت بعدها فقط لمدة عشرة أيام أو نحو ذلك. صدقي إذا، كان كلامي يروح ويجيء، وأعتقد أن القس لم يكن ذا عون كبير لي. لم أشعر قط بألم أو وجع...

لم تعط لنفسك سببا قط يا كسول...

والله يا كاترينا يا عزيزتي، كنت أقوم بأعمال شاقة. صدقيني، عشت حياة صعبة...

صدّق إذا أو لا تصدّق يا توماس الداخل، لم تكن لصالحك. عشت حياة صعبة بسبب شريك وتناقضاتك...

صدّقني إذا، كي أكون أمينا في الأمر يا كاترينا، أظن أنني عانيت من دوار السكر يوم السبت الغريب ذاك، الذي أعقب الجمعة...

صدق إذا أنك كنت كذلك بالفعل يا توماس الداخل، كل سبت، وكل أحد، وكل اثنين، وفي كثير من أيام الثلاثاء والأربعاء أيضا...

لسانك جاهز دائما يا كاترينا. كنت أقول دوما إن نيل لديها قلب عطوف أكثر بكثير منك...

أيها المتبجح!...

- صدقي إذا، قلتها يا كاترينا. كنت أقول: "كاترينا لا تعطني بي قيد أنملة إلا نكاية في نيل.." كان ينبغي أن تري العناية التي منحنتي إياها نيل عندما كنت راقدا مريضا يا كاترينا، طبيبان...
- أتت بهما لأجلها يا توماس الداخل، هو-مو، لا غبار على هذه الآفة الحقيرة!...
- بل أتت بهما لأجلي بالفعل يا كاترينا، وفي اللحظة التي أحضروني فيها إلى بيتها، نهضت من فراشها لتعنتني بي...
- نهضت من فراشها!...
- صدقي إذا أنها فعلتها يا كاترينا، وسهرت...
- آه أيها السانج! أيها السانج! مثلت عليك حيلة من حيلها! مثلت عليك حيلة من حيلها! بالتأكيد لم تشعر قط بألم أو وجع يا توماس الداخل...
- لا ألم ولا وجع فعلا يا كاترينا، ومع ذلك أليس من الغريب أنني مت مثل أي شخص آخر، والله، أعتقد أن القس لم يكن ذا عون لي...
- يمكنك أن تقسم على الكتاب المقدس أنه لم يكن يا توماس الداخل، تلك المرأة الحقيرة المغرورة أخذت منه إنجيل القديس يوحنا بالمداينة ذلك المساء، وأرسلتك في طرد إلى هنا بدلا منها، كما فعلت في جاك الفتى...
- أنتنيتين ذلك يا كاترينا؟...
- أليس هذا واضحا لك يا توماس الداخل! امرأة كانت راقدة على ظهرها طوال شهر كامل، تنهض كالفراشة هكذا! كنت تغازل الموت بالاتقرب من تلك العاهرة أصلا في أي وقت، لو كنت أقمت

- في بيت ابني باتريك لكنت حيا وسليما اليوم، لكن ماذا فعلت بقطعة أرضك؟...
- والله يا كاترينا يا عزيزتي، تركتها لهما هما الاثنين: لباتريك ونيل...
- تركت نصفا لكل واحد منهما أيها المغفل عديم النفع!...
- والله لم أفعل يا عزيزتي، لم أفعل، ولا أي شيء من هذا النوع، كنت أقول لنفسي هكذا، يا كاترينا، كلما استعدت قدرتي على الكلام: «لو كانت أكبر من هذا، لم أكن لأضن بالأرض كلها على أي منهما، إنها لا تستحق تقسيمها لأصاف. كان بيع بريان دائما يقول إنها لا تستحق التقسيم...»
- بالطبع كان ليقول هذا، على أمل أن تتركها كلها لابنته...
- "سيكون علي أن أتركها لباتريك ابن كاترينا.." هكذا كنت أقول لنفسي.. "كنت لأتركها له على أي حال لو تمكنت من الوصول إلى بيته قبل أن أسقط، لكن نيل كانت دائما عطوفة القلب، ليس بمقدوري إلا أن أتركها لها، باعتبار أنني مت في بيتها..."
- آه أيها الأحمق عديم النفع! أيها الأحمق عديم النفع!...
- كان القس هناك، يسجل ما قلته، كلما وجدت قدرة على الكلام، فقال: «اجعلها نصفين يا توماس الداخل، إما هذا أو اتركها لبيت من الاثنين»
- لماذا بحق الشيطان يا توماس الداخل لم تستطع أن تفعل شيئا أفضل قليلا من هذا؟! لماذا لم تفعل الشيء الصحيح وتذهب إلى صانئون المحامي في برايت سيتي؟

لباتريك ابن كاترينا ولنيل جوني.. لن أضن بها عليكما." قال القس: "كلامك لا عقل فيه ولا منطق يا توماس الداخل، وسيتهي به الأمر بمشاحنات وقضايا، لولا الحس السليم لدى هؤلاء الناس المحترمين..."

ناس محترمين! آه...

ولم أستطع أن أنطق كلمة من وقتها فصاعدا يا كاترينا. لم أشعر قط بألم أو وجع، أليس من الغريب أنني مت!...

لست ناقعا لأحد حيا أو ميتا أيها الأحق الضئيل الغبي!

اسمع يا توماس! هذا هو الخرف! هذا التشاحن مع كاترينا لن يصنع...

ماذا تقصدين بالتشاحن؟

هذا التأنيب لن يؤدي إلا إلى ابتلال عقلك. لا بد أن أؤسس علاقة معك. أنا مسؤولة العلاقات الثقافية للمقبرة. سأعطيك محاضرات عن «فن العيش».

ماذا؟ «فن العيش»...؟

مجموعة واعية منا هنا شعرت أن علينا واجبا تجاه زملائنا من الجثث، وأسسنا روتاري...

ماذا ستفعلون بالروتاري؟ انظروا لحالي!...

بالضبط يا توماس. انظر إلى حالك! أنت فحل رومانتيكي يا توماس. وكنت كذلك دائما. لكن الرومانسية لا بد أن تقف على ركائز من الثقافة، لكي ترفعها عن الفوضى الخالصة، وكي تجعل

والله يا كاترينا لم أستعد قدرتي على الحديث إلا في بعض الأحيان، وصدقي إذا، يحتاج المرء إلى صواميل في لسانه ليتبادل الحديث مع مانيون المحامي. وبعيدا عن هذا، يا كاترينا، لم أشعر قط برغبة كبيرة في زيارة مانيون ذاك... وكان ابنك باتريك موجودا وقال: «لا أريدها، لندي بالفعل الكثير من الأرض ملكي».

آه، ذلك الأحق الصغير! كنت أعرف أن نيل ستلتاعب به. إنه ضائع بدوتي...

أليس هذا ما قاله بيچ بريان؟!

بريان ذو الفم المنفوخ!...

في الحقيقة يا كاترينا، أرسل طالبا السيارة وجاء لزيارتي...

كي يساعد نيل في الحصول على أرضك. لولاما لما أتى من أجلك يا توماس الداخل. أرسل طالبا السيارة! كان منظرا جميلا في أي سيارة! لحية أشبه بلقائف من الصوف المفكوك. ضب بارز. كتفان مقوسان. أنف مسدود. قدم معوجة، مكسوة بالقدارة. إنه لم يستحم قط...

قال: «لو كانت الجشرية التي رقدت لتستريح هناك في المقابر موجودة هنا، لم تكن أنت أيها القس، بل مانيون المحامي من يرافق السيد الداخل مارين بالمغفل...» وضعت نيل يدها على فمه. ودفعه القس خارج باب الحجر... وقالت نيل: «نحن أيضا لا نريد أرضك يا توماس الداخل».

إنها كاذبة لعينة، المستغلة الحقيرة المغرورة! ولماذا لا تريدها؟...

قلت عندما استعدت قدرتي على الكلام: «سأترك قطعة الأرض

- أحدها الأقصى يخترق مروج كيوبيد في هذا القرن العشرين،
تماما كما قالت السيدة كروكشانك لهاري...
- انتظري هنا الآن يا صديقتي الطيبة نورا. سأحكي لك ما قاله
العاري الوثاب للردف للعقود في قصة «تمزيق العباءة»...
- الثقافة يا توماس.
- يا الله! لا يمكن أن تكون هذه نورا جوني من جورت ريبوك معي
هنا... أتساءل إن كنت سأبدأ في الحديث بهذه الطريقة في طين
المقابر. في الحقيقة يا نورا، كانت لديك طريقة (بلدي) عظيمة
في الحديث في الأيام الخوالي!...
- عزيزتي نوريقا، تظاهري أنك لا تسمعيه على الإطلاق.
- أهلا، دوتي! أهلا! سنجري حوارا صغيرا دافئا بعد قليل، حوار
فيما بيننا نحن الاثنان. درشة لطيفة ودودة فيما بيننا، كما
تعرفين، أهلا!
- كنت دائما مثقفة جدا يا توماس، لكنك لم تكن قادرا على معرفة
ذلك. كان هذا واضحا في أول *affaire de Coeur* أقمتها معك.
لولا ذلك لربما تمكنت من فعل شيء معك. أف! رجل بلا ثقافة!
ينبغي أن يكون الشريك رفيقا، سأعطيك محاضرة، بمساعدة
الكاتب والشاعر، عن الحب الأفلاطوني...
- لن يكون لي شأن بك يا نورا جوني. حقا لن يكون!...
- هذا هو عزيزي توماس الداخل!...
- كنت أخالط عليه القوم في بيت نيل جوني...
- أيها الأحق الحقير عديم النفع!...
- أه! هؤلاء الأجانب مصدر متعة هائلة يا كاترينا. كانت هناك
امرأة قصيرة صفراء بدينة تصيد السمك مع لورد كوكتون هذا
العام، وكانت تدخن كل السجائر التي صنعوها في العالم منذ
بدا الخليقة. كانت تفعل ذلك ومثلها أخت القس. تحتفظ بها في
علب كبيرة داخل جيوب بنطلونها. لقد كاد ابن رود إند يقلس في
محاويلته توفير السجائر لها. جزء وافقا لهذا الوغد. لكن لا بد أن
أقول إنها جميلة في حد ذاتها. جلست إلى جوارها في السيارة
وقلت: «مرحي يا نانسي»...
- علق يا توماس الخرف، عبارة عن طين نيء وممتلئ، لكني
سأعجنه وأقولبه وأحرقه وأصقله حتى يغدو وعاء جميلا للثقافة.
- لن يكون لي شأن بك يا نورا جوني بأي شكل من الأشكال. لا
شيء على الإطلاق. لقد اكتفيت منك. لم يكن بمقدوري أن أخطو
خطوة داخل حانة بيتتر الخمار دون أن أجدك في أعقابني، تشريرين
كالإسفنجة. لقد اشتريت لك الكثير من الأقداح المترعة، ولا أمنُّ
عليك بها!...
- عزيزتي نوريقا، تظاهري...
- أحسنت يا توماس! ليعنم عليك الله بالحياة والصحة! قلها لها
الآن ساخنة وثقيلة، قلها لنورا متسخة القدمين. تدور متسكعة
وراء الشراب كالإسفنجة! هل كنت موجود في حانة بيتتر الخمار يا
توماس الداخل في اليوم الذي سكرت فيه وهاجت كذكر الماعز؟...
- بارك الله فيك، احك للمقبرة عنها!...

- ... نُحِتْ عليكم جميعا يا أصحابي وأهلي وجيراني! يا ويلتاه، وا أسفاهه واحسرتها! نحّت عليكم جميعا، يا أهلي آه!...
- وإحقاقا للحق يا سارة الثائرة، كانت لديك ولولة باكية جيدة...
- يا ويلتاه، وا أسفاهه واحسرتها! سقطت من فوق تلك الكومة المرعبة، يا وييلي!...
- يظن المرء عندما يسمعكم جميعا أنه سقط من طائرة! لقد سقط فقط من فوق كومة شعيرا! وبالتأكيد لم يكن هذا ليقتل أي أحد إلا شخصا كان نصف ميت بالفعل. لو شرب الزجاجة التي شربتها!...
- يا ويلتاه، وا أسفاهه واحسرتها! شربت تلك الزجاجة القظيعة يا عزيزي آه!...
- أنت تتحدث كثيرا جدا عن زجاجتك. لو شربت اثنين وأربعين قدحا كما فعلت!...
- يا ويلتاه، وا أسفاهه واحسرتها! لن تشرب قدحا آخر دائما أبدا، آه! وكم من قدح كبير اندلق في بعلومك، آه!
- يا الله، لقد صنعت ثقبا في شمع أنني بأقداحك الاثنتين والأربعين! لو أنك استنشقت كل هذا العدد الكبير من براميل الحبر في رثتيك كما فعل الكاتب!...
- يا ويلتاه، وا أسفاهه واحسرتها! لقد رقد كاتبتي الطيب هنا دائما أبدا!

- ليبارك الله فينا ويحفظنا دائما أبدا، آه!...
- فرط العاطفة مرة أخرى!...
- نحّت عليك يا دوتي! يا دوتي يا حبيبتي، آه! ألم تلاقي حتفك بعيدا عن طين أرضك، يا ويلتاه! يا ويلتاه! وا حسرتها، يا حزني العظيم ويا عذاباتي السبعة، أخذوك غربا دون معرفة كبيرة! ألقوا بك بعيدا عن أقاربك وديارك! لاقيت حتفك قرب زيد الموج المتلاطم! سترقد عظامك...
- في الطين القاحل الذي لا ينبت غير القراص والطحالب الرملية...
- نحّت عليكم جميعا، يا أهلي آه!... يا حبيبي آه! يا حبيبي آه!... لن يكتب بعد الآن أبدا، يا ويلتاه!...
- لن نخسر بذلك شيئا على الإطلاق! مهرطق ملعون!...
- ... نُحِتْ عليك، بالتأكيد. لا شك في ذلك! يا ويلتاه دائما أبدا آه! قطعة أرض طيبة خصبة في أعلى القرية! لن يضع فيها قدما أبدا لحرث أو حصاد.
- هل قلت يا سارة إنه لا توجد أرض أفضل منها لتسمين الماشية؟ صدّقي إنّها فعلتها يا سارة. كنت أستمع إليك. وعندئذ بدأت تغنين "مرثية الفلاح الأيرلندي المطرود"...
- ... نحّت عليك أيضا نحّت عليك أيضا يا ويلتاه، وا أسفاهه واحسرتها! لن يعتلي السرج بعد الآن، ليس بعد الآن، فوق مهرة بيضاء الوجه، لا! أبدا آه!...
- آه! نظرت كاترينا بودين لها بعينها الشريرة!...

كل هذا العدد من المسامير في لسان مانيون المحامي، لذهبت
 كاترينا إلى محام آخر من أجل وصية بابة...“
 رياه عرق اليوس الثرثارا!...
 في تلك اللحظة ذاتها ظهر بيلى على قمة السلم وقال: «فليصعد
 أربعة منكم لحمله..»
 أتذكر هذا جيدا. فقد التوى كاحلي...
 قلت يا سارة الثرثارة: “ليس من اللائق ترك الأستاذ الكبير يغادر
 البيت دون ذرف دمعة عليه..» وصعدت السلم من جديد. لكن
 بيلى أوقفك وقال: «سيكون عليه أن يذهب إلى المقبرة، لم تعد
 هناك فائدة من بقائه هنا أكثر من هذا...»
 آه، الحقير السافل المتجحجح!...
 قال بييج بريان: “صدقي إذا، لا فائدة من بقائه هنا أكثر من هذا،
 إلا إذا كتبت ستخلليه!...“
 أنت نحتت عليّ يا سارة الثرثارة، ولم أكن ممثنا لك على ذلك، لا
 نصف ممثن، ولا ممثن على الإطلاق. آه، بالفعل أثرت ما يكفي
 من الضجة فوقي، لكنت كنت كمن يطلق النار على الدجاجة فيما
 هو ينبغي أن يطلقها على الثعلب. لم تقولي كلمة عن الجمهورية
 الأيرلندية أو عن الخائن نسل ذوي الأذن الواحدة الذي طعنني
 لأني كنت أحارب من أجل الجمهورية...
 قلت إن الشعب ممثن...
 هذه كذبة، لم تقولي!...

هذه كذبة لعينة! كانت نيل...
 ... بكيت عليك حتى جفت دموعي يا أستاذنا الكبير، آه! يا ويلتاه
 دائما أبدا آه! الأستاذ الكبير يموت في عز شبابه، يا ويلتاه!...
 والآن يا سارة الثرثارة أنت لم تتوحي على الأستاذ الكبير إطلاقا،
 إطلاقا! كنت لأعرف: لأني كنت هناك أساعد بيلى اليوسطجي في
 وضع الغطاء على التابوت...
 الوغد!...
 كانت الأستاذة تنتحب. أخذت بيدها، يا سارة الثرثارة، وبدأت
 تتنحنحن. فقال بيلى اليوسطجي: “أنا لا أعرف أيكما أنتما الاثنان
 -أنت يا سارة الثرثارة أم الأستاذة- التي لديها الحس الأقل...“
 آه! اللص!
 قال بيلى: “اخرجوا واتزلوا إلى الدور السفلي أنتم يا من عنوانكم
 ليس في مملكة السماء، حتى أضع الغطاء فوق التابوت.» نزلوا
 جميعا إلّا يا سارة الثرثارة. قلت للأستاذة: “لكن لا بد من النواح
 على الأستاذ الكبير.“ فقالت الأستاذة: «كان يستحقها عن جدارة،
 الرجل المسكين...»
 آه، العاهرة!...
 قال بيلى: “نواح أم لا، إذا لم تنزلي يا سارة الثرثارة وتبتعدى
 عن طريقي، لن يتمكن من اللحاق بالدفن اليوم.» وعندئذ نزلت
 يا سارة، وكتبت تنشجين. وكان بيلى يثير ضجة تكفي العالم في
 الدور العلوي، وهو يدق المسامير ويثبتها. فقال بييج بريان: “إن
 يغادر الأستاذ هذا التابوت أبدا بعد أن ينتهي بيلى منه! لو وضع

- كنت سأذهب للنواح عليك يا بارتلي ذا الساق السوداء، لكنني لم أستطع النهوض من الفراش وقتها...
- وحق دموع وجروح المسيح، يا سارة الثائرة، ماذا يهم المرء إن كان أحد سينوح عليه أم لا! «هو-هو-رو، يا مورين...»
- لماذا يا سارة الثائرة لم تأتِ وتنوحي على كاترينا بودين، عندما أرسلوا إليك؟
- نعم، لماذا لم تأتِ وتنوحي على كاترينا؟
- لكنك ذهبت إلى بيت نيل، رغم أنه كان عليك ان تنهضي من فراشك...
- لم أقدّر على تحمل رقص طلب نيل، وهي أرسلت سيارتها إلى بابي لتقلني...
- سيصادر هتكر السيارة منها...
- كتبت لأنوح عليك يا كاترينا، صدقا دون كلمة كاذبة واحدة؛ لكنني لم أرغب في التنافس مع الثلاثة الأخريات: نيل، وابنة نورا جونني، وابنة بيج بريان. كن يعولن...
- نيل! ابنة نورا جونني! ابنة بيج بريان! الثلاثة اللاتي حصلن على إنجيل القديس يوحنا من القس لكي يقتلنني! سأنفجر! سأنفجر! سأنفجر!...

- ليس لسارة الثائرة علاقة بالسياسة، لا تزيد في هذا عني...
- أنت أيها الجبان الخرع، كنتَ مختبئا أسفل فراشك عندما كان إيمون دي فاليرا يخاطر بحياته...
- لم يكن نواحك عليّ صائبا يا سارة الثائرة، لأنك لم تقولي عاليا أمام الجميع إن قهوة جوان البياعة هي التي قتلتنني...
- وأن ابنة بيت الخُمَار سرقتنني...
- وسرقتنني...
- ولم تقولي شيئا عندما كنت تنوحي عليّ، عن قيام رود إند بسرقة عشبي...
- أو طحالبني المنجرفة...
- أو أن هذا الرجل الملقى هنا مات بسبب زواج ابنته من سواد...
- أعتقد أن ذلك الرجل كان محقا منذ قليل عندما قال إن سارة الثائرة لا شأن لها بالسياسة...
- ... كنت لأنوح عليك بطريقة أفضل لولا أن صوتي كان مبحوحا ذلك اليوم. فقد نُحِتَ على ثلاثة آخرين بالفعل في ذلك الأسبوع ذاته...
- صدقي إذا، لم تكن بحجة على الإطلاق، بل الشراب... فقدت القدرة على الكلام من كثرة الشراب. وعندما حاولت أن تنشدي «دع إرين تتذكر» كما كنت تفعلين عادة، خرجت «ألن تعود من جديد؟»...
- في الحقيقة لم تكن هذه الأغنية، بل أغنية «يوما ما سأعود عبر البحر إلى آيرلندا»...

- يقول البعض هذا. والبعض الآخر يقول...
- أنت كاذب أيها الغبي أحمر الشعر...
- قسما بالله، ألا تعرف جيدا يا عزيزي الأستاذ أنه سيموت؟ انظر إليّ أنا من لم يشعر قط بالألم أو وجع، أليس من الغريب أن أموت مع ذلك؟ مت مثلي مثل أي رجل كان يشعر...
- لكن هل تعتقد حقا يا توماس أنه سيموت؟...
- ألا تعرف جيدا يا أستاذ أن قريبا ستنمو الحشائش في أذنه!
- هل تعتقد هذا يا توماس؟
- لا تقلق يا أستاذ. يموت يا صديقي، انظر إليّ!...
- ويعون الله العاهرة الحقيرة أيضا...
- آه، توقف عن هذا يا أستاذ، أليست حلوة؟...
- آه العاهرة!...
- هل تحتاج أي مساعدة روحية يا أستاذ؟...
- لا، لا أحتاج، قلت لك، دعيني وشائي! دعيني وشائي وإلا سأسلخ جلد أذنك!...
- قسما بالله يا أستاذ، سمعت أنها كانت تستقبل (الفعاولية) في المطبخ بينما أنت نائم على فراش الموت في الطابق العلوي...
- *Qu'est-ce que c'est que* (فعاولية)؟ أي نوع من الأشياء هم الفعاولية؟...

- ... جاك! جاك! جاك الفتى!...
- ... أهلا يا دوتي! أهلا! استحظي بدرشة صغيرة دافئة الآن...
- ماذا كنت لتقول يا توم أحمر الشعر عن رجل تزوج ابنة من سويداء؟ أعتقد أنه مهرطق هو نفسه، مثله مثل ابنه...
- في الحقيقة، يمكن أن يكون هذا هكذا، هكذا يمكن أن يكون...
- خطايا الأبناء وزرهما على الآباء...
- يقول البعض هذا. والبعض يقول لا...
- ألا ترى يا توم أحمر الشعر أن أي رجل شرب اثنتين وأربعين قدحا مهرطق؟
- اثنان وأربعون، اثنان وأربعون إذا. اثنان وأربعون...
- صدقتي، أنا فعلتها...
- كان توماس الداخل يخالط المهرطقين...
- توماس الداخل. توماس الداخل إذا. رجل حكيم من يقول إن توماس الداخل...
- صدّق إذا، أنا لست واثقا جدا من الأستاذ الكبير أيضا يا توم أحمر الشعر. أنا أراقبه منذ فترة الآن. ولن أقول شيئا حتى أرى...
- ينبغي أن يبقى المرء قمه مغلقا في مكان كهذا، القبور لها أذان...
- ولديّ شكوكي عن كاترينا وبودين أيضا. لقد أقسمت لي أنها كانت كاثوليكية أفضل من نيل، لكن لو تبين أنها كانت صاحبة العين

- توماس الداخل ليس من الفواعلية، لأنه كان يملك قطعة أرض لطيفة، ولا الرجل القادم من الجانب الشرقي للقرية أيضا، كان يملك قطعة أرض في أعلى القرية لا يوجد لها نظير في تسمين الماشية. لكن بيبي البوسطجي فواعلي. كانت الأرض الوحيدة التي يملكها هي حديقة بيت الأستاذ...
- في الحقيقة كان بيبي عادةً في الداخل معها يا أستاذ. سمعت أنه مهما كان اليوم قاسيا كان يأتي ليسأل عنك...
- آه، الوغد! النذل المتسلل الجبان!...
- آه، على رسلك يا أستاذ، لا مجال لإتكار الحقيقة عندما يقال ويُفعل كل شيء. الأستاذة حلوة، اعتدنا أنا وهي أن تكون معا في حانة بيت الخُمَار. لولا أن بيبي كان يدس أنفه الطويل في كل مكان، عندما كان مازال قادرا على القيام بجولاته! قابلتها عند التل المنحدر على الطريق الجبلي بعد بضعة شهور من دفنك. قلت: «أهلا يا أستاذة»، وقالت: «أهلا يا توماس الداخل». لم نحظ بفرصة من أجل دردشة صغيرة دافئة لأن بيبي البوسطجي كان قادما تحونا على دراجته بعد تسليم الخطابات...
- يقولون إنه إذا لم تملأ الاستمارة الأولى بشكل صحيح، من السهل شطبك من المعاشات. قام معلم مدرسة بحيرة ديري بملء استمارتي لي في المرة الأولى التي قرروا فيها المعاشات. كتب شيئا ما بالحبر الأحمر بعرض الاستمارة. أطال الله عمره، لم يمنعوا المعاش عني من وقتها!...
- صدّق إذًا، سحبهه متي. ملأ الأستاذ الكبير الاستمارة من أجلي. وكل ما فعله أن رسم ضربة بقلمه بعرض الاستمارة. ولم تكن

حتى بالحبر الأحمر...

- الأستاذ الكبير، الرجل المسكين، كان سيء المزاج من التفكير في الأستاذة. ألم تسمع كيف كان من عادته أن يستمر في النظر من النافذة بينما كان يكتب الخطابات لكاترينا؟!...
- عسى ألا يرى منها إلا كل ما هو سيء! تلك الأستاذة! ألم يكن بمقدوره أن يملأ استمارة معاش بطريقة صحيحة لشخص واحد؟!...
- كنت أحصل دائما على ثمانية شلنات. ملامها لي الشرطي نو الشعر الأحمر...
- لسبب وجيه. كان يضاجع ابنتك في بساتين القراص في قرية دوناه...
- لقد انتهت علاقتي بالمعاش تماما. كتب أحدهم يقول إن لديّ مالا في البنك...
- بارك الله في برائتك يا صديقي! بعض الناس يحسدون أي تحسن في ظروف جيرانهم. ألا ترى ابن فيل بودين، الذي اعتاد الحصول على المعاش طوال العام، عندما لم تكن أرضه تُقَدَّر قيمتها بجنيهين، وتحالفت كاترينا على طرده منها...
- لم يكن يستحقها! لم يكن يستحقها! كان لديه مال في أحد البنوك وكان يحصل على خمسة عشر شلنا كمعاش دائم. كانت ضربة جيدة للعاهرة!
- صدّق إذًا، كما تقول، كان لديّ معاش كبير...
- كان لديك معاش كبير فعلا يا رود إند...

- لم تهب عاصفة قط دون أن تستفيد منها أفضل استفادة يا رود إنذ. كانت الخراف الصغيرة الضالة تستقر دائما عندك...
- وألواح الخشب الصغيرة التي كان يلقيها البحر على الشاطئ في المرفأ الأوسط كان ينتهي الأمر بها دائما عندك...
- والطحالب البحرية المنجرفة...
- وعشب الوقود...
- وعصي التسقيف...
- وأي شيء يظل ملقى حول بيت الإيرل كان ينتهي به الأمر دائما عندك...
- حتى الساق الخشبية لخدم الإيرل الأسود الضئيل، ألم ينته الأمر بها عندك؟ رأيت واحدة من فراخك تضع بيضة في وركها، وأنت استخدمت قدمها في صنع غطاء مدخنة كاترينا...
- حتى أخت القس التي كانت تتجول ببطلونها القصير وهي تصفر وتتأهب، انتهى بها الأمر مع ابنك...
- آه، أستمعون الخياط وهو يتفاخر؟ لقد صنعت سترة منسوجة في البيت من أجلي، يضع الأتوبيس داخلها...
- أنت صنعت بطلونا من أجل جاك الفتى ولم يكن هناك أحد في البلد يمكنه أن يدخل قدمه فيه إلا توماس الداخل...
- سيعاقبنا الله...
- قسما بالله يا عزيزي، دخلت قدامي فيه ببسر وسهولة...
- ألم تكن تعرف جيدا أن هذا ما سيحدث عندما أحضرت قماشك

- لخياط نسل ذوي الأذن الواحدة الذي طعنني!...
- يا الله، لا ينبغي أن تتكلم، يا نجار جورت ريبوك! ألم تكن البلد بأكملها قادرة على النظر إلى نورا جوني عبر خشب التابوت الذي صنعته لها...
- كانت أول واحدة من نسل ذوي الأقدام المتسخة تدخل في أي نوع من التوابيت الخشبية على الإطلاق...
- كان من الأفضل لها يا كاترينا لو ظلت دون هذا التابوت بالذات. كان وأميا مثل المداخن التي اعتاد أن يصنعها رود إنذ...
- وماذا كان بمقدوري أن أصنع حيال مداخنكم وأنتم لا تدفعون لي؟
- دفعت لك...
- كما تقول، أنت دفعت لي، لكن مقابل كل واحد دفع، لم يدفع أربعة...
- دفعت لك أيضا أيها النصاب، وأتلفت في مدختي أكثر مما أصلحت فيها...
- أنت دفعت لي، كما تقول، لكن هناك بيت آخر في القرية أصلحت فيه مدخنة قبلها بوقت قصير، ولم أسمع كلمة واحدة، خيرا أو شرا، عن مالي من ساعتها.
- وهل كان هذا سببا لأن تجعل من مدختي بلاعة يا نصاب؟...
- لكنني أخبرتك أن تنظف المدخنة بالفرشاة...
- وفعلتها، ودعكتها لأنظفها من أعلاها إلى أدناها، لكنت قد

أفسدتها...

لم أعرف، كما تقول، من سيدفع لي ومن لن يدفع، جاءتني امرأة من القرية وقالت: «سيأتي لنا القس، والمدخنة تنفث الدخان كلما هبت ريح شرقية، لو تصادف وهبت ريح شرقية في اليوم الذي سيأتينا فيه القس، سأشعر بالحرج. مدخنة نيل تنفث الدخان مع كل ريح.» فقلت لها: «سأجعلها تتوقف عن نفث الدخان في الريح الشرقية، كما تقولين.» أعدت تشكيل الغطاء، وقلت: «سترين بنفسك الآن أنها لن تنفث دخانا مع الريح الشرقية، كما تقولين. وسأكون متساهلا معك في المال، كما تقولين، لأننا جيران وكل هذا الكلام. جنيه وخمسة شلنات.» فقالت: «ستحصل على المال يوم الجمعة القادم، يعون الله.» وجاء الجمعة وراح، لكنني لم أحصل على جنهيه وشلناتي الخمسة. آه، ولم أسمع كلمة واحدة، خيرا أو شرا، عن مالي من كاترينا...

ألم أقل لك يا دوتي إن كاترينا لم تسد قط أي شيء! بأمانة!

ولماذا ينبغي أن أدفع لذلك النصاب -رود إند- على إصلاح بضعه ألواح صغيرة في غطاء المدخنة لتستدعي الرياح لها! ورغم أن الرياح كانت غربية إلا أنها لم تكن قط قصيرة النقس كما كانت يوم جاء القس. قبل ذلك كانت الريح الغربية قادرة على حمل طفل من فوق المدفأة. وعندما انتهى رود إند منها لم تعد تجذب أي ريح على الإطلاق غير الريح الشرقية. لقد عرضت أن أدفع له لو جذبت كل ريح مثل مدخنة نيل. لكنه لم يلمسها بعد ذلك. أعطته نيل العاهرة ضربة خلفية...

هذا صحيح يا كاترينا. كان رود إند ليقبل أي ضربة خلفية.

- أي رجل سرق طحالي.

- والأذن، إحقاقا للحق يا كاترينا، لم يكن رود إند -رغم شره وكل موبقاته- من كان مسؤولا عن مدخنتك، بل نيل التي حصلت على إنجيل القديس يوحنا من القس من أجل مدخنتها...

- وأرسلت الدخان إلى بيت كاترينا، كما حاولت أن تفعل مع بيج بريان...

- آه! آه! سأنفجرا! سأنفجرا!

5

- ... كان يمكنني أن أقاضيه لأنه سممني. قال القائل: «خذ ملعقتين من هذه الزجاجة قبل النوم، وملعقتين في الصباح على الريق...» آه! لم ألحق شرهما على الريق! وقدت ميتا للتو في الفراش...

- وحق دموع وجروح المسيح، لقد رقدت ومت...

- قال لي بمجرد أن رأى لساني: «أها! قهوة جوان البياعة...»

- قلت له ذات يوم في حانة بيتر الخمار: «لم أشعر قط بألم أو وجع يا صديقي.» فقال: «حتى لو لم تشعر يا توماس الداخل، أنت تشرب من الجعة السوداء أكثر من اللازم. لا تناسب الجعة السوداء رجلا في سنك. كزوس الويسكي الصغيرة ستكون أفضل بكثير لك.» فقلت: «قسما بالله يا صديقي كان هذا ما اعتدت شربه طوال الوقت قبل الآن، لكنه عزيز جدا ونادر جدا الآن.» فقال:

«ابنة بيتر الخُمَار هنا ستقدم لك كُزُوس الويسكي الصغيرة.»
وفعلتها بالفعل! قدمت لي كل ما طلبته، غير أنها من الكأس
الثاني فصاعدا كلفتني أربعة قطع من ذات الأربع بنسات، ومن
السادس فصاعدا ثمانية عشر بنسا. قال الطبيب الذي حضرته
نيل من برايت سيتي ليفحصني إن الويسكي صُفّر عمري، لكن أنا
وكاترينا نرى أنه كان القس...

- سيعاقبنا الرب على التحدث بسوء عن جيراننا...

- ما قاله للأستاذ الكبير كان: «أنت أطيب من أن تعيش هذه
الحياة...»

- اخرس أيها النَّمَام الحقيرا...

- وضع الطبيب في المستشفى تلك الزجاجاة تحت أنفي بينما
كنت متممدا على الطاولة. قلت: ما هذه يا دكتور؟ فقال: «شيء
ثافه..»

- وحق دموع وجروح المسيح إنها لقصة، من الأليق بالمرء أن
يرقد في فراشه ويموت، كما قال بيج بريان، بدلا من الرقاد على
طاولة مستشفى وعدم النهوض من فوقها أبدا، مقطعا مثل اللحم
البقري المجاني⁽¹⁰⁰⁾ من جزار مرتفعات ساقفي.

- ... قلت: «المشكلة هنا، في قرارة معدتي.» فقال: «صدّق إذا،
المشكلة ليست هناك، لكنها هنا في الأسفل، في القدمين. اخلع
حذاءك وجوربك.» قلت: «لا حاجة لهذا يا دكتور، المشكلة في

الأعلى، هنا في قرارة معدتي.» لكنه لم يكن مهتما على الإطلاق
بقرارة معدتي. قال: «اخلع حذاءك وجوربك.» قلت: «ربما لا
حاجة لهذا يا دكتور. لا مشكلة لديّ هناك بالأسفل...» قال: «إذا لم
تخلع حذاءك وجوربك، وتسرع في هذا، سأضغك حيث يخلعونها
لك... وسيكون من الصعب عليك ألا تتعرض للعدوى. هل غسلت
قدميك هايتين أصلا منذ وُلدت؟» قلت: «عند الشاطئ؛ يا دكتور،
في الصيف الماضي منذ اثني عشر شهرا...»

- كنت مصابا بالإمساك، كنت في حالة إعياء دائمة. هذا شيء لا يود
الناس الحديث عنه. قلت: «لا أود إخبارك يا دكتور، إنه موضوع
غير لائق.»

- هكذا تسير الأمور، كما تقول. صحوت وجلست في السرور. كان
الرجل القادم من متلو⁽¹⁰¹⁾ في السرير المجاور لي، كما كان طوال
الوقت. قلت: «ظننت أنهم لن يشقوك قبل يومين آخرين... إيه،
استيقظ... ولا ترقد هناك ككيس الرمل.» فقالت لي الممرضة:
«دعه وشأنه، عندما أخذوك إلى حجرة العمليات، جاشت أحشاؤه
بالحنين. تلبّكت فجأة وكان لا بد من إرساله إلى غرفة العمليات
أيضا. لم يضعوا له نفس القدر من السكر على السكين كما فعلوا
لك. ولهذا لم يستيقظ حتى الآن.» هؤلاء الممرضات قاسيات بعض
الشيء، كما تقول.

- قال: «لياقة! يا الله، ماذا؟ لياقة معي! هل قتلت رجلا أم ماذا؟»
قلت: «وحق صليب المسيح علينا يا دكتور لم أفعل!» فقال: «وما

100- وزعت الحكومة الأيرلندية اللحم البقري على الفقراء في غرب أيرلندا خلال الحرب الاقتصادية
مع البطراء في ثلاثينيات القرن العشرين، عندما تعطلت تجارة الماشية مع إنجلترا على نحو خطير
(من مؤامرات الترمجة إلى الإنجليزية)

101- ملوخ، قرية تحدثت الأيرلندية جزئيا وتقع في الضواحي الشرقية لمدينة جالواي. (من مؤامرات
الترجمة إلى الإنجليزية)

مشكلتك إذا؟ صرّح بها.» قلت: «والله هو ليس موضوعا لائقا، أنا مصاب بالإمساك...»

مصاب بالإمساك كما تقول. لم أستعد شهيتي لمدة أربعة أو خمسة أيام. قلت للمرضة: «خبز ساخن من الفرن.» فقالت: «يا الله! اذهب إلى الجحيم! أعتقد أنه لا شيء وراثي لفعله غير إحضار خبز ساخن من الفرن لك؟» هكذا أمثالهن، كما تقول. طلبت من الدكتور خبزا ساخنا من الفرن في الصباح التالي. فقال للمرضة: «هذا الرجل ذو اللياقة لا بد أن يحصل على خبز ساخن من الفرن من الآن فصاعدا.» صدّق إذا، قالها. ولم تستطع أن تنبس بكلمة واحدة...

... قلت: «التوى كاحلي...»

«أنا مصاب بالإمساك.» قال: «مصاب بالإمساك...» فقلت: «نعم يا دكتور، لا مؤاخذه، لدي انتفاخ في جسدي.» فقال: «آه! لو أن هذه كل مشكلتك! سأعالج هذا. سأعد زجاجة جيدة لك.» ومزج مادة بيضاء بمادة حمراء ما. وقال: «سيظهر هذا كل شيء...»

... قلت لباتشي جوني: «يستحق البلجيك المساكين كل العطف والشفقة. أتمسأل إن كانت هذه حرب الاثنتين الأجنبيين...؟»

استيقظ يا رجل. انتهت هذه الحرب منذ ثلاثين عاما...

قال هذا، كما تقول. قال له الرجل القادم من منلو: «من الأفضل أن تتأكد أنها سنأتي لي بخبز بارد...» فقال الطبيب: «ما هذا؟ أليس الخبز هنا باردا لدرجة كافية بالنسبة لأي أحد؟» فقال رجل من منلو: «لكن ما أحصل عليه هو خبز ساخن.» فقال الطبيب: «آه،

تذكرتك الآن. لقد أصدرت أمرا عسكريا بخبز ساخن من الفرن عندما جئت. كان الخبز هنا أبرد من اللازم بالنسبة لك.» كان يصير على أسنانه من الغيظ. هكذا أمثاله، كما تقول. قال رجل منلو: «إن تلمس شفتي لقمة من الخبز الساخن. أنا أدفع مصاريف علاجي هنا ولا بد أن أحصل على ما يناسبني.» قسما بروحي قال هذا. كان عتيدا. قال الطبيب: «لكنك كنت ترى أن الخبز البارد لا يناسبك عندما جئت. أنت من ينبغي أن تكون الطبيب هنا.» فقال رجل منلو: «أعتقد أن معدة المرء تلعب ألعابا قذرة ما إن يجري شقها...»

... قلت: «هو ذاك. إنه كاحلي الذي التوى.»

قال: «سيظهر هذا كل شيء فيك فعلا.» قلت: «بارك الله فيك يا دكتور!» قال: «هذه زجاجة عظيمة. مكوناتها غالية. هل تعرف كم كلفني ملء هذه الزجاجة البيضاء في برایت سيتي؟» قلت: «أعتقد أنها كلفتك قرشا بحاله يا دكتور...» فقال: «جنيهان وخمسة شلنات...»

صدّق إذا، هكذا الأمر، كما تقول. منذ ذلك اليوم فصاعدا لم أتمكن من هضم الخبز البارد، وكان رجل منلو عندما يقدمون له لقمة من الخبز الساخن يبدو وكأنهم يقدمون له قطعة من الحنظل. ومن ساعتها لم أتمكن من لمس غليون، رغم أنني كنت مغرما به جدا قبل ذلك، حتى لو أعطوني كل قرش كان الناس يدينون به لي مقابل إصلاح مداخلهم. وهل تصدق؟ رجل منلو الآن يحرق فدايين من التبغ، رجل لم يضع غليوناً في فمه قبل الذهاب إلى المستشفى!...

- قال: «كل شيء صار ذهباً منذ بدأت هذه الحرب السخيفة، ولم أكن لأهتم لو أن الأشياء كانت متاحة حتى.» قلت: «آه يا دكتور، الناس في حال سيء. لو استمرت هذه الحرب لن نتمكن من البقاء على قيد الحياة أصلاً، لولا رحمة الله...»

- صدقُ إنَّنا، الناس في حال سيء، كما تقول. قال لي رجل منلو بينما كنا نتمشى راثحين غادين في الخارج قبل بضعة أيام من التصريح لنا بالعودة إلى البيت: «أمعائي جفت تماما. إنها تبدو كبنطلون صار أضيّق من اللازم عليّ، أو شيء من هذا القبيل. بعد أكل لقمتين أشعر بالامتلاء. انظر إليّ الآن!.. بطني المسكينة صارت حساسة جدا مثل لفّة من السلك الشائك.» كان رجلا ضخما هائلا كالجيل. كان يعلوني بكتفيه ورأسه، كما كان قوي البنية. قلت: «هكذا إنَّنا، كما تقول.. لكني أشعر أن أمعائي ليست في أفضل حال كذلك. كل طعام المستشفى لا يعلوها. إنها تلتهم كل شيء، كما لو أنها أكبر مني بعدة مقاسات. لو قمت بأقل حركة، تبدو أشبه بضرع البقرة، تهتز من ناحية لأخرى...»

- ... كثيرا ما أخبرني الجزار الكبير أنه يكن لي احتراما بسبب الاحترام الذي كان يكنه أبوه لأبي...

- قال: «ستكلفك هذه الزجاجة سبعة شلنات وستة بنسات، إنها الأفضل.» قلت: «بارك الله فيك يا دكتور! لولاك، لا أعرف ما أنا كان الناس ليفعلوا أصلاً. لا أعرف، صدقتي. أنت عظيم لكل رجل في كرب. وليس فيك شيء من تكاسل أو تهاون...»

- رجل في كرب، كما تقول. من وقتها فصاعداً، كنت أنا ورجل منلو نكتب أحداً للآخر كل أسبوع. كان يقول في كل خطاب

من خطاباتة إن شهيته قد تغيرت تماما. كان يشكو من أنه لا يستطيع تحمل مذاق حبة بطاطس أو لحم أو كرنب الآن. كان ليضحى بالهواء الذي فوقه والأرض التي تحته مقابل الشاي والسّمك، وهما الشيطان اللذان أصبحت أمقتهما أنا نفسي الآن. لكن، كما تقول، لا جديد تحت الشمس. لم أكن قط مغرماً باللحم أو الكرنب، لكن منذ كنت في المستشفى صرت أكلهم نصف ناضجين من القدر بيديّ العاريتين. والبطاطس كذلك. كنت لأكل البطاطس ثلاث مرات في اليوم لو حصلت عليها...»

- ... قال: «كاحك العجوز التوى مرة أخرى! قسما بخصيتي جالينوس⁽¹⁰²⁾ المشعرتين وبالجل السري لطبيب فيانا، لو جنتني مرة أخرى يكاحك العجوز العفن...»

- قال: «سبعة شلنات وستة بنسات.» قلت: «لا أضن عليك بسبعة شلنات وستة بنسات، سأعطيها لك بمجرد أن تؤتي الزجاجة مفعولها الطيب...»

- تؤتي مفعولها الطيب، كما تقول. لكن لا شيء كان له مفعول طيب بالنسبة لي. كانت الأمعاء مازالت نهماة لا تشبع. بطاطس ولحم وكرنب من أجل إفطاري وغدائي وعشائي. قالت المرأة العجوز: «هذه المداخن القديمة السخماء تشخذ شهيتك. السخام يشكل طبقة فوق أمعائك.» قلت: «إطلاقاً، لكن أمعائي صارت هكذا نهماة لا تشبع...»

- والله، يا صاحبي العزيز، قفز منتفضاً وحطم الزجاجة على

102- الطبيب والفيلسوف الروماني الذي مارس التشريح وكتب رسالة على (من هوماس الترجمة إلى الإنجليزية)

- صدقُ إذًا، لو قفزت هكذا، كما تقول، لبدأت أمعائي في الحركة جيئةً وذهابًا، ولم تكن لتتوقف طوال نصف ساعة. حكيت الأمر لمتعلم اللغة الأيرلندية الذي كان يسكن معنا ذلك الصيف الذي مت فيه. كان طيبًا تحت التمرين، وكان سيحصل على أوراق اعتماده في العام التالي. استجوبيني حول كل شيء يتعلق بالطريقة التي جرت بها العملية لي. قال: «كنت أنت ورجل منلو معا على نفس الطاولة..»

- *... Qu'il retournerait pour libérer la France ... (109)*

- هشم الزجاجاة قطعًا صغيرة على الأرضية، ركل الرف وألقى أرضًا بكل ما كان عليه. وقال: «لولا خوقي من أن أخسر رخصتي كطبيب، لجعلتك تأكل هذه الزجاجات المكسورة»، وذهب إلى حانة بيتر الخُمَار...

- وحق دموع وجروح المسيح إنها لقصة، ألم تكن محظوظًا! لو كنت قد شربت زجاجة السم تلك، كنت سترقد في فراشك مثل الرجل الذي شرب منها منذ فترة...

- كان ليرقد فعلاً، كما تقول، قال الطبيب الشاب: «أمعاؤك لا تشبع منذ وقتها، ولديك شهية رجل منلو. كان الأطباء والممرضات ثملين ذلك اليوم بعد حفلة الرقص في الليلة السابقة!» قلت: «هكذا هم وأمثالهم، كما تقول..» قال: «آه، لا شك في ذلك، لكنهم عندما كانوا يعيدون أمعاء كما أنتما الاثنين، وضعوا أمعاء رجل منلو داخلك

وأمعاءك داخل رجل منلو. لهذا أقلعت عن التبغ...»

- لكنك لم تقلع عن السرقة يا رود إند. بعد أن شقوا بطنك حدث أن سرقت طحالبِي البحرية المنجرفة...
- ومطرقتي الصغيرة...
- خذ بالك ربما سرق أمعاء رجل منلو!...
- لو وجدها معلقة متدلّية لفعلاها!...

- كل ما قاله لي أنني طُعنت عبر حافة كبدي. قال: «لقد طُعنت عبر حافة كبدي، وهذا هو كل ما في الأمر.» قلت: «الخانن نسل ذوي الأذن الواحدة! أتوسل إليك يا دكتور بحق كبدي المقطع شرائح! ستشهد ضدّهم بأفضل ما يمكنك. سيُشنقون...»

- ذهبت إليه كاتريتا. قال: «ما مشكلتك الآن؟» قالت: «كانت نيل هنا منذ يومين، هل تعتقد يا دكتور أن ما تشتكي منه سيقتلها؟ بارك الله فيك يا دكتور! يقول لي الناس إن لديك سما، سأنتقاسم وصية ياباة معك! لن يعرف أحد أبداً بالأمر لو أسقطت أقل القليل منه في المرة القادمة وقلت لها إنه أفضل الدواء: ملعقتان قبل النوم وملعقتان على الريق...»

- لكن كان بمقدور نيل أن تناقضيها هي والطبيب عندئذ...

- رياه! لم يسمح لي الطبيب بالخروج ذلك اليوم...

- ... ولم أر جنوبي قط منذ ذلك اليوم حتى اليوم الذي مت فيه...

- ... أن العاهرة الحقيرة طلبت منه أن يسممني. لم يقلها مباشرة،

لكن...

- ... لكن اسمعي يا جوان، هل ردت لك وعاء الشاي الفضي أصلا؟
- ... كان من السهل علي معرفة ذلك من الطريقة التي تحدث بها الطبيب ذلك اليوم...
- يا كيتي يا أكلة البطاطس المحروقة! لا تصدقها يا جاك! جاك الفتى، لا تصدق كيتي الجربانة!
- سيعاقبنا الرب يا كاترينا، على قول أي شيء...
- سأنفجرا! سأنفجرا! سأنفجرا!...

3

- ... صدقُ إذا، كما تقول، أصلحت المدخنة لها في نفس الوقت...
- ... قسما بالله يا صديقي، وأنا لا أعتابها بشيء، لكنها نالت بعض المال مني بالتملق، يا صديقي، وكان ذلك في وقت المائدة المستديرة أيضا، فيم كانت تريد مائدة مستديرة؟ انظر إليّ!...
- أيها التافه الحقيق! متى كان لديك مليون؟...
- عار علينا يا كوران أن تركنا السوق الإنجليزي بقلت! كانت لدي قطعة أرض...
- قسما بالله لم تكن هناك قطعة أرض تحت سلال السماء أحلى من قطعة أرضي. لم تكن، يا صديقي. لكن قرب النهاية لم تبق لدي أي رغبة في السير أو العمل، مع الجري وراء ماشية نيل وكاترينا طوال الوقت، محاولا أن أبقئها بعيدا، هما الاثنان اللتان

نتفتنا ويري، ولا أدعي عليهما ذلك!

- أه! انظروا كيف ستمزق حيازتي الكبيرة وتخرب! حمار جلاتون وحمار وماشية رود إند ينحلانها من الزرع نهارا وليلا. ابني الأكبر في صحبة دائمة مع ابنة رود إند، رغم أنها تحت تأثير تعويذة ما منذ اليوم الذي وُلدت فيه فقه تعضي بالأا تترك كومة عشب لي تمر...
- وحق دموع وجروح المسيح، ألم تخبر بيچ بريان أنه كان ثمة جحر لابن عرس في كومتها!
- أه، فليخوزقها الشيطان! لقد ألفت بتعويذة أو تميمية من نوع ما على ابني الأكبر. كانت لديها آلة تصوير واعتادت أن تلتقط صوراً لنفسها وهي ترتدي تلك الهلاميل الحقيبة البالية. يعتقد ابن الساق السوداء أن المرأة العجوز، زوجتي، أكثر ميلا الآن لأن تطرد الابن الثاني وتعطي الحيازة الكبيرة للابن الأكبر. فليأخذها الشيطان إن فعلت!...
- ... تمرين: يمكن للحمار أن يلتهم من العشب ما يساوي أربع قصبات مربعة من مساحة المرعي العادي خلال ليلة واحدة. والسؤال الآن يا كوران: كم مرة يمكن لأربع قصبات مربعة من الأرض أن تدخل في السبعة عشر فدانا التي لديك: سبعة عشر على أربعة، مضروبة في أربعين...
- ... بأمانة يا دوتي، لم تكن هناك لمحة من الرومانسية لدى كاترينا. كل ما كانت ما تسعى وراءه هو الأرض والبيت. على أمل أن تسرق بعضا من علية القوم الذين كانوا يترددون على المكان. يمكنك أن تتأكدني أن هذا لم يكن حيا في جاك الفتى...

- الحب من طرف واحد يا نوريتا...
- ... بيج بريان يا جاك! بيج بريان ذو الأنف المسدود، والكفتين المقوسين، والضرب البارز، واللحية. بيج بريان الذي لم يستحم قط...
- سيعاقبنا الرب يا كاترينا...
- ... أقول لك إن الحياة لم تكن لتصل لتصف هذا السوء لو كانت بلا نساء...
- ألم تسمع القصة التي حكاها كوي منذ يوم أو اثنين؟ أغوت الخادمة الصبية البابا، واضطر روري ماكهيو أوفالهيرتي - وهو رجل مقدس كان هنا منذ زمن بعيد- إلى الذهاب مباشرة كي يخبر البابا أن ينتبه لحاله. ذهب إلى روما معتليا ظهر الشيطان...
- انظر إلى تلك المرأة السكرية في برأيت سبتي التي هددت برفع دعوى على الأستاذ الصغير إن تركها من أجل امرأة أخرى...
- كان رود إندي يقول إن النساء أسوأ من الرجال. طلبت أخت القس من ابنه أن يتزوجها...
- والأستاذ الكبير نفسه يقول هذا...
- آه النساء دائما هن المعلومات!...
- النساء دائما هن المعلومات يا بريد تري؟
- آه، ألم أرحالة هاتيك الفاسقات في السينما...
- صدقي إنذا يا بريد، أنت رأيت وأنا كذلك. عندما كانت ماي ويست تبتسم لنا، ألم أقل للفتى: «لا أنصحك بأن يكون لك أي شأن مع

- لا تصدقها يا جاك. لا تصدق نورا جوني ذات السماتين الجريانتين!...
- سيعاقبنا الرب على قول أي شيء...
- ... لقد فشلت تماما في الحصول على أي رجل على الإطلاق يا دوتي. أخبرني بيج بريان أنها كانت أشبه بدور برد لا يمكنك التخلص منه! ما إن تبصقها من فمك حتى تدخل مرة أخرى عبر أنفك...
- أوه يا جاك، لا تصدقها! يا إله السموات الليلة! بيج بريان!...
- ... بأمانة يا دوتي. لم تمر ليلة دون أن تجيء فيها عبر الدرب القديم من قريتها، لتكون هناك أمامه في الزقاق عندما كان يزور...
- آه يا أم الرب في الأعالي! عرق اليوس!
- ... طلبت منه أن يتزوجها، مرتين أو ثلاث...
- بيج بريان! أتزوج بيج بريان!...
- ... بأمانة يا دوتي...
- أهلا دوتي!
- أهلا توماس الداخل!
- بأمانة الله يا دوتي! ليس من اللائق أن تزعمي "أهلا" هكذا في أنحاء المقبرة. ماذا سيقول أهل مقبرة الجنين؟ وهذه قدوة سيئة لناس مقبرة النصف جنين. قولي «مرحبا» إننا شئت. لكن لماذا تكلفين نفسك عناء الرد على ذلك الجلف العجوز أصلا؟...

أمثالها. ستكون ماهرة في التعامل مع أي مهر بشكل صحيح، لكن...

- اسمع يا جون ويلي، ليست النساء إلا قوس قزح على مؤخرته، كما يقول المثل القديم.

- والله عال! عجوز خنشور مثلك يحقر من شأن النساء، وأنت طوال حياتك لم يكن لك قط علاقة بالنساء، إلا إذا رأيتهن في الطريق! كيف لك أن تعرف بحق الشيطان؟...

- أعرف هكذا. أخبرني رجل منذ زمن طويل. رجل عجوز كان عجوزا جدا...

- النساء أسوأ مائة مرة، من ذلك بالفعل يا صديقي. قسما بالله...

- آه، لا تزعجني! انظر إلى ابني الأكبر الذي لن يترك ابنة رود إند رغم أنني كنت سأدعه يحصل على الحيازة الكبيرة! فليخزق الشيطان...

- وابن الرجل الذي هناك الذي تزوج سوباء...

- أنا امرأة، وكنت لأخذ جانب النساء لو وجدت في نفسي القدرة على فعل هذا. لكن كل ما عليكم أن تفعلوه هو أن تستمعوا إلى كاترينا بويدين وهي تقود جاك الفتى إلى الجنون يوما بعد يوم...

- صدقتي إباء، كاترينا ليست المرأة الوحيدة في المقبرة التي سلطت لسانها على جاك...

- لم أر قط امرأة في سوء هذه المرأة. هل تعرفون ما قالته له البارحة، أن نيل خدعته عندما طلبت منه الزواج منها. أليست امرأة عديمة الحياء؟...

- وحق بلوط هذا التابوت، سمعتها تقول: «زمره النساء هنا غيورات من حديثك معي، لكن كن صارما حقاً معهن كرجل حقيقي!»... أي حياء كان لديها في الأصل تركته وراءها فوق الأرض...

- قالت لي: «يا ماجي فرانسيس، لقد أزيلت الشوكية من قلبي، ومنذ وصل جاك أشعر أن الوقت يطير سريعا كليلة من الموسيقى.» قفلت لها: «هل لم يعد لديك أي أثر من حياء يا كاترينا؟»...

- هل سمعت يا مارجریت ما قالته لي؟ قالت: «يا بريد تري، أليس هذا انتقاما هائلا من العاهرة؟ جاك ملكي، جاك ملكي. لم يعد جاك تحت شالها الرث الآن يا بريد تري...»

- سأحدثك إلى جاك الفتى. وستحدثين إليه أيضا أيتها العاهرة. إن تحدث إليك. هو لا يتحدث إليك ليس عن قلة محاولة منك، أيتها المؤخرة الضيقة الحقيبة...

- ارحميني من سباط لسانك يا كاترينا. ما أريده هو السلام والهدوء...

- زارك الله قوة يا كاترينا! إنهن يحتجن بشدة لمثل هذا التوبيخ! يظن المرء لو سمع هاتيك العصبية من النساء أنه لا يوجد رجل آخر في المقبرة غير جاك الفتى! ولا يهمني هذا لو لم يكن نساء متزوجات...

- لكن الأستاذ الكبير اعترف منذ بضعة أيام أن الموت يحل عهد الزواج...

- وما الذي يوغر صدره على بيبي اليوسطجي إذا؟

- قال إن الموت يحل عهد الزواج! كنت محقا في شكوكي تجاهه.

- جاك، لا يمكن أن تكون فظا معي. أنا بريدي تري...
- بأمانة يا جاك، ذلك المقطع الجديد: بونجا بونجا بونجا⁽¹⁰⁴⁾...
- بونجا بونجا بونجا! بالله عليك بونجا بونجا بونجا يا جاك الفتى!...
- لن ترفض طلبا لي يا جاك. معك جوان البببابة...
- سامحك الله جميعا!... لمانا لا تتركوتي وشأني!... قلت لكم بالفعل إنني لن أغني أي أغنية.
- أه يا جاك، يا أعز الأحابب يا جاك، تلك الزمرة من النساء نهمات ومُلحات كسرب من خنازير البحر يطارد سمكة حفش. قل لهن يا جاك كما اعتدت أن تقول لنا منذ زمن طويل في المستنقعات، عندما كنا فتيات صغيرات يرمينك بكتل الطين: «كنت أعتقد أن موسم صيد الطيور لا يبدأ مبكرا هكذا في العام...»
- سيعاقبنا الرب على قول أي شيء غير مرغوب فيه يا كاترينا. لكني أبتهل إلى الرب وأمه المباركة أن يزيحنا نساء هذه المقبرة عن ظهري...
- نورا متسخة القدمين، كيتي الكاذبة، جوان المبتسمة، بريدي تري. أه، يا جاك يا حبيبي، أعرف هؤلاء النساء أفضل منك. كنت دائما بعيدا عنهن، هناك في براري المستنقعات. وأنا هنا منذ زمن أطول منك. احرص ألا تولي اهتماما لهن! لا مشكلة لدي، لكن أن يطلبن منك أغاني!

104- عبارة عامة ذات إجابات بظنية على نحو مهم، ارتبطت ربما بتسجيل من عام 1910 له علاقة برفضة البروقية (من هومانس الترجمة إلى الإنجليزية)

- إنه مهروطق عن يقين...
- هلا توقفتم حتى تسمعوا القصة كاملة! لو أن كاترينا لم تقل غير هذا القدر من الحديث لما اهتممت... لكنها قالت: «يا بريدي تري، هناك...» يمنعني الاحتشام من تكرار ما قالته، وكل هؤلاء الرجال ينصتون...
- اممسي بها يا بريدي...
- اممسي بها لي يا بريدا...
- لي يا بريدا...
- سأقولها لنورا... والآن ما رأيك في هذا يا نورا؟...
- يا خير! أنا مصدومة! من كان ليعتقد هذا أصلا في جاك!...
- أعتقد أننا ينبغي أن نحذر جاك، بما أن نيل ليست هنا...
- سأحدث إليه...
- أنت لا تملك الفطنة التي قد تملكها امرأة...
- هل تحتاج إلى أي نصيحة روحية يا جاك الفتى؟
- إنه تطفل كبير منك يا ابنة بيع كولم، أن تدسي أنفك في الموضوع أصلا، والنساء هنا لديهن ثلاثة أضعاف عمرك...
- يا جاك الفتى! يا جاك الفتى!... أنا ماجي فرانسيس... لدي نصيحة لك... بعد قليل، ستغني أغنية صغيرة أولا يا جاك...
- غن من فضلك يا جاك...
- بارك الله فيك يا جاك، غن!

- كل دقيقة يا كاترينا. لكن الرب سيعاقبنا على قول أي شيء عن جيراننا...
- هؤلاء النساء سيقفن عن الرب الرحيم نفسه يا جاك إنه جاء ليأخذ جنينها منهن ولم يسدها آه، لقد عانيت من الحياة معهن ومع أكاديمهن! جاك!... كنت تعدني لزمّن طويل، لكن قد يمكنك ذلك أن تغني أغنية الآن...
- لا تطلبني يا كاترينا...
- مقطع واحد فقط يا جاك! مقطع واحد فقط!...
- في وقت آخر يا كاترينا. في وقت آخر...
- الآن يا جاك. الآن...
- كيف لي أن أعرف إن كانت امرأتي العجوز لا تعاني من سكرات الموت في البيت؟
- آه، إن كان هذا كل ما يقلقك يا جاك! إنها فقط تشكو من الروماتيزم ولن يأتي هذا بجنتها إلى المقبرة حتى عشرين عاما أخرى!
- إنها ليست دائما بخير يا كاترينا...
- لا ألم لديها ولا مرض يا جاك. عسى أن تظل جنتها بعيدة عن هذه المقبرة! غن الأغنية، كرجل طيب، يا عزيزي جاك الصغير!...
- كانت امرأة طيبة يا كاترينا، كل يوم من حياتها، وأنا لا أقول لك هذا لمجرد أنك أختها...
- لا يهم مثقال ذرة ما تفعله الأخوات في هذه الحياة يا جاك. لكن غن الأغنية...

- لا أحب أن أرفض لك طلبا يا كاترينا، لكن لا فائدة من الإلحاح عليّ. غريبة الطريقة التي تحدث بها الأمور يا عزيزتي كاترينا. في الليلة التي سبقت زواجي، كنت في الحجرة في بيتكم وكانت مجموعة من الناس تحثني على غناء أغنية. كانت بريد تري هناك وكيثي وماجي فرانسيس. عسى أن يسامحني الرب على قول أي شيء لأي أحد، لكن هؤلاء الثلاثة كن يلححن عليّ بقوة. كان صوتي قد صار أشبه بصريير غطاء صندوق قديم من الغناء لهن طوال الليل. قالت نيل مازحة وهي تجلس في حجري: «جاك لن يغني أبدا أي أغنية أخرى إلا إذا طلبت أنا منه...» هل تصدقين يا كاترينا أن هذه كانت الكلمات التي مرت بخاطري في الصباح التالي وأنا جاث على ركبتَي عند سياج المذبح أمام القس؟ عسى ألا يعاقبني الرب على هذا! كانت خطيئة فظيعة بالنسبة لي! لكن غريبة الطريقة التي تسير بها الأمور يا كاترينا. كل مرة كان يُطلب مني أن أغني أغنية من وقتها، كان ذلك أول شيء أفكر فيه!...

- رياه يا رياه! آه يا جاك! يا جاك الفتى! سأنفجر! سأنفجر!

- قسما بالله، لم يكن يمكنك أن تسمع صوت سائب أوسكار⁽¹⁰⁵⁾ هناك، مع كل الدق والخبط. لم يكن يمكنك يا صديقي...
- هل كان هناك أي خطاب من بريان الصغير؟...
- يا الله! بارك الله في عقلك يا صديقي! في الحقيقة، لدى أي شاب سيصبح قسا من الواجبات أكثر من كتابة الخطابات لهؤلاء الساكنين في جحور المستنقعات هناك. متسببا في مزيد من الرحلات لرجال البريد...
- قضت نيل فترة في الفراش يا توماس؟...
- الروماتيزم يا صديقي. الروماتيزم. غادرت الفراش في المساء الذي أرقدوني فيه...
- كانت دائما امرأة طيبة يا توماس...
- لطالما قلت يا توماس أنها أطيب قلبا من كاترينا...
- سيعاقبنا الرب على قول أي شيء ضد جيرانتا يا توماس...
- قسما بالله، ألا يملك الجيران ألسنة لاذعة أيضا يا صديقي! لولا أنها كانت أكثر طيبة وأكرم قلبا، لما عرضت أن تدفع ثمن صليب كاترينا، وأن تدخل ثلاثة من بنات باتريك إلى المعهد. وبتعليمهن الجامعي هذا سيصبحن ذوات شأن عظيم. انظر إلي!...

الفاصلة العاشرة

الطين الأبيض

1

- من الصعب عليه أن يذهب...
- إنها مقايضة عادلة بالنسبة له...
- إنه من المؤلم له...
- إنها مقايضة عادلة بالنسبة له...
- إنها مظلمة عليه...
- إنها مقايضة عادلة بالنسبة له...
- إنه خطر عليه...
- إنها مقايضة عادلة بالنسبة له...
- لكن...
- إنها مقايضة عادلة بالنسبة له...

105- أوسكار الأسطوري، حفيد فن، حارب الشيطان في الجحيم بسلامته السائب [السائب كرة حديدية لها تتوالت حادة ومربوعة بسلسلة إلى عصا يطرخ بها المحارب فتصيب أعداءه بطريقة عشوائية] (من هوماس الترجمة إلى الإنجليزية)

- لم تضع يدها على قرش قط دون أن توجهه لاستخدام طيب يا **توماس**...
- هذا صحيح يا صديقي. كنت كثيرا ما أقول لنفسي لو أن نورا جوتي حصلت على هذا الميراث لم تكن لتفريق من الخمر في أي يوم من العام...
- سيعاقبنا الرب على قول أي شيء عن جيراننا يا **توماس**. ولم تكن نتشاحن أنا ونيل بعبارة أعظم من «لا تكن سخيفا»...
- قسما بالله، لقد بكت عليك ملء حقيبة من المناديل البيضاء الكبيرة، فعلتها بالفعل يا صديقي. ناهيك عن كل القداصات التي أقامتها من أجل روحك! يقول الناس إنها أعطت قسيسنا مائتي جنيه في يده مرة واحدة، ناهيك عن كل ما أرسلته إلى القساوسة المقدسين في كافة أنحاء البلد...
- وحق بموع وجروح المسيح، ألم يقل بيج بريان: "إذا لم يستطع القساوسة رفع جاك الفتى على ذلك السلم ومناولته ركلة في مؤخرته ليصعد إلى شرفة الكنيسة، لن يستطیع أحد..."
- قسما بالله يا ابن الساق السوداء، أنت لا تعرف نصف الحكاية حتى! لم يكن بمقدورك أن تسمع فرقة قرب أذنيك هناك، مع كل كلامهم ذاك عن القداصات. قداصات من أجل روح جاك، ومن أجل روح بابه، ومن أجل روح كاترينا...
- الإحسان لا يقل عندما توزعه من حوك يا **توماس**...
- هذا بالضبط ما اعتادت نيل قوله. كنت أقول لها مثلا: «ألسنت تتفقين مبلغا كبيرا فظيلا على القداصات من أجل كاترينا؟»

- فتقول: «قابل الإساءة بالإحسان، يا **توماس** الداخل...»
- سيعاقبنا الرب على قول أي شيء عن جيراننا يا **توماس**. كاترينا المسكينة لا حيلة لها في الأمر. المسكينة تتعذب لرغبتها في صليب...
- قسما بالله يا صديقي. ما كنت لتستطيع سماع فرقة قرب أذنيك هناك، بكل ثرثرتهم عن الصليبان. كان صليب كاترينا جاهزا ومدفوع الثمن، لكن عندما مت أنت قالت نيل وباتريك إنهم سيتركون صليب كاترينا حتى يمكن إقامة صليبيها وصليبك معا...
- وحق بموع وجروح المسيح، ألم يقل بيج بريان إنه لا عجب من أن العالم في فوضى، مع إهدار كل هذا المال الكثير على حجارة قديمة...
- قسما بالله يا ابن الساق السوداء، أنت لم تسمع نصف الحكاية. وأنا لا أعرف إن كانت كل هذه الثروة عن الصليبان أفادتني بشيء على الإطلاق. صليبان من الصباح إلى المساء ومن المساء إلى الصباح. لم يكن بمقدور الواحد منا الاستمتاع بكأسه من الجعة السوداء في سلام دون أن تطل الصليبان عليه برؤوسها. أخذت نفسي ونزلت إلى منزل باتريك ابن كاترينا، حيث لا يتحدثون كثيرا عن الصليبان. ألم يصيحوا ذوي شأن عظيم؟...
- .. *Qu'il retournerait pour libérer la France* ..
- ... نذهب مرة أخرى. وتعود من جديد. لم يمر يوم دون أن أشرب عشرين قدحا على الأقل...
- ليكن الله في عونك أنت وأقداحك العشرون! أنا شربت اثنين

وأربعين قدحا...

صدق إذا يا صديقي، الطبيب الذي أتت به نيل من برایت سیتی ليفحصني قال إن ويسكي بيتر الخمّار هو ما عَجَّلَ بموتي. فعَلها فعلا يا صديقي. قلت: «صدّق إذا يا صديقي، كان الطبيب هو من نصّحني بشربه». فقال: «أي طبيب؟» فقلت: «طبيبنا، رعاه الله! صدّق إذا يا صديقي. كانت ابنة بيتر الخمّار تنصت إليه. إذا كنت لا تصدقني، انهب إليها في طريق عودتك. أنا لا أوم الطبيب على الإطلاق يا صديقي. كنت أشربه طوال حياتي ولم يتسبب لي في أي أذى قط. تسما بروحي، أنا أوم القس يا صديقي. تسما بالله، أعتقد أنه لم يقدم لي أي عون على الإطلاق...»

هل يمكنني تقديم أي مساعدة روحية لك يا توماس الداخل؟...

أهلا يا ابنة بيغ كولم. أهلا! محادثة صغيرة دافئة...

باعتبار أن القس خذلك...

القس لم يخذله. القس لا يخذل أحدا. أنت مهرطقة...

... وحق بلوط هذا التابوت، يا جاك الفتى، لقد أعطيت الجنية لـ...

سيعاقبنا الرب يا كيتي...

... المواريث! لولا ميراث بابة بودين، لم يكن توماس الداخل ليحصل على أوراق دفنه بهذه السرعة...

اللوم عليه! يظل الشراب مكانه، حتى يقطع توماس بكرشه الصغير الطريق إليه. ميراث لم يجلب الحظ الجيد لنيل. اشترت سيارة به وقبعة يريش الطاوس...

آه! آه!...

لقد رأينا كل هذا من قبل بالطبع! كانت المواريث هي ما أبقت أهل قرية دوناه أحياء عبر العصور. لم تكن نباتات القراص على أي حال. لقد رأينا نساء لم يملكن قفازات بالأوس، يرفلن في القبعات والزينة اليوم. تلك علامة شر بالنسبة إليهن: فعذاً تضع الدجاجات بيضها في قبعاتهن...

كان لدى أهل قرية دوناه الإصرار على السفر إلى تخوم الشمس ناتها، إلى السور الفاصل للجحيم ذاته، بحثا عن المواريث. أما متاعيس قريتك لو غادروا تلالهم، لشعروا بالحنين إلى براغيثها!... ما قولك في رجل من قريتنا مات ودُفن وليس معه غير شلن!...

رجل من قريتنا نُفن وضعه ما هو أكثر بكثير من شلن، لكن سيغدو يوما سعيدا له لو لم يكن يملك هذا المال. كان رجلا بسيطا واقعيا حتى حصل على هذا المال الكثير. ومن ساعتها لم يره الرب ولا العبد إلا واقفا في كل ناصية ووجهه الغبي محدد بابتسامة بلهاء. أليس كذلك؟ أراهن أنك لم تره قط إلا ووجهه محدد بابتسامة بلهاء...

أن يكون وجهك محمدا بابتسامة بلهاء ليس أمرا بالغ السوء، لكن انظر إلى ذلك الشاب من مرتفعات سافي - وهو قريب لي - الذي حصل على ثروة صغيرة، ولم يكن لشيء أن يرضيه غير أن يذهب ويكسر رقبتة. هذه هي الطريقة الوحيدة للتعبير عن الأمر: لم يكن لشيء أن يرضيه غير أن يذهب ويكسر رقبتة...

آه، انظر إلى ذلك المهرج اللزج من بحيرة ديري! ثمة عجوز

شمطاء تركت له بضعة آلاف. لم تكد حصاة الشاي القادمة من محل جوان البياعة تستقر في كرشه حتى انطلق إلى دبلن يشترى سيارة تشبه الوحش. وقابل امرأة ضئيلة مهلهلة تتسكع هناك، فجلبها معه إلى الديار! ومع ذلك لم تظل معه طويلا. كانت جلجلة السيارة تثقل معدتها. وعادت لتتسكع هناك من جديد. وحملت السيارة لقب الردف للعقود. عسى ألا أغادر هذه البقعة لو تمكن من تحريكها بوصة دون أن يضطر لمناداة عصابة من المغفلين من نهاية درب ما لدفعها!

- ألم يلتو كاحلي!...

- وكانت العصابة تدفعها إلى أقرب حانة. وكانت تظل هناك حتى انبلاج النهار، وبعد ذلك كانوا يدفعونها في طريق العودة. انتهى الأمر بعجلاتها وهيكلها عند رود إند. كان لديها بوق جبار!...

- وهذا ما حدث لسيارة نيل يوبين...

- صاعدة هابطة أمام بيت كاترينا...

- ريباه!...

- صدق إذا، بالنسبة لسيارة أنت بعال ميراث، كانت تخطر في طريقها بمرح جميل...

- عسى أن يأتي هتلر إلى هنا قريبا بعون الله...

- لم تخرج لمحة من ميراث وودي هيلسايد من مكتب مانينون المحامي. أخبرني بهذا، في اليوم الذي كنت فيه معه لرفع دعوى ضد رود إند بشأن مطرقتي الصغيرة...

- ... قال وعيناه تسترقان النظر إلى البلطة الصغيرة: "سيحدث

الانهيار في وول ستريت، كما حدث من قبل. ستسقط في الهاوية وسأفقد ميراثا آخر كما حدث لي من قبل..."

قالت كاترينا التي كانت حاضرة: «لا يهمني الأمر إطلاقا يا توماشين لو سقطت في الوحل ولم تخرج منه، طالما ستسقط كالرعد على ميراث نيل أيضا...»

- حصلت امرأة رود إند العجوز على نصيب من ميراث...

- هذا ما منحها البيت الفاخر...

- أه لا، لم يكن الميراث، بل عشبي...

- فزت بضرية تأمينية كبيرة وقتها. رود إند نفسه وابنته الكبرى...

- وأنا بعث المجموعة الكاملة من كتب (النجار والميكانيكي المثالي) لابنه...

- صدق إذا، كما تقول...

- صاحبك الذي هناك حصل على ميراث في الوقت الذي كانت فيه ابنة بيتر الحمار تغويه بالدخول في القاعة الخلفية...

- حصل الأستاذ الكبير على ميراث...

- إنذا لن يكون بيبي في حاجة لأطباء...

- أه، اللص! المنخاس النخاس!...

- ... أنت كاذب! لم يطعنني الجزار نسل نوي الأذن الواحدة بسبب الميراث...

- ... ذلك الشخص استطاع أن يدفع ثمن اثنين وأربعين قنحا! رجل

• لو قلت لي يا كاترينا كم من المال كان موجودا في الوصية، سأحسب لك الفائدة:

$$\text{الفائدة} = \text{رأس المال} \times \text{الوقت} \times \text{النسبة} / 100$$

• أهذا صحيح يا أستاذة؟...

• سيكون هذا كافيا على أي حال لسداد جنيته كيتي...

• وأجرة رود إند مقابل إصلاح المدخنة...

• ومستحقات نورا جوني عن الملاحق والسكاكين الفضية...

• أه، يا أم المسيح المقدسة! ملاحق فضية في جورت ريبوك! ملاحق

فضية! أه يا جاك! جاك الفتى! ملاحق فضية في جورت ريبوك!

• سأنفجرا سأنفجرا!...

3

• ... قالت هذا يا أستاذة؟...

• قالته يا مارتين يا ذا الوجه المجذور، أخبرتني...

• ... قلت: «العيب هناك في الأعلى»...

• ... قالت كاترينا: «حق الشيطان، إنه خنزير جيد للشراء...»

• ... «كانت لمارتين جون مور ابنة...»

• متى ستتزوج مرة أخرى في رأيك؟...

كانت لديه قطعة ضئيلة من الأرض لا يمكن أن تستوعب غير
الساقين الخلفيتين لحماره! أما ساقاه الأماميتان فكان لا بد من
أن تقفا على أرض كوران المجاورة له... ذلك هو! لكنه عن طريق
دفعه سيارة ذلك الأحقر من بحيرة ديري استطاع أن يحصل على
المال...

• وكوران أيضا، لقد نال حيازته الكبيرة عن طريق الميراث، تلك
الحيازة التي يريد ابته الأكبر أن يجلب إليها ابنة رود...

• أه! ليخوزقها الشيطان! أقسم أمام الله لو سمحت لها المرأة
العجوز في البيت بالدخول!...

• ابنة رود إند مؤمنٌ عليها...

• ... لو أن الأمور تجري هكذا، فقد كانت كاترينا محظوظة لأنها لم
تحصل على الميراث، لو حصلت عليه...

• كانت ستبني بيتين سقفاهما من الإردواز...

• كانت ستشترى سيارتين...

• كانت ستضع صليبين فوقها...

• وقبعتين...

• لن تعرفوا أبدا، لكن لعلها كانت حتى سترتدي بنطلونا...

• وحق دموع وجروح المسيح، ألم يقل بيج بريان عندما ذهب ابن
ابنته إلى المعود ليصبح قسا: «لو كانت هذه المشاكسة النكدا
حية، لم تكن لتتوقف حتى تجعل ابنها باتريك يترك زوجته
ويصبح قسا هو نفسه...»

- آه، على رسلك يا كيتي يا جارتني، كيف لي أن أعرف؟...

- يمكنها بالطبع الحصول على رجل بسهولة، لو كانت تنوي الزواج من جديد. إنها امرأة قوية نشيطة، بارك الله قيها!...

- هذا صحيح يا مارجريت، يا جارتني!...

- لو لم تقل أي شيء عن ذلك عندما رأتك تحتضرين...

- لم تقل يا بريد...

- ربما سيترزوجها الأستاذ الصغير...

- أو معلم بحيرة ديري، بما أن أخت القس قد هجرته...

- أنت هدية من السماء يا بيبي، بأمانة! أخبرنا إن كانت الأستاذة تحدثت بأي حديث عن الزواج من جديد...

- آه! هل ذلك هو بالفعل؟ الوغد، النذل، كيس الخطابات الحقيق الشهواني؟ آه! أين هو النذل؟...

- هذا ترحيب طيب في طين المقابر...

- قسما بالله يا أستاذ، ألا تذكر أنني أخبرتك؟ ألم يمتا!...

- ها! أين هو؟...

- والآن يا أستاذ، يا جاري، اهدأ! هدأ! كنا جيرانا طبيين فوق الأرض.

هل حدث وفتحت خطابا من خطاباتك أبدا؟... آه، يا عزيزي الأستاذ، لا تكذب!... آه، يا أستاذ، لو أن الأمر هكذا، فأنا لم أفعل ذلك... كان بمقدور مديرة مكتب البريد أن تفعل ما يحلو لها،

لكن لا تتهمني بشيء لم أفعله يا أستاذ... آه، هذه كذبة بالقطع يا أستاذ! لم أعط خطايا من خطاباتك لأي أحد، نهدت مباشرة إلى

بيتك وسلمته ساخنا طازجا خارجا من الحقيبة إلى راحة يدك. أعرفك الآن يا أستاذ، ليس كل ساعي يريد يفعل ذلك!...

آه يا أستاذ، يا أستاذ، لئسامحك الله! لم أجب البريد بهذه السرعة كي أرى زوجتك. آه، حاشا لله يا أستاذ، أن تخطر مثل هذه الفكرة في ذهني!... آه يا أستاذ، يا جاري، لا تقل هذا! لا تقل كذبا عنها. إنها مازالت بالأعلى على طريق الأكاذيب المظلم، وأنت على طريق الحق المنير...

صدقني يا أستاذ، يا جاري، كنت حزينا جدا من موتك. كنت رجلا محترما تحسن وفادة من يزورك. وكان حديثك يستحق الإنصات يا أستاذ. كان لديك تدفق جميل للكلمات حول شؤون الحياة... آه يا أستاذ، لا تقل أشياء مثل هذا!... آه، يا أستاذ!...

لم يمر يوم دون أن أواسيها على موتك... آه، يا جاري العزيز، هلا توقفت لخاطر الله عن هذا النوع من الكلام! كنت أقول: «إنه لمن دواعي الأسف الشديد على الأستاذ الكبير، لم يعد البيت نفسه على الإطلاق منذ رحل. صدقيني يا أستاذة، أنا حزين جدا من أجله...»

... الصبر يا أستاذ! الصبر يا أستاذ! ألا يمكنك الإنصات لما أقوله! كانت المسكينة تقول: "يا بيبي البوسطجي، أعرف هذا. كان مولعا جدا بك...» ... آخ! والآن يا أستاذ! على رسلك يا أستاذ! «لقد فعلت أقصى ما أستطيع من أجله يا بيبي، لكنه كان في حالة تفوق مهارة الأطباء...» آه يا عزيزي الأستاذ! يا عزيزي، عزيزي الأستاذ! ... «هكذا يا بيبي، كان الأستاذ أفضل

من أن يبقى...»

جدا بهذه السيارة.» فقالت المسكينة: «يا بيبي، لم يكن مقدرًا للأستاذ الكبير أن يتمتع بطيبات هذه الحياة. كان الأستاذ الكبير أفضل من أن...» آه يا أستاذ، ليست غلطتي!... لكن انتظر دقيقة يا أستاذًا! اسمعني للنهاية...»

قالت: «اجلس بالداخل يا بيبي، ستقود السيارة من أجلي. أنا في حاجة للخروج في فسحة بعد كل هذا الوقت في الحداد والثياب السوداء. لن يرى أحد فضيحة في هذا. أنت صديق قديم للأسرة يا بيبي...» تحكمت في نفسك يا أستاذ. ألا ترى أن الجميع ينصتون! لم أظن أنك من هذه النوعية من الرجال إطلاقًا!...

باختصار يا أستاذ، كان المكان مهجورًا، إلا منا نحن الاثنان. لو ذهبت من قبل لرصيف ميناء برومونتوري في مثل هذا الوقت من اليوم يا أستاذ، لعرفت أنه لا يوجد تقريبًا مكان أجمل منه على وجه الأرض. كانت المصاييح تضاء في المرتفعات والتلال المواجهة للخليج. شعرت يا أستاذ... آه، لخاطر الله يا أستاذ، تحل بقليل من الاحتشام!...

... باختصار يا أستاذ، أخبرتني أن حبيبا لي أعمق من البحر... آه، تحل بالصبر يا أستاذًا كن صبورًا! آه، يا أستاذ، كنت متأكدًا أنك لست من هذه النوعية من الأشخاص...»

... قالت: «رحم الله هذا الوقت منذ أربعة أعوام! كنا أنا والأستاذ الكبير المسكين هنا، ننظر إلى الأضواء والنجوم والوميض المتعكس على الطحالب البحرية...» آه، يا عزيزي الأستاذ، ستسب نفسك! اهدأ!... قلت: «الأستاذ الكبير المسكين...» فقالت:

... آخ يا أستاذ، لا تجعل من نفسك فرجة أمام الجيران! تذكر يا أستاذ، أنت رقيب أول التعليم، وعليك أن تمثل قدوة حسنة... الصبر يا أستاذًا! آه، يا أستاذ، لقد سلختني تمامًا. إنه لترحيب طيب في طين المقابر!

- هل تحتاج أي مساعدة روحية يا بيبي البوسطجي؟...

- آه، الفاسق الشام، هو بحاجة إليها فعلاً...

- *De grâce* يا أستاذًا! تحكمت في نفسك. بيبي شخص رومانتيكي جدا. بأمانة...

- أنت نفسك يا أستاذ كنت...

- صدق إذا يا أستاذ، لقد رأيتكما!... في المدرسة!...

- لا عجب أن أبناءنا يتزوجون مهرطقات وسواها...

- ... باختصار يا أستاذ، كان يوم الإثنين الأبيض، إثنين الفصح. أخذت اليوم عطلة. وذهبت غربًا على طول الطريق لأتمشى قليلاً...

... والآن يا جاري، ما الضرر الذي كان هناك في الذهاب للتمشية؟ مرة واحدة فقط في اكتمال القمر الأزرق وانتني فرصة أن أفرد ساقتي... لم يكن من الجيد لصحتي أن أتمشى شرقًا على طول الطريق يا أستاذ... اهدأ!... وعندما كنت أمر ببوابة بيتك، لاحظت أنها قد أوقفت السيارة إلى جانب الطريق. نفخت لها العجلات. ما الضرر في هذا يا أستاذ؟ كان تعاونًا ومساعدة من جار لجارة... قلت: «رحم الله الأستاذ الكبير المسكين! كان فخورًا

«الأستاذ الكبير، كان خسارة كبيرة، لكنه كان أطيب من أن...»
يا أستاذ، يا أستاذ، يا جاري، لماذا لا تسمعي إلى النهاية!؟...

قالت: من تحبه الآلهة يا بيبي، يموت صغيرا، والله يا بيبي كان مولعا بك بشدة... ماذا كان يمكنني أن أفعل يا أستاذ؟...

- والآن يا أستاذ! رأيت مرتين مجدور الوجه...

- صدقتُ إنَّ، كنت تضاجعها يا أستاذ...

- ... ماذا كنت لتفعل أُنْتُ نفسك يا أستاذ لو كنت مكاني هناك عند رصيف ميناء بومونتوري، وأنتما الاثنان تنظران إلى الأضواء، إلى النجوم، إلى الوميض؟... آه، اهدأ يا أستاذ!... باختصار يا أستاذ... والآن يا أستاذ، يا جاري... آه، تحكم في صبرك يا أستاذي العزيز... لماذا تنقلب بهذه الوقاحة ضدي؟ لم أكن أستحق منك هذا...

- باختصار يا أستاذ، أتت لي بثلاثة أطباء من دبلن... أنا لم أر قط في حياتي كلها أمثالك يا أستاذ! لماذا تحمل عليّ هكذا يا أستاذ؟ لا أحد ممن عرفوك فوق الأرض سيصدق أن تتصرف على هذا النحو...

قالت: «ما حدث للأستاذ الكبير لن يحدث لك إذا كان بمقدوري تجنبه...» ... بركات الله عليك يا أستاذي العزيز، اهدأ، ستجلب العار على نفسك، وأنت أستاذ معلم في النهاية...

- ... باختصار يا أستاذ، كنت أعاني من ألم حاد في جانبي وكليتي، شعرت ببعض الراحة في المساء راحة ما قبل الموت. جلست على جانب الفراش وأمسكت بيدي... بارك الله فينا وحفظنا! انظروا إلى الضجة التي يثيرها الآن؟ كيف كان لي أن أسيطر عليها؟...

باختصار يا أستاذ قالت: «لو كان مقدرا لك ألا تتعافى يا بيبي، لن تكون حياتي حياة بالنسبة لي دونك... آه يا أستاذ، لا تكن محبا للانتقام هكذا... حتى لو تزوجت مرة أخرى، هل سيكون هذا خطأي؟... تحل بالصبر يا أستاذ!...

- ... باختصار يا أستاذ، كنت على البرزخ المؤدي إلى الأبدية عندما صرخت في أذني: "سأدفنك بطريقة لائقة يا بيبي، وسواء كانت حياتي طويلة أو قصيرة بعدك... اهدأ يا أستاذ! اتركني في سلام لخاطر الله يا أستاذ!... لكنني أعتقد أن سلامي ذهب إلى الأبد... آه، لو أنها فقط فكرت في دفني في أي مكان في المقبرة غير أن أكون عالقا هكذا مثل ذيل الشيك البنكي لصق هذا المجنون. لكن المسكينة لم يكن بمقدورها تجنب هذا. لم تكن تعرف ما تفعل... آه، اهدأ الآن، اهدأ يا أستاذ!

- وحق دموع وجروح المسيح إنها لقصة، ألم يقل بيج بريان عندما سقط بيبي مريضا: «هذا النافه الحقير سينهب إلى الطين قريبا، والله سيكون محظوظا بأن يُدفن أصلا. لو كان هناك في دبلن، لألقوا به بالتأكيد في صفيحة الزباله. لكن أمرأتكم ستكنسه جيدا وتكومه فوق الأستاذ الكبير في تلك الحفرة هناك. وسيمزق أحدهما الآخر مثل كلبين ربطوا ذيليهما معا...»

- مصيبتني وبلاتي!... كان بيج بريان على حق... كلبان ربطوا ذيليهما معا... قسما بروحي، كان صادقا في كلامه!... ذيلانا مربوطان معا يا بيبي...

- صحيح يا أستاذ...

- كنا نوثاب، تهب ذيلينا ونترود، حتى سقطنا في الفخ وأهلكتنا
الأصواء، أهلكتنا النجوم، أهلكنا الوميض الفوسفوري، أهلكتنا
العهود. أه! يا بيبي، أخطأنا وظننا أن الضوء الواض هو الشمعة
التي لا تحترق أبدا...

- هذا صحيح يا أستاذ...

- ظننا أننا ستحصل على مملكة السماء المرصعة بالنجوم كهديّة
زفاف، أننا سنشرب في عيد الحصاد حيث لن تسقمك الخمر
أبدا...

- يا إلهي، كم أنت رومانتيكي!...

- لكن كل هذا يا عزيزي بيبي كان مجرد وهم، خلقته ذواتنا الفانية...
كنا واقعين في الأسر. كان ذيلانا الخفيفا الحركة مربوطين... يا
بيبي يا صديقي العزيز، ولم تكن إلا النسخة الأثوية من كيرن ذي
الخطوط الضيقة⁽¹⁰⁶⁾، وأدت الخدعة التي تناسب اللحظة. "أنا
نات يوم في جزيرة رائلين، وفي يوم آخر في جزيرة مان..."

- "يوم في جزيرة إسلاي ويوم في شبه جزيرة كينتايير" يا جاري
وأستاذي العزيز...

- بالضبط يا بيبي يا عزيزي. هذه المرأة لا تستحق كلمة لاذعة أو
لحظة قلق. بيبي يا صديقي الأعز، لقد وجدت كلبين أحمرين تركا
نفسيهما يقعان في الأسر وتركنا ذليلهما يُريطان...

- هذا صحيح يا أستاذي العزيز...

- بيبي يا عزيزي، علينا من الآن فصاعدا أن نتخلص من أي توتر في
ذيلينا، وتكون لطيفين وودودين أهدنا مع الآخر...

- أنت رجل طيب يا أستاذ! الآن نتحدث كجارا السلام والهدوء يا
أستاذ. هذا هو أكثر ما يهم في طين المقابر يا أستاذ: السلام
والهدوء. لو كنت أعرف أنها ستدفني لصقك، لما تزوجتها قط...

- لا يهمني قدر خردلة سوداء ما يفعله أي أحدا مهما فعلت. كان
ذلك شيئا حقيرا سافلا منك فعله أيها الوغد، أيها اللص، أيها
النذل! ينبغي أن يتم الزج بك في غرفة الغاز، أيها المتبجح، أيها
الخنزير، أيها...

- والآن يا أستاذي العزيز، اهدأ، اهدأ، اهدأ...

4

- لو عشت لفترة أخرى...

- كانت مقايضة عادلة بالنسبة لك...

- لو عشت لفترة أخرى أنا نفسي...

- كانت مقايضة عادلة بالنسبة لك...

- كنت سأحصل على المعاش في عيد القديس باتريك التالي...

- ثلاثة شهور أخرى وكننت سأسكن في البيت الجديد...

- ليكن الله في عوننا دائما أبدا! لو عشت لفترة أخرى، ربما كانت

106- التجسد المجدل لإله البحر مانان في الأساطير الأيرلندية. كان أوكيان يستخدم هذه الحكاية
وغيرها من الحكايات الخرافية في فصول تدريسه للغة الأيرلندية عندما كان معتقلا في معسكر
كوراخ العربي خلال الحرب العالمية الثانية. (من مفاصل قرحمة في الإمبراطورية)

كومة عظامي ستعاد إلى شرق برايت سيتي...

... كنت سأزوج خلال أسبوعين. لكك طعننتي عبر حافة كبدي،
أيها الوغد القاتل. لو عشت لفترة أخرى، لما تركت واحدا من نسل
ذوي الأذن الواحدة حيا...

كنت لأخذ أرض وودي هيلسايد من أخي. أخبرني مانيون
المحامي أن بمقدوري...

ظننت أنني لن أموت حتى أحصل على حقي من رود إند مقابل
طحالبي...

آه! فليخوزقه الشيطان! لو عشت لفترة أخرى، لنهبت إلى مانيون
المحامي وكتبت وصية آمنة. وبعد ذلك كنت سأطرد ابني الأكبر
إلى الجحيم وأتي بزوجة لابني الآخر، توم. ثم كنت سأرفع دعوى
ضد جلاتون، بالوعة الجعة السوداء، بشأن حميره، وإذا لم أحصل
على ما يرضيني في المحكمة، كنت سأدق أشواكا في حوافرها.
ثم كنت سأظل ساهرا إلى الفجر حتى أقبض على أهل رود إند
عند كومة عشبي، وكتت سأقيم دعوى جبارة ضدهم... وإذا لم
أحصل على ما يرضيني في المحكمة، كنت سأتي ببضعة أصابع
ديناميت من الزعيم الكبير، ثم...

كنت سأرفع دعوى ضد ابنة بيتر الخنّار...

وحق دموع وجروح المسيح، كنت لأحصل على نزهة لطيفة سارة
في سيارة نيل بودين...

كنت سأرى الشمس الغاربة مطبوعة...

لو عشت لفترة أخرى، كنت سأدعك جسدي بـ... ماذا تطلق عليه

يا أستاذ؟... نعم، الكحول الإيثيلي...

وحق بلوط هذا الثابت، كنت سأطارد كاترينا مطالبة إياها
بالجنية...

سيعاقبنا الرب يا كيتي...

كنت لأختم جسدي كله بخطاب غرامي يشعارات هتلر...

قالت مديرة مكتب البريد البارحة إن لجنة الفلكلور الأيرلندي
ومدير الإحصاء طلبا منها السجلات التي كانت تحتفظ بها،
طوال أكثر من خمسة وأربعين عاما، بعدد الصلبان الصغيرة في
كل خطاب. كان متوسط عددها في خطابات بيج بريان خمسة
عشر، وسبعة كان عدد الصلبان التي وضعتها كاترينا دائما في
خطاباتها إلى بيج بريان: واحد من أجل لحيته، وواحد من أجل
كتفه المقوس...

... الصبر! الصبر يا أستاذي العزيز!...

... لا تصدقه يا جاك...

لقد ذهبت إلى إنجلترا لكي أكسب المال وأتسكع مع فتية الشاطئ
الغربي... سمعت أن هناك مئات منهم في لندن... يرتدي بعضهم
سترات فاخرة... ونظارات بعدسة واحدة...

كنت لأسافر حول العالم: مارسيليا، بورسعيد، سنغافورة، ياتافيا.
بأمانة...

... *Qu'il retournerait pour libérer la France*

لو عشت لفترة أخرى، لما كنت تسببت في موتي يا جوان القبيحة،

عظيمة في بيت جاك الفتى. وكنت سأضع "الموت الأبدى للهجاء
المبسوط" كاسم مستعار لي على تذكرة الياصيب التالية...

... "ابتسامه مشرقة الآن، يا سيدتي الممرضة" هذا ما كتبه...

"مرقا هيدلاند" هو ما كتبه بيلى...

كنت لأذهب إلى السينما مرة أخرى. بأمانة الله، كنت سأحب أن
أرى تلك المرأة ذات المعطف المصنوع من الفراء. كان نسخة
طيق الأصل من المعطف الذي اعتادت بابه أن ترتديه حتى سقط
السخام عليه في بيت كاترينا...

هذه كذبة لعينة، أيتها العاهرة!...

ارحميني من سياط لسانك يا كاترينا. السلام والهدوء هما ما
أريده. لم أكن أستحق تنمرك...

... لو عشت لفترة أخرى! لو عشت لفترة أخرى، إذًا ماذا كنت
لأفعل؟ ماذا كنت لأفعل إذًا؟ رجل حكيم فقط من يقول...

لو عشت حتى اجتماع الانتخابات، لعارضت كوسجريف. لأخبرته
أنهم يرسلون كمبعوثين، وأنهم تجاوزوا سلطتهم...

لقد عشت والحمد لله حتى قلت لدي فاليرا في وجهه إنهم كانوا
يرسلون كمفوضين. أخبرته بذلك في وجهه. أخبرته بذلك في
وجهه. أخبرته بذلك...

هذه كذبة لعينة، لم تفعل!...

أتذكر هذا جيدا. فقد التوى كاطلي...

... لو أنك عشت لفترة أخرى، لرأيت كل شابات قرية دوناه يدخنن

كنت سأخذ بطاقتي التمويينية إلى مكان آخر...

... كنت سأذهب إلى جنازتك يا بيلى البوسلجي. كنت مدينا لك
بالذهاب إلى جنازتك...

كنت سأدوح عليك بركة وعذوبة يا بيلى...

... كنت سأرقدك يا بيلى، بالأثافة التي يخطط بها عاشق خطابيه
الغرامي الأول...

لو عشت لفترة أخرى، لطليت منها أن تدفني في مقبرة أخرى...
يا أستاذ، يا جاري، اهدأ، اهدأ! لكن أنصت إلي يا أستاذًا كلبان
بذيلين مريوطين...

... كنت لأشرب الجعة السوداء بالطبع، أطلان من الجعة السوداء...

... كنا سنقوم بالدور. كانت معي ورقة التسعة وكان الدور على
شريكي. اللعنة على اللغم على كل حال، لو لم ينفجر في التوقيت
الخطأ!

... كنت سأرفع قضية على القاتل بتهمة إعطائي السم. "خذ
ملعقتين..."

وأنا كذلك، رغم أنني لم أهتم قط بالجدال مع مانويون المحامي.
قسما بالله يا صديقي، كنت سأرفع عليه دعوى مع ذلك. أخبرني
أن أتحول إلى الويسكي. وفعلت بالفعل يا صديقي. لو ظلت على
شرب الجعة السوداء كنت سأبقى بخير. لم أشعر قط بألم أو
وجع...

لو عشت، كان ليواتيني قليل من الحظ مع مسابقة الكلمات
المتقاطعة في أسبوع ما. وبالطبع كنت سأحظى بعمليات تأمين

غلايين الصلصال. هذا ما يفعله منذ سُحَّت السجائر. ويقال إن أوراق نبات الحُمّاض البري المطحونة ونبات القراص عظيمة في غلايين الصلصال...

- لو عشت حتى بلغت من العمر عتياً مثل شجرة الطقسوس أو شمعاء بيارا⁽¹⁰⁷⁾ لن ترى آخر برغوث ينسحق على تلال قريبتكم...

- لو عاشت مديرة مكتب البريد لفترة أخرى...

- لم تكن لديها حاجة لذلك. ورثت ابنتها أساليبها على خير وجه...

- لو عشت لفترة أخرى...

- ماذا كنت بحاجة لأن تعيش من أجله؟...

- كنت سأرى الطين فوقك، على سبيل المثال...

- لو عاش توماس الداخل؟

- كان سينتقل لبيت آخر مرة أخرى...

- كان سيتحول إلى الجعة السوداء من جديد...

- لطارد ماشية باتريك ابن كاترينا وطردهما من أرضه...

- الأزرع ماشية نيل!...

- لو عاشت كاترينا...

- آه، كي تدفن تلك العاهرة قبلها...

- لو عشت، لقدمت المساعدة الروحية. لو عشت لأسبوع آخر حتى،

107- امرأة من العالم الأخر، معونة سلبية في الأصل، عائلت إلى سن متقدم للغاية. ترتبط بشبه جزيرة بيارا في غرب كوروك. (من هوماس لترجمة إلى الإنجليزية)

لحصلت على معلومات حديثة أولاً بأول من أجل كاترينا...

- يا ابنة بيج كولم، كان من عادتك أن تقوّتي صلوات الأسرة لكي تسترقي السمع على الأبواب المغلقة، لتري إن كان الجيران يتلون صلواتهم...

- ... كنت سأذهب إلى كروك بارك لأشاهد كونكانون...

- بيبي البوسطجي رأى شبك هناك بعد مباراة نهائي بطولة آيرلندا وأنت تئن وتولول...

- ... كنت سأتهيئ الإسطلبل خلال الطقس الجيد، ولم يكن المهر سيموت...

- آه، ألم ير كل من في القرية شبك؟!...

- ... لا أصدق في أي شيء كالأشباح يا توم أحمر الشعر...

- يقول بعض الناس إنها موجودة. ويقول البعض الآخر إنها ليست موجودة. إنه لرجل حكيم من...

- آه، بالفعل توجد أشباح. حاشا لله أن أكذب على أحد، لكنني رأيت كوران يطارد حمير جلاتون وماشية رود إند ليطردها من حقل شعيره، وكان ميتاً منذ عام كامل!...

- السبب الرئيسي لموت بيبي البوسطجي كان عندما رأى الأستاذ الكبير يقتش أعلى الخزانة في مطبخه، بعد يوم من دفنه...

- ... اهدأ يا أستاذنا! آه، اهدأ. اهدأ!... لم أخلق نقتي قط بشفرة حلاقتك. أتوسل إليك باعتبارك صديقي وحماتي يا أستاذ أن تسمعني دقيقة واحدة! كليان...

أن يُدفن هنا في هذه المقبرة بجوار بقية أهله. قال: «ساموت
 بسلام، إذا وعدتني بهذا فقط، لكن أهل هذه المنطقة الغربية
 كسالى متعطلون. وضعوا القليل من الطين عليه هناك في المقبرة
 القديمة قرب بيته. لكن في وقت ما خلال الشهر التالي كان
 الابن يصنع أكواما من الطحالب البحرية المجففة على الشاطئ.
 سمعت هذا من فمه. رأى الجنازة تخرج من المقبرة. أخبرني
 أنها كانت واضحة -التابوت والناس وكل شيء- وضوح جمل
 الطحالب البحرية الذي كان يضعه على الكومة. مروا بالقرب
 منه. ميز بعضهم، لكنه لم يكن ليبيوح قط بأسمائهم، كما قال.
 كان خائفا في البداية، لكن عندما مروا وتجاوزوه قرب الشاطئ
 استجمع القليل من الشجاعة. قال: «مهما فعل بي الله سأتابعهم.»
 وهكذا فعل، بمحاذاة الشاطئ، خطوة خطوة، حتى دخلوا هذه
 المقبرة ودفنوا الجثمان في مقبرة النصف جنيه هناك. تعرف
 على التابوت. ولم يكن لينطق كذبا عن أبيه...
 وأين جون ماتيو؟ لو كان هنا، لم يسمع أحد نأمة منه...
 لم أكن لأعرف شيئا عن هذا الأمر أكثر مما أعرفه عن سيئة البابا!
 لكن هذا ما أخبرني به ابنته، ولم يكن ليخبرني بالكذب عنه...
 الموتى لا يسيرون. ناد أهل مقبرة النصف جنيه وسيخبرونك إن
 كان هناك أم لا...
 يا الله! دعوا هؤلاء الصخابين وشأنهم...!
 لن أتركهم وشأنهم بحق الشيطان. مرحى، يا جماعة النصف
 جنيه!...!

- شوهد رود إند...
 - صدق إذا، كما تقول...
 - آه، يفعلها! كان يسرق عشيبي بالتأكيد...
 - أو المطارق...
 - يقولون، أعاننا الله، إنه لا تمر ليلة دون أن يُسمع صوت شبح
 طائرة في المرغأ الأوسط منذ هبط الرجل الفرنسي هناك...
 - يا الله، تلك طائرة حقيقية ذاهبة إلى أمريكا من أولستر أو من
 شانون...
 - أتعتقد أنني لن أميز صوت طائرة حقيقية من شبح؟ سمعته
 بوضوح، عندما كنت أجمع طحالب البحر الحمراء هناك في وقت
 متأخر من الليل...
 - لو كانت الليلة مظلمة...
 - آه، لا تتحدث بالترهات! أقسم بروحي أنها لم تكن طائرة حقيقية!
 من السهل تمييز صوت الطائرة الحقيقية...
 - ... Mes amis
 - أطلب الإذن بالحديث! الإذن بالحديث إذا!
 - ومع ذلك هناك علامات. لم أكن أهتم بتاتا بالأشباح حتى سمعت
 عن جون ماتيو المدفون هنا في مقبرة النصف جنيه. كان ابنه
 ذاته من أخبرني. وكان هذا قبل أن أسقط من باب الخزان. كان
 هو أيضا وقتها مازال في أرض الأكانيب، لكنه لم ينطق كذبا
 عن والده. كان طلب أبيه الأخير، عندما كان في سكرات الموت،

- ... بريدي ماتيو هنا...

- وكولي ماتيو...

- ويادي ماتيو...

- وييلي ماتيو...

- وماتيو نفسه...

- جوني ماتيو مدفون في مقبرة المنطقة الغربية. كان متزوجا هناك...

- لم يكن لينطق كذبا عن أبيه!...

- تغيير الأماكن هكذا ليس سهلا كتغيير الأحزاب السياسية. لو كان الأمر هكذا، لعادت دوتي إلى سهول شرق جالواي الجميلة منذ زمن بعيد...

- والرجل الفرنسي... لكن ربما لا يوجد هنا غير شبحه...

- هذه القصة ليست أغرب مما حكاها لي بيلى اليوسطجي: أن توماس الداخل شوهد وهو يطرد العاشية من قطعة أرضه. باتريك ابن كاترينا وبيتر ابن نيل اقتساماها بينهما، لكن لا أحد منهما سعيد بهذا. تراه أسرة باتريك وأسرة نيل كل أسبوع بالتبادل. الأسبوع الذي تراه فيه أسرة منهما، لا تراه فيه الأسرة الأخرى. أحضرت نيل القس ليسير في الأرض وتلوا وابلًا من الصلوات والقليل من أناجيل القديس يوحنا، كما يقول.

- تفعلها، العاهرة الحقيرة. أمل من الله ألا تكسب أبدا قرشا أجب منها! ابني باتريك لديه الكثير من الأرض دونها...

- سمعت يا كاترينا أنك لم تمنحي جاك الفتى قليلا من السلام منذ مات...

- سيعاقبنا الرب...

- نيل قالت لتوماس الداخل إنك فزت به...

- ألم يكن بيغ بريان هو من تطارده؟

- أه يا يسوع ويا مريم ويوسف! أطارد بيغ بريان!...

- وحق دموع وجروح المسيح ألم يقل: «هو-رو يا مورين، بأحزمتك وأمتعتك...»

- ماذا قال؟

- ماذا قال يا ابن الساق السوداء؟

- ماذا قال يا بارتلي؟

- بيغ بريان يقول أشياء خبيثة... «هو-هو، يا مورين...»

- ماذا قال يا بارتلي؟...

- وحق دموع وجروح المسيح، لن يفيدك هذا بشيء يا كاترينا...

- سيفيدني يا بارتلي. قلها...

- تلك هي الهدية يا بارتلي، قل لنا...

- أه، هل تسمع الخنزيرة الحقيرة ابنة جوني؟ لا تفتح فمك يا بارتلي...

- أنت هدية من السماء يا بارتلي. قلها...

- لا تقل شيئا يا بارتلي. لا تنطق شفاك بكلمة!...

- ... صحيح يا جاك الفتى. سيعاقب الرب أي شخص على قوله أنني يمكن أن أكون عاشقة لذلك البائس القبيح...
- ... سقطت من فوق كومة شعير... هل سمعت أبدا بمعركة الجرم؟... سأحكي لك. كان كورماك بن أرت بن كون بن باسكين ذو العضلات المقتولة⁽¹⁰⁸⁾ كان يصنع كومة من الشعير ذات يوم في تارا أرض الضيافة. وكان جابهي كلاب⁽¹⁰⁹⁾ يلقي بالجرم إليه. وجاءت كتائب المعرفة السبع، وكتائب المعرفة العامة السبع وكتيبة الأحرار القاصرين...»
- ... هناك كلام كثير عن نقله. كلام كثير...
- لكن نقله لن يكون مُرضيا على الإطلاق، إلا إذا جرى بعد ذلك نبذه، وقتله أو إغراقه، أو شنقه، أو سحقه كالقطط. هذه المقبرة في حالة من الفوضى بسبب هؤلاء المرتزقة الذين ابتلينا بهم يا بيلي. قال القائل: "خذ ملعقتين من هذه الزجاجاة..."
- ربما سيجري نبذه يا جاري العزيز. أعتقد أنه قد يتعرض لهذا أيضا بعد الحلقة التي منحها لرجل من قرية دوناه منذ بضعة أيام قدم له تذكرة حمراء⁽¹¹⁰⁾. لكنني لا أظن أنه سيُعدم...
- يا الله! وما الفائدة إذا! هذا ما ينبغي أن يلحق به: أن يُخنق تحت

108- وفقا للأسطورة هو الملك الأعلى لأيرلندا، يحكمها من تل تارا في مقاطعة ميث. (من هوماس الترجمة إلى الإنجليزية)

109- شخص مشبل الحجم من العالم الآخر كان يحمض الذرة بسرعة كبيرة في معركة الحرم حتى أن جنود فرق الليفيا كانوا يتقلون بعضهم البعض في الفناء مطرّنته. يرتبط كلاب أيضا بالمهرج كورنان مارل في التقاليد الأسطورية لأيناع فيون. (من هوماس للترجمة إلى الإنجليزية)

110- شهادة لرافة كلاب إيجورية على كل عمال المندمج قنين يعملون تحت الأرض.

- بأمانة السماء، أنت حقير يا بارتلي إذا لم تقلها. هل قال إنه في كل مرة يفتح فيها عينيه يجد شبحها هناك أمامه؟...
- لو جرّوت على أن تقولها لخنزيرة آل جوني الحقيرة يا بارتلي!...
- بأمانة الله يا بارتلي، أنت حقير لدرجة فظيعة! لا بد أن تتوقف كل العلاقات الثقافية معك. دعني أرى الآن. هل قال إنه بسبب رفضه للزواج منها عندما كانت حية كانت عفريتها الآن عاشقته من الجن؟...
- رباها! أن أكون الجنية العاشقة لذلك الثرثار القبيح الشكل! أنا أحذرك يا بارتلي!...
- بصراحة يا بارتلي. هل طلبت منه عفوية كاترينا أن يلحق نقته أو يستحم أو يذهب إلى إخصائي علاج أقدام وأكتاف؟...
- وحق دموع وجروح المسيح يا نور!... وحق دموع وجروح المسيح يا كاترينا!...
- وحياتك لا تقل يا بارتلي!...
- بأمانة الله يا بارتلي!...

قدر. انظر إليّ، لقد أعطاني سما...

- قسما بالله، ألم ينصحنى بشرب الويسكي؟ لقد فعلها بالفعل يا صديقي. الوعد! لم يكن الأمر ليتمثل لي مشكلة، لكنني لم أعان قط من ألم أو وجع!...

- هل لدى جالواي فريق كرة قدم جيد هذا العام يا بيبي؟...

- فريق عظيم تماما يا جاري العزيز. يقول الجميع إنهم حتى لو لعبوا على عكازات سيفوزون ببطولة عموم آيرلندا. قالت جريدة (الراية الخضراء) هذا منذ بضعة أيام...

- كونكانون سيجعل من المدافعين عجينة في ذلك اليوم...

- كونكانون مجرد واحد من البدلاء!

- واحد من البدلاء! واحد من البدلاء! عم تتحدث إذا؟ لن يفوزوا! لن يفوزوا! لن...

- لديهم لاعبون شباب عظام. نخبة النخبة. سيفوزون يا جاري العزيز. ستري أنهم سيفوزون.

- يا الله! اخرسا! ما الفائدة من قول الهراء؟ أنا أقول لك إن لاعبيك الشباب لا يساؤون شحما في أذن ثور مخصي دون كونكانون! لم يكن الأمر ليتمثل لي مشكلة لولا قولك هذا "سيفوزون..." "سيفوزون"!

- أستمبحك عذرا يا جاري العزيز، قد يظن المرء أنك تفضل لهم أن يتهموا وكونكانون في الفريق عن أن يفوزوا وبدونه! قد يكون طعم الانتقام حلوا يا جاري العزيز. ألقى الكثيرون باللوم على كونكانون في عام 1941. وأنا لم أشعر قط بمثل هذا الغضب

الذي شعرت به ذلك اليوم في كروك بارك...

- تلك هي الحقيقة يا بيبي...

- كان بيبي دائما خدوما جدا...

- وكان يسعد قلبه أن يجلب لك الأخبار الطيبة...

- وحتى لو كانت أخبارا سيئة كانت ابتسامته العريضة أشبه بحزام أمان...

- من أرقد توماس الداخلى يا بيبي؟...

- نيل وابنة بيغ بريان وزوجة توماشين يا كييتي..

- ومن ناح عليه يا بيبي؟...

- نيل ونساء القرية يا سارة. لكنك وكييتي الصغيرة كنتما مفتقتين كثيرا. كان الجميع يقولون: «رحم الله كييتي الصغيرة المسكينة وسارة الثائرة الغليظة! ألم تكونا بارعتين في إرفاد أي إنسان والنواح عليه! لن يكون هناك أمثال لهما من جديد...»

- بارك الله في صحتك يا بيبي!...

- وحق دموع وجروح المسيح، ماذا يهم من يُرقد المرء أو ينوح عليه!...

- ... هتلق مازال يحطمهم قطعاً، بارك الله فيه!...

- إنه بيبي بلاه حسنا يا جاري العزيز، بلاه حسن...

- ماذا تقصد ببلاه حسن! ألا ينبغي أن يكون في إنجلترا الآن!...

- إطلاقا يا جاري العزيز. لكن البريطانيين والأمريكان دخلوا

- أيها الرجل الفرنسي، يا جاري العزيز، هل سمعت عن التقرير الصحفي الذي ذكر أنهم كافؤوك بوسام الصليب على بطولتك؟ ...
- *Ce n'est rien, mon ami. C'est sans importance. Ce qui c'est la libération. Vive la France! La France! ,compte (114) ... Isacrée La France! La patrie*
- أه، هل تسمع الضجة التي يثيرها هذا المخرف الحقيرا! إنه أسوأ من الأستاذ الكبير...
- اسمع يا بيلي، ألم تسمع أي حديث عن استعادتنا للسوق الإنجليزي؟...
- هل تسمع هذا المزجج من جديد؟...
- سيكون السوق الإنجليزي بخير يا جاري العزيز...
- هل تظن ذلك يا بيلي؟...
- سيكون كذلك يا جاري العزيز. لا تقلق. أقول لك إن السوق الإنجليزي سيكون بخير...
- فليرعاك الله يا بيلي! لقد انتزعت الشوكة الأليمة من قلبي بهذه الكلمات. أتعتقد حقا أنه سيكون بخير؟ لدي قطعة أرض في أعلى القرية...
- ... لقد نُشر بالفعل، ديوان أشعارك...

113- هنا هو التحرير! عاشت فرنسا! عاشت الجمهورية الفرنسية! عاش الوطن! الوطن المقدس! عاش ديجول!...

114- لا بأس يا سنيتي. لا أهمية لهذا. المهم هو التحرير. عاشت فرنسا! فرنسا! فرنسا! الوطن المقدس!...

- يا لله! ماذا؟ أنت تنشر الأكاذيب يا بيلي البوسطجي! نحن لا نثرثر عن الرياضة الآن، كما تعلم...
- لقد مرت تسعة شهور الآن يا جاري العزيز منذ كنت قادرا على قراءة الجرائد، ولا أعرف كيف يسير بهم الأمر بالضبط. في ذلك الوقت، كان الجميع يقولون إن البريطانيين والأمريكان لن يتمكنوا من وضع إصبع قدم في فرنسا يوم الإنزال في نورماندي...
- لماذا يا عزيزي بيلي؟ لماذا تعتقد أنهم سينجحون؟ لقد نفعوا للتقهر مخلفين وراهم أكواما من الجماجم على الشاطئ، مدفوعين إلى أعماق الجحيم، داخل البحر...
- صدق إذا، هذا ما أظنه يا جاري العزيز...
- وتبجحهم هتكر هذه المرة - وهو ما كان ينبغي أن يفعله في دانكيرك - وقد دخل إنجلترا قبل الآن! *Der Tag*! (111) أعتقد أنه لا يوجد رجل إنجليزي واحد باق هناك الآن...
- *Non! Non, mon ami! C'est la libération qu'on a promise. La libération! Les Gaullistes et Monsieur Churchill (112) ... avaient raison*
- أه أيها المتبجح، أيها المتعثر، أيها المتحسس الضريع...
- *C'est la libération! Vive la France! Vive la République Française! Vive la patrie! La patrie sacrée! Vive de*

111- اليوم (بالألمانية)

112- لا بأس يا سنيتي! هذا هو التحرير الذي وضعنا به. التحرير! الديموقرون والسيد تشرشل كانوا على حق...

- اسمعني هنا يا بيبي. قل لي الحقيقة الأمانة. هل هما أسودان كما يقولون؟ أسودان كخادم الإيزل الأسود الضئيل؟...
- لا تقلق يا جاري العزيز. أبعد ما يكون عن هذا...
- هل هما أسودان مثل رود إند بعد خروجه من مدخنة سخماء؟...
- قسما بروحي، ليسا كذلك فعلا...
- أسودان مثل السمكري الكبير ذي الوجه المتورم؟...
- لا تقلق يا جاري العزيز. ليسا بهذا السواد أيضا...
- أسودان مثل معطف بابة بودين الفرائي بعد خروجها من بيت كاترينا؟...
- اخرس أيها الشقي الحقيرا!...
- أسودان مثل بيج بريان في عَرَق دوار السكر؟...
- لكن عندما مثل بيج بريان أمام القاضي بعد أن دخل تبع الماء الحار في دبلن، كان مضيء الوجه مثل أي واحد من هؤلاء القديسين الصغار المرسومين على ناقذة الكنيسة...
- بيج بريان في عرق دوار السكر. في مثل هذا السواد، نعم...
- أه! في هذه الحالة، هما ليسا زنجيين على الإطلاق...
- ليس الطفلان في سواد أمهما تقريبا...
- هل اضطرروا لاستدعاء الصليب من أجل السيدة العجوز؟...
- بالتأكيد يا جاري العزيز، كانت في حالة سيئة. لم ترد السماح لهم بدخول البيت إطلاقا. تجمع أهل القرية حولهم، وكان بعضهم أكثر ميلا لرجمهم بالحجارة ومطاردتهم بعيدا. لكن، باختصار،

- النجوم الصفراء! أه! يا بيبي يا أعز الأصدقاء، أنت تمزح؟...
- لم أره بنفسي، لكن ابنة مديرة مكتب البريد أخبرتني بهذا... لا تقلق، يا جاري العزيز. سيُتشر كتابك أنت أيضا قريبا...
- هل تعتقد ذلك يا بيبي؟...
- أنا متأكد أنه سيُتشر يا جاري العزيز...
- لديك معلومات سرية إذا يا بيبي؟...
- أه، بالتأكيد، اعتدت أن أسمع بعض التنمية يا جاري العزيز. اعتدت أن أكون ودودا مع الناس هنا وهناك. ابنة مديرة مكتب البريد... أه! يا أستاذ، اهدأ، اهدأ!...
- فلتأدب أكثر من هذا قليلا يا أستاذنا!...
- أمازال هناك الكثير من المال يمكن كسبه في إنجلترا يا بيبي؟...
- لم يعد جيدا كما كان يا جاري العزيز. الطعام فظيح. وقد عاد أهالي وودي هيلسايد ومرتفعات سافي وقرية دوناه إلى ديارهم...
- أجازة وسط نباتات قراص قرية دوناه نبيلة المحنت ستكون ذات نفع لهم...
- ... ابنك وزوجته وطفلهما في البيت...
- أه! أنت تخدعني يا بيبي!...
- حاشا لله يا جاري العزيز! قسما بالإصبع المقدس الصغير!...
- والزوجة السوداء معه؟...
- نعم، بالتأكيد، والطفلان...

يا جاري العزيز، أخذوهم إلى القس ورش القليل من الماء من جرن المعمودية عليهم، وعندئذ صارت السيدة العجوز سعيدة... وهي فخورة بهم جدا الآن. وتأخذهم إلى القداًس كل يوم أحد...

- إذا كان هذا هو الحال يا بيبي، فلا مشكلة لدي في كونني ميتا. ظننت أن قلبها سيتحطم قطعاً...

- تعال هنا بيبي، هل لديك أي أخبار عن ابني، ذلك الفتى؟

- جون وبلي، فتاك يعرف جيداً من أين تؤكل الكتف. لقد اشترى مهراً منذ قليل...

- هذا خبر عظيم يا بيبي، لو كانت لديه فتاة قوية الآن...

- لا تقلق يا جوتي، مما أسمعته سيحدث هذا قريباً. امرأة من المنطقة الغربية كانت في إنجلترا. قيل لي إن لديها الكثير من المال. أخبرتني ابنة مديرة مكتب البريد أن الأستاذ الصغير سيتزوج خلال يوم قريب... نعم، تلك الفتاة التي في مكتب باري للمراهبات في برايت سيتي... القس لا يذكرها الآن على الإطلاق يا جاري العزيز. لقد أخذت العهد منذ فترة... لا تقلق يا جاري العزيز. مازالوا يتكلمون عن عمك القذ. يقول البعض إنك قمت به، ويقول آخرون إنك كنت لتفتجر...

- لينفجر الشيطان إنذا يا بيبي! تلك حقيقة الله الصادقة. أنا شريت اثنين وأربعين قديحاً...

- هل تعتقد أن مسيخاً دجالاً سيأتي قريباً يا بيبي؟...

- لا تقلق يا جاري العزيز، لا تتصور أن هذا سيحدث. لا أعتقد أن هذا سيحدث. باختصار، لم أكن لأقول إنه سيحدث...

- صدق إنذا يا بيبي، أنا أعتقد أنه سيحدث، ولن يكون هذا بعد زمن

طويل من الآن...

- سيكون هذا خيراً يا جاري العزيز. يمكنك أن تتأكد أنه سيكون خيراً...

- هل يحتاج كثير من الناس إلى مساعدة روحية يا بيبي، أم أنهم يتلون صلوات العاطلة؟

- أخبرتك كثيراً يا ابنة بيج كولم، أن تتركي أمور الهرطقة لي...

- هل تعتقد يا بيبي أن النبوءة ستتحقق؟...

- أعتقد بالفعل يا جاري العزيز. ستتحقق كلها...

- هل تعتقد أن جون كيقي في قرية دوناه يؤمن أنها ستتحقق؟...

- في رحلتي الأخيرة إلى قرية دوناه، كان أهل القرية - هؤلاء الذين لم يكونوا في إنجلترا - مجتمعين حول جون كيقي في ظل أجمة من القراص وسط البيوت، وكان هو يتنبأ...

- هل قال إن إنجلترا ستتلاشى في الهواء في كرة من النار والرماد؟

- في كرة من النار والرماد! قال إن رجال الدين سيكونون جوصى مثلهم مثل الناس العاديين. انتظر الآن... قال إنه لن يكون هناك فارق بين المرأة والرجل. انتظر الآن... انتظر الآن... قال إن القديح سيتكلف بنسبين من جديد...

- إلى الجحيم بنسائك! هل قال إن إنجلترا ستتلاشى في كرة من النار؟...

- لم يصل الأمر به إلى هذا الحد يا جاري العزيز. لم يصل إلا إلى النقطة التي جرى فيها إيقاف الرفد المعقود في السجن وأمسك بسيفه ليحرر آيرلندا. عند هذه النقطة، سلمت لهم إشعارات

ضريبة الدخل على مواريتهم...

- جون كيتي على حق. كل كلمة من نبوءته تتحقق...
- ... أنت تقول يا بيبي إن إيمون دي فاليرا سيفوز...
- هذه كذبة لعينة! بيبي قال إن ديك مولكيهي⁽¹¹⁵⁾ هو الذي سيفوز...
- كان إيمون دي فاليرا وديك مولكيهي في الكنيسة بعد القداس منذ شهر. اجتماع مشترك...
- اجتماع مشترك؟
- اجتماع مشترك؟
- بالله! اجتماع مشترك؟...
- يا خيرا! اجتماع مشترك؟...
- اجتماع مشترك بشأن خدمات الطوارئ...
- هل تحدث إيمون دي فاليرا عن الجمهورية؟...
- هل تحدث ديك مولكيهي عن المعاهدة؟...
- لم يتحدثوا عن الجمهورية ولا عن المعاهدة... باختصار، ألقى الاثنان نفس الخطبة؛ شاكرين الناس...
- آه! أفهم الآن يا بيبي! كانت تلك خدعة من دي فاليرا ليستغفل الحزب الآخر...
- تلك كذبة لعينة! بالطبع، كل ساعة قديمة متوقفة في هذه المقبرة تعرف أنها كانت خطة من ديك مولكيهي ليجعل دي فاليرا يأخذ

115- ريشارد مولكيهي حارب في القضاة 1916 وفي حرب الاستقلال، وقد لقات المؤيدة للمعاهدة في الحرب الأهلية. (من هوماس الترجمة إلى الإنجليزية)

الاتجاه الخاطئ، ألا تتفق معي يا بيبي؟...

- احترس يا بيبي! لقد بلغت سن العقل والرشاد، وتذكر إن حزينا هو الذي منحك زيادة في الأجر وعلوة. تذكر أنك كنت مجرد "مساعد رجل بريد ريفي"...
- زملائي أبناء الشعب الأيرلندي! أنا هنا اليوم!...
- لو كنت هنا في وقت الانتخابات...
- بيبي لا علاقة له بالسياسة مثلي تماما...
- أيها الجبان! عد تحت السرير...
- أيها الجلف الرخو!
- ... أين أنت يا بول؟ كان صديقك القديم يطوف حول المنطقة هنا مرة أخرى هذا العام...
- المتحمس للغة الأيرلندية! أنت تمزح!...
- ... لم يقترب من حانة بيتر الخضار على الإطلاق... لم يكن ليُخدع هناك مرة أخرى يا جاري العزيز. ليس من المحتمل أن تخدع ابنة بيتر الخضار أي أحد بعد الآن يا جاري العزيز! آه! هناك أسباب كثيرة يا جاري العزيز! قبض عليها الشرطي أحمر الشعر ذات يوم أحد مؤخرا خلال القداس الثاني. لم يكن هناك أحد من أهل وودي هيلسايد ومرتفعات سافي وقرية دونا-الذين عادوا من إنجلترا- ليس موجودا في الحانة يشرب. يقول الناس إن المتحمس للغة الأيرلندية هو من أبلغ الشرطة كي تقتحم المكان. صديقك لديه وظيفة ذات شأن كبير في الحكومة...
- لن تلعب لعبة القاعة الداخلية مرة أخرى...

- ... نسل ذوي الأذن الواحدة، أليس كذلك يا جاري العزيز؟ ذاك الفتى أصفر أبناء الخياط قُبِض عليه في إنجلترا...
- أحسنت يا بيبي! أحسنت!...
- طعن ابن ريدمان من قرية دوناه...
- آه! نفس طعنة الكلي المتوارثة طعنها لي واحد آخر من نسل ذوي الأذن الواحدة! سيُشقق...
- يقولون إنه سيُسجن...
- سيُشقق...
- يقولون يا جاري العزيز إنه من السهل شق المرء في إنجلترا بدرجة كافية. لكني لا أعتقد أنه سيُشقق مع ذلك. سيقضي بضع سنين في السجن، ربما...
- يقولون إن ابنة مديرة مكتب البريد ستقضي سنة ونصف أو سنتين في السجن أيضا... خطابات تحثوي نقودا يا جاري العزيز، لكن خطابات المتحمس للغة الأيرلندية هي التي جعلت الكلاب البوليسية من المكتب الرئيسي تتعقب راحتها...
- يا إلهي! بعد أن قضيت عشرين عاما أعلمها...
- صدقي! إذاً مديرة مكتب البريد، صدقيني يا جارتني العزيزة، لم أكن أود أن أرى أي شيء يحدث لابنتك... على رسلك يا أستاذي العزيز، اهذأ!... قسما بالإصبع الصغير المقدس يا أستاذ، لم أفتح قط خطابا لك!... آه، ربما فعلت هي يا أستاذ، لكني لم أساعدها!...
- ابني الأكبر يا بيبي، أما زال يرافق ابنة رود إند؟...

- لقد سرقتني...
- وأذا أيضا...
- صدق إذاً، لم يكن هناك شيء لأمتن لها عليه. لم يكن هناك شيء يا عزيزي. بعد نصف الكأس الثاني من الويسكي طلبت مني أربع قطع من ذات الأربع قروش، ومن نصف الكأس السادس طلبت ثمانية عشر بنسا. قسما بالله، كان صحيحا ما قاله طبيب برايت سيتي: يليق الويسكي بالأمعاء الدقيقة، بينما تليق الجعة السوداء بالأمعاء الغليظة. تسبب الويسكي الزائد عن الحد في انفجار الأمعاء الدقيقة بينما ذبت الأمعاء الغليظة من الحمى. لم أشعر بأي ألم...
- ستكون محظوظة يا جاري العزيز لو أن فتح الحانة يوم الأحد هو كل ما سيؤخذ ضدنا، لكن الناس يقولون إنها كانت تخلط زجاجات الويسكي بالماء...
- ستخسر الحانة؟...
- ربما يا جاري العزيز، ربما. لكني لا أرى هذا...
- وما الفائدة للعينة إذا؟
- ابنة جوان البياعة ستخسر رخصة تجارتها حتما. وستجري محاكمتها في المحكمة العسكرية... شاي السوق السوداء. قبض عليها الشاويش...
- الشاويش، إذاً، رغم أنها كانت تعطيه الشاي والسجائر بلا مقابل!...
- كنت سبب موتي يا جوان القبيحة!...

الصباح وأمسك ببعض الأشخاص وهم يسرقون عشبه. يقولون
إنهم أهل رود إند...

نفس الأشخاص الذين كانوا يلغون حاجبيه!...

... لا أعتقد يا جاري العزيز أن القس سيحول بمطلته بين أهل رود
إند وبين وابل المطر، حيث نال الابن حكما بالسجن ستة أشهر...

ابن رود إند؟...

ابن رود إند فعلا! هل تنسج الأكاذيب؟

وامرأة رود إند العجوز نالت تقريبا حكما بالسجن ستة أشهر
أخرى يا جاري العزيز، عقابا على استلامها لبضائع مسروقة...

طحالي البحرية المنجرفة بالتأكيد!...

ليس هذه المرة يا جاري العزيز، بل محتويات سيارة لورد
كوكتون، والتي تضم عدة صيد سمك وبنديقية وما شابه من
هذه النوعية من الأشياء. دخل بيت الإيرل في الليل وأخذ بدلات
سهرة وسراويل تنس وساعات ذهبية وعلب سجاثر... وعدة آلاف
سيجارة من محل ابنة جوان البياعة وباعها بسعر ثلاثة بتسات
للواحدة لشابات قرية دوناه. كانت غلايين الصلصال تقتلن...

كانت هذه ضربة جيدة لابنة جوان البياعة!...

ولإيرل!...

ولشابات قرية دوناه!...

ولابن رود إند، الوغد الصغير. قسما بالله، يا عزيزي، كنت دائما
أقول إنه يستحق ذلكا سارت الأمور معه بلطف وسهولة...

أعتقد هذا يا جاري العزيز. سيكون هو وابنة رود إند الكبرى في
دورة انعقاد المحكمة التالية. يقال إن ابنك الآخر...

توم...

نعم، توم. يقال إنه وابن توماشين أمسكا بهما في كومة عشبك
قبل طلوع النهار...

ابني الثاني وابن توماشين أمسكا بابني الأكبر وهو يسرق عشبه
هو نفسه من أجل ابنة سخام الطين رود إند!

كل ما أعرفه يا جاري العزيز أنه تم استدعاؤه للمثول أمام
المحكمة...

أه! فليخوزه الشيطان بضبه البارز! لقد غدا مجرد قرشاة
صغيرة في أصابع رود إند السراقة بقدرتها الهائلة على المسح
والتقشيط!...

وقد أقامت زوجتك دعوى أخرى عليهم، لوضعهم ماشيتهم في
أرضك...

الآن، بالفعل! في ليلة وضحاها! أحسنت هي أيضا! ستفوز أيضا،
سترى! أتمنى لو أزيح الابن الأكبر إلى الجحيم محمولا على الرياح
الأربعة، وأن تأتي زوجة لابني الثاني تحتني بالحيازة الكبيرة!
أتساءل يا بيلي، هل ردت أسرة توماشين الجاروف الذي استعاروه
ليستخرجوا أول دفعة من بشارير البطاطس؟...

لا أعرف هذا يا جاري العزيز... باختصار يا جاري العزيز، أسرة
رود إند تتلقى علفة من القانون حاليا. يوم الأحد قبل الماضي،
كان القس أشبه برجل عضه كلبه الصغير. نهض قبل طلوع

- كما سرق بنطلون أخت القس، لكن أحدا لم يقل شيئا عن هذا، ابن جون ويلى وبعض من صبية وودي هيلسايد رأوا ابنة رود إند ترتديه عند المستنقعات، لكنها كانت ترتدي فوقه فستانا...
- تلك البردعة التي يرافقها ابني الأكبر؟... نعم ستلتقط صورة لها الآن وهي ترتدي هذا البنطلون، كمزيد من الإغراء لابني الأكبر العييط...
- هل كانت أخت القس منزعجة عندما أرسلوا ابن رود إند إلى السجن يا بيلى؟...
- الله! ألا تعرفين جيدا يا بريد أنها كانت كذلك!
- بريد يا جارتي العزيرة، لم يلق هذا قط بظله على أصغر تجعيدة في جبهتها. قالت: «وما جدوى رجل مسجون بالنسبة لي؟ إن ابن رود إند شاب صغير عنين فاشل...»
- هل ستزوج معلم مدرسة بحيرة ديرى الآن؟...
- إن معلم مدرسة بحيرة ديرى واحد من دمياتها المكسورة منذ فترة لا بأس بها الآن. حاليا هي مع رجل أسكتلندي يعمل مصورا فوتوغرافيا في وودي هيلسايد. ويرتدي تنورات قصيرة...
- هكذا إذا! تنورات قصيرة. طيب قل لي يا بيلى: هل كانت ترتدي البنطلون عندما تكون معه؟...
- لم تكن يا بريد تري، بل كانت ترتدي فستانا. أفضل بنطلون لديها - البنطلون المخطط - كان هو الذي سرقه ابن رود إند...
- البنطلون الذي بصق توماس الداخل عليه؟...

6

- الآن بما أنك ذكرت توماس الداخل، أخبرتني ابنة مديرة مكتب البريد أن باتريك ابن كاترينا حصل على... الصبر الآن يا أستاذ! تحل بالصبر يا أستاذ!... انتظر قليلا يا أستاذ! لم أفتح قط خطابات لك يا أستاذ... اسمعني يا أستاذ. كلبان...
- تحل بقليل من الاحتشام يا أستاذ. ماذا قالت عن ابني باتريك يا بيلى؟
- أنه حصل على أموال التأمين على توماس الداخل، وأن نيل حصلت على مبلغ محترم سمين من التأمين على جاك...
- بارك الله فيك يا بيلى يا صديقي! وفقا للسان نورا جوني الأجرى، لم يحافظ باتريك على سداد الأقساط بعد موتي! منذ أن جئت إلى أرض المقبرة وهي تستخدمني كمنصقة لكل لعاب وبصاق خارج من فمها الكاذب. هل تسمعي يا ابنة جوني، يا متسولة؟ فليجرك الله خير الجزاء يا بيلى، وقل لها - قل لابنة جوني تلك الجزائة - أن باتريك حصل على...
- ... سيعاقبنا الرب على قول أشياء مثل تلك يا كاترينا...
- لكنها الحقيقة يا جاك...
- ليست كذلك يا كاترينا، لقد كنت مريضا لسنوات. أخذتني لأفضل الأطباء في يرايت سيتي، لكل واحد منهم، وقد أخبرتني طبيب

إنجليزي كان يأتي لصيد السمك هناك بالأعلى عندنا منذ ثمانية أعوام، بكّم المدة التي سأعيشها، إلى اليوم. قال: «ستعيش...»

... قلت: «نعم، أحشائي متشابكة...»

... قال: «التوى كاحك من جديد، قسما بخصيتي جالينوس المشعرتين...»

... اسمعي، لن تصدقي يا كاترينا يا جارتى العزيزة، كم أنا ممتن لابنك باتريك. لم يمر يوم أحد واحد دون أن يأتي هو وزوجته ليعوداني...

... نسل متمسخي الأقدام...

لكن يا كاترينا يا جارتى العزيزة، لا توجد قطعة طين بلا حشائش. انظري كم تغير الأستاذ! لم يكن من الممكن أن تقابلي رجلا أطف منه في رحلة حج إلى ضريح نوك...

لكن ألا ترى الطريقة التي عاملتني بها هي وتلك البائسة فيل يا بيبي؟ لقد حصلت على إنجيل القديس يوحنا من القس وألقيت بي في هذا الصندوق قبل أواني بثلاثين عاما. والحيلة نفسها جرت على جاك المسكين...

... سيعاقبنا الرب...

... حكايات زوجات عجائز يا كاترينا. لو كنت مكانك لما صدقتها...

... من الأخرى بك أن تصدقها يا بيبي، حتى لو كانت حكاية زوجات عجائز. القس قادر على...

... صدقتها مرة يا كاترينا يا جارتى العزيزة. صدقتها بالفعل، رغم

أنك لن تظني هذا بي. لكني سألت قسا يا كاترينا -قس عليم جدا- وهل تعرفين ماذا قال لي؟ قال لي يا كاترينا ما كان ينبغي أن أعرفه جيدا جدا بنفسى لولا أن الحكاية القديمة مغروسة في ذهني. قال: «كل أناجيل القديس يوحنا الموجودة في العالم لن تبقيك حيا يا بيبي اليوسطجي عندما يشاء الله أن يرسل إليك طابالا.»

... أجد من الصعب عليّ تصديق ذلك الآن يا بيبي...

... قس آخر أخبر زوجتي -الأستاذة- نفس الشيء يا كاترينا. وكان قسا مقدسا يا كاترينا؛ قس كانت عيناه الاثنان متوهجتين بالقداسة. قامت الأستاذة بكل حج ممكن في كافة أنحاء أيرلندا وأران من أجلي... انتظر الآن يا أستاذي العزيز! انتظر الآن!... توقف عن هذه الضجة الآن! ماذا كان بإمكانني أن أفعل حيال ما فعلته هي؟... قال: «من الصحيح أن تقومي برحلات الحج، لكن لن تعرفي أبدا متى تكون إرادة الرب في عمل معجزة...»

... لكن رحلة الحج شيء وإنجيل القديس يوحنا شيء آخر يا بيبي...

... أعرف هذا يا كاترينا، لكن ألا يمكن أن يكون إنجيل القديس يوحنا معجزة؟ وإذا كان الرب يريد أن يُبقي شخصا حيا، لماذا سيضطر سبحانه لجعل شخص آخر يموت بدلا منه؟ أنت لا تعتقدين يا كاترينا أنه سبحانه في عليائه لديه الكثير من الروتين الوظيفي كما هو الحال في مكتب البريد، أليس كذلك؟...

... وحق دموع وجروح المسيح، ألم يقل بيج بريان...

... قلت: هل تعتقد أن هذه حرب الأجنبيين؟...

... حان وقت استيقاظك يا صديقي!

... كانت زوجتي من ملأت الاستثمارات لباتريك يا كاترينا. انتظر يا

أستاذًا! انتظرا! حسن جدا يا أستاذي العزيز. كانت زوجتك أيضا...
تحل بالصبر الآن، يا أستاذنا! الصبرا كلبان...

... كان يوما يا بيتر الخُمار. لا تنكر ذلك...

... استمارات عن البيت يا كاترينا. ألا يبني باتريك بيتًا يسقف من
الإردواز!... نعم يا كاترينا، بيت من طابقين له نوافذ بارزة في
الحائط، وطاحونة هواء على التل لإمداده بالنور... ينبغي أن تري
النور الحكومي الذي اشتراه يا كاترينا! - تسعون رطلا. أصحاب
الماشية ممتنون جدا له. كل الثيران في المنطقة كانت ثمة من
المختئين.

وحق دموع وجروح المسيح، ألم يقل بيج بريان: "منذ أن أوقفت
إنجلترا التعامل مع ماشية دي فالعرا، ومنذ (مذبحة الأبرياء)،
صارت الثيران خجولة هكذا..."

وهو يفكر في شراء شاحنة لحمل عشب الوقود. هناك حاجة
شديدة إليها في منطقتنا. لا توجد شاحنة منذ صودرت شاحنة
بادين منه... خمسمائة أو ستمائة جنيه يا جارتى العزيزة...

خمسمائة أو ستمائة جنيه! مبلغ كهذا سيخلف ثقبًا في جيب أي
شخص يا بيبي! إنه تقريبًا نفس المبلغ الذي حصلت عليه نيل في
الدعوى القضائية...

ليس ثقبًا في جيب باتريك يا كاترينا، وخاصةً بما أنه حصل على
الميراث...

لكن كانت نيل من حصلت على المبلغ الأكبر مع ذلك...

وحق دموع وجروح المسيح، ألم يقل بيج بريان إن باتريك ابن
كاترينا لن يميز جنيتها ورقيا أكثر مما يستطيع توماس الداخل
تمييز عرق جبينه، أو...

ألا تعتقد يا بيبي أنه إذا كان هناك وابل من النقود يسقط في
طريقهم، سيفكر أحدهم في رد الجنيه الذي أعطيته لكاترينا؟...

أيها المؤخرة الحقيرة الجربانة!

... أخبرتني ابنة مديرة مكتب البريد... اهدا الآن يا أستاذنا... تلك
كذبة لعينة يا أستاذنا... لم أفتح أي خطاب...

... لا تولي اهتمامًا لوقاحتها يا نورا. تذكرني أنه كان ضابط صف
في (آلة القتل)⁽¹¹⁶⁾... لا وقت لدي الآن لقراءة الشمس الغاربة لك
مرة أخرى يا نورا. أنا مشغول للغاية بمسودتي الجديدة القمر
الخصوص. جاءتني الفكرة من كولي. كان جده قادرًا على تعقب
شجرة عائلته رجوعًا إلى القمر. وكان يقضي ثلاث ساعات كل
ليلة يتطلع إليه، وفقا لعادة أسلافنا القديمة. ومع مولد الهلال
الجديد، كان متخاره يفرزان ثلاثة أنواع من المخاط: واحد من
الذهب، والثاني من الفضة، والمخاط الغاليبي القديم...

... ما أخبرتني به يا كاترينا أن بابة قالت إنك كتبت المفضلة لديها
من بين جميع أخواتها، وأنت كتبت ستظهيرين الامتثال لها، لولا
أنت مت...

فعلت أقصى ما أستطيع يا بيبي، لكنني فشلت في أن أدفن نيل
قبلي...

ويحك يا كاترينا يا جارتى العزيزة، لعل هذا كله من أجل الأفضل.
أخبرتني باتريك وأنا وزوج... الأستاذة، أن نيل تركت له الكثير
من الحواشي والإضافات التي لم تكن من حقه على الإطلاق وفقا
للوصية. ولم تقبل إلا نصف أرض توماس الداخل منه، وصدقيتي

116 - عبارة باتريك بيرس Patrick Pearse التي وصف بها نظام التعليم الرسمي في أيرلندا تحت
الحكم البريطاني. (من عواش الترجمة إلى الإنجليزية)

عندما أقول لك إنه لا يمر يوم أحد تقريبا إلا ويعلم القس فيه إقامة قداس من أجل روحك أنت وجاك الفتى...

من أجل روحي وروح جاك الفتى...

وحق دموع وجروح المسيح، ألم يقل بيج بريان...

وروح بابة و...

... قال: «أفضل مقارنة يمكنني تخيلها من أجل بنات بودين هي كلبان أجرين رأيتهما يراقبان بغلا في سكرات الموت في قرية دوناه. أحدهما كان ينيح، محاولا إبعاد الآخر. وفي النهاية أرق نفسه كثيرا بالعواء حتى أن أحشاه كلها انفجرت في كرة من المواد اللزجة. وبمجرد أن رأى الكلب الثاني أن الغل الميت صار كله له وحده، لم يفعل شيئا إلا أن انسل مبتعدا وتركه هناك للكلب الميت...»

غاضب لأنه أفلت هذا الخيط من إبرته الحائكة! ظن أن أسرته ستضع مخالبا على كل قفوفة في الوصية!... من أجل روحي...

صديقي إدا يا كاترينا يا جارتى العزيزة، هو وابنته لا يتزلغان لئيل كما اعتادا من قبل...

لن يضيروها هذا في شيء... من أجل روحي وروح جاك الفتى...

وهو في حيرة بين أن يبقى أم يأتي يا كاترينا. لقد ذُهن بالزيت المقدس منذ فترة قصيرة...

لن يجعله ذلك أصغر سنا! فهو يبلغ من العمر ضعف عمري...

زوج... الأستاذة ذهبت لعيادته، خمني ما الرسالة التي بعثها معها لي؟...

ما يملأ القم بالمرارة والنكد... إن لم يتغير... من أجل روحي...

لم يتلق عمي المسكين أي مساعدة روحية منذ كنت أسهر عليه، أم أنك تظن يا بيبي أنه يتلو صلوات العائلة؟...

وحق دموع وجروح المسيح، ألم يقل...

كان ما قاله للأستاذة: «ستقولين ليبي البوسطجي إذا كان سيرفع أشرعته قبلي، فليخبرهم جميعا هناك أنني سأرخي أشرعتي في اتجاههم في أي لحظة. دعيه يخبر توم أحمر الشعر أنني سأنتزع ما يسد أحشاه في حالة أنه لم يسمع نصيحتي...»

لا هي ولا أي أحد آخر صار أكثر حكمة نتيجة أي شيء قلته يا بيبي. ويمكنني أن أخبرك أيضا أن القبور لها أذان...

... «ودعيه يخبر ابن الساق السوداء أن يرفع عقيرته بمقطع من أغنية عندما يسمع بمقدمي...»

«هو-رو يا مورين، بأحزمتك وأمتعتك...»

«كان لمارتين جون مور ابنة

وكانت عريضة كالرجال...»

... «ودعيه يخبر جلاتون ذاك سفاح الأقداح أنني سأقطعه شرائح كالخيزران لوضعه دائما عربته التي يجرها الحمار في حقل شعيري، منذ بدأت زوجة كوران رحلات حجها إلى المحاكم...»

وحق دموع وجروح المسيح يا بيبي، أكمل... أكمل...

... من أجل روحي ومن أجل...

هذا هو كل ما قاله يا جاري العزيز. أو إن قال، فإن زوج... الأستاذة لم تخبرني...

وحق دموع وجروح المسيح، ما فائدة أن تجعل من نفسك توم أحمر الشعر! إذا كانت ستحدث مشاكل فلتحدث المشاكل! قال:

”واجعليه يخبر حبيبتي كاترينا أنهم اضطروا لإرسال خراطيم سيارة الإطفاء الطويلة كي تطفئني بعد أن انسلقت في تبع الماء الحار في دبلن، لذا لا أخشى شيئا من مائها المغلي الآن...”

رباه! رباه! يا بارتلي يا ابن الساق السوداء! يا عزيزي بيلي! كيف لي أن أعرف أنهم لن يلقوا بهذا القبيح... الأحنف... الثرثار... الأحدب... ليتحشر إلى جوارى... أه يا بيلي يا عزيزي، أنا لا أصدق أنه استحم في دبلن... أن يُدْفَن إلى جوارى! أف! أف!... الحجرة... التكشيرة... «يمتلك الحصول على بيج بريان يا كاترينا...» أه يا بيلي، سأنفجر، سأنفجر، سأنفجر...

أه، لا خطر هناك يا كاترينا يا جارتِي العزيرة. كل شيء سيكون بخير...

لكن انظر أين دفنوك أنت نفسك يا بيلي...

لم تعرف المسكينة ما كانت تفعله... اهدأ يا أستاذنا اهدأ! لا تقلقي يا كاترينا. هذا الطفيلي مازال نضرا ومتشبثا بالحياة كالبلاب...

أمثاله لا يدومون طويلا في النهاية. يا أم المسيح المقدسة هذه الليلة! كان لدي نفور أقل تجاه خادم الإبريل الأسود الضئيل مما أحمله تحره... ما هذا يا بيلي! جثة أخرى! أه، ويلتاه إلى الأبد، يا بيلي يا أعز الأصدقاء لو كان هو. اسمع!...

أهلا يا شباب! لقد وصل جون كيتي من قرية دوناه...

المكان الذي يُدْفَن فيه هو...

بروفيسور النبوءات العظيم في العالم الغربي يموت وتوضع ججمته المتنبئة عند قدمي بارتلي...

وحق دموع وجروح المسيح، أي وسادة أفضل من أجل ججمته العجوز؟

جون كيتي، ما رأيك في العالم الآن؟ أم أنك تظن أن النبوءة ستتحقق؟...

سأنوح عليك الآن يا جون كيتي، بما يليق بمهنتك وشهرتك... واحسرتاه يا ويلتاه! واحسرتاه يا ويلتاه!...

... الله! إلى الجحيم يا جون كيتي! كف عن حديثك السخيف عن أودونيل ذي البقعة الحمراء⁽¹¹⁷⁾ هل ستقذف إنجلترا إلى الجحيم مرفوعة في الهواء وسط عاصفة من الرماد في هذه الحرب؟ هل هذا موجود في نبوءتك؟ يا ابن الساق السوداء، اعطه ركلة بقدمك الغليظة على ججمته المتنبئة...

أه! بيلي يا حبيبي!... لن يقر لي قرار في طين المقابر...

لا تقلقي يا كاترينا. لقد أمر القس برسم خريطة جديدة تماما للمقبرة. كانت امرأة رود إند العجوز تشكو مؤخرا: «ألم تكن الأمور سيئة بما يكفي بالنسبة للمكان حتى يأتي أجلاف مرتفعات سافي ويضعون ساقِي جثثهم اللينة فوق معدة رجلي العجوز الحساسة...»

أه! تلك الجثة التي لن يبقى لها تابوت ولا كفن لوقت طويل! انظروا كيف سرق مطرقتي الصغيرة!...

... كاترينا يا عزيزتي، سيوضع الصليب فوقك على أي حال...

أه! فقط لو يعجلوا بالأمر يا بيلي. لو عجلوا بإقامته قبل أن يموت السليط العجوز...

كان يستحق الانتظار يا كاترينا. كل من رآه يقول إنه جميل.

117- كتبت هناك نبوءة بأن قلنا اسمه هو أودونيل، يحمل وحة تشبه ثمرة القرولة سيوزم قوة ظهر الإنجليز في أيرلندا بعد معركة بوين عام 1690، ثمة رجل بهذا الاسم وتلك العلامة، كان ضابطا على الرتبة في الجيش الإسباني، عاد إلى أيرلندا وأطعن نفسه أودونيل ذا القمعة الحمراء، وانطلق يدعوا لتحقيق هذه النبوءة. (من مؤلفات الترجمة إلى الإنجليزية)

القس نفسه ذهب كل هذه المسافة ليلقي نظرة عليه، والأستاذ الصغير وزوج... الأستاذة، نهبا هناك يوم السبت قبل الماضي ليدققا النقش المكتوب عليه بالآيرلندية.

هل قلت هذا يا بيبي لنورا جوني وكيتي وتوم أحمر الشعر؟... آه يا بيبي العزيز، لو لم يوضع فوقتي...

سيوضع يا كاترينا، لا تقلقي يا جارتتي العزيزة. لقد كان جاهزا منذ وقت طويل، لكنهم كانوا ينتظرون أن يضعوا صليبك وصليب جاك الفتى معا...

صليبي وصليب جاك الفتى يوضعان معا...

وصليب توماس الداخل هو سبب العطلة الآن...

صليبي وصليب جاك الفتى...

يقول الجميع يا كاترينا إن صليبك ألطف من صليب كيتي وصليب نورا جوني وحتى من صليب جوان البياعة...

صليبي وصليب جاك الفتى...

إنه ألطف من صليب جاك الفتى يا كاترينا. زوج... الأستاذة تقول إنها تفضلها عن صليب بيتر الخُمار...

إنه من رخام كونيمارا يا بيبي، أليس كذلك؟...

هذا شيء لا أعلمه يا جارتتي العزيزة. لقد اشتروه من ساحة ماكورماك في برايت سيتي على أي حال...

وحق دموع وجروح المسيح، كيف كان لهذا التافه الحقيير أن يعرف، وهو راقد على ظهره طوال هذه الفترة؟...

إذا لم يكن من رخام كونيمارا يا بيبي، فهو لا يساوي قشرة جوز في نظري...

كنت أظن أن رخام كونيمارا كله قد نفذ...

أخرس أيها الشقي الحقيير!...

إنه من رخام كونيمارا!...

ليس من رخام كونيمارا!...

أقول لك إنه من رخام كونيمارا!...

أقول لك إنه ليس من رخام كونيمارا!...

ليس لديهم صلبان من رخام كونيمارا في ساحة ماكورماك. لديهم منها في ساحة موران...

آه، عم تتحدثون؟ ألم يأت صليب نورا جوني وصليب كيتي من هناك، وكلاهما من رخام كونيمارا!...

وصليب بريد تيري...

وصليب جوان البياعة...

سمعت بشكل مؤكد يا كاترينا يا جارتتي العزيزة أن الصليب الذي تصنعه أختك نيل لنفسها من رخام كونيمارا!...

... جاء الجزار الكبير من برايت سيتي إلى جنازتي. كثيرا ما قال لي إنه كان يكن لي احتراما بسبب الاحترام الذي كان يكنه والده لوالدي...

... صليب نورا جوني من رخام كونيمارا!...

... كنت في العشرين ولعبت بأس القلوب!...

... صليب كيتي...

... La Libération ...

... صليب بريد تيري... صليب جوان البياعة...

- كنت أول جثمان في هذه المقبرة. ألا تظنون جميعا أن أقدم السكان ينبغي أن يكون لديه شيء ما ليقوله؟ أطلب الإذن بالحديث إنذا! الإذن بالحديث!...
- اسمحوا له بالكلام!...
- هيا أيها الرجل الطيب! قلها!...
- ... صليب نيل...
- تكلم!...
- تكلم الآن، أيها الأبله!...
- ... لا صليبي ولا صليبيك يا جاك الفتى...
- ... بعد كل ثرثرتك طوال الإحدى وثلاثين سنة الماضية طالبا الإذن بالحديث...
- صحيح يا أستاذي العزيز! الآن أنت تتكلم! كلبان!...
- ... من رخام كونيمارا!...
- لديك الإذن بالحديث الآن، لكن يبدو أنك تفضل البقاء أبكم كالموتى...
- ... لا صليبيك ولا صليبي من رخام كونيمارا!...

النهاية

مارتين أوكاين (يُنطق اسمه الأول بمد الباء) ولد عام 1906 وقضى سنوات تكوينه في كونيمارا بمقاطعة جالواي. حصل على منحة في كلية سان باتريك في دبلن (1924-1926) عاد بعدها إلى جالواي جابلتاغت وقام بالتدريس في مدارس عديدة هناك. وفي عام 1936 أدت عضويته في الجيش الجمهوري الأيرلندي المحظور إلى فصله من مدرسة كارنمور القومية في شرق جالواي. وخلال الحرب العالمية الثانية جرى اعتقاله في معسكر كوراخ في مقاطعة كيلدير، وعند إطلاق سراحه عُين في فريق الترجمة في الدويل آيرن (المجلس الأيرلندي وهو هيئة تشريعية أدنى من البرلمان). عُين محاضرا للغة الأيرلندية في كلية ترينيتي دبلن عام 1956، وأصبح أستاذاً مساعدا عام 1967 وأستاذا عام 1969، وزميل كلية ترينيتي دبلن عام 1970، السنة التي مات فيها. أشهر أعماله هي رواية طين المقابر (1950)، لكنه نشر أيضا العديد من المجموعات القصصية.

"الرواية التي خشي من ترجمتها الكثيرون."

ذي نيويورك

في هذه الرواية الكل أموات. قد تبدو هذه طريقة غريبة لكتابة رواية، لكن مارتين أوكاين لم يكن بالكاتب المعتاد. كان تقليديا وتجريبيا في الوقت نفسه وكما أراد، والوسيلة التي اختارها كأسلوب من أجل هذه الرواية ناسبت عبقريته من ناحية والمجتمع الذي كان يصوره من ناحية أخرى. فكرة أن الأموات لا يصمتون هي ما تمنح الحياة للرواية. هذه الرواية عبارة عن تصنت لثرثرة واغتياب وشائعات وتذمر ومعايرة وشكوى ووسوسة حول أهم أمور الحياة، لكن في الأغلب حول أتفهها أيضا، وهما كثيرا ما يكونان نفس الشيء. يبدو الأمر وكأنه في الحياة الأخرى تحت التراب، تستمر نفس الحياة القديمة، غير أنه لا شيء يمكن فعله حيالها غير الكلام. من الأفضل قراءة هذه الرواية باعتبارها سيمفونية من الأصوات، رغم أن الأصوب وصفها بنشاز من الأصوات. الأمر أقرب إلى تحويل محطات راديو قديم، تسمع الآن هذه، وبعد ذلك تسمع الأخرى. وبمجرد أن تألف الأمر، تنساب القصة بإيقاع مضبوط. لذا كان من الطبيعي أن تتحول الرواية إلى مسرحية إذاعية حققت نجاحا هائلا، كما جرى تقديمها على خشبة المسرح عدة مرات، والأكثر إدهاشا من ذلك أنها تحولت إلى فيلم سينمائي من نوعية الكوميديا السوداء.

مارتين أوكاين

ولد عام 1906 وقضى سنوات تكوينه في كونيمارا بمقاطعة جالواي، وعمل مدرسا في مدارس عديدة هناك. وفي عام 1936 أدت عضويته في الجيش الجمهوري الإيرلندي المحظور إلى فصله من عمله. وخلال الحرب العالمية الثانية جرى اعتقاله في معسكر كوراخ في مقاطعة كيلدير. عُين محاضرا للغة الأيرلندية في كلية ترينيتي دبلن عام 1956، وأصبح أستاذا زميلا بها عام 1970، السنة التي مات فيها. أشهر أعماله هي رواية طين المقابر (1950)، لكنه نشر أيضا العديد من الأعمال الأدبية واللغوية المتنوعة.